الفرقان

في تفسير القرآن بالقرآن

الجزء الثامن عشر

آیة الله العظمی الدکتور محمد الصادقی الطهرانی

[www.hakim-elahi.mihanblog.com](http://www.hakim-elahi.mihanblog.com)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 7

الجزء الثامن عشر

سورة الكهف‏

[سورة الكهف (18): الآيات 1 الى 8]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلى‏ عَبْدِهِ الْكِتابَ وَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً (1) قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَ يُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً (2) ماكِثِينَ فِيهِ أَبَداً (3) وَ يُنْذِرَ الَّذِينَ قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً (4)

ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَ لا لِآبائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْواهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً (5) فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى‏ آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً (6) إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً (7) وَ إِنَّا لَجاعِلُونَ ما عَلَيْها صَعِيداً جُرُزاً (8)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 8

المحور الرئيسى في الكهف هو تصحيح العقيدة و تثبيتها و إصلاح المنهج الفكري و النظري و اقامة القيم القيّمة بميزان اللَّه، فيها ابتداء بالحمد للَّه منزل الكتاب القيم الحاوي تلكم القيم، و انتهاء بالعمل الصالح و نفي الشرك، و بينهما قصص منقطعة النظير في سائر القرآن ترأسها الكهف و تختمها قصة ذي القرنين و بينهما قصة الجنتين، و قصة موسى مع خضر، و إشارة الى قصة آدم و إبليس، و هذه القصص تستغرق احدى و سبعين من عشر و مائة من آي السورة، ثم و ما تتبقّى منها تعقيبات على قصصها و إلى بعض مشاهد القيامة و سائر الحياة ام ماذا من مذكرات هذه القصص، فإنها ليست مجرد قصص تروى، بل هي حقائق تاريخية تلقى كدروس منضجة للعقول منتجة في كل الحقول لمن القى السمع و هو شهيد.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 9

و لماذا قصة الكهف بين قصصها تختص اسم السورة بنفسها؟ لأنها كهف لمن يفر بدينه، كهف للمتمسكين بالتوحيد، المستقيمين فيه، المحافظين عليه، و التوحيد هو حجر الأساس فيما يتبناه القرآن في سوره كلها، فلتكن هذه كهفا بينها.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلى‏ عَبْدِهِ الْكِتابَ وَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً (1) قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَ يُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً (2) «الْحَمْدُ لِلَّهِ» تستغرق كل حمد من كل حامد و لكل محمود فتحصره في اللَّه، لأنه اللَّه، و تحسره عمن سوى اللَّه لأنه سوى اللَّه، ثم لأنه‏ «رَبِّ الْعالَمِينَ» كما في فاتحة الكتاب، ربوبية تكوينية و تشريعية للعالمين ككل، و هنا لأنه‏ «أَنْزَلَ عَلى‏ عَبْدِهِ الْكِتابَ» فانه كأنه هو ربوبيته كلها، فانه الغاية القصوى من خلق الكون بمن فيه العالمون، فالحمد للَّه لأنه‏ «أَنْزَلَ عَلى‏ عَبْدِهِ الْكِتابَ» كالحمد للَّه لأنه‏ «رَبِّ الْعالَمِينَ»! و «انزل» اللّامحة بنزول دفعي كما التنزيل هو التدريجي- لا يعني هنا نزوله في ليلة القدر حيث الغاية المعنية هنا «لِيُنْذِرَ .. وَ يُبَشِّرَ» لا تناسب إلّا تفصيل الكتاب المنزل، اللهم إلّا اعتبارا للكتاب المفصل أمرا واحدا طيّا عن طول الزمان و عديد النزول، بل «الكتاب» ككل.

و لماذا «على عبده» لا محمد و لا الرسول؟ علّه للتدليل على الشرط الأصيل في ذلك الإنزال التنزيل و هو العبودية القمة، فبإنزال الكتاب على عبده تحصل الرسالة!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 10

ثم و «عبده» مفردا كأنه هو عبده لا سواه، دون عبد من عباده؟

تلميحا لأنه في قمة العبودية، لا يساوى و لا يسامى‏ «قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ».

فمحمد (صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم) «عبده» كأنه فقط لا سواه، فلا نجد «عبده» في اشرف المواقف إلّا إياه‏ «نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى‏ عَبْدِهِ» «فَأَوْحى‏ إِلى‏ عَبْدِهِ» «هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلى‏ عَبْدِهِ» «أَ لَيْسَ اللَّهُ بِكافٍ عَبْدَهُ» اللّهم إلّا «ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نادى‏ رَبَّهُ نِداءً خَفِيًّا» «1» و لكن «زكريا» هنا تبين انه لولاه لما عرف ب «عبده».

و كذلك القرآن كتابه «الكتاب» كل الكتاب كأن لا كتاب سواه، كتاب في القمة ينزل على (عبد) في القمة و لأنه يحوي كل كتابات الوحي و زيادة! ثم‏ «وَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً، قَيِّماً» حالان وصفيتان، أولاهما سالبة تسلب عنه كل نقص و انحراف، و أخراهما ايجابية تثبت له كل كمال، و هذه طريقة مثلي في كل تعريف كامل و كما في أسس الإسلام‏ «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ» تخلية ثم تجلية.

و العوج فتحا هو ما يدرك بالبصر سهلا، و كسرا ما يدرك بالبصيرة، فلا يرى ارباب البصيرة في القرآن و نبيه انحرافا و اعوجاجا و فطورا:

«فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى‏ مِنْ فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَ هُوَ حَسِيرٌ» (67: 4) قُرْآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ» (39: 28) و حقيقته ان يكون فيما يصح عليه ان ينتصب، و يميل و يضطرب و يستقيم،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). على الترتيب 25: 1- 52: 1- 57: 9- 29: 26 و 19: 2.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 11

فقد يجعل اللَّه ما يتوارد عليه الحالتان فهو غير معصوم، أم لا يتوارد له الا حالة واحدة كما القرآن و نبي القرآن، فالعصمة لزامهما دون نكوب عن المنهاج و لا هوة الاعوجاج.

و القيم هو مؤكد القيام و القوام، تعنيهما «قيّما» أيا كان، قواما في نفسه إذ يهدي للتي هي أقوم، و قياما في دعوته إذ يقوّم القاعدين و يستيقظ النائمين، في سائر القرآن لا نجد قيوما إلّا اللَّه و لا قيما إلّا القرآن و قد يقرنان:

«اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ» (3: 2) فمن قيموميته نزل ذلك الكتاب القيّم، فهو قيّم كما اللَّه منزله قيوم، باق يدوم ما بقي الدهر دون تحرّف او نسخ.

فالقرآن قيّم كما نبي القرآن، والدين منهما و بينهما قيّم‏ «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ» (30: 43) «رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً. فِيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ» (98: 3) «وَ ذلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ» (98: 5) و أقوم القيّم في هذا الدين و الكتاب قمة التوحيد القيمة «أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ» (12: 40) و كما ينبو من الفطرة التي فطر الناس عليها، «ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» (30: 30).

ثم «له» في الحال الاولى تعني «عبده» و «الكتاب» على البدل، كما الجملة حال عن الإنزال، فتعني: انزل‏ «وَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً»: إنزال دون عوج، كما و منزل دون عوج: الكتاب، و منزل دون عوج «عبده» حال مثلثة عن ثلاث: إنزالا و منزلا و منزلا! و «قيما» حال مربعة، هذه، و اللَّه، فانه قيّم و إنزاله قيّم و كتابه قيّم و عبده قيم!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 12

و من العوج في إنزال الكتاب الوحي ان يشتبه بوحي الشيطان او ينسى، و من العوج في «عبده» نقصان في مثلث العصمة: تلقيا و إلقاء و تطبيقا لوحي الكتاب، و من العوج في الكتاب، تعرضه لتحريف او نسخ، او عوج له في دلالة او مدلول أما ذا «قُرْآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ».

و كما اللَّه قيم، فانزاله «الكتاب» قيم و كتابه قيم و رسوله قيم بقمة العبودية و قوامتها أمّاذا من لزامات الرسالة بالوحي.

فكل عوج من العوج عن الثلاث منفية، و كل قوامة و قيام للأربع مثبتة.

و لماذا «لم يجعل» و العبد دون اتصال بالوحي اعوج دون ان يجعل له عوج، و هو متصلا بالوحي ليس له عوج؟

و هكذا الأمر في الكتاب، و أما الأنزال فطالما العبد متصلا بالوحي ليس له عوج؟

علّ جعل العوج في «عبده» ان ينقص من كماله الرسالي كما في الكتاب من كماله في الوحي، فلان الوحي و الرسالة يقتضيان كمالا دون عوج، فلا يتصور لهما عوج إلّا ان يجعل لهما عوجا.

و ما هو الهدف في ذلك الإرسال مختصرا لا محتصرا؟: «لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَ يُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً. ماكِثِينَ فِيهِ أَبَداً».

و ترى ما هو البأس الشديد؟ و من لدن من هو؟ انه بأس شديد من اللَّه عذابا في الدنيا و أشد منه في الاخرى، و بأس شديد من رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلّم) حربا منه و محاربا هو من لدنه كعلي (عليه السلام) فانه من رسول اللَّه و حربه منه فمن لدنه: اللَّه، يعم عذابات اللَّه، و من لدن رسول اللَّه: يعم لدنه متصلا: حربه، و منفصلا محاربه الذي هو من لدنه‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فضمير الغائب راجع الى اللَّه اصالة، و الى الرسول رسالة، رجوعا بدليا الى كل على‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 13

«من لدنه» تتعلق بالمستقر المحذوف «كائنا» لينذر بأسا كائنا من لدنه، لا لينذر من لدنه لأنه من توضيح الواضح! فنتيجة عدم القوام بهذا القيّم، بأس في الحياة الدنيا و معيشة ضنك:

«مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى‏» «بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَ قُلُوبُهُمْ شَتَّى» (59: 14) ثم بأس أشد في الأخرى: «وَ اللَّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَ أَشَدُّ تَنْكِيلًا» (4: 84).

«وَ يُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ» فغير المؤمنين التاركين الصالحات ينذرون بأسا شديدا، و المؤمنون العاملون الصالحات يبشرون أجرا حسنا، فأين هم المؤمنون التاركون الصالحات؟ طبعا هم عوان بين ذلك، لا الى بأس شديد و لا أجر حسن. لهم بأس قدر ترك الصالحات، و لهم أجر قدر الإيمان و الحسنات‏ «ماكِثِينَ فِيهِ أَبَداً».

هؤلاء في بأس شديد و أولاء في أجر حسن.

و من بين المنذرين من هم من انحسهم و أسوئهم أدبا لرب العالمين:

وَ يُنْذِرَ الَّذِينَ قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً (4) ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَ لا لِآبائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْواهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً (5).

«اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً» ولادة او تشريفا «ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ» جنس العلم أيا كان‏ «وَ لا لِآبائِهِمْ» الذين هم على آثارهم مقتدون، مقلد جاهل و مقلّد جاهل في قوله جاهلة قاحلة «كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْواهِهِمْ» و لا ترتبط

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

حدّه، و من بأسهم في الاولى في التأويل ام عموم الدلالة كمصداق جلي و في بأس الحرب الامام علي (عليه السّلام) و هو من لدن رسول اللَّه كما

في تفسير العياشي عن البرقي عمن رواه رفعه عن أبي بصير عن أبي جعفر (عليه السلام) لينذر بأسا شديدا من لدنه قال:

البأس الشديد علي و هو لدن رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) قاتل معه عدوه فذلك قوله: «لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 14

بعقولهم و أفكارهم فلا تتجاوز الأفواه، فالكلمات العاقلة العالمة تخرج من نبعة العلم و مصدر العقل ثم تصل الى الفم، «إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً» ذا بعدين، حيث تناحر كلمتهم تلك لا فقط الواقع بل و عقولهم إذ «ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ»! فهناك صدق مطلق: قول يوافق مثلث العقيدة و العمل و الواقع مسنودا الى دليل بارع، و كذب مطلق: لا يستند الى علم نفسي و لا علم تقليدي و لا يوافق الواقع، و من أكذبه ما يستحيل دليلا و واقعا كالقول‏ «اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً» «إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً» تحصر قولتهم تلك في كذب على كل ابعاده، عريقا في الكذب حيث يستحيل صدقه لاستحالة واقعه و الدليل عليه.

و بينهما صدق و كذب نسبيان، كمن يقول ما لا يعتقده و لا يعمل وفقه رغم انه واقع كقولة المنافقين‏ «نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ» فانها صادقة بجنب الواقع و كاذبه في نفسه إذ لا يعتقده.

او يقول ما يعتقده و يخالف الواقع، وافقه عمليا او خالفه، و هو يعاكس قول المنافقين، فأردء دركات الكذب هو المطلق المستحيل، ثم المطلق الممكن، ثم ما يخالف العقيدة ثم المخالف للواقع، ثم ما خالفه عمله.

كما و اصدق الصدق هو المطلق الواجب ثم ما بعده نازلا فنازلا.

و القائلون اتخذ اللَّه ولدا، كاذبون في ابعاده كله: 1 لا علم لهم شخصيا 2 و لا تقليديا 3 فلا يعتقدون ما يقولون 4 و لا يوافق الواقع 5 و لن يوافقه 6 و لن يجدوا له ولدا 7 و لن يجدوا لقولهم برهانا، فهم في دركاتهم السبعة الجهنمية من كذبهم‏ «إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً»! و إنها كلمة خاوية المدلول لا تحوي معنى بأي معنى، إذ لا تدل على‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 15

واقع معتمد و لا الواقع المطلق، إذا فهي «كبرت» في الأكاذيب إذ ليس فيها إلّا كذب، معناها فظيع، و فحواها عظيم، فكبرت الكلمة كلمة تخرصا في ذات اللَّه دون تحرّس.

فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى‏ آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» (26: 3) «فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ» (35: 8) و بخوع النفس هو قتلها غما و هما، و كان الرسول (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) يتحسر على تركهم الايمان كأنه باخع نفسه، فنهاه اللَّه تعالى عن ذلك تحننا عليه و تلطفا، و ما «لعل» هنا إلّا موضع ترج لموقف الرسول (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) من دعوته لو خلي و طبعه و اللَّه ينهاه تحننا و تعطفا عليه لا انه تعالى يترجّاه و حاشاه!.

و «بِهذَا الْحَدِيثِ» هو القرآن كما و نبي القرآن حديث‏ «أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ. أَ وَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ‏ ... فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ» (7: 185) و كما اللَّه ثالث اثنين حديث: «فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَ آياتِهِ يُؤْمِنُونَ» (45: 6) و القرآن و نبيه من آياته، أحاديث ثلاثة لا تعني حدثا و لا سيما في اللَّه، و إنما ما يتحدث عنه ناصعا مبرهنا لاخفاء فيه، إلّا في القرآن و نبيه فإنهما من حديث حادث اضافة ناقصة عن حديث اللَّه غير الحادث، و من الطريف الظريف ان هذا الحديث القرآن يعم الثلاثة في بعدين، ثانيهما انه أهم حديث في القرآن حيث يتحدث عن اللَّه، و يتحدث عن نفسه و عن رسول اللَّه، تعريفات ثلاث بمثلث الحديث! و «آثارهم» هي الأثرات السيئة في الحياتين فهي من مخلّفات‏ «لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ» فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، و لا تبخع على آثارهم أسفا! .. أو ان آثارهم خلفهم، تلاحقهم لتلحقهم قاتلا نفسك‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 16

خلفهم‏ «إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا ..» ألا يا صاحب الرسالة السامية؟ أنت تؤدي واجبك ثم و ما عليك الا يهتدوا «لا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ لا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ» (16: 127) «فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَ عَلَيْنَا الْحِسابُ».

و في الحق حقيق لحامل رسالة و دعوة ان يبخع نفسه إذا قصّر في رسالته، و الرسول (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) ما قصر و لن: فلما ذا البخوع أسفا؟.

و غير حقيق له ان يبخع لماذا اللَّه ما حملهم على الهدى و هم مصرون على الردى، فان اللَّه لا يحمل أحدا لا على هدى و لا ردى، فلما ذا البخوع أسفا؟؟

و غير صحيح ان يبخع لماذا هم مصرون على الضلالة، و هو تقصير منهم لا منه فلما ذا البخوع أسفا على آثارهم: خلفهم- و على آثارهم بأعمالهم‏ «لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ» «إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ»؟

و قد بلغت و ما اهتدوا و ليس اللَّه ليهدي قوما يخالفونه الى الردى‏ «فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ»! إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (7) وَ إِنَّا لَجاعِلُونَ ما عَلَيْها صَعِيداً جُرُزاً (8).

و الناس بالنسبة لما على الأرض الزينة منقسمون الى ناس انسان، و نسناس حيوان: «يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ» (30: 7).

و هؤلاء يعلمون‏ «إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ» (29: 64)

«فمن ابصر إليها أعمته و من ابصر بها بصرته» «1»

«ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها» لا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). من وصف الامام علي (عليه السلام) للدنيا بين الناظرين إليها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 17

هي غاية للحياة عليها و لا باقية و إنما «متاع قليل ثم إلينا يرجعون»! فلما ذا «زِينَةً لَها» معاصرة للعائشين عليها دائرة؟ «لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا»! ابصارا لها فإخلادا إليها او ابصارا بها فزهدا فيها!

«ليبلوكم أيكم احسن عقلا و أورع عن محارم الله و أسرعكم في طاعة الله» «1»

حيث العاقل ينظر الى هذه الزينة الفانية إبصارا بها الى ما وراءها، لا إبصارا إليها كغاية قصوى، فهو إذا فيها ورع عن محارم اللَّه سرع في طاعة اللَّه! لا هلع و لا هرع في زينتها! و لماذا «أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا»؟ و هم القلة القليلة، لا «أسوء عملا» و هم الكثرة الكثيرة؟ لأن الهدف الرئيسي من البلاء بزينة الحياة الدنيا هو التسابق في حسنات الأعمال مهما قل أصحابها، دون سيئاتهما مهما كثر أصحابها.

و من آيات اندثارها و اندحارها «وَ إِنَّا لَجاعِلُونَ ما عَلَيْها صَعِيداً جُرُزاً».

الصعيد هو المرتفع الصاعد حيث تصبح الأرض بما عليها يوم قيامتها كتلة مرتفعة كلها، «جرزا» لا نبات فيها «2»، قاحلة لا ماء فيها و لا كلاء: «فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً. لا تَرى‏ فِيها عِوَجاً وَ لا أَمْتاً (20: 107).

فالجرز مأخوذ من «ناقة جروز» إذا كانت كثيرة الأكل لا يكاد لحياها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 4: 211 اخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم و ابن مردويه و الحاكم في التاريخ عن ابن عمر قال: تلا رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) هذه الآية:

«لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا- فقلت: ما معنى ذلك يا رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم)! قال ..

(2)

في تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) في قوله تعالى:

«صَعِيداً جُرُزاً» قال: لا نبات فيها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 18

يسكنان من قضم الأعلاف و نشط الأعشاب، ك «سيف جراز» إذا كان يبرى المفاصل و يقطّ الضرائب، فسميت ارض القيامة جرزا إذ كانت كأنها أكلت نبتها فلم تدع منه نابغة و لا تركت طالعة!.

«لنبلوهم» تلمّح ان افعال اللَّه تعالى مغيّاة لحكم و أغراض، و هنا «زِينَةً لَها» لغرض الابتلاء، فالدنيا دار بلاء برخائها و عنائها و أكثرها عناء، و الغرض الأسمى من الابتلاء التسابق في الحسنى ان يتذرعوها الى اللَّه زلفى‏ «أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا»؟ فليست السوأى أو التسابق فيها من أغراضها.

و ترى ان اللَّه يبلو عباده اختبارا و استعلاما و هو علام الغيوب، فانه يعلم السّر و أخفى؟ كلا! و إنما الابتلاء بالخير و الشر كدحا الى ربهم كدحا ليتكاملوا، و ليعلموا هم أنفسهم من هم، فعند الامتحان يكرم المرء او يهان! فاللَّه يعلم مسايرهم و مصائرهم و لكنه يبلوهم لكي يزهد من يزهد، و يزهو من يزهو، فيجزي على ما يصدر منهم فعلا، بما يحصل منهم في هذه البلوى عملا، و هنا يسكت عمن لا يحسنون صنعا حيث الهدف الاسمى‏ «أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا»؟ فلهذه الزينة نهاية محتومة، ستعود الأرض عنها جرداء لا ماء فيها و لا كلاء!.

[سورة الكهف (18): الآيات 9 الى 26]

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحابَ الْكَهْفِ وَ الرَّقِيمِ كانُوا مِنْ آياتِنا عَجَباً (9) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقالُوا رَبَّنا آتِنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَ هَيِّئْ لَنا مِنْ أَمْرِنا رَشَداً (10) فَضَرَبْنا عَلَى آذانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً (11) ثُمَّ بَعَثْناهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصى‏ لِما لَبِثُوا أَمَداً (12) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَ زِدْناهُمْ هُدىً (13)

وَ رَبَطْنا عَلى‏ قُلُوبِهِمْ إِذْ قامُوا فَقالُوا رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلهاً لَقَدْ قُلْنا إِذاً شَطَطاً (14) هؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْ لا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى‏ عَلَى اللَّهِ كَذِباً (15) وَ إِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَ ما يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقاً (16) وَ تَرَى الشَّمْسَ إِذا طَلَعَتْ تَتَزاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَ إِذا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذاتَ الشِّمالِ وَ هُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَ مَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِداً (17) وَ تَحْسَبُهُمْ أَيْقاظاً وَ هُمْ رُقُودٌ وَ نُقَلِّبُهُمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَ ذاتَ الشِّمالِ وَ كَلْبُهُمْ باسِطٌ ذِراعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِراراً وَ لَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً (18)

وَ كَذلِكَ بَعَثْناهُمْ لِيَتَسائَلُوا بَيْنَهُمْ قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّها أَزْكى‏ طَعاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَ لْيَتَلَطَّفْ وَ لا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً (19) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَ لَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً (20) وَ كَذلِكَ أَعْثَرْنا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ أَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيها إِذْ يَتَنازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْياناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلى‏ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً (21) سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَ يَقُولُونَ خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَ يَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَ ثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ما يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلا تُمارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِراءً ظاهِراً وَ لا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً (22) وَ لا تَقُولَنَّ لِشَيْ‏ءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً (23)

إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ وَ اذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ وَ قُلْ عَسى‏ أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هذا رَشَداً (24) وَ لَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَ ازْدَادُوا تِسْعاً (25) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَ أَسْمِعْ ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً (26)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 22

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحابَ الْكَهْفِ وَ الرَّقِيمِ كانُوا مِنْ آياتِنا عَجَباً (9):

ثماني عشرة آية تنزل تعريفا بقصة اصحاب الكهف، تتقدمها اية الاستعجاب من عجب قصتهم في حسبان، فآيات اللَّه كلها عجب و ليست فقط قصة اصحاب الكهف و فيها اعجب منها، و منها حسب الروايات رأس الحسين (عليه السلام) المجذوذ حيث تكلم و قرأ آيات من الكهف الى‏ «أَمْ حَسِبْتَ» فقيل: «أمرك اعجب»! «1».

و لأن «عجبا» مصدر تلمح الى ان القصة كانت في حسبان من أعجب العجب، و علّ من عجبها ترك الرسول (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) الاستثناء بمشيئة اللَّه لما سئل عنها فقال: «إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً» اطمئنانا بربه انه يوحي اليه بها، و استعجالا لجوابهم، لذلك تتقدم القصة بعد احتباس الوحي ردحا من الزمن آية التأنيب بهذا العجب‏ «أَمْ حَسِبْتَ» ف «ام» عطف على محذوف يناسب المقام ك «أ حسبت انك تملك وحي ربك فقلت: «إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً» دونما استثناء بمشيئته؟ «أَمْ حَسِبْتَ».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 242 ح 15 في الخرايج و الجرايح عن المنهال بن عمرو قال: و اللَّه أنا رأيت رأس الحسين (عليه السلام) حين حمل و انا بدمشق و بين يدي رجل يقرأ الكهف حتى بلغ قوله‏ «أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحابَ الْكَهْفِ وَ الرَّقِيمِ كانُوا مِنْ آياتِنا عَجَباً» فانطق اللَّه تعالى الرأس بلسان ذرب طلق قال: اعجب من اصحاب الكهف حملي و قتلي‏

و

في 16 في كتاب المناقب لابن شهر آشوب و روى ابو مخنف عن الشعبي‏ انه صلب رأس الحسين (عليه السلام) بالصياف في الكوفة فتنحنح الرأس و قرأ سورة الكهف الى قوله: «إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَ زِدْناهُمْ هُدىً»، و سمع ايضا يقرأ «أَنَّ أَصْحابَ الْكَهْفِ وَ الرَّقِيمِ كانُوا مِنْ آياتِنا عَجَباً»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 23

عجبا»؟ فأسرعت في وعد الجواب ام ماذا؟ «1».

لا هذا و لا ذاك‏ «إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَ زِدْناهُمْ هُدىً» ...

و إن في احتباس الوحي عن الرسول (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) لطف خفي، و آية هي أعظم و أدل على نبوته من إخباره بقصة اصحاب الكهف ام ماذا؟ فلو لم يكن رسولا ما اخرهم في طائل من الزمن‏ «2» فوحي القرآن و آياته اعجب من هذه القصص!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر ح 29 في تفسير علي بن ابراهيم القمي حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن أبي بصير عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) قال: كان سبب نزول سورة الكهف ان قريشا بعثوا ثلاثة أنفار الى نجران: النضر بن الحارث بن كلدة و عقبة بن المعيط و العاص بن وائل السهمي ليتعلموا من اليهود و النصارى مسائل يسألونها رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) فخرجوا الى نجران الى علماء اليهود فسألوهم فقالوا: اسألوه من ثلاث مسائل فان أجابكم فيها علي ما عندنا فهو صادق ثم سلوه عن مسألة واحدة، فان ادعى علمها فهو كاذب- و هي مسألة وقت الساعة- الى ان قال: فرجعوا الى مكة و اجتمعوا الى أبي طالب فقالوا يا أبا طالب ان ابن أخيك يزعم ان خبر السماء يأتيه و نحن نسأله عن مسائل فان أجابنا عنها علمنا انه صادق و ان لم يخبرنا علمنا انه كاذب فقال ابو طالب: سلوه عما بدا لكم فسألوه عن الثلاث (اصحاب الكهف- موسى و خضر- ذي القرنين) فقال رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) غدا أخبركم و لم يستثن فاحتبس الوحي عليه أربعين يوما حتى اغتم النبي (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) و شك أصحابه الذين كانوا آمنوا به و خرجت قريش و استهزءوا و آذوا و حزن ابو طالب فلما كان بعد أربعين يوما نزل عليه سورة الكهف فقال رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم): يا جبريل لقد ابطأت! فقال: انا لا نقدر ان ننزل إلّا بإذن اللَّه تعالى فانزل اللَّه عز و جل: «أَمْ حَسِبْتَ‏ «يا محمد» أَنَّ أَصْحابَ الْكَهْفِ وَ الرَّقِيمِ كانُوا مِنْ آياتِنا عَجَباً» ثم قص قصتهم فقال‏ «إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ ..».

(2) اختلفت الروايات في انه احتبس يومين او 3- 4- 12- 15- 25- او 40 و الأخير هو الأقرب كما يأتي عن تفسير القمي عن الامام الصادق (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 24

و تسلية لخاطره الأقدس تنزل عليه سورة الضحى‏ «.. ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَ ما قَلى‏ ..» و إنما احتباس الوحي كنفس الوحي وجهة من التربية الربانية.

فلقد كان الرسول زمن الاحتباس في حالة مزرية مضرعة مريبة، إذ بدر الوحي الحبيب من الحبيب مسليا خاطر الحبيب و مربيّا له‏ «أَمْ حَسِبْتَ‏ ... وَ لا تَقُولَنَّ لِشَيْ‏ءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ وَ اذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ وَ قُلْ عَسى‏ أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هذا رَشَداً» و هذا في أخريات القصة لكيلا يفاجأ في بدايتها بنص التنديد، اللهم إلّا تلميحا مليحا مريحا: «أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحابَ الْكَهْفِ وَ الرَّقِيمِ كانُوا مِنْ آياتِنا عَجَباً»؟

لا تحسب انها عجب و في آياتنا ما هي اعجب، فأنت بقرآنك و رسالتك في قمة العجب‏ «1» و لذلك تفتتح السورة بما افتتحت تقييما للكتاب و نزوله و منزله «قيما» من منزّله القيّوم فحمدا له كل الحمد «2»!.

ترى و من هم اصحاب الكهف و الرقيم، هل هم أصحاب الكهف و آخرون اصحاب الرقيم، و قد أهمل عن ذكر الآخرين؟ و هذا خلاف البلاغة في أدناها فضلا عن أعلاها! فهم جماعة واحدة تعرف بالكهف و الرقيم.

ثم الكهف معروف فما هو الرقيم؟ إنه المرقوم و علّه على باب‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 312- اخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في آية العجب: يقول الذي آتيتك من العلم و السنة و الكتاب أفضل من شأن اصحاب الكهف و الرقيم و بنفس روا من مجاهد كانوا بقولهم 1 عجب آياتنا ليسوا بأعجب آياتنا.

(2) لم يكن ذلك الحسبان من الرسول (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) بل ممن سألوه فهو من باب إياك أعني و اسمعي يا جاره، فقد كان الرسول يعيش أعجب آيات ربه و منها نفسه المقدسة بقرآنه و سنته!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 25

الكهف‏ «1» تعريفا بحالهم، و يؤيده قرن الكهف بالرقيم، رقيما للكهف بأصحابه فهما واحد كأصحابهما جماعة واحدة، لا اسم القرية التي خرجوا منها «2» فإنهم تركوا صحبتها الى الكهف فليسوا من أصحابها! اللهم إلّا اشارة الى الحالتين المختلفتين، و لكن لا تعرف لحد الآن بلدة الرقيم! او قد تجمعهما الرقيم! رقيما على باب الكهف رقم فيه مبدأهم و مأواهم! و أما ان الرقيم هو كلبهم، فذلك هتك لساحتهم انهم اصحاب كلب، او الكلب صاحبهم، ثم لا يعرف كلب رقيم، أبعد ما أهمل عن اسمائهم هنا يبرز كلبهم باسمه و هم صحبوه؟! إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقالُوا رَبَّنا آتِنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَ هَيِّئْ لَنا مِنْ أَمْرِنا رَشَداً 10 فَضَرَبْنا عَلَى آذانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً 11 ثُمَّ بَعَثْناهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصى‏ لِما لَبِثُوا أَمَداً 12.

هذه الثلاث بين الثمانية عشرة في قصتهم إجمال عن تفصيل، يضم ما فعلوه و قالوه: «إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ ..» و ما فعله اللَّه أوّلا «فضربنا ..»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 244 ح 21 العياش عن محمد عن احمد بن علي عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) في الآية قال: هم قوم فروا و كتب ملك ذلك الزمان بأسمائهم و اسماء آبائهم و عشائرهم في صحف من رصاص‏

و في الدر المنثور 4: 211 عن ابن عباس قال:

الرقيم الكتاب و عن أبي صالح قال: الرقيم لوح مكتوب و عن سعيد بن جبير قال: الرقيم لوح من حجارة كتبوا فيه قصة اصحاب الكهف و أمرهم ثم وضع على باب الكهف و عن السدي قال: الرقيم حين رقمت أسماؤهم في الصخرة كتب الملك فيها أسماءهم و كتب انهم هلكوا في زمان كذا و كذا في ملك ريبوس في سور المدينة على الباب قول هذا قول جميع اهل المعاني و العربية ثم كما يأتي احتمال آخر للرقيم انهم ثلاثة من اصحاب الكهف رقموا خالصات اعمالهم!.

(2) الدر المنثور عن ابن عباس قال: الرقيم واد دون فلسطين قريب من أيلة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 26

و أخيرا «ثُمَّ بَعَثْناهُمْ ..» طيا لهما باختصار دون احتصار: «أَمْ حَسِبْتَ‏ .. إِذْ أَوَى ..» «1» استعراضا لخطوطها الرئيسية كبراعة استهلال و من ثم التفصيل.

«إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقالُوا رَبَّنا آتِنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَ هَيِّئْ لَنا مِنْ أَمْرِنا رَشَداً» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). «إِلَى الْكَهْفِ» دون و من الرقيم من الشاهد انه ليس البلدة التي خرجوا منها ثم و لم يأت ذكرها في تفصيل القصة و على اية حال فالروايات مختلفة في انهم جماعة واحدة ام جماعتان و ظاهر القرآن الوحدة.

ثم مختلف الروايات في «الرقيم» اهو اسم البلد الذي خرجوا منه او الوادي الذي فيه الكهف او جبله او اسم كلبهم، او هو لوح من حجر او رصاص او نحاس او ذهب رقم فيه أسماؤهم و اسماء آبائهم و قصتهم و وضع على باب الكهف او داخله او معلقا على باب المدينة او في بعض خزائن الملوك، او انه لوحان، اثنى عشر وجها في الرقيم و ما في المتن هو الأنسب و اللَّه اعلم.

(2) في قصة اصحاب الكهف روايات متضاربة بعضها خلاف نص القرآن او ظاهره، و بعضها لا توافق القرآن و لا تخالفه و ثالثة توافق نص القرآن أو ظاهره و من الثالث الا في البعض من مواضيعها و من أسلمها ما

رواه القمي في تفسيره حدثنا أبي عن ابن أبي عمير عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) قال: كان سبب نزول سورة الكهف- الى قوله في القصة-: سألوا رسول اللَّه عن الثلاث المسائل فقال رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم): غدا أخبركم و لم يستثن فاحتبس الوحي عنه أربعين يوما حتى اغتم النبي (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) و شك أصحابه الذين كانوا آمنوا به و فرحت قريش و استهزءوا و آذوا و حزن ابو طالب فلما كان بعد أربعين يوما نزل عليه سورة الكهف فقال رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم): يا جبرئيل لقد ابطأت؟ فقال: انا لا نقدر ان ننزل الا بإذن اللَّه فانزل اللَّه تعالى: «أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحابَ الْكَهْفِ وَ الرَّقِيمِ كانُوا مِنْ آياتِنا عَجَباً» ثم قص قصتهم فقال: إذ آوى الفتية الى الكهف ..

قال: فقال الصادق (عليه السلام): ان اصحاب الكهف و الرقيم كانوا في زمن ملك‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 27

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

جبار عات و كان يدعو اهل مملكته الى عبادة الأصنام فمن لم يجبه قتله و كان هؤلاء قوما مؤمنين يعبدون اللَّه عز و جل و وكل الملك بباب المدينة و لم يدع أحدا يخرج حتى يسجد للأصنام فخرجوا هؤلاء بعلة الصيد و ذلك انهم مروا براع في طريقهم فدعوه الى أمرهم فلم يجبهم و كان مع الراعي كلب فأجابهم الكلب و خرج معهم.

قال (عليه السلام): فخرج اصحاب الكهف من المدينة بعلة الصيد هربا من دين الملك فلما امسوا دخلوا الى ذلك الكهف و الكلب معهم، فالقى اللَّه عليهم النعاس كما قال اللَّه: «فَضَرَبْنا عَلَى آذانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً» فناموا حتى أهلك اللَّه ذلك الملك و اهل المدينة و ذهب ذلك الزمان و جاء زمان آخر و قوم آخرون، ثم انتبهوا فقال بعضهم لبعض: كم نمنا هاهنا؟ فنظروا الى الشمس قد ارتفعت فقالوا: نمنا يوما او بعض يوم ثم قالوا لواحد منهم خذ هذه الورق و ادخل المدينة تنكرا لا يعرفونك فاشتر لنا طعاما فإنهم ان علموا بنا و عرفونا قتلونا او ردونا في دينهم، فجاء ذلك الرجل فرأى مدينته بخلاف التي عهدها و رأى قوما بخلاف أولئك لم يعرفهم و لم يعرفوا لغته و لم يعرف لغتهم فقالوا له: من أنت؟ و من اين جئت؟ فأخبرهم فخرج ملك تلك المدينة مع أصحابه و الرجل معهم حتى وقفوا على باب الكهف و اقبلوا يتطلعون فيه فقال بعضهم هؤلاء ثلاثة رابعهم كلبهم و قال بعضهم خمسة سادسهم كلبهم و قال بعضهم سبعة و ثامنهم كلبهم، و حجبهم اللَّه بحجاب من الرعب فلم يكن يقدم بالدخول عليهم غير صاحبهم فانه لما دخل عليهم وجدهم خائفين ان يكونوا اصحاب دقيانوس شعروا بهم فأخبرهم صاحبهم انهم كانوا نائمين هذا الزمن الطويل و انهم آية للناس فبكوا و سألوا اللَّه ان يعيدهم الى مضاجعهم نائمين كما كانوا.

ثم قال الملك: ينبغي ان نبني هاهنا مسجدا نزوره فان هؤلاء قوم مؤمنون فلهم في كل سنة تقلبان ينامون ستة أشهر على جنوبهم اليمنى و ستة أشهر على جنوبهم اليسرى و الكلب معهم باسط ذراعيه بفناء الكهف و ذلك قوله تعالى: «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ» الى آخر الآيات.

و هذه الرواية و هي اسلم روايات القصة قد تخالف آياتها في مواضيع.

منها ان المختلفين في عدتهم هم الذين اعثرهم اللَّه عليهم! و هم برؤيتهم على اية حال عارفون عدتهم، و «سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ ..» تحول الاختلاف في عدتهم عنهم الى الآتي!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 28

تطلبوا من اللَّه رحمة لدنية في البداية و رشدا في النهاية، و كأن «رحمة» او منها «فَضَرَبْنا عَلَى آذانِهِمْ ..»: تخلصا من جبّارهم و هم أحياء دونما حاجة الى شراب و غذاء! و كأن «رشدا» او منه‏ «ثُمَّ بَعَثْناهُمْ ..» رشدا لهم و لمن عثروا عليهم! «أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ» كما أمرهم اللَّه «و إذا اعتزلتموهم و ما يعبدون إلا الله فأووا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته و يهيئ لكم من أمرهم مرفقا» و طبعا بإلهام دون وحي، و الأوي تلمح بفرارهم في اعتزالهم عما سوى اللَّه و إيمانهم باللَّه‏ «فَقالُوا رَبَّنا ...» التماسا مما وعدهم و قد حقق لهم، و لم تكن تلك الرحمة و ذلك الرشد بالإمكان و هم بين الطغاة المستكبرين.

هنا «من لدنك» تدل على مدى هيمانهم لرحمة بعد ما لاقوا من ضغط بغيض و نقمة، رحمة لدنية عن نقمة شيطانية، ثم تهيئة فيها من أمرهم الإمر رشدا: لهم و لمن سواهم، و من رحمته‏ «زِدْناهُمْ هُدىً 12. وَ رَبَطْنا عَلى‏ قُلُوبِهِمْ 14» و من الرشد من أمرهم هدى من اهتدى بذكراهم و اقتدى بهداهم! فَضَرَبْنا عَلَى آذانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً 11 هنالك مثلث من زوايا الحياة وراء اليقظة التامة 1، نعسة يسمع فيها الأذن ضربا على البصر و هو نوم نسبي 2 و نومة لا يسمع فيها الأذن، و القلب حيّ ضربا على الأذن، حيث ينام بعد البصر، و هو نوم مطلق.

و 3 موتة عن الحياة الدنيا الى حياة برزخية ضربا على القلب، و الحياة في مثلثها هذه باقية على درجاتها، و هنالك موتة مطلقة «فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و منها نومتهم الثانية، و هم لم يموتوا و لا تحمل نومتهم حكمة و القرآن يحيل اطلاع الرسول عليهم و هم نائمون‏ «لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِراراً ..»!! و منها تقلبهم في كل سنة مرتين، و ماذا يفيدهم ذلك التقلب البعيد، و ان كان لا تضاد آية التقلب، الا انها لا تلائمها، ثم هي بعيدة في الواقع!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 29

فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ» و من ورائها حياة مطلقة «ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى‏ فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ»!.

«فَضَرَبْنا عَلَى آذانِهِمْ» هي النومة المطلقة و لكن لا كالعادة المستمرة و إنما «سِنِينَ عَدَداً»! و ترى ماذا تعني «عددا» و «سنين» و هو جمع، لا محالة عدد؟ قد تعني استقلالا لما استكثر من سنيّهم‏ «ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَ ازْدَادُوا تِسْعاً» فهنالك رقدات و موتات ام ماذا من خوارق العادات اكثر من هذا العدد.

فالسنين العدد هنا كدراهم معدودة في يوسف (20) و نفيا عن عجب القصة، «أَمْ حَسِبْتَ ..» ام و زيادة هنا هي ان سنيّهم معدودة معلومة كعددهم!.

إن الضرب التام على الأذن يسبقه نوم البصر و يقارنه نوم القلب دون موته، و قد يعبر عنه بتغشية النعاس التي هي حدث صغير من الأحداث:

«إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعاسَ أَمَنَةً مِنْهُ ..» (8: 11) و اليقظات الثلاث في الإنسان: بصرا و أذنا فقلبا لمّا تغشّى بالنعاس فهنالك يتم النوم و يطّم، و قد يستمر باستمرار سببه عاديا كما في سائر النوم، أم خارقا للعادة كما في ذلك النوم، حيث ضرب فيه على آذانهم سنين عددا حين يضرب على آذان الآخرين ساعات، فلم يكن موتا و لا كنوم الآخرين و انما نومة خارقة العادة «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و قد يعنيه «أماتهم» فيما

يرويه الطبرسي في الاحتجاج عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) حديث طويل يقول فيه: و قد رجع الى الدنيا ممن مات خلق كثير منهم اصحاب الكهف أماتهم اللَّه ثلاثمائة عام ثم بعثهم في زمان قوم أنكروا البعث ليقطع حجتهم و ليريهم قدرته و ليعلموا ان البعث حق‏ (نور الثقلين 3: 252 ح 29).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 30

فالضرب على آذانهم سنين إبطال لمفعولياتها في سنين دون صمم، و لكنما الضرب على القلب يبطل حياته فهنالك الموت و ان كان الى أمد كما في عزير و المختارين من قوم موسى أمن ذا، فهذا احسن تعبير و أشمله لرقدتهم في سنين، في حين‏ «تَحْسَبُهُمْ أَيْقاظاً وَ هُمْ رُقُودٌ» كأن لم يضرب على ابصارهم و هم مضربون عن الإبصار! فانما «ضربنا عَلَى آذانِهِمْ» فأصبحوا كمن ضرب سماخه فهو موقوذ مأموم و مشدوده مغمور «1».

ثُمَّ بَعَثْناهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصى‏ لِما لَبِثُوا أَمَداً 12.

«بعثناهم» عن نومهم فالبعث ضروب شتى و هو منها: «هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَ يَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ» (6: 60) «لنعلم» أبعد جهل؟ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عَلِيمٌ»! ام تحققا لمعلومه؟

و غير فصيح و لا صحيح ان يعبر عنه ب «نعلم»! و هما إذا كان من العلم، ام هو من العلم لنجعل مبعثهم علامة: «أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصى‏ ..» كما في أمثالها العشرة الأخرى في سائر القرآن‏ «2»؟.

و هذا هو الصحيح الفصيح.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هذه الخمسة تعني على التريب خرق الاذن- ضرب يشرف الى الموت- مشجوج- المشدوخ الرأس، المغمى عليه، ننقل هذه الجملة الجميلة عن السيد الشريف الرضى من كتابه مجازات القرآن ص 208.

(2) و هو من علم يعلم علما يعني جعل علامة (لسان العرب)، و من الشاهد عليه اضافة الى الآيات المحكمات في الحيطة العلمية الإلهية ان «نعلم يعلم» في مواردها الإحدى عشر تدخل اما على مفرد «لنعلم الصابرين منكم» او جملة كمفرد كما هنا، و هو بكسر العين يدخل على مفعولين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 31

و ترى من هما الحزبان؟ أ هما حزب الايمان اصحاب الكهف و حزب الكفر المختلفان في أمد لبثهم إحصاء؟ و لم يسبق ذكر عن حزب الكفر، و لا انهم بقوا الى بعثهم، و لا انهم عرفوا كهفهم حتى يحصوا لبثهم! ام هما من اصحاب الكهف أنفسهم حيث افترقوا فيما احصوا من لبثهم: «وَ كَذلِكَ بَعَثْناهُمْ لِيَتَسائَلُوا بَيْنَهُمْ قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ ..».

و «أحصى» فعلا من الإحصاء، فأيهما احصى و أي ما احصى، فالمحصي‏ «قالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ» عالمين انهم لبثوا ردحا بعيدا من الزمن يعلمه اللَّه، و غير المحصي‏ «قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ» ثم الأولون كملوا إحصاءهم حيث بعثوا أحدهم بورقهم فتبين لهم كم لبثوا؟

ثم و «احصى» افعل تفضيل فهما أحصيا و الأولون احصى من الآخرين، و لكن الآخرين لم يحصوا اللّهم إلّا ظاهرا من نومتهم بآية الشمس غاربة فيوم ام زائلة فبعض يوم! «1».

وجهان أولهما أوجه و لثانيهما وجه بعيد او علّهما معنيان ان الآخرين احصوا و ان كان إحصائهم لا يحسب بشي‏ء، و الإحصاء الصحيح العلم انهم لبثوا أمدا بعيدا لا نعلمه، ثم الأصح الأعلم‏ «رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ» إحصاء أو لا إحصاء غلط، ثم إحصاء صحيح، و من ثم إحصاء أصح هو من اللَّه.

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَ زِدْناهُمْ هُدىً 13 وَ رَبَطْنا عَلى‏ قُلُوبِهِمْ إِذْ قامُوا فَقالُوا رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلهاً لَقَدْ قُلْنا إِذاً شَطَطاً 14.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). قال ابو علي الفارسي «احصى» ليس من باب افعل التفضيل لان هذا البناء من غير الثلاثي المجرد ليس بقياس.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 32

الى مشهد التفصيل من قصتهم شرحا لما أجمل، أ ترى هنا تفصيلا عن كلما حصل من غث و سمين؟ و هذه حكاية تاريخية و ليست قصة! و إنما «نقص» قصا «نبأهم» فالنبأ خبر ذو فائدة عظيمة، و اللَّه يقص أنباء ما قد مضى من غيرها، اصطفاء للمفيد منها نبراسا ينير الدرب على العالمين.

هنالك في التأريخ مزيج مما يفيد: «أنباء» و ما لا يفيد أو يقل، و من المفيد ما هو حق و ما هو باطل‏ «1» و القرآن يقص منها انباء الحق‏ «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ» قصا بالحق عما هو حق مصاحبا لذكرى الحق‏ «2» حق صراح لا يشوبه باطل في أي حقل! «إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ..»: مربع من التعريف برجال القصة:

«فتية- آمنوا- زدناهم- و ربطنا» كل ذلك يربطها برباط القيام في كلمة التوحيد: «رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ‏ .. لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلهاً» ثم تزييف الشرك في ربوبيته‏ «لَقَدْ قُلْنا إِذاً شَطَطاً»! 1 إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ: الفتى هو الطري من الشباب و قد يطلق على كل طريّ شابا ام غير شاب، و كما

يروى‏ ان اصحاب الكهف كانوا كهولا «3»

و لفتوتهم في طراوة حريتهم و رجولتهم سموا فتية، و إلّا لماذا «فتية» لا أناس‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فقد يختلق امر فيه تقوية لجانب الحق و لكن الغاية لا تبرر الوسيلة.

(2) بالحق هنا حال من القص و من النباء و ظرف للقص بباء المصاحبة.

(3)

نور الثقلين (3: 345 ح 25) في روضة الكافي علي بن ابراهيم (رض) قال:

قال: ابو عبد اللَّه (عليه السلام) لرجل: ما الفتى عندكم؟ فقال: الشاب، فقال:

لا الفتى المؤمن، ان اصحاب الكهف كانوا شيوخا فسماهم اللَّه عز و جل فتية بايمانهم.

و

في الدر المنثور اخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال قال رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) اصحاب الكهف أعوان المهدي (عليه السلام)

و

في البرهان عن ابن الفارس قال الصادق (عليه السلام) و سبعة من الكهف يعدهم من اصحاب المهدي (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 33

ام رجال؟ ثم و لا اثر هنا عن مشاغلهم و مناصبهم‏ «1». إلا أنهم فتية الايمان و القيام.

«آمَنُوا بِرَبِّهِمْ» في قلوبهم بصرامة و صراحة.

3 وَ زِدْناهُمْ هُدىً‏ كما هي سنة اللَّه: «وَ يَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً» 4 وَ رَبَطْنا عَلى‏ قُلُوبِهِمْ‏ رباطا يحجزهم عن الشتات، تثبيتا لأقدامهم في هذا القيام و الإقدام‏ «وَ لِيَرْبِطَ عَلى‏ قُلُوبِكُمْ وَ يُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدامَ» (8: 11) مزيدا للإيمان: «إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْ لا أَنْ رَبَطْنا عَلى‏ قَلْبِها لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» (28: 10).

فالربط هو الشد بالرباط كربط الأسير: شده بالحبل و القدّ، ف «ربطنا» هنا يعني شددنا على قلوبهم كما تشد الأوعية بالأوكية فتنضم على مكنونها، و يؤمن التبدّد على ما استودع فيها، شددنا عليها لكيلا تنحل معاقد اصطبارها و تهفو عزائم جلدها، و لماذا «رَبَطْنا عَلى‏» و هي متعدية بنفسها؟ لأن ربط القلوب و هو رفع التمزق و التقلب في معترك الأحوال، لا يكفي استقامة ناصعة، فليربط على قلوبهم سكينة من ربهم بعد ربطها، و لكي يقوموا في معركتهم الصاخبة ضد الطاغوت و متطلباته، لا فحسب ان يظلوا على عقيدة التوحيد قاعدين فيها دون قائمين ..

فكما سألوا اللَّه‏ «آتِنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً» تعني رحمة خاصة بعد رحمتي الهدى و زيادتها، فاللَّه ربط على قلوبهم بهذه الرحمة اللدنيّة و لكي يقوموا:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في بعض الروايات‏ ان الفتية كانوا من أولاد الملوك، و في اخرى‏ من أولاد الاشراف‏ و في ثالثة: من أولاد العلماء و في رابعة انهم كانوا حماميين يعملون في بعض حمامات المدينة و في خامسة انهم كانوا من وزراء الملك يستشيرهم في أموره‏ و في سادسة انهم سبعة سابعهم كان راعي غنم لحق بهم هو و كلبه في الطريق.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 34

إِذْ قامُوا فَقالُوا رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلهاً لَقَدْ قُلْنا إِذاً شَطَطاً (14).

أ قياما في قولة جوفاء؟ و لا تحتاج هكذا قولة الى ربط على قلوبهم و الى قيام و اللَّه منها براء! بل قياما في العمق في قولة صادقة عن قلب مربوط بالايمان في توحيد اللَّه لحد يحيل الإشراك باللَّه: «لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلهاً» و لا في لفظة قول‏ «لَقَدْ قُلْنا إِذاً شَطَطاً»: مفرطا في البعد عن الحق‏ «1» أ فبعد الايمان و مزيده و بعد ان ربط اللَّه على قلوبنا نفرط في ذلك البعد السحيق من اللاإيمان؟ كلّا و لن ...

و لأن قول‏ «رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ ...» و معه قمة الايمان لا يحتاج الى قيام، فليكن قولا جاهرا بين جماهير الناكرين، في ظرف تذوب فيه القلوب و تتفتت فيه الأكباد و ترتاع له النفوس و تقشعر الجلود إذا فهو قيام في بعدي الايمان إعلانا بعد إسرار بكل صمود و إصرار، يحيل الارتجاع الى الشرك: «لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ ..» قاطعين آمال المشركين، منقطعين عن كل عمل إلّا للَّه و عن كل أمل إلّا في اللَّه! و قد تلمح «لن» ان هناك كانت عليهم ضغوط تحملهم على الإشراك بربهم!.

و لكن ذلك توحيد قائم متجاهر باهر لا يقصمه اي جابر و لا يفصمه اي مكابر، و ما يروى في إسرار إيمانهم بتقية في ظاهر الشرك مؤول‏ «2» او

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) في قوله تعالى: «لَقَدْ قُلْنا إِذاً شَطَطاً» يعني جورا على اللَّه ان قلنا له شريك.

(2)

نور الثقلين 3: 242 ح 17 في اصول الكافي علي بن ابراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن هشام بن سالم عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) قال: ان مثل أبي طالب مثل اصحاب الكهف أسروا الايمان و أظهروا الشرك فأتاهم اللَّه أجرهم مرتين.

أقول علّه ينظر الى الحالة قبل قيامهم و اظهارهم، و قوله تعالى: «إِذْ قامُوا ..» يلمح الى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 35

مطروح إذ لا توافق الكتاب، ام و تخالفه.

هؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً. لَوْ لا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى‏ عَلَى اللَّهِ كَذِباً 15 «هؤلاء» المناكيد الأوغاد «قومنا» الذين نعاشرهم‏ «اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ» دون رب السماوات و الأرض «آلهة»: طواغيت و سواهم من ملائكة او جن او انسان‏ «لَوْ لا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطانٍ بَيِّنٍ»؟ قضية القاعدة العقلية ان كل دعوى بحاجة ضرورية الى برهان عليها و سلطان يقنع العقول غير المدخولة أيا كان، و كلما ازداد المدعي محتدا و مكانة يزداد السلطان عليه بيانا و برهانا، فدعوى الألوهية بحاجة الى «سلطان بين» و ليس عندهم اي سلطان على آلهتهم فضلا عن «بين» و كفاهم كذبا و ظلما على الحق‏ «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى‏ عَلَى اللَّهِ كَذِباً»؟

إن قيامهم في مقالة التثبيت للتوحيد و التنديد الشديد بكل جبار عنيد، كل ذلك كان جهارا و بين الجماهير قبل انعزالهم عنهم، فقرروا بينهم قرارهم لما بعد انعزالهم:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

حالتهم قبل قيامهم و بعده و هم فيها كانوا موحدين، و قد يدل عليه ما

رواه العياشي عن عبيد اللَّه بن يحيى عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) انه ذكر اصحاب الكهف فقال: لو كلفكم قومكم ما كلّفهم قومهم؟ فقيل له: و ما كلفهم قومهم؟ فقال: كلفوهم الشرك باللَّه العظيم فأظهروا لهم الشرك و أسروا الايمان حتى جاءهم الفرج- و قد يعني من فرجهم قيامهم بتوحيدهم جهادا.

و

في بعض الروايات‏ انهم أظهروا المخالفة و علم بها الملك قبل الخروج، رغم البعض الآخر انه لم يعلم الا بعد خروجهم، و في ثالث انهم تواطئوا على الخروج فخرجوا و في رابع انهم خرجوا على غير تعارف و على غير ميعاد ثم تعارفوا و أنفقوا خارج البلد، و في خامس ان راعي غنم لحق بهم و هو سابعهم و في بعضها انه لم يتبعهم و تبعهم كلبه و سار معهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 36

وَ إِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَ ما يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقاً 16.

هنالك اعتزال عنهم و ما يعبدون حيث لا تنفع دعوتهم إلّا ملاحقتهم و الضغط عليهم، فاعتزال الاختفاء احتفاظا على أنفسهم ثم أويا الى الكهف‏ «يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ» رحمته الّلدنّية التي التمسوها منه، و هل رحمة مطوية تنشر و مكنونة تظهر، و الرب لا يكنّ و يطوي رحمته عمن يأهل، و إنما إسباغها ظاهرة منشورة لا مستورة، إذا فنشرها هو ايتاءها كما تطلّبوها «آتِنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً» ثم‏ «وَ يُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقاً»: ما يرتفق به و يعتمد عليه فيكون لظهوركم عمادا و لأعضادكم سنادا.

أجل و ان الكهف الضيق الخشن المظلم لهؤلاء الفتية هو منتشر الرحمة و مرتفق النعمة، إذ يأوون اليه و يلجأون بايمانهم، و لكنما البلد و هم بين أهليهم في بحبوحة من عيشة الحياة الدنيا، هو لهم نقمة و مصيبة إذ ليس لهم فيه راحة الرّوح و الرضوان و فسحة الايمان! فإذا الكهف الضيق البعيد عن الحياة لهم فيه فسحة و حيوية تتسع خيوطها و تمتد ظلالها و يشملهم بالرفق و اللين و الرخاء، حيث الحدود الضيقة تنزاح و الجدران الصلدة ترق و الوحشة الموغلة تشف.

ذلك الكهف الحصين أملهم كما يوسف الصديق يفر من البلاط الى السجن: «رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَ إِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَ أَكُنْ مِنَ الْجاهِلِينَ».

هنا في قصة الآوين الى الكهف روايات، تقول طائفة منها انهم كانوا ثلاثة هم اصحاب الرقيم، و هي لا تلائم القرآن إلّا ان يكونوا هم من اصحاب الكهف و قد رقموا خالصات أعمالهم نجاتا من الحجر المؤصد عليهم من كهفهم، ثم لحقهم الآخرون بعد ما نجوا، فكلهم أصحاب‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 37

الكهف و الأوّلون يزيدهم انهم اصحاب الرقيم، و قد يعمهم الرقيم بعد اختصاصه في وجوه مضت إمّا ذا؟ «1».

و فعلا نشر لهم ربهم في فجوة الكهف من رحمته اللدنيّة و هيّأ لهم من أمرهم مرفقا، حيث آمنهم في كهفهم و ضرب على آذانهم بكل تلطّف و تعطّف، ثم بعثهم ليعرفوا رحمته و يلمسوا مرفقه، و ليعلم آخرون‏ «أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ» رحمة و مرفق يتخطاهم الى اعماق الزمان و المكان، طيّا لبعديهما، و هديا بقصتهم في إذاعات كتابات السماء و القرآن العظيم.

لا يهمنا اين كهفهم و أيان؟ و قد نتلمح ما لمحنا إياه القرآن:

وَ تَرَى الشَّمْسَ إِذا طَلَعَتْ تَتَزاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَ إِذا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذاتَ الشِّمالِ وَ هُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَ مَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِداً 17.

تعريفان اثنان بكهفهم ثانيهما «وَ هُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ»: فسحة من كهفهم، و فسحة من طلوع الشمس و غروبها، دون ان تؤذيهم بنورها و نارها، فانما تفيدهم بضوئها، فجوة و فسحة دون تضايق لا بكهفهم و لا شمسهم، رحمة و مرفقا من أمرهم! و اوّلهما «إِذا طَلَعَتْ تَتَزاوَرُ .. وَ إِذا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ»: و هنا نتلمح‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 246 ح 28 في كتاب كمال الدين و تمام النعمة باسناده الى محمد بن إسماعيل القرشي عمن حدثه عن إسماعيل بن اعبل عن أبيه عن أبي رافع عن النبي (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) حديث طويل قال فيه‏ بعد ان ذكر عيسى ثم يحيى بن زكريا ثم العزيز ثم دانيال ثم مكيخا ابن دانيال- و ملوك زمانهم فعند ذلك ملك سابور بن هرمز اثنين و سبعين سنة و هو اوّل من عقد التاج و لبسه و ولى امر اللَّه عز و جل يومئذ و هو الشواء بن مكيخا و ملك بعد أردشير أخو شابور سنتين و في زمانه بعث اللَّه الفتية اصحاب الكهف و الرقيم و ولي امر اللَّه في الأرض يومئذ دستجا بن لشوا بن مكيخا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 38

موقعهم من الكهف و موقع الكهف نفسه.

و التزاور أصله الميل من الزور: الصدر- لا الزيارة، فترى الشمس تميل عن كهفهم كما يميل المتزاور عن الشي‏ء بصدره و وجهه؟ يبين بذلك عن موضع الكهف المشار اليه من جهات المشرق و المغرب ان الشمس لا يلحقه ثوبها عند شروقها، و لا ينفض عليه عند غروبها حيث تجوزهم عادلة بمطرح شعاعها عنهم، او انها تعطيهم القليل من شعاعها عند مرّها بهم ثم تسترجعه عند انصرافها عنهم، تشبيها بقرض المال الذي يعطيه المعطي ليسترده، و يقدمه ليرتجعه.

فلم يكن الكهف- إذا- شرقيا ذات اليمين فتشرق في العمق، و لا غربيا ذات الشمال فتغرب عن العمق، و انما طلوع تزاور ذات اليمين ميلا عنه، و غروب قرض لهم ذات الشمال، إذا فليكن له باب نصف شرقية و اخرى نصف غربية، الشرقي الشمالي، و الغربي الجنوبي، و لكي ينطبق على الجغرافية المستفادة من الآية. فلا تحرمهم الشمس و لا تحرقهم، و انما تشرقهم، دون حدة المقابلة لا شرقية و لا غربية. و هذا ينطبق على الكهف الواقع قرب عمان الأردن‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هو على ما في الميزان 15: 297 كهف رحب على مسافة ثمانية كيلو مترات من عمان الأردن قرب قرية رجيب، في جبل محفورا على الصخرة في السفح الجنوبي منه و أطرافه من الجانبين الشرقي و الغربي مفتوحة يقع عليه شعاع الشمس منها و باب الكهف يقابل جهة الجنوب و في داخله صفة صغيرة قرابة ثلاثة امتار في مترين و نصف متر على جانب من سطحه المعادل لثلاثة في ثلاثة تقريبا و في الغار عدة قبور على هيئة النواويس البيزنطية كأنها ثمانية او سبعة، و على جدرانه نقوش و خطوط باليوناني القديم و الشمردي منمحية لا تقرء و صورة كلب مصبوغة بالحمرة و زخارف و تزويقات اخرى.

و فوق الغار آثار صومعة بيزنطية تدل النقود و الآثار الاخرى المكتشفة فيها على كونها مبنية في زمان الملك جوستينوس الاول 418- 427 و آثار اخرى تدل على ان الصومعة بدلت‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 39

ام كان شرقيا و غربيا حسب البابين، و لكنه لطوله و هم في فجوة منه تشرق فيه الشمس ذات اليمين و لا تصلهم، و تغرب عنهم الشمس قرضا و قد مستهم بخفيف ضوءها و لطيفه، فينطبق على كهف آخر «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

ثانيا مسجدا بعد استيلاء المسلمين على الأرض، مشتملا على المحراب و المأذنة و الميضاة، و في الساحة المقابلة لباب الكهف آثار مسجد آخر بناه المسلمون في صدر الإسلام ثم عمروه و شيدوه مرة بعد اخرى، و هو مبني على انقاض كنيسة بيزنطية كما ان المسجد الذي فوق الكهف كذلك.

و كان هذا الكهف بالرغم من الاهتمام بشأنه كما تدل آثاره متروكا منسيا متهدما حت اهتمت دائرة الآثار الاردنية أخيرا (سنة 1963 م المطابقة (1342) و الف في ذلك متصدية الاثرى الفاضل «رفيق وفا الدجاني» كتابا سماه اكتشاف كهف اهل الكهف نشره سنة 1964- 1343.) بحفره و تنقيبه فاكتشفته فظهر بعد خفائه قرونا عدة، و هنالك أمارات و شواهد اثرية على كونه هو كهف اصحاب الكهف:

يقول في اكتشاف الكهف انه الكهف الذي ورد ذكره في الكتاب العزيز و يذكر انطباق الأمارات المذكورة فيه و سائر العلائم التي وجدت هناك على هذا الكهف دون كهف افوس و الذي في دمشق او البتراء او اسكاندنا فيه و استقرب فيه ان الطاغية الذي هرب منه اصحاب الكهف فدخلوا الكهف هو «طراجان الملك 98- 117 م لا دقيانوس الملك 249- 251 الذي ذكره المسيحيون و بعض المسلمين و لا دقيانوس الملك 285- 305 الذي ذكره بعض آخر من المسلمين في رواياتهم و استدل عليه بان الملك الصالح الذي بعث اللَّه اصحاب الكهف في زمانه هو «ثئودوسيوس» الملك 408- 450 بإجماع مؤرخي المسيحيين و المسلمين و إذا طرحنا زمان الفترة الذي ذكره القرآن لنوم اصحاب الكهف و هي 309 سنين من متوسط كلم هذا الملك الصالح و هو 421 بقي 112 سنة و صادف زمان حكم طراجان الملك و قد اصدر طراجان في هذه السنة مرسوما يقتضي ان كل عيسوي يرفض عبادة الإلهية يحاكم كخائن للدولة و يعرض للموت.

(1). و هنالك كهوف اخرى مثل كهف بحبل قاسيون بالقرب من الصالحية بدمشق الشام ينسب الى اصحاب الكهف و انا زرته و عله في الدرجة الثانية من محتملات الكهف، و ثالث‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 40

و أيا كان كهفهم فموضوع البحث هم أنفسهم إذ كانوا من آيات اللَّه في قيامهم و لبثهم في كهفهم و تزاور الشمس عن كهفهم إذا طلعت و قرضهم إذا غربت و تقليبهم ذات اليمين و ذات الشمال: «ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَ مَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِداً».

و ترى من ذا تعني «ترى»؟ أهو الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و لم يطلع عليهم عيانا كما تلمح «لو»: في‏ «لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ»! ام غيره؟

فأحرى ألّا يطلع فيرى! ام هو بيان الحال إن كان هناك من يرى لرأى الشمس .. او «ترى» خطاب لمن يرى، تلميحا ان هناك من سوف يكشف الكهف فيرى، او ان الرسول رآه و لم يطلع عليهم و لعله أحرى، اضافة الى من يرى، مهما لن يروا «أَيْقاظاً وَ هُمْ رُقُودٌ» بعد ما اعثر عليهم فيما مضى، فان رؤية الشمس تزاور تكفيها رؤية الكهف، و هي بسيطة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

بالبتراء من بلاد فلسطين ينسب الى اصحاب الكهف و رابع هو كهف أفسوس مدينة خربة اثرية واقعة في تركيا على مسافة 72 كيلومترا من بلدة ازمير و الكهف على مسافة كيلومتر واحد من إفوس قرب قرية «اياصولوك» بسفح جبل «ينايرداغ» و هو كهف وسيع فيه- على ما يقال- مئات من القبور مبنية من الطوب و هو في سفح الجبل و بابه متجه نحو الجهة الشمالية الشرقية و ليس عنده اثر من مسجد او صومعة او كنيسة، و هو الأعرف عند النصارى و ورد ذكره في عدة روايات إسلامية، و خامس اكتشف- على ما قيل- في شبه جزيرة اسكاندنا فيه من الاوروبة الشمالية عثروا على سبع جثث غير بالية على هيئة الرومانيين يظن انهم اصحاب الكهف.

و ربما يذكر كهوف اخرى منسوبة الى اصحاب الكهف كما يذكر ان بالقرب من بلده نخجوان من بلاد قفقاز كهفا يعتقد اهل تلك النواحي انه كهف اصحاب الكهف و كان الناس يقصدونه و يزورونه، و الكهوف غير الرومانية من هذه الست نقطع انها ليست لأصحاب الكهف لان القصة رومانية و لم تبلغ سلطتهم في ايام مجدهم نواحي اوروبة شمالية و قفقاز.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 41

للرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و هي غير رؤيتهم المستحالة ب «لو» فإنهم قضوا نحبهم.

وَ تَحْسَبُهُمْ أَيْقاظاً وَ هُمْ رُقُودٌ وَ نُقَلِّبُهُمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَ ذاتَ الشِّمالِ وَ كَلْبُهُمْ باسِطٌ ذِراعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِراراً وَ لَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً 18.

«وَ تَحْسَبُهُمْ أَيْقاظاً» حيث العيون مفتحة لا غامضة، مهما كانت حالتهم غامضة، «وَ هُمْ رُقُودٌ» حيث «ضربنا عَلَى آذانِهِمْ» «وَ نُقَلِّبُهُمْ» طول مكوثهم المديد «ذاتَ الْيَمِينِ» من شمائلهم‏ «وَ ذاتَ الشِّمالِ» من ايمانهم، تقلبا دائبا جنبا الى جنبه كيلا تأكلهم الأرض بطول المكوث، كيقظة اوتوماتيكية، و «كلبهم» طول هذه المدة «باسِطٌ ذِراعَيْهِ بِالْوَصِيدِ»: فناء الكهف و بابه، أحيّا يرصدهم؟ أم راقدا كأمثالهم؟ لا أثر عن رقدته في آياتها، فليكن يقظانا يرقبهم و هو آية في هذه الآيات‏ «1»! حالتهم المنقطعة النظير بين موت و حياة و يقظة و رقدة تولّي المطّلع عليهم فرارا و تملأه رعبا.

و ترى ذلك الحسبان مستمر الى زمن الرسول (صلى اللَّه عليه و آله‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 251 ح 36- القمي حدثني أبي عن الحسين بن خالد عن أبي الحسن الرضا (عليه السلام) انه قال: لا يدخل الجنة من البهائم الا ثلاثة: حمارة بلعم و كلب اصحاب الكهف و الذئب و كان سبب الذئب انه بعث ملك ظالم رجلا شرطيا ليحشر قوما من المؤمنين و يعذبهم و كان للشرطي ابن يحبه فجاء ذئب فأكل ابنه فحزن الشرطي عليه فادخل اللَّه ذلك الذئب الجنة لما احزن الشرطي.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 42

و سلم) و لحد الآن حيث‏ «تَحْسَبُهُمْ أَيْقاظاً وَ هُمْ رُقُودٌ» «1» فهم حتى الآن و حتى متى! و لا ندري! نائمون؟ و لماذا تلك النومة الطويلة بعد القومة عن الأولى و لا خبر عن هكذا نوّم ليستدل بهم علي‏ «أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها»! أم انه حكاية لحال ماضية؟ قد تلمح لها «لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ» حيث تحيل ذلك الاطلاع، و لو كانوا في حالتهم الى زمنه كان (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) أحرى من يطّلع عليهم، و إلّا فما هي الحكمة في بقاءهم نائمين و لن يطلع عليهم الرسول (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) المطّلع على كل مطّلع هو مطلع لرسالته كسائر مطالعها! و الهدف من هذه الآية الإلهية الاعثار عليها «وَ كَذلِكَ أَعْثَرْنا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ أَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيها» و لا عثور عليهم بعدهم لحد الآن، فلا حكمة في نومتهم حتى الآن و منذ اعثر عليهم! «2» .. ثم الآية «لَوِ اطَّلَعْتَ ..»

تتحدث عن حالتهم قبل بعثهم فتنقطع إذا ببعثهم، و اما انهم ارجعوا الى نفس الحالة ام ماتوا فلا دلالة هنا على اي منهما، إلّا استدلال على موتهم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في رواية القمي عن الامام الصادق (عليه السلام) الماضية: «فأخبرهم صاحبهم انهم كانوا نائمين هذا الزمن الطويل و انهم آية للناس فبكوا و سألوا الله ان يعيدهم الى مضاجعهم نائمين كما كانوا ..

(2) في الدر المنثور عن ابن عباس قال: غزونا مع معاوية غزوة المضيق نحو الروم فمررنا بالكهف الذي فيه اصحاب الكهف الذي ذكر اللَّه في القرآن فقال معاوية: لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم فقال له ابن عباس: ليس ذلك لك قد منع اللَّه ذلك عمن هو خير منك فقال‏ «لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِراراً وَ لَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً» فقال معاوية: لا انتهي حتى اعلم علمهم فبعث رجالا فقال: اذهبوا فادخلوا الكهف، فانظروا فذهبوا فلما دخلوا الكهف بعث اللَّه عليهم ريحا فأخرجتهم فبلغ ذلك ابن عباس فانشأ يحدث عنهم ...

أقول: لو كانت الرواية منسوبة الى المعصوم لما كنا نصدقها حيث لا توافق القرآن او تخالفه، فضلا عن ابن عباس!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 43

بما استدللنا، و الكهوف المكتشفة لحد الآن دليل واقعي على انهم ليسوا بنائمين‏ «1».

و قد يعني‏ «لَوِ اطَّلَعْتَ» غير الرسول (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) فانه لا يولي فرارا من آية إلهية و لا يملأ منها رعبا «2» إم إنها تحيل الاطلاع عليهم لأنهم أموات و ليسوا نياما، ثم تولّي الفرار و الرعب على فرض الاطلاع لسواه دونه!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في كتاب سعد السعود لابن طاووس نقلا عن تفسير أبي إسحاق ابراهيم بن محمد القزويني باسناده الى انس بن مالك قال: اهدي لرسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) بساط من قرية يقال لها بهندف فقعد عليه علي و ابو بكر و عمر و عثمان و الزبير و عبد الرحمن بن عوف و سعد فقال النبي (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) لعلي: يا علي! قل يا ريح احمل بنا فقال علي (عليه السلام): يا ريح احمل بنا فحمل بهم حتى أتوا اصحاب الكهف فسلم ابو بكر و عمر فلم يردوا السلام ثم قام علي (عليه السلام) فسلم فردوا عليه السلام فقال ابو بكر: يا علي ما بالهم ردوا عليك و لم يردوا علينا؟ فقال لهم علي (عليه السلام) فقالوا: انا لا نرد بعد الموت الا على نبي او وصي نبي ثم قال علي (عليه السلام: يا ريح احملنا فحملنا ثم قال: ضعينا فوضعتنا فركز برجله الأرض فتوضأ علي (عليه السلام) و توضأنا ثم قال: يا ريح احملينا فحملتنا فوافينا المدينة و النبي (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) في صلاة الغداة و هو يقرأ «أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحابَ الْكَهْفِ وَ الرَّقِيمِ كانُوا مِنْ آياتِنا عَجَباً» فلما قضى النبي (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) الصلاة قال: يا علي اخبروني عن مسيركم ام تحبون ان أخبركم؟ قالوا: بل تخبرنا يا رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) قال انس بن مالك: فقص القصة كأن كان معنا.

(هامش نور الثقلين 3: 248- 2249).

(2)

في تفسير العياشي عن محمد بن سنان البطيخي عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) في الآية قال: إن ذلك لم يعن به النبي (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) انما عني به المؤمنون بعضهم لبعض لكن حالهم التي هم عليها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 44

وَ كَذلِكَ بَعَثْناهُمْ لِيَتَسائَلُوا بَيْنَهُمْ قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّها أَزْكى‏ طَعاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَ لْيَتَلَطَّفْ وَ لا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً 19.

«و كذلك» الذي فعلنا من آيات خوارق للعادات في الضرب على آذانهم سنين عددا و تقليبهم فيها ذات اليمين و ذات الشمال، و تزاور الشمس عنهم، و قرضها إياهم: «كَذلِكَ بَعَثْناهُمْ» آية اخرى‏ «لِيَتَسائَلُوا بَيْنَهُمْ» عن مكثهم و بعثهم كغاية أولى لأنفسهم، و من ثم لمن سواهم: «وَ كَذلِكَ أَعْثَرْنا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ أَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيها ..»!

تساءلا بينهم ينبههم بإجابة المقال و الحال ان للحق دولة و للباطل جولة، أنهم يفركون أعينهم من هذه النومة الطائلة الثقيلة فيسأل سائلهم‏ «كَمْ لَبِثْتُمْ»؟ و لأنه لا يدري كم لبثوا، فيأتي الجواب‏ «لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ» ترددا لهم كلهم، أو اختلافا بينهم في «يوم او بعض يوم» إجابة دون تعمق و تأنّق، تلوح من ظاهر النوم: ثقيلا بعض يوم، ام أثقل فيوم او ان «يوما» بتخيل انهم استيقظوا في مثل الوقت الذي ناموا فيه صباحا او مساء ف «يوما» او اخطأوا المثل فظنوا المساء صباحا او الصباح مساء و قد ناموا خلافه ف «بعض يوم» و النوم يقتضي هكذا تردّد في امده و حدّه، او انهم ناموا غدوة و بعثوا آخر النهار فظنوا انهم لبثوا يوما، فلما رأوا الشمس باقية قالوا «أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ» و لذلك تقدم «يوما» على‏ «بَعْضَ يَوْمٍ» ام ماذا؟

«قالوا» جماعة آخرون و علّ السائل منهم فطرفان، ام ليس منهم فثلاثة «رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ» فلسنا نحن له بعالمين، إذ نتلمّس خارقة في نومتنا لم نلمسها في سائرها حيث الشعور طويلة كما الأظفار، و الوجوه متغيرة، ما لا يحصل في أية نومة، فلا يوم و لا بعض يوم! و ليس «اعلم»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 45

هنا فقط تأدبا فإنه ليس قولا و رأيا ثانيا يجعل قائليه حزبا ثانيا، و لا انه إحصاء ثان‏ «لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصى‏» و إلّا لقالوا «ربكم اعلم بما لبثنا» لا «رَبُّكُمْ»! إنما «اعلم» لأن لنا بعض العلم بأمد لبثنا اعتبارا بمظاهرنا، ثم لا نعلم أمدنا إحصاء تاما بل‏ «رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا ..»

و من لطيف الأمر في هذه الحوار انها تلمح انهم لم يكونوا اقل من سبعة: «قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ» فواحد «قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ» أقلهم ثلاثة فانها اقل الجمع‏ «قالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ» كذلك اضافة الى جمعي «كم و تم» حيث يؤكدان جمع الأوّل كما ان «قالوا» دليل الجمع الثاني! و إذا حصرت الأقوال في عدتهم في: ثلاثة- خمسة- سبعة، فالأولان مرفوضان و الثالث متعين، و لا سيما بما يأتي من رجم الغيب لهما دونه‏ «1» و هذا هو شأن المؤمن: «ربنا اعلم» فيما لا يعلم، ام يعلم و لا يستيقن، و كيف يعلم ما يعلمه اللَّه من أمره الذي لا يعلم؟ يحاول بما عنده من وسائل ليعلم و منها هنا: «فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ..»

يتبين لكم من نومكم‏ «يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ» ام دهرا طويلا قضي على‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هنا احتمالات ست- 1- «قالَ قائِلٌ» واحد «قالُوا لَبِثْنا ...» ثلاثة «قالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ» ثلاثة و المجموع سبعة- 2- «قالوا» في كل اثنان، أحدهما في الثانية هو القائل الأوّل فالمجموع اربعة، ام ليس هو هو فخمسة، او «قالوا» في أحدهما اثنان و في الآخر ثلاثة، واحد من الثاني هو الاول فخمسة ام لا فستة، فالأربعة و الستة خلاف الأقوال الثلاثة في الآية (32) و الخمسة تخالف ظاهر الجمع انه ثلاثة فما فوق، فالمتعين هو السبعة حيث الاول‏ «قائِلٌ مِنْهُمْ» ليس في «قالوا» الثانية و هو لا ينافي في‏ «أَيُّ الْحِزْبَيْنِ» فانه ليس حزبا و لا داخلا في اي الحزبين تأمل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 46

السلطات الطاغوتية في المدينة، فان كانت السلطة باقية «لْيَتَلَطَّفْ وَ لا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً»: و الظاهر انها باقية باغية! و إن لا، فلا حائطة و لا تقية! ترى و ماذا يحملهم ان يبعثوا أحدهم بورقهم ليأتهم برزق من المدينة و هم يحذرون ان ينكشف أمرهم؟ فهلا صبروا على جوع حفاظا على أنفسهم جميعا! و هم يعلمون‏ «إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَ لَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً» و إنها للخسارة الكبرى! علّهم و صلوا من الجوع لحد لا تصبّر عليه إلّا الموت صبرا، فهم إذا بين موت معمّد جماعي قاطع، و بين تعريض واحد منهم لخطر يحتمل، و هو طبعا ممن يتستر في أمرهم و يستّرهم دون إشارة إليهم مهما بلغ أمره، حيث التلطّف هو التخفي الكامل، و من ثم لو عرفوه فلا يتجاوز نفسه إليهم: «وَ لا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً».

راى صائب ثاقب حصيلة شورى بين هؤلاء الأكارم القائلين: «رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ» فيه كل حائطة على المبعوث بورقهم و عليهم، تتبين من‏ «فَلْيَنْظُرْ أَيُّها أَزْكى‏ طَعاماً» أيّ المدينة ازكى .. حيث يحمل سيرا رفيقا حثيثا في المدينة يتعرف فيه إليها و الى أهليها ليطمئن إليها هل هي كما كانت فحذرا، ام تغيرت الى الايمان فأمانا، و من ثم ليحصل على أزكى طعام فيها إذا ظلت في إشراكها باللَّه، فليس لموحد ان يتطعم من مشركين طعاما يحلّلونه خلاف شرعة اللَّه، و اما عند الضرورة «فَلْيَنْظُرْ أَيُّها أَزْكى‏ طَعاماً» تقليلا لرجاسة الطعام الشركية كتقليل الطعام لبلغة الحياة: فالضرورات تبيح المحظورات و تقدر بقدرها! و من جهة اخرى فالأزكى طعاما من المدينة هو الأزكى أخلاقا فلا يتجسس عن خبايا الناس، و لا يتحسس لصالح الطاغوت مهما كان مستضعفا في حكم الشرك، فهذه ابعاد ثلاثة من المصالح في‏ «فَلْيَنْظُرْ أَيُّها أَزْكى‏ طَعاماً ..»!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 47

و «أَزْكى‏ طَعاماً» هنا تشمل زكاة الحل و زكاة الطهارة و الطيبة قدر الإمكان فما لا يدرك كلّه لا يترك كله‏ «فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (5: 3) و منه في‏ «فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ» راجع الى الورق و الى الطعام، رزق من الورق دون زيادة عليه و ان كان النقص منه، و رزق من الطعام كبلغة الحياة دون زيادة عليها و لا اقل منها.

و من ثم تتبين هذه الحائطة من «و ليتلطف» تكلّفا لإخفاء امره، و رفقا ولينا في المعاملة تجنبا عن المشاجرة التي هي من اسباب التفتيش عنه فعنهم و وا ويلاه! «وَ لا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً» إن شعروا به ام ماذا؟ فليكن صلبا صلدا لا يمد الى احد شعرة و اشعارا فشعورا مهما أفرغت عليه الضغوط و لحد الموت، حفاظا على ايمانه و على دماء و نفوس الآخرين:

إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَ لَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً 20.

الظهور على هو التطلع علما و واقعا، فليس العلم بهم دون الوصول إليهم ظهورا عليهم، و لا الوصول إليهم دون علم بهم ظهورا عليهم، إنما هو الوصول المطلع كما «الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلى‏ عَوْراتِ النِّساءِ» تعنيه، فلا علم الطفل دون بلوغ الحلم بعورات النساء يكفي فرض الحجاب عنهم، و لا الوصول الى عوراتهن دون علم انها مواضع الشهوات يكفي، و انما الظهور على العورات علما بها و امكانية الوقاع! إن أشعر هذا المبعوث بكم، تخللوه الى العلم بكم اطلاعا عليكم و هم بعاد، ثم التطلع عليكم حتى تصبحوا في قبضتهم فيقع المحظور بين أن «يرجموكم» قتلا فضيحا منفورا مطرودا، و لكي يشتركوا فيه كلهم إذا كانوا كلهم مشركين، ام و أشد تنكيلا «أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ» حملا على الإشراك و ان في ظاهر الحال حيث العقيدة لا تقبل الإكراه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 48

هنا يتقدم الرجم لأنه ظاهر الحال العاجلة من السلطة المشركة التي كانت في طلبهم و هم على ما هم من تصلّب العقيدة و تصلّدها، و من ثم لو نجوا عن الرجم فإعادة الى ملتهم و هي أشد من الرجم و أنكى!.

ترى و إذا اتقوهم في ظاهر الحال مسايرة عملية مع الحفاظ على ايمانهم أ ليسوا إذا مفلحين؟ و لكنما الدخول في جوّ التقية دونما إكراه ضلال، حيث يقضي على عمل الايمان، و من ثم القضاء يتسرب للقضاء على نفس الايمان، حيث التعوّد المسيّر على ترك واجبات الايمان و فعل محرماته، مما يجرف تدريجيا الى ترك الايمان و ليسوا هم بطبيعة الحال ممن يكتفي منكم بظاهر ادعاء العودة في ملتهم بعد ما قمتم قومتكم في رفضها، إلّا ان يراقبوكم رقابة تامة في القيام بطقوس الشرك و ترك التوحيد بكل مظاهره.

«إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ‏ .. وَ لَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً» أن‏ «يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ» و كذلك ان «يرجموكم» حيث الظهور عليكم المخلف وراءه رجمكم إلقاء لأنفسكم بأيديكم الى التهلكة! فلو ماتوا جياعا خير لهم من ان يذهبوا ضياعا: رجما انتهاريا ام عودا في ملة الشرك اختياريا حيث الامتناع بالاختيار لا ينافي الاختيار! و ليس طلب البلغة و البقية للحياة مما يسمح لالقاء النفس الى التهلكة رجما ام عودا في ملة الشرك، اللّهم الا بحائطة قاطعة ان‏ «لا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً»، و لو شعروا فلا نتحمل إلّا رجما! و اعادتهم في ملتهم دليل على أنهم كانوا على ملتهم ثم استبصروا و كما نتلمحه من «إذ قاموا فقالوا ربنا الله لن نشرك به أحدا» أو أنهم كانوا لردح من الزمن يسايرونهم في ظاهر الشرك تقية نقية اضطرارية، و العودة الى هذه الحالة اختياريا عود في ملة الشرك و ان كان ظاهريا و هذا أظهر من العودة قضية كونها كالبدأة و لا عودة اضطراريا الى عقيدة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 49

فعلى المؤمن الفرار من جو الضلال و التقية، ثم ليس له الرجوع الى ذلك الجو إلّا لمرجح أهمّ، او الإقدام على ما يحتمل الرجوع اضطراريا لواجب أهم رعاية للحائطة، فلا تقية «إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ» (16: 106) و هنا يذهب الايمان و يذوب و ليست تقية إكراه حيث التسبب الى الانحصار في مجتمع الكفر و الانحسار عن خالص التوحيد كان نتيجة الاختيار، و أرض اللّه واسعة تفرض على المؤمن الفرار بإيمانه، فكيف الرجوع الى جو اللّاإيمان: «إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ قالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قالُوا أَ لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها فَأُولئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ ساءَتْ مَصِيراً. إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَ النِّساءِ وَ الْوِلْدانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَ لا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا. فَأُولئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ، (4: 99).

هكذا نشهد مشهد فتية الايمان إذ يتناجون فيما بينهم حذرين غير عارفين بكرور الأيام و مرور الأعوام، فقد دارت عجلة الزمان فتعاقبت اجيال و اختلفت أميال، فمدينتهم التي هاجروها تغيرت عوالمها و معالمها، و دالت دولات المتسلطين عليها و قصة الفتية تناقلتها الأخلاف عن الاسلاف على تعارض الأقاويل حولهم.

و من ثم الآن اهل المدينة مؤمنون، شديدو الحفاوة بالفتية المؤمنين، و بعد ما رأوا واحدا منهم بصورة و سيرة اخرى و بورق آخر مرت عليه الزمن:

وَ كَذلِكَ أَعْثَرْنا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ أَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيها إِذْ يَتَنازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْياناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلى‏ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً (21) الإعثار هو الاطلاع مضمّنا مصادفة الشي‏ء من دون طلب له و لا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 50

إحساس به و أصله ان الساعي في طريقه إذا صك قدمه او نكب إصبعه شي‏ء ففي الأغلب انه يقف عليه متأملا له فكأنه استفاد علمه دون ان تتقدم معرفته به، و كذلك أعثرهم اللّه عليهم.

«و كذلك» الذي حصل من آيات أصحاب الكهف: «ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ» تتلوها آية اخرى هي ان «أعثرنا» أهل المدينة «عليهم» لأمرين اثنين للذين عثروا، بعد امر هام لأصحاب الكهف «ليتساءلوا» امر اوّل‏ «لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ» و ثان: ليعلموا «إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ ..»

و هل «ليعلموا» اصحاب الكهف؟ و هم كانوا على علم بحق الوعد لهم و ان الساعة آتية! اللهم إلّا عين اليقين بما رأوا من وعد اللّه الحق في أمرهم الرشد و المرفق، و عين اليقين بما رأوا من بعثهم بعد نومتهم التي هي كانت كموتة! كذلك و «ليعلموا» من اعثروا عليهم نفس العلم مهما اختلفت الدرجات، و ليعلم من يسمعها، ف «ليعلموا» يشملها و سائر من يعلم قصتهم على مر الزمن.

ترى انه أعثر عليهم و هم أحياء؟ فلما ذا «يَتَنازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ» و لهم أن يسألوا أصحاب الكهف أمرهم! و كيف «قالوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْياناً» و هم بعد أحياء! ام أعثر عليهم بعد ما ماتوا فقد سدل الستار على مشهدهم لعرض مشهد آخر و بينهما فجوة متروكة فيها موتهم؟ فللتنازع في أمرهم هنا موقع، و لبناء بنيان عليهم هنا معنى! أم بين ذلك عوان، أعثر على أحدهم المبعوث الى المدينة حيا و هو طبيعة الحال المعلومة من القصة، و من ثم أعثر على الباقين ميتين و «الَّذِينَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 51

غَلَبُوا عَلى‏ أَمْرِهِمْ» انما غلبوا بمبعوثهم على أمرهم من طول شعوره و أظفاره و من قديم ملابسه و قديم ورقه و لهجته و مواجهته دون ان يشعر هو بشي‏ء من ذلك اللّهم إلّا حالته الظاهرة التي لا تخفى على ذي حجى!، ام اعثر عليهم و هم أحياء، و فور العثور أماتهم اللّه، فلم يبق لغلب على أمرهم مجال اللّهم إلّا من مبعوثهم لجماعة خصوص اختصوا بالغلب به على أمرهم؟

حقا لا يستفاد من آيات القصة أنهم اعثروا عليهم بعد موتهم! و ليس في هكذا إعثار علم‏ «أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها» إلا أن يروهم أحياء عن نومتهم، ثم اماتتهم عن حياتهم في رقدتهم.

و لا نعلم بموتهم فور العثور عليهم دون إمهال إلّا من خلال‏ «إِذْ يَتَنازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ» و «ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْياناً»! و ذلك إعثار مثمار أن يشهدوا مشهد أصحاب الكهف أحياء و أمواتا، ف «يعلموا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ» فيما حقق لهم و في إتيان الساعة، و يعلموا «أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها».

و أما أن يشهدوهم أمواتا فلا معلمة فيها، اللّهم إلّا إعثارهم على مبعوثهم فقط حيّا، و هذا لا يلائم تنازع أمرهم بينهم و بناء بنيان عليهم أم هو بعيد! «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في بعض روايات القصة انهم لما هربوا و اطلع الملك على أمرهم افتقدهم و لم يحصل منهم على اثر، و في بعض انه وجدهم نياما في كهفهم فأمر ان يبنى على باب الكهف بنيان ليحتبسوا فيموتوا جياعا عطشى فبقوا على حالهم حتى إذا أراد اللّه ان ينبههم بعث راعي غنم فخرب البنيان ليتخذ حظيرة لغنمه و عند ذلك بعثهم اللّه أيقاظا و كان من أمرهم ما قصه اللّه، و في بعض انه لما ظهر أمرهم أتاهم الملك و معه الناس فدخل عليهم الكهف فكلمهم فبينا هو يكلمهم و يكلمونه إذ ودعوه و سلموا عليه و قضوا نحبهم و في بعض انهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 52

ترى و ما هي مادة التنازع في أمر أصحاب الكهف بين هؤلاء الذين أعثروا عليهم؟ هل هي أمر مكوثهم الخارق للعادة؟ فطائفة منهم تغامضوا عن كونها آية للبعث و ان الساعة آتية لا ريب فيها فقالوا «ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْياناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ» بنيانا يخفي أمرهم، فنحن لا ندري من أمرهم شيئا فلنجعله في زمرة المجاهيل المغافيل‏ «قالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلى‏ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً» ليكونوا عبرة للزائرين و معبدا للساجدين، دليلا على التوحيد وَ أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها» و هم الموحدون الذين عرفوا أمرهم، لا السلطة الزمنية إذ لا تختص بهذه الغلبة دون الشعب، و السلطات الزمنية في الأغلبية الساحقة مهدمة المساجد لا معمرتها، ثم و من يجرأ على المنازعة مع السلطة مع تقديم الرأي ضد السلطة، فانما هم الغالبون على أمر اصحاب الكهف قضية قوة الايمان! و مادة اخرى بين الذين غلبوا على أمرهم، و تنازعوا فيها رغم الوحدة في آية نومهم، هي أمد لبثهم أمّاذا من أمرهم و من ثم التنازع في عدتهم، و طبعا لمن لم يغلب على أمرهم و من أظهره عدتهم:

سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَ يَقُولُونَ خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَ يَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَ ثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ما يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلا تُمارِ فِيهِمْ إِلَّا مِراءً ظاهِراً وَ لا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً (22).

فيما مضى عرفنا من حوار اصحاب الكهف في‏ «كَمْ لَبِثْتُمْ» انهم لم يكونوا باقل من سبعة، و هنا نتأكد أنهم سبعة، فان‏ «رَجْماً بِالْغَيْبِ» ترجم القولين دون السبعة، ثم لا رجم على‏ «وَ يَقُولُونَ سَبْعَةٌ» فلو كان مثلهما،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

ماتوا او ناموا قبل ان يدخل عليهم الملك و سدّ باب الكهف و غاب عن ابصارهم فلم يهتدوا للدخول فبنوا هناك مسجدا يصلون فيه- أقول و لا نقول إلّا ما يوافق القرآن و قد نتحمل ما لا يخالفه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 53

لردف بهما في‏ «رَجْماً بِالْغَيْبِ» ام لو كان المرجوم أحد الأولين فقط لاختص هو بالرجم دون الآخر، و هذه من بلاغة الكلام القمة و لباقته ان يذكر القول الحق بين الأقاويل دونما تصريح به لكي يحث على التفكير، و يبتعد عن التنكير النكير، حيث الاصطدام بين القائلين و الاحتدام بين الأقوال لا يخلي اي مجال لقول صراح، اللّهم إلّا تلميحة هي ابلغ من تصريحة.

و الرجم بالغيب أصله الرمي بالحجارة الى مرمى مجهول لا يدري الرامي أ يصيب هدفه ام يخطأ، و قد لا يكون له هدف، ثم استعير لكل قذف بالظن و الحسبان، و القول بغير علم، و من عادة العرب ان تسمي القائل من دون علم راجما و قاذفا، كما تسمي السابّ الشاتم راميا راجما، و يقال: هذا الأمر غيب مرجّم، اي: يرميه الناس بظنونهم و يقدرونه بحسبانهم.

فالراجم بالغيب كالراجم الذي لا يعلم مواقع أحجاره المرمية اين وقعت، فتارة يمنة و اخرى يسرة، و هنا «رَجْماً بِالْغَيْبِ» يرجم «ثلاثة و خمسة» على ما في القولين من سوء التعبير «رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ‏ .. سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ» كأن كلبهم منهم، فالأربعة او الستة كلهم كلاب، ام كلهم أو أدم، دونما عطف لكلبهم عليهم، يدل على المغايرة، كما يدل على ردفه بهم، و لكنما القول الثالث‏ «وَ يَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَ ثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ» فيه رعاية الأدب بواو العطف، فردف الكلب بهم دون عطف يجعل جملة الكلب صفة لهم او حالا منهم ف «رابعهم كلبهم و سادسهم» وصفان ل «ثلاثة و خمسة» او حالان، و فيه إزراء بساحة فتية الايمان و مس من كرامتهم، و العطف يخرجها عن وصفهم او حالهم حيث يفيد الردف بين متغايرين متوافقين، تغايرا في الكيان و توافقا في المكان، فكلبهم منهم حيث ردفهم يرصدهم، و ليس منهم فهم فتية آمنوا بربهم و هو كلبهم! فحيث وقعت الواو انقطعت العدة و ثبت انهم سبعة و ثامنهم كلبهم بالقطع‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 54

و الثبات! حيث العطف يجعل المعطوف عليه مستقلا عنه، محورا أصيلا للكلام، و ترك العطف يجعلهما في نطاق واحد! و كأن الأقوال حول عدد أصحاب الكهف منحصرة في هذه الثلاث ام هي أشهرها، في غابر الزمن و حاضر الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و قد عثر على عدة من الكهوف و الغيران و على جدرانها تماثيل رجال ثلاثة او خمسة او سبعة و معهم كلب.

وصف القولان الأولان ب «رَجْماً بِالْغَيْبِ» و الأخير اضافة الى العطف العطوف ب «قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ما يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ» تدليلا على ان قائله من هذا القليل، و كيف عرف القليل هذا الغيب إلّا بوحيه و ها هو وحيه يلمح لمحة مليحة بعدتهم- فان‏ «قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ» تجهيل لجماعة و هم القائلون‏ «ثَلاثَةٌ .. خَمْسَةٌ» و تبجيل لآخرين عالمين‏ «وَ يَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَ ثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ» و إنهاء لعلمه الى رب العالمين: «رَبِّي أَعْلَمُ».

كما و «ما يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ» تبجيل لهذا القليل ثانيا، و الرسول أفضل هذا القليل كما و يلمح اليه‏ «قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ» فلم يقل اللّه اعلم، انما «ربي» بما علمني و رباني! و من ثم آخرون يتبعونه، و نحن من هذا القليل، و كما بعض الأصحاب الأقدمين يعد نفسه منهم‏ «1» و نفي العلم ب «ما» دون «لا» في ما يعلمهم الا قليل. نفي للحال فاستثناء للقليل في الحال: ان القليل يعلمونهم الحال. فضلا عن الاستقبال! فأحرى من يعلمه هذا القليل هو الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) حيث اوحي اليه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). منهم ابن عباس كما اخرج عنه عبد الرزاق و الفريابي و ابن سعدون ابن جرير و ابن المنذر و أبي حاتم من طرق و اخرج مثله عن الطبراني في الأوسط بسند صحيح عنه و منهم ابو مسعود كما أخرج عنه ابن أبي حاتم (الدر المنثور 4: 217).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 55

«وَ يَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَ ثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ».

ثم و علم القليل قد يشمل عدتهم و أسماءهم، كما يروى عن علي (عليه السلام) أسماؤهم‏ «1» و اللّه أعلم بعدتهم و أسماءهم، و هذا القليل يعلمهم بما علمهم ربهم، و كما علمنا هنا عدتهم.

و إذا القائلون عن عدتهم بين راجم بالغيب و بين صادق‏ «فَلا تُمارِ فِيهِمْ إِلَّا مِراءً ظاهِراً وَ لا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً» .. فلما ذا المراء الباطن و أنت من هذا القليل العالمين بهم بما علمك ربك، و لماذا تستفتيهم، و الراجم منهم بالغيب لا يستفتي و الصادق يستفتيه إذ لا يعلمهم و أنت تعلمهم! و المراء الظاهر هو الخالي عن العمق و الاستبطان، و أصل المراء من مريت الناقة إذا مسحت ضرعها للحلب، و تسمى الجدال مراء لما فيها من إصرار المماري بالبحث ليفرغ خصمه كل ما عنده من الكلام فينتهي عنه.

فترك المراء معهم فيهم تجهيل لنفسه، و المراء الباطن المستبطن استعلام ممن يجهل، او و ممن يعلم و هو (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يعلم فلما ذا يستعلم؟ و المراء الظاهر مماراة و مدارات احتسابا لما أوحى إليه ربه فحسبه ربه تعليما له و مراء معهم!.

ثم المراء غير ممدوح في باطنه دون ظاهره، و ان كان في حق و الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) زعيم بيوتا في الجنة لمن ترك المراء و ان كان محقا «2»

«إياكم و المراء و الخصومة فإنهما يمرضان القلوب على الإخوان‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في تفسير روح المعاني ج 15: 246 و روي عن علي كرم اللّه وجهه‏ ان اسمائهم:

يمليخا و مكشلينيا و مثلينيا و هؤلاء اصحاب يمين الملك، و مرنوش و دبرنوش و شاذنوش و هؤلاء اصحاب يساره و كان يستشير الستة و السابع الراعي و اسم كلبهم قطمير و ذكر العلامة السيوطي في حواشي البيضاوي ان الطبراني روى ذلك عن ابن عباس في معجمه الأوسط بإسناد صحيح.

(2)

نور الثقلين 3: 253 446 في كتاب التوحيد باسناده الى إسماعيل بن أبي زياد عن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 56

و ينبت عليهما النفاق‏ «1»

و

«لا تمارين حليما و لا سفيها فان الحليم يغلبك و السفيه يؤذيك‏ «2».

و التماري حول عدد الفتية لا طائل وراءه فسواء أ كانوا ثلاثة او خمسة او سبعة اما زاد او نقص، فما يعلم عدتهم الا اللّه و القليل الذين حضروا محضر الكهف في زمته، و الذين عرفهم اللّه، فلما ذا التماري إذا إلا مراء ظاهرا، و العبرة في أمرهم حاصلة بالقليل و الكثير، و القرآن يلمح بعدتهم دون تصريح، تنبيها بعدم العناية بعددهم و انما المعني به عددهم، صيانة للطاقة العقلية ان تبدد في ما لا يفيد، و توجيها لها إلى ما يفيد، و ألّا يمارى راجم الغيب إلا مراء ظاهرا دون تعميق و لا تعقيب، فهذا حدث تاريخي طواه الزمن و هو من الغيب الموكول الى علم اللّه او من علّمه اللّه، فلما ذا التماري فيه او الاستفتاء!؟.

فالمراء محظور و ان كان في حق، اللهم إلّا مراء ظاهرا يقف على حق‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

جعفر بن محمد عن آبائه (عليهم السلام) قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): انا زعيم ببيت في أعلى الجنة و بيت في وسط الجنة و بيت في رياض الجنة لمن ترك المراء و ان كان محقا

و

فيه عن اصول الكافي باسناده قال: قال النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) ثلاث من لقي اللّه عز و جل بهن دخل الجنة من اي باب شاء: من حسن خلقه و خشي اللّه في المغيب و المحضر و ترك المراء و ان كان محقا

و

في كتاب الخصال عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: من يضمن اربعة باربعة أبيات في الجنة .. و ترك المراء و ان كان محقا.

(1). المصدر ح 41 في اصول الكافي بسند عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال قال امير المؤمنين (عليه السلام): ...

(2) اصول الكافي باسناده الى عمار بن مروان قال قال ابو عبد اللّه (عليه السلام): ...

و

في كتاب الخصال عن جعفر بن محمد عن أبيه (عليهما السلام) قال: قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): اربع خصال تميت القلب: الذنب على الذنب و كثرة مناقشة النساء يعني محادثتهن و مماراة الأحمق تقول و يقول و لا يرجع الى خيرا بدأ الحديث.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 57

و يقطع دابر الباطل بمرونة و ليونة، بمطالبة الدليل، فإذا لا دليل فلا مدلول، حيث المدعي لشي‏ء بحاجة الى دليل دون النافي سنادا الى عدم الدليل.

كما الرجم بالغيب محظور في قياس و سواه، فآية الرجم ترجم القياس في الأحكام و أحرى من القياس كل ظنة في غير الأحكام، و كما الآيات الحاصرة كل اتباع بعلم او أثارة من علم، الحاذرة كل اتباع بغير علم إلّا إذا كان مسنودا إلى علم.

وَ لا تَقُولَنَّ لِشَيْ‏ءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً (23) إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ وَ اذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ وَ قُلْ عَسى‏ أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هذا رَشَداً (24).

موضوع النهي هنا «إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً» استقلالا للمشية فيما يعده الإنسان و يريده في مثلث من التأكيد: «اني- فاعل- غدا» تحديدا لزمن الفعل و تأكيدا ذا بعدين في أصله، ف «إن» توكده و «فاعل» الدالة على الثبات تثبته، و اما ان يقول «سأفعل غدا» ام «سأفعل» او «افعل» على مختلف مراتب التحتم في هذه الثلاث نازلة، فالنهي لا يشمله، اللهم إلا ان «لا تقولن» تنهى مؤكدا عن هذه الصيغة المؤكدة، فيبقى النهي دون تأكيد في هذه الثلاث متدرج النزول ف «لا تقولن- ام- لا تقل ... إلا ان يشاء الله».

فلا يعمه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) لا تصريحة النهي المؤكد إذ لم يقل‏ «إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً» و لا نهيه دون تأكيد في الثلاث الاخرى إذ لم يقل: سأفعل او افعل، و انما تلميحة في خامسة الأضلاع «تعالوا غدا» و حسنات الأبرار سيئات المقربين! «لا تَقُولَنَّ ...» مهما شملت رسول الهدي، ليس إلا نهيا في تصريحته ألّا يفعل، لا انه فعل و هنا ينهى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 58

«لا تَقُولَنَ‏ .. إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ ..»: ربطا لمشيئتك بمشية اللّه، و أنت أيا كنت و في اي موقف لا تملك إنفاذ مشيئتك المعلومة عندك إلا بسناد مشيئة من اللّه الغائبة عنك‏ «لا تَقُولَنَّ لِشَيْ‏ءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ»!.

في أفعالك الاختيارية لست مفوّضا تستقل في ارادتك دونما رادع او مؤيد من اللّه، و لا مجبورا يستقل ربك في ارادتك فأنت كصورة الفاعل و اللّه هو الفاعل!

«لا جبر و لا تفويض بل امر بين أمرين»

«لا تَقُولَنَّ لِشَيْ‏ءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً» ام حالا أما ذا، «إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ».

أنت في حاضر مشيئتك و قوتك و ارادتك غائب عن حول اللّه و قوته، لا تدري اهو مؤيدك فيها ام رادعك عنها «لا تَقُولَنَّ لِشَيْ‏ءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً»! أنت لا تستقل بنفسك إغماضا عن ربك و لا تستقل نفسك فيما تريد كأنك لا حول لك و لا قوة اتكالا «فاشلا على ربك كأن الفاعل هو ربك دونك أنت، و انما أنت في حولك و قدرتك عوان بين ذلك، تكرس طاقاتك كلها فيما تعنيه و هو مرضي لربك توكلا لا اتكالا. فلا تحس بالتبطر و الغرور و أنت مفلح ناجح، و لا تستشعر القنوط و أنت فاشل مخفق، فإنما عليك تجنيد ما عندك من طاقات و امكانيات فيما يرضي ربك و في حالك و مقالك و أفعالك‏ «إِنْ شاءَ اللَّهُ» «لا تَقُولَنَّ لِشَيْ‏ءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ»!.

ليستشعر قلبك معنى‏ «إِنْ شاءَ اللَّهُ» و ليلفظ لسانك قول‏ «إِنْ شاءَ اللَّهُ» و لتتّسم افعالك بسمة «إِنْ شاءَ اللَّهُ» «ما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ»! لا يملك المخلوق أيا كان لنفسه نفعا و لا ضرا باستقلال إلا ما شاء اللّه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 59

و حتى رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) «قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَ لا ضَرًّا إِلَّا ما شاءَ» (7: 188) فضلا عن أن يملك لغيره أو يملك من اللّه‏ «وَ لا تَقُولَنَّ لِشَيْ‏ءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ»! «إِنْ شاءَ اللَّهُ» هي من كلمات رسل اللّه كما في يوسف‏ «فَلَمَّا دَخَلُوا عَلى‏ يُوسُفَ آوى‏ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَ قالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ» (12:) 99) و موسى: «قالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ صابِراً وَ لا أَعْصِي لَكَ أَمْراً» (18: 69) و يعقوب‏ «وَ ما أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ» (38: 27) و إسماعيل: «قالَ يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ» (37: 102).

لا فحسب رسل اللّه و عباده الصالحون بل و كذلك اللّه تعليما لعباده و اعلاما ان يستمروا في قول: إن شاء اللّه: «لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ..» (48: 27).

و نحن نسمع كلمة ان شاء اللّه من اللّه نفسه فيما هو مقطوع من فعل او ترك من اللّه: «وَ أَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ» (11: 108) فرغم أن عطاء الجنة غير مجذوذ عن أهلها يستثني خلودهم بمشيئته تشريفا لها و اعلاما أنها غير محصورة بشي‏ء و لا محسورة عن شي‏ء- كما و ان الآلهة من دون اللّه لا يخاف منها قطعا و مع الوصف: «وَ لا أَخافُ ما تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشاءَ رَبِّي شَيْئاً» (6: 80) و لا يشاء الرب و لن ان يخاف من دونه شي‏ء! و كما العود في ملة الشرك لمن لا يشاءها و لا سيما نبي اللّه، انه من المستحيل ان يشاء اللّه و لكن: «وَ ما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّنا وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْ‏ءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا ..» (7: 89).

ترى- بعد ذلك كله- كيف يترك أوّل العابدين قولة «إِنْ شاءَ اللَّهُ» و هو يعد السائلين جوابهم عن اللّه، و ليس جوابهم إلّا وحيا من اللّه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 60

و الرسول لا يملك وحي اللّه كما لا يملك لنفسه نفعا و لا ضرا إلا ما شاء اللّه؟! انها لا تعني الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فيمن تعنيه نصا، و انما هي تأنيب على التاركين لها، و تأديب لهم ألّا يتركوها «1» فهي لهم تصريحة و للرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) تلميحة.

ام و إذا تعنيه فيمن تعنيه فهناك بون بينه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و بين من سواه في وعد الفعل و ان جمع بينهم في «لا تقولن» نهيا على الأبدال، حيث الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و هو أول العابدين لا يشاء إلّا أن يشاء اللّه، و كما يخاطب اهل بيت الرسالة المحمدية و هم انسان الدهر في «الإنسان- الدهر»: «وَ ما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً» (76: 30) إذا فهو هو نفسه مشيئة اللّه، لا تجد فيه إلّا «أَنْ يَشاءَ اللَّهُ» في عقله و صدره و قلبه و سره و خفيه و أخفاه، في حلة و ترحاله، في فعله و أقواله.

فمهما يترك لفظة «إِنْ شاءَ اللَّهُ» فيما يعد السائلين دون اي تأكيد خلاف‏ «إِنِّي فاعِلٌ» اجابة بوحي اللّه، فلا يعدهم إلّا بمشيئة اللّه‏ «إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً» كرسول من اللّه، لا كمن يعرف الجواب دون وحي اللّه، او يملك وحي اللّه، و انما رسول من اللّه، ما يشاء إلا ان يشاء اللّه.

فقد شاء فوعدهم أن يأتوه تلميحا لوعد الاجابة، و لكنه عليه كسنة رسالية و تعليما لهذه السنة قولة «إِنْ شاءَ اللَّهُ» و ان في لمحة و دون‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 255 ح 55 في تفسير العياشي عن أبي جعفر (عليه السلام) ذكر ان آدم لما اسكنه اللّه الجنة فقال له: يا آدم لا تقرب هذه الشجرة فقال: نعم و لم يستثن فامر اللّه نبيّه فقال‏ «وَ لا تَقُولَنَ‏ .. إِلَّا» و لو بعد سنة

أقول فلم يكن ترك الاستثناء إذا من الرسول نفسه و هو وجه كما و في تركه ايضا وجه ذكرناه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 61

تأكيد و لم يتركها إلا هذه المرة طول حياته المنيرة، فليحتبس عنه الوحي أربعين يوما لماذا ترك‏ «إِنْ شاءَ اللَّهُ» و لكي يعرف السائلون من خلال ذلك الاحتباس انه حتما رسول اللَّه‏ «1».

انه لم يكن تاركا لواجب رسالي يستوجب باحتباس وحيه ودعا او قلى: «وَ الضُّحى‏ وَ اللَّيْلِ إِذا سَجى‏. ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَ ما قَلى‏ ..» بل هو من الطاف ربه الخفية مهما كان في ظاهرة ودع او قلى، اللهم إلّا ان يتركه متناسيا و مؤكدا في وعده و لم يؤكد و لن! إذا فاحتباس وحيه كان رمية ربانية الى هدفين، اهمهما تثبيت وحيه و رسالته، أن لو كان من عنده لما احتبس عن الجواب، ثم و على هامشه‏ «وَ لا تَقُولَنَّ ..» فقط للقولة المتروكة لا سواها من حول و قوة و ايمان و عقيدة فانه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) كله‏ «إِنْ شاءَ اللَّهُ» مهما يترك لمرة واحدة قولها الذي يخلف تثبيتا. لوحيه باحتباسه ردحا من الزمن!.

ذلك الاحتباس في ظاهره ليل إذا سجى و في باطنه ضحى، فكما الضحى رحمة كذلك الليل إذا سجى، فليل احتباس الوحي كضحى الوحي فرقد ان متتابعان يتناصران في هامة الرسالة المحمدية السامية.

ثم‏ «وَ لا تَقُولَنَّ» تشمل ما مضى من الرسول (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) و ما يقبل، كما و يشمل غير الرسول (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم)

فقوله (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) حين سألوه عن أمر اصحاب الكهف‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 254 ح 53 في من لا يحضره الفقيه روى حماد بن عيسى عن عبد اللَّه بن ميمون عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) .. ان رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) أتاه أناس من اليهود فسألوه عن أشياء فقال لهم: تعالوا غدا أحدثكم و لم يستثن فاحتبس جبرئيل (عليه السلام) عنه أربعين يوما ثم أتاه فقال: «وَ لا تَقُولَنَّ لِشَيْ‏ءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ‏ «وَ اذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 62

و ذي القرنين و الروح: تعالوا غدا أحدثكم‏

و لم يستثن، فنص النهي في الآية في مثلث التأكيد لا يشمله إذ لم يقل اني فاعل، و انما «تعالوا غدا» تلميحا كأنه يجيبهم غدا دونما تصريح و لا تأكيد الا زمنا: «غدا»:

ثم قول إن شاء اللَّه لا يردد القائل فيما يشاء و لا يفصم ارادته و انما تردد في مشيئة اللَّه على حتمه في مشيئته.

فمن حلف و قال ان شاء اللَّه ليس له الرجوع‏ «1» إلّا ان يقول إن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). خلاف ما

أخرجه البيهقي في الأسماء و الصفات عن ابن عمر قال قال رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم): من حلف فقال ان شاء اللَّه فان شاء مضى و ان شاء رجع غير حانث‏ (الدر المنثور 4: 218)

أقول: ليس غير حانث الا إذا تردد في مشيئة نفسه كان يقول: ان شئت، فللمحلوف عليه حتمية نسبية له و لا يفصمه الا ارادة اللَّه ان أراد خلافه! فالرواية مختلقة عليه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) و الصحيح ما

أخرجه البخاري و مسلم و النسائي و البيهقي في الأسماء و الصفات عن أبي هريرة قال قال رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم): قال سليمان بن داود (عليهما السلام) لأطوفن الليلة على تسعين امرأة تلد كل امرأة منهن غلاما يقاتل في سبيل اللَّه فقال له الملك قل ان شاء اللَّه فلم يقل فطاف فلم تلد منهن الا امرأة واحدة نصف انسان قال رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) و الذي نفسي بيده لو قال ان شاء اللَّه لم يحنث و كان درج/ لحاجته.

أقول و هو صحيح الا «فقال له الملك .. فل يقل» حيث ينافي الايمان فضلا عن العصمة، ثم لم يحنث لأنه حلف على فعله و هو الطواف على تسعين امرأة لا على فعل اللَّه «تلد كل امرأة» فلا حنث فيما ليس من فعله و لا حلف عليه! و مثله ما

في نور الثقلين 3: 254 ح 52 عن اصول الكافي احمد بن محمد عن علي بن الحسين عن علي بن أسباط عن الحسن بن زرارة قال: سألت أبا عبد اللَّه (عليه السلام) عن قول اللَّه عز و جل‏ «وَ اذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ» فقال: إذا حلفت على يمين و نسيت ان تستثني فاستثن إذا ذكرت.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 63

شئت، و لا فرق بين موصوله و مفصوله‏ «1».

و «إِنْ شاءَ اللَّهُ» يعم باطن العقيدة و الايمان و النية و ظاهر القول و الكتابة أماذا، فالكتابة قول كتبي يكتب فيها ان شاء اللَّه‏ «2» كما النية قول منوي ينوى معها «إِنْ شاءَ اللَّهُ»! «إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ» استثناء عن نفي القول لشي‏ء «إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً» فتقول لشي‏ء إني فاعل ذلك غدا أم اي وقت كان إن شاء اللَّه و الشي‏ء المفعول يعم المقال و الفعال و تبديل الحال، و لتكن لائقا لمشيئة اللَّه تشريعا حتى يربط بمشيئته تكوينا، و «إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ» يخص التكوين، حيث المشيئة التشريعية واجبة الإحراز قبل الإرادة و الفعل، فلا تقبل اي تردد، و إنما التردد في التكوينية.

فالقول لمحرم ام و مشتبه إني فاعل ذلك إن شاء اللَّه مس من كرامة اللَّه، و ان كانت المحرمات غير خارجة عن مشيئة اللَّه كما تناسب ساحته دونما إجبار، و انما تلحق مشيئته تعالى مشيئته المختار! فان‏ «إِنْ شاءَ اللَّهُ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). خلاف ما أخرجه سعيد بن منصور عن ابن عمر قال: كل استثناء موصول فلا حنث على صاحبه و إذا كان غير موصول فهو حانث (الدر المنثور 4: 218).

(2)

نور الثقلين 3: 253 ح 47 في اصول الكافي علي بن ابراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن مرازم بن حكيم قال: أمره ابو عبد اللَّه (عليه السلام) بكتاب في حاجة فكتب ثم عرض عليه و لم يكن فيه استثناء فقال (عليه السلام): كيف رجوتم ان يتم هذا و ليس فيه استثناء انظروا كل موضع لا يكون فيه استثناء فاستثنوا فيه.

و

في تهذيب الأحكام باسناده الى علي بن حديد عن مرازم قال‏ دخل ابو عبد اللَّه (عليه السلام) يوما الى منزل معتب و هو يريد العمرة فتناول لوحا فيه تسمية أرزاق العيال و ما يخرج لهم فإذا فيه لفلان و فلان و فلان و ليس فيه استثناء فقال: من كتب هذا الكتاب و لم يستثن فيه كيف ظن انه يتم؟ ثم دعى بالدواة فقال: الحق فيه إنشاء اللَّه فالحق في كل اسم إنشاء اللَّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 64

ترج لمشيئة التأييد من اللَّه و ليس إلا فيما يرضاه اللَّه.

و إذا نسيت الاستثناء بمشيئة اللَّه فاذكره إذا ذكرت مهما طال الزمن و لما تفعل: «وَ اذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ» و ان كان بينك و بينه ايام او أشهر او سنون‏ «1»! و هل القول‏ «إِنْ شاءَ اللَّهُ» يطم عامة الأقوال لاي فعل يعزمه فيتم فيها أيا كان؟ فان قيل لك أ تأكل و أنت جوعان و على خوان الطعام: تقول إنشاء اللَّه؟ و لا شي‏ء غائبا عنك خارجا عن حولك و قوتك هنا تحوله الى حول اللَّه و قوته؟ .. اجل فانك لا تضمن حياتك حتى الأكل، و لا صحتك و فقدان اي رادع يردعك! «إِنْ شاءَ اللَّهُ» آت في كل ما لم يحصل بعد او لم يتم و أنت فاعله، إن قولا فقولا و ان فعلا فعقدا في الضمير «وَ اذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ»! ليس هنا حذف كما أطالوا إ، و انما باء الملابسة على «إن ..»

فتأويلا للمصدر: «إلا بمشيئة اللَّه، ف «لا تقولن لشي‏ء أيا كان و أيان اني فاعل ذلك غدا الا مصاحبا بمشيئة الله ان افعله او لا افعله فالفعل و الترك لمن يعزم على فعل او ترك بحاجة الى إذن تكويني و توفيق من الله» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 255 ح 55 في تفسير العياشي عن أبي حمزة عن أبي جعفر (عليه السلام) ذكر ان آدم لما اسكنه اللَّه الجنة فقال له يا آدم لا تقرب هذه الشجرة فقال: نعم و لم يستثن فامر اللَّه بنبيه فقال: «وَ لا تَقُولَنَّ لِشَيْ‏ءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ وَ اذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ» و لو بعد سنة.

(2)

المصدر 254 ح 49 عن الكافي عن أبي جعفر (عليه السلام) في قول اللَّه عز و جل‏ «وَ لَقَدْ عَهِدْنا إِلى‏ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً» قال: فقال: ان اللَّه عز و جل لما قال لآدم: ادخل الجنة قال له: يا آدم لا تقرب هذه الشجرة. قال: واراه إياها فقال آدم لربه: كيف أقربها و قد نهيتني عنها انا و زوجتي؟ قال: فقال لهما: لا تقرباها يعني لا تأكلا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 65

ثم و ملابسة القول هذا ليست بواقع المشيئة فانها مجهولة للفاعل و إنما بقول «إن شاء اللَّه» ف «لا تقولن .. إلا بقول مشيئة الله ترجيا: «إن شاء اللَّه»! و قد يعني‏ «إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ» منقطع الاستثناء: أن القول‏ «إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً» ممنوع على أية حال فإن فيه تأكيد الاستقلال، و لا يجبره الاستثناء، أترجيا و ترددا بعد تحتم! إذا فقل ما شئت غير متحتم، و اقرنه ب «إِنْ شاءَ اللَّهُ» تأييدا انه غير محتوم و ترجيا لمشيئة اللَّه.

و قد يحتمل اتصال الاستثناء بوجه آخر أن القول‏ «إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً» ممنوع كمنع الدخول في ملة الشرك إلا ان يشاء اللَّه‏ «وَ ما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ» (7: 89) حيث العودة هذه و لا سيما لنبي مستحيلة الإذن من اللَّه!.

و قد يعني الاستثناء كل ذلك حيث يلائمها اللفظ و المعنى و هو أجمل و أكمل! و ترى‏ «وَ اذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ» يخص فقط تركه نسيانا، فان كان ذاكرا ربه و ترك الاستثناء فلا جيران بعدئذ؟ بلى حيث الأمر السماح كتوبة خاص‏ «إِذا نَسِيتَ»! و كلا حيث النسيان يعم النسيان المعمّد و سواه، تناسيا و نسيان، بل و لا عصيان إلا تعمّد (عن) نسيان و إذ لا عمد فلا عصيان: «وَ لَقَدْ عَهِدْنا إِلى‏ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً» (20: 115)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

منها فقال آدم و زوجته: نعم يا ربنا لم نقربها و لم نأكل منها و لم يستثنيا في قولهما نعم فوكلهما اللَّه في ذلك الى أنفسهما و الى ذكرهما، قال و قد قال اللَّه عز و جل لنبيه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) في الكتاب‏ «وَ لا تَقُولَنَّ لِشَيْ‏ءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ» ان لا افعله فتسبق مشيئة اللَّه في ان لا افعله، فلا اقدر على ان افعله، فلذلك قال اللَّه عز و جل‏ «وَ اذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ» اي استثنى مشيئة اللَّه في فعلك.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 66

«وَ عَصى‏ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى‏» (120: 121)! ثم و باب التوبة مفتوحة بمصراعيها في كل عصيان فضلا عن ترك الاستثناء فانه أيا كان ليس محرما فيه عصيان! «وَ اذْكُرْ .. وَ قُلْ عَسى‏ أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هذا رَشَداً».

و كما أن‏ «إِنْ شاءَ اللَّهُ» ترج للرحمة من اللَّه، «عَسى‏ .. لِأَقْرَبَ» ترج ثان التماسا للارتفاع على هذا المرتقى، و ضرورة المحاولة للاستواء عليه في كافة الأحوال.

انه ليس يهمني- فقط- رجاء الاجابة عن اسئلتكم هذه و ان كان فيها رشد، بل و «عَسى‏ أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هذا رَشَداً» اجل‏ «وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً» (20: 114) فليس حاضر علم الوحي واقفا على حده ليوقفني على حدّه، فانني التماسا من ربي و ترجيا لزائد رحمته غائص في خضم عنايته، رحمات بعضها فوق بعض!.

و مها لمحت‏ «لا تَقُولَنَ‏ .. وَ اذْكُرْ .. وَ قُلْ عَسى‏» ان المخاطب فيها هو الرسول (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) و لكن‏ «إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً» لم يكن من قوله بل هو «آتوني غدا» فان تشمله «لا تقولن» فهو على البدل، و بالنسبة للمستقبل.

ثم و «إِذا نَسِيتَ» نسيان لذكر الرب و ليس إلا بسلطان الشيطان و «إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ» (15: 42) و هو اوّل العابدين و المخلصين‏ «فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ» (38: 83) اللهم إلّا ان يكون نسيانا لاستثناء غير لازم كما في قوله «آتوني غدا» فراجح هنا قول‏ «إِنْ شاءَ اللَّهُ» و اللَّه يعلمه لكي يتأدب به فإنه ربه و مؤدبه، فلم يك ناسيا لربه إن تركه، ام إن نسيه فنسيانه من اللَّه لكي يعرّفه موقفه أنه في معرض النسيان لو لا تثبيت من اللَّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 67

ثم ترى انها نص على عدد لبثهم هو ثلاثمائة و تسع سنين؟ و صيغته الصحيحة هي هذه دون المذكورة في الآية! او تعني لهم مجموعا من اللثين فالأصل ثلاثمائة و التسع الزائد عليها يلحقها حيث ازدادوها تطلبا من اللَّه بعد بعثهم عن نومتهم الأولى؟ و لا طائل تحت هذه الزيادة المزعومة حيث القصد من بعثهم الأولى عن نومتهم الأول حاصل‏ «ثُمَّ بَعَثْناهُمْ لِنَعْلَمَ‏ .. وَ كَذلِكَ أَعْثَرْنا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا ..» و قد حصلت هذه الثلاث فما ذا بعد! و لماذا بعد «تسعا»؟!.

أو أن التسع المزداد انما تعني توفيق حساب الاعداد، أن الثلاثمائة هي الشمسية فتتحول إلى اضافة التسع حسب القمرية «1»؟ و هذا لا يصح في اي حساب! فان كانت الثلاثمائة شمسية فاضافة التسع القمرية لا تحولها الى (309) قمرية، و ان كانت قمرية فاضافة التسع قمرية و شمسية لا تحولها الى (309) شمسية و لا قمرية «2» و ان كانت مجملة فاضافة أحدهما لا تزيدها إلا اجماعا! ثم من ذا الذي ازداد الثلاثمائة تسعا إلا اللَّه في هذا الحساب‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 256 ح 62 عن مجمع البيان و روي‏ ان يهوديا سئل علي بن أبي طالب (عليه السلام) عن مدة لبثهم فأخبر بما في القرآن فقال: انا نجد في كتابنا ثلاثمائة فقال (عليه السلام) ذاك بسني الشمس و هذا بسني القمر.

أقول و هذا حديث مختلق كما بيناه في المتن و

في احتجاج الطبرسي عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) و قد رجع الى الدنيا ممن مات خلق كثير منهم اصحاب الكهف أماتهم اللَّه ثلاثمائة عام و تسعة و بعثهم في زمان قوم أنكروا البعث ليقطع حجتهم و يريه قدرته و ليعلموا ان البعث حق‏

أقول: بين الروايتين تناقض في تسعا ثم هنا الموت و في القرآن النوم فهما مختلقان مطروحان!.

(2) و هي حسب الشمسية 291 سنة إلا (15) يوما و بزيادة التسع (300) سنة إلّا (95) يوما!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 68

التحويل، و من ثم فليس القرآن كتاب حساب يحول عددا الى آخر، و لو كان لكان التعبير هنا، «ثلاثمائة سنين هي بالقمرية (309) دون‏ «ازْدَادُوا تِسْعاً» ثم القرآن لا يذكر السنين إلا قمرية كما هي الأصل في احكامه الشرعية، فأيا كانت تلك السنين تتحول في مستعمل القرآن الى القمرية! ثم هذه الثلاث قد تنافي‏ «قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما لَبِثُوا ...» أ فبعد التصريح هكذا بعددهم تجهّل غير اللَّه و تخص علمه باللَّه؟!.

او ان الثلاثمائة و تسعا هما من مقالات المتنازعين أمرهم بينهم؟! و لا شي‏ء منهما مما يقوله اللَّه‏ «1»؟ و ذلك عطف بعيد أن تعطف‏ «وَ لَبِثُوا ..» ب «سَيَقُولُونَ ...» و بينهما الفصل بجملات في الآية و آيتين بعدها و هو خلاف الفصيح! و لكنه ليس فصلا بينهما بأجنبي حتى يخالف الفصيح، و «قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ ..» تكفي قرينة على ذلك العطف مهما كان بعيدا بفصله عن أصله! أو أن الثلاثمائة هي قول اللَّه‏ «وَ ازْدَادُوا تِسْعاً» نقل الزيادة عليه تأنيبا يؤيده‏ «قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما لَبِثُوا ..» فكما أن عدتهم ذكرت في تلميحة،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 218- اخرج ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس قال: ان الرجل ليفسر الآية يرى انها كذلك فيهوى ابعد ما بين السماء و الأرض ثم تلا «وَ لَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ» الآية ثم قال: كم لبث لقوم؟ قالوا: ثلاثمائة و تسع سنين، قال: لو كانوا لبثوا كذلك لم يقل اللَّه: قال اللَّه اعلم بما لبثوا و لكنه حكى مقالة القوم فقال سيقولون ثلاثة الى قوله رجما بالغيب و اخبر انهم لا يعلمون قال سيقولون و لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين و ازدادوا تسعا.

و اخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن قتادة قال: في حرف ابن مسعود: و قالوا لبثوا في كهفهم الآية يعني انما قاله الناس ألا ترى انه قال: قل اللَّه اعلم بما لبثوا- أقول «و قالوا» تفسير بيان العطف و ليست من الآية و اخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال: هذا قول اهل الكتاب فرد اللَّه عليهم: قل ار اعلم بما لبثوا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 69

كذلك سنيّهم العدة؟ و هذا أوفق أدبيا و معنويا! ثم إنهما من أقوال المتنازعين بلمحة أن الأول مصدّق دون الثاني، و لو لا صدقه دونه لكان التعبير «و يقولون ثلاثمائة و يقولون بزيادة تسع ..»!

«قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما لَبِثُوا» ممن ازدادوا تسعا، ام و قالوا ثلاثمائة فان‏ «لَهُ غَيْبُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» و عدة لبثهم من الغيب لا يعلمها إلا هو، «أبصر به» في عجاب «و أسمع» فلا يبصر أحد ما يبصره و لا يسمع ما يسمعه‏ «ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ» يلي أمرهم تعليما لغيب، تكوينا او تشريعا فله الولاية المطلقة لا سواه، و له الحكم مطلقا لا سواه‏ «وَ لا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً» اللهم إلا حكما شرعيا و ليس باشراك و إنما برسالة و سواها من تبليغ رسالة اماهية.

[سورة الكهف (18): الآيات 27 الى 31]

وَ اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ وَ لَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً (27) وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَ لا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ لا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا وَ اتَّبَعَ هَواهُ وَ كانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (28) وَ قُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَ مَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ ناراً أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها وَ إِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرابُ وَ ساءَتْ مُرْتَفَقاً (29) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً (30) أُولئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ يَلْبَسُونَ ثِياباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَ إِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ نِعْمَ الثَّوابُ وَ حَسُنَتْ مُرْتَفَقاً (31)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 70

صرف للرسول (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) عن القيل و القال و الإصغاء الى أصحاب المقال في آرائهم و اقتراحاتهم الناكبة عن الصراط، و الالتحاد إلى الرب و كلماته، و أن يصبر نفسه مع الذين يدعونه، ماشيا على صراط الحق، متمسكا بصراح الحق فتعم الثواب و نعم المرتفق! وَ اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ وَ لَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً (27).

اصل التلاوة هي المتابعة «وَ الشَّمْسِ وَ ضُحاها. وَ الْقَمَرِ إِذا تَلاها» فلا شأن لك و لا واجب عليك إلا متابعة كتاب ربك قراءة و تفهما و تفهيما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 71

و إبلاغا و تطبيقا، «وَ اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ ..» لا ما أوحاه عقلك امّن سواك، و انما «مِنْ كِتابِ رَبِّكَ» القرآن العظيم، دون ان تبخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا، أو أن تستعجل وحي ربك فتعدهم الجواب ناسيا «إِنْ شاءَ اللَّهُ» و دون الالتحاد الى اي وحي او استفتاء او استيحاء، و إنما «ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتابِ رَبِّكَ» فحسبك ربك و كتاب ربك إذ «لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ»: ربك و لا كتابه‏ «وَ لَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ»: ربك و لا كتابة «ملتحدا» فهما وصفان متلاحمان «لربك» و «كِتابِ رَبِّكَ»: «لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ» و القرآن أفضل كلماته، «وَ لَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً» و ملتحده الموحى إليك هو قرآنه كما هو تعالى ملتحدك في كلما تحتاجه، ملتحد تكوينا و ملتحد تشريعا لا مبدل لهما! فكلماته التشريعية التدوينية ككل لا مبدل لها من غيره تعالى نسخا إلا تحريفا في غير القرآن: «يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ» و كلماته الأخيرة القرآن، لا مبدل لها إطلاقا إذ تمت‏ «وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَ عَدْلًا لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» (6: 115) لا مبدلا من غير اللَّه تحريفا و تجديفا، مهما كان لغير القرآن تحريف و تجديف، و لا مبدلا إلهيا نسخا و تبديلا كشرعة تنسخ و تتبدل، فالقرآن كما كان و كما هو الآن قائم مر الدهور و الأعوام الى يوم القيام لا نسخ فيه و لا تحريف يعتريه دون سواه من كلمات اللَّه و كتاباته.

و «ملتحدا»: متمايلا يجير إليه، أولا هو اللَّه لاي ملتحد و على أية حال إجارة و جوارا: «قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَ لَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً، إِلَّا بَلاغاً مِنَ اللَّهِ وَ رِسالاتِهِ ..» (72: 22) و من ثم لن أجد ملتحدا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 72

من وحيه إلا كلماته الأخيرة القرآن المبين، فهنالك اللَّه و هنا كتاب اللَّه ثم لا سواه و لا سواه.

هنا «لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ» في استغراق نفي التبديل يجعل من القرآن كتابا لا نسخ له و لا تحريف، إذا فهو كتاب الزمن و خاتمة الوحي لا كتاب بعده ما طلعت شمس و غربت! و من ثم‏ «وَ لَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً» تحيل ملتحدا من دون القرآن كما تحيله من دون اللَّه، ضربا الى أعماق الزمن ما بقي الدهر، فمهما غاب شخص الرسول (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) لا تغب رسالته القرآنية و إذا الرسول و هو اوّل العابدين «لن تجد ..» فغيره أحرى ان «لن يجد» ف «لن تجد» و إن كان خطابا لشخص الرسول (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) و لكنه بإحالة «لن» و اوّل العابدين في «تجد» يطوي كل زمان و مكان و كل إنس و جان حتى القيامة الكبرى. فتحيل أي ملتحد طول الزمان و عرض المكان سوى القرآن كما آله القرآن!.

وَ لَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَ ازْدَادُوا تِسْعاً (35).

و لماذا «ثلاثمائة» دون اضافة و بتمييز جمع «سنين» خلاف القاعدة المطردة من اضافتهما الى مفرد؟

الآن «سنين» نزلت بعد «ثلاثمائة» حين سئل الرسول: أياما او شهورا او سنين؟ «1» و نزولها دون سنين إهمالها في إجمال تبعد عنه ساحة القرآن البيان!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 4: 218 اخرج ابن أبي شيبة و ابن جرير و ابن المنذر، و ابن أبي حاتم عن الضحاك قال: نزلت هذه الآية «وَ لَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ ..» قيل يا رسول اللَّه (صلّى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 73

ام إنها بدل عنها فلا إضافة الى مفرد خلاف التميز، فثلاثمائة هي سنين مضمّنة معنى التمييز؟ و هذا خلاف المألوف مما يلحق العدد فانه- دوما- التمييز! أم إنها قاعدة راجحة او مخيرة فيما إذا كان مضاف العدد المركب جمعا، فالتمييز أيضا لجمعه، أو مفرد للمضاف اليه «مائة» و القرآن أفضل أصل لاقتباس القواعد فلا يقاس بسائر القياس المستفاد من سائر الأدب العربي شعرا او نثرا؟ فليؤخذ أدب القرآن لفظيا كما هو معنويا نبراسا لكل قاعدة و فائدة.

وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَ لا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ لا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا وَ اتَّبَعَ هَواهُ وَ كانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (38).

نفس مطمئنة يروضها ربها بالتقوى إيناسا بربها و وحيه، و صبرا مع الذين يدعونه يريدون وجهه، و يرفضها عن الطغوى بطاعة من أغفل قلبه عن ذكره و اتبع هواه و كان أمره فرطا.

هنا أمر بصبر نفسه المقدسة معهم و نهي ان يعدو عيناه عنهم و نهي ثان ان يطيع غفلان القلوب، يتبنى صرح هذه الرسالة السامية على بساط الفقراء الى اللَّه، دون الاثرياء الأغبياء الأغنياء في حسبانهم عن اللَّه، مهما طالت وعودهم و أبرق وقودهم: «لو جلست في صدر المجلس و تغيبت عن هؤلاء و أرواح جبابهم حادثناك و أخذنا عنك» «1» و كما كان يقول اضرابهم للأنبياء قبله من نوح مفتتح الرسالات:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الله عليه و آله و سلم) أياما أم شهورا ام سنين؟ فانزل الله: سنين و ازدادوا تسعا.

(1).

الدر المنثور 4: 219- اخرج ابن مردويه و ابو نعيم في الحلية و البيهقي في شعب‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 74

«قالُوا أَ نُؤْمِنُ لَكَ وَ اتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ. قالَ وَ ما عِلْمِي بِما كانُوا يَعْمَلُونَ. إِنْ حِسابُهُمْ إِلَّا عَلى‏ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ. وَ ما أَنَا بِطارِدِ الْمُؤْمِنِينَ» (26: 114) و إلى غيره من رسل اللَّه! يطلب من الرسول هكذا فيرفض كما أمر اللَّه قائلا:

«الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمتي معكم المحيا و الممات» «1»

و لقد كان يجامل فقراء المؤمنين و يكرمهم طول حياته المنيرة على ميزانية تقواهم.

و هل ان الرسول (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) حدثته نفسه فيما طلبوا إليه رغبة في ايمانهم كما يدعون؟ هذا بعيد عن ساحته و غريب عن أخلاقه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الايمان عن سلمان الفارسي قال: جاءت المؤلفة قلوبهم الى رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم)، و عنده عيينة بن بدر و الأقرع بن حابس فقالوا يا رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم): و جلست في صدر المجلس و تغيبت عن هؤلاء و أرواح جبابهم- يعنون سلمان و أبا ذر و فقراء المسلمين و كانت عليهم جباب الصوف- جالسناك او حادثناك و أخذنا عنك فأنزل اللَّه: و رتل ما اوحي .. الى قوله: اعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها.

(1).

المصدر اخرج ابو الشيخ عن سلمان قال‏ قام رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) يلتمسهم حتى أصابهم في مؤخر المسجد يذكرون اللَّه فقال: ..

و

اخرج عبد بن حميد عن سلمان قال: نزلت هذه الآية في رجل دخل على النبي (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) و معي شن خوص فوضع مرفقه في صدري فقال: تنح حتى القاني على البساط ثم قال: يا محمد! انّا ليمنعنا كثير من أمرك هذا و اضرباءه ان ترى لي قدما و سوادا فلو نحيتهم إذا دخلنا عليك فإذا خرجنا أذنت لهم إذا شئت، فلما خرج أنزل اللَّه‏ «وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ‏ الى- فُرُطاً»

و

اخرج ابن أبي حاتم و ابن عساكر من طريق عمر بن ذر عن أبيه‏ ان رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) انتهى الى نفر من أصحابه منهم عبد اللَّه بن رواحة يذكرهم باللَّه فلما رآه عبد اللَّه سكت فقال له رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم): ذكر أصحابك، فقال: يا رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم)! أنت أحق! فقال (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم): اما انكم الملأ الذين امرني اللَّه ان اصبر نفسي معهم ثم تلا «وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ ..».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 75

و سماحته‏ «وَ إِنَّكَ لَعَلى‏ خُلُقٍ عَظِيمٍ» (68: 4) و كيف يطرد المؤمنين رغبة في ايمان المستكبرين، ثم و أين ايمان من ايمان لو صدقوا و آمنوا! سبحانك اللهم هذا بهتان عظيم!.

إنما يأمره ربه بما يأمر و ينهاه عما ينهى تثبيتا للمؤمنين و تنديدا بالمستكبرين، و تبعيدا لهم عن اقتراحهم عليه من طرد المؤمنين، لا أنه طرد ثم نهي! «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» (8: 64) «.. وَ اخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ» (15: 88) .. لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» (26: 15) و هو «يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ..»

(9: 61)! «حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ» (9: 128)!.

فانه لا تقوم الدعوات الرسالية إلا على من يعتنقونها إيقانا و ايمانا مهما كانوا فقراء دون من يعتورونها متاجرين بها يمشون معها ما تمشيهم في شهواتهم فإذا محصوا بالبلاء قل الديانون!.

«وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ» و كيف «نفسك» مفعولا و الصبر لازم حيث يتعدي بواسطة؟ ان الصبر و هو الحبس متعد الى مفعول محبوس به، مهما يتعود تعديته بمحبوس فيه او عليه او معه أم ماذا؟ فاصبر نفسك في الحياة الدنيا على مشاقها و حرماناتها «مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ الْعَشِيِّ» صبرا في اللَّه و للَّه و الى اللَّه!.

كل إمساك و احتباس في ضيق صبر، منه ممدوح و منه غير ممدوح، و الصبر مع المؤمنين احتباس للنفس عن الشهوات و تحرير لكافة الطاقات النفسية في التقدم معهم إلى قمة الايمان بمواصلة المجاهدات و تحمل الحرمانات!.

و ما هي النفس المحمدية المأمورة بالصبر معهم؟ إنها كله (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) من روحه و جسمه، بعقله و صدره و قلبه، في حله‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 76

و ترحاله، و على كل حاله، فكما يصبر في اللَّه في أوامره و نواهيه و في قوله الثقيل كذلك مع الذين يدعونه بالغداوة و العشي يريدون وجهه، يحملهم و يتحملهم يهديهم و يذود عنهم، يجاريهم و يداريهم و لا يفضّل عليهم و لا يسوي بهم! اجل‏ «وَ لا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ وَ ما مِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ» (6: 52).

و لماذا تطردهم و هم مؤمنون؟ أرغبة في ايمان من يتأنفون عنهم، و الإنذار لا يفيدهم‏ «وَ أَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلى‏ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَ لا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ» (6: 51)!.

ترى و ماذا تعني‏ «بِالْغَداةِ وَ الْعَشِيِّ» حيث يدعون بهما ربهما؟ لأنهما وقت الصلاة بداية الفرض في العهد المكي طرفي النهار كما في مكيات اخرى‏ «وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِبْكارِ» (40: 55) وَ لا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ الْعَشِيِّ ..» (6: 52)؟ و لا بد في سمة الايمان دوامتها و الفرض في المدينة خمس و على طول الخط، فليقل: مع المصلين لتشمل الفرض مكيا و مدنيا! و آية العشي و الإبكار لا تخص المكي، بل و المدني أيضا «وَ اذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَ سَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِبْكارِ» (3: 41) و كما الكهف علّها مدنية او البعض من آيها و علها منها! ام لأن الغداة هي الوقت الذي ينتقل فيه الإنسان من نومه الى يقظته، و العشي تنقلا من يقظته الى نومه، و هما يذكّران الحياة بعد الموت ثم الموت بعد الحياة، و هما ركنا اوقات الليل و النهار. فذكرهما أهم الذكر! إذا فهما يعنيان أهم الأوقات من الليل و النهار، فالغداة صباح و العشي عصر الى ليل، و كما هما في الجنة و النار ركنان في رحمة و عذاب: «وَ لَهُمْ رِزْقُهُمْ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 77

فِيها بُكْرَةً وَ عَشِيًّا» (19: 62) «النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَ عَشِيًّا» (40:) 46) فهما أهم اوقات الذكر و سواه و فيما مضى كما هنا: «فَأَوْحى‏ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَ عَشِيًّا» (19: 11) لا فحسب الإنسان فالجبال ايضا: «إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِشْراقِ» (38: 18).

ثم و في ردف العشي بالإشراق و الغدو بالعشي- على كونهما ركني الأوقات- عطف الى ما بينهما من أوقات الليل و النهار، إلا فيما يخصهما بقرينة كرزق البرزخ و عذابه، فالغداة و العشي في ذكر الرب و دعوته تعني الغداة الى العشي و العشي الى الغداة كما يقال «انا دارس صباح مساء» او «ضارب اعداء الله ظهر بطن».

فدعوة الرب هي حالهم و مقالهم، حلهم و ترحالهم، غداتهم و عشيهم بما فيها الفرائض الخمس‏ «1» كأركان الدعوات و تلحقها سائرها، كما الغداة و العشي من أركان الأوقات و تلحقها سائرها.

«يَدْعُونَ رَبَّهُمْ‏ ... يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ..» و ماذا يعني «وجهه»؟ هنا وجه الرب كما في عديد سواه‏ «2» و هناك وجه اللَّه كما في عديد سواه‏ «3» و بينهما فرق‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 220- اخرج البيهقي في شعب الايمان عن ابراهيم و مجاهد في الآية قالا: الصلوات الخمس و

في نور الثقلين 3: 258 عن تفسير العياشي عن زرارة و حمران و عن أبي جعفر و أبي عبد اللَّه (عليهما السلام) في قوله‏ «وَ اصْبِرْ .. بِالْغَداةِ وَ الْعَشِيِّ» قال:

انما عنى بها الصلاة».

(2) كما في 13: 22: و الذين صبروا ابتغاء وجه ربهم و أقامهم الصلاة- و 55: 27:

و يبقى وجه ربك ذو الجلال و الإكرام- و 92: 20: الا ابتغاء وجه ربه الأعلى- و 6:

52: يريدون وجهه- فالمجموع خمسة موارد.

(3) كما في 2: 115: فأينما تولوا فثم وجه اللَّه- و 2: 272: و ما تنفقون الا ابتغاء وجه اللَّه- و 30: 38: ذلك خير للذين يريدون وجه اللَّه و 28: 88:) اللَّه لا اله الا هو كل شي‏ء هالك الا وجهه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 78

كما بين وجه اللَّه و سواه.

و الوجه من كل شي‏ء ما يواجه شيئا او يواجه بشي‏ء، فيختلف حسب اختلاف الأشياء و المواجهات، فلا يقاس وجه الرب الإله بسائر الوجه، كما لا تقاس اقامة الوجه إليه و تسليمة لديه بسائر الوجه.

فوجه الرب هو الوجهة التربوية التي يواجه اللَّه بها خليقته يوم الدنيا و الآخرة، و يواجهونه بها في الدنيا و الآخرة، فبوجه اللَّه من الوجهة التشريعية يدعون ربهم بالغداة و العشي، و بهذه الدعوة يريدون الوجهة التربوية ليوم الدنيا تقربا إليه و تكرما لديه، و حظوة مما عنده من حياة ايمانية، فالمؤمن دنياه آخرة! و ليوم الآخرة الوجهة التربوية ثوابا عند الرب و زلفى، واجهات خمس هي كلها وجه الرب‏ «1» حيث يريدونه بدعوتهم ربهم بالغداة و العشي! كما «وَ جاءَ رَبُّكَ وَ الْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا» (89: 22) يعني الوجهة التربوية الاخروية التي تخصها دون الدنيا، و الدنيوية تخصها دون الاخرى! فليس وجه الرب وجها عضويا لذاته المقدسة، فلا أحد يقول به، و لا من المشبهة المجسمة، الذين يثبتون للَّه سبحانه أبعاضا مؤلفة و أعضاء مصرّفة، و من ثم لوجه اللَّه معنى غير ما يعنيه وجه الرب على اشتراكهما في وجه.

فلانك كأول العابين و كرسول لا تعني من الحياة جاها و لا متاعا و لا عرضا من الحياة الدنيا، و انما وجه ربك، فاصبر نفسك مع الذين يريدون وجهه، تناسبا فتناسقا و تناصرا في هذه السبيل.

وَ لا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا العينان لهما عدو و مد، و عينا أهل اللَّه لا تمدان الى غير اللَّه و اهله، و ما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فللرب وجه يوم الدنيا: شرعته- التقرب اليه بها- الحظوة بهما يوم الدنيا- و وجه يوم الآخرة- قرباه الحظوة الثواب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 79

سوى اللَّه كله الحياة الدنيا: «لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى‏ ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ وَ لا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ اخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ» (15: 88) «... مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَ رِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَ أَبْقى‏» (20: 131).

و انما هما ناضرتان ناظرتان الى الرب و الذين يدعونه يريدون وجهه، منحصرتان بهم منحسرتان عمن سواهم.

و هل «عيناك» هما الظاهرتان الباصرتان؟ و مدهما إليهم دون رعاية و رقابة و مرحمة ليس مد الرسول (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم)! ام هما عينا عقله و قلبه، فبعقل الوحي يعقلهم عما لا يحمد، و بعين القلب يحبهم ام ماذا؟ و لا يكفيان مدا، و الباصرتان الظاهرتان تعدوانهم الى سواهم! ام هما عينا القلب بما معه، و القالب بما معه، ان يكرس نفسه بطاقاتها و امكانياتها نظرة ناضرة إليهم، مراقبة عليهم؟ و هو جمع جميل و اللَّه على ما نقول وكيل!.

... وَ لا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا وَ اتَّبَعَ هَواهُ وَ كانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (28).

و هل ان اغفاله سبحانه قلبا يعني وجدانه غافلا فهو في الحق غافل عاطل، كما يقال «لله دركم يا بني سليم! و الله لقد قاتلناكم فما أجبناكم و هاجيناكم فما افحمناكم و سألناكم فما ابخلناكم» اي: لم نجدكم جبانين عند النزال و لا اعياء عند المقال و لا ابخال عند السؤال‏ «1».

و ذلك احتشاما عن ان يغفل اللَّه قلبا و هو مذكر لا مغفل؟ و لكنما الصحيح و الفصيح للتدليل على هذا المعنى لفظه الخاص ك (وجدنا قلبه غافلا)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مجازات القرآن و تلخيص البيان للسيد الشريف الرضي ينقله عن عمرو بن معد يكرب لبني سليم ص 212.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 80

ك «إِنَّا وَجَدْناهُ صابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ» (38: 48) دون أصبرناه.

ثم الإغفال لا يختص المسيّر، ان يغفل اللَّه قلبا دونما اختيار منه و تقصير، بل انه غفلة معمّدة ثم إقفال و من ثم إغفال فامتناعا للذكر بتعمد و اختيار: «فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ» «... وَ لكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ. ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ وَ أَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ. أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ وَ سَمْعِهِمْ وَ أَبْصارِهِمْ وَ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ» (16: 108).

فالمتغافلون الغافلون الدائبون في غفلتهم و غفوتهم‏ «وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ» (21: 1) أولئك هم الغافلون الذين غفلوا عامدين فأغفل اللَّه قلوبهم عن ذكره طبعا عليها و ختما.

ثم ترى إن اغفاله لقلوبهم هو تركه لهداها أن‏ «يَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ» (7: 186) و في غيهم و وعيهم يترددون، «أَغْفَلْنا قَلْبَهُ»:

تركناه غفلا من السمات و الكتابات الايمانية، «أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ» و هم خلو القلوب منها، و كما يقال: اغفل البعير: تركه بلا سمة يعرف بها على عادة العرب في إقامة السمات مقام العلامات، اللهم إلا الطبع و الختم‏ «بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ»؟ و مجرد الترك و إن كان ينتج بقاء الغفلة و لكنه ليس إغفالا، فانه إيجاد للغفلة بعد الذكر، ام غفلة على غفلة!- ام إنه مزيد في غفلة معمدة معاندة أن تستمر فتزيد جزاء وفاقا في الدنيا و في الآخرة عذاب اليم: ان اللَّه اقفل قلوبهم عن الذكرى فأغفلها استمرارا فيها فمزيدا عليها «وَ اتَّبَعَ هَواهُ» بعد الإغفال كما قبله و أكثر دونما تفكير في هداه‏ «وَ كانَ أَمْرُهُ فُرُطاً» قبل الإقفال و الإغفال، حيث الغفلة المعمّدة دركات بعضها فوق بعض، فإغفالها على حسبها دركات بعضها فوق بعض، آخذة من ترك التوفيق، فختم و طبع فدفع الى مزيد من الغفلة و هو الدرك الأسفل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 81

من الإغفال.

و قد يعني «أغفلنا» هنا كل هذه مترتبة: ان وجدنا قلبه غافلا عن عمده فلما استمر في غفلته تركناه على غفلته و حتى شرح بالكفر صدرا فطبعنا على قلبه حتى لا يسطع الرجوع عن غفلته، إذ كان له قبل طبعه الرجوع الى ربه ثم يمدهم في طغيانهم يعمهون‏ «وَ كانَ أَمْرُهُ فُرُطاً» قبل أن أغفلنا قلبه و اتبع هواه من قبل و من بعد في تزايد دركاته، و ما أجمله جمعا بين معان مترتبة يقتضيها أدب اللفظ و واقع المعنى!.

اتباع الهوى على غفلة معمّدة و امر فرط مضيع يتبعه جزاء له إقفال القلب فإغفاله فاتباع مفرط للهوى و امر فرط في اتباع الهوى! «اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ فَأَنْساهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ» (58: 19) «وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ» (59: 19)! لا تطع- و ان كانت رجاء لاهتدائهم- من غفلوا عن أنهم عبيد و هو ربهم فأغفلنا قلبه عن ذكرنا فلم يطامنوا من نخوتهم و لا خففوا من غلوائهم، و لم يستشعروا جلال اللَّه الذي تتساوى في ظله العباد إلا من التقى أو هو اتقى!.

ذلك القلب المقلوب، الملي‏ء من الشهوات و الطنطنات، في أمر إمر من فرطات، انه ليس قلب إنسان، بل هو مربض الحيوان و مزبل الشيطان! «لا تطع ...»

«وَ قُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَ مَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ ناراً أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها وَ إِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرابُ وَ ساءَتْ مُرْتَفَقاً» (29).

آية محكمة تحكم عرى الاختيار و تجثث جذور الإجبار «فمن شاء ..»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 82

و من شاء» فمشية الايمان و الهدى تجلب زيادة الهدى من اللَّه و استمراريتها:

«وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً» كما مشية اللاإيمان و الردى تجلب غفلة دائبة او زيادتها باغفال من اللَّه.

«وَ قُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ» حيث يربيكم دلالة فتوفيقا للهدى فمن شاء و تقبل الحق يثبته عليه و يزيد، و من لم يشاء و أعرض عن الحق يختم على قلبه و يغفله، فانه ظالم في نكران الحق، يظلم نفسه و يظلم الحق و أهله ليس الحق ملكا لأحد و لا مخولا فيه لأحد حتى يجامل فيه فيماري و يداري‏ «وَ قُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ»! فالحق- إذا- لا يعتز و لا ينتصر بمن لا يبغونه إلا عوجا، و انما يعزّ و ينصر من يبغونه خالصا بلا تجويز و لا تحوير، و الذي يترفع عن الذين يبغونه ناصحا ناصعا لا يرجى منه اي خير و لا لنفسه فضلا عن قبيل الايمان!.

انه لا حقّ لائقا غير زائغ و لا خليطا بغير حق إلا من ربكم، و الخطأ جائر كائن لغيره أيا كان إلا من عصمه ربه بوحيه، فلا تطلبوا مني دخلا في حقه و لا بخلا و انحصارا في مواجهة حقه- و هذا ختام الكلام و من ثم.

إِنَّا أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ ناراً أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها ...

السرادق هو الفسطاط و سرادق النار هو زبانيتها المحيطة و المشتملة على أهلها. فلا ينجو منها ناج و لا يطلق منها عان حيث‏ «وَ جَعَلْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ حَصِيراً» (17: 8) حبسا يحصرهم و طولا يقصرهم‏ «إِنَّها عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ. فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ» (104: 9) فسطاط من نار هي حصير مؤصدة: مغلقة مطبقة.

هذا و كما أحاطت بهم سرادقات نيران الشهوات و حصرتهم في دنيا الحياة فهي هي تتمثل سرادق في الحياة الاخرى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 83

«وَ إِنْ يَسْتَغِيثُوا» على إياسهم من مغيث، و لكنما الحالة تلك المزرية المضطربة قد تدعوهم أن يستغيثوا «يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ»: دردي الزيت المغلي‏ «يَشْوِي الْوُجُوهَ» بمواجهته قبل شربه، و هل يشربونه. و هو كالمهل؟

اجل‏ «1»! لأن الإغاثة ليست فقط عرضا للماء و ان لم يشربوا بل هي إشراب لهم، و لان سرادق النار يضطرهم لشرب أيا كان‏ «إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعامُ الْأَثِيمِ. كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ» (44: 46) «وَ سُقُوا ماءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ» (47: 15) «وَ يُسْقى‏ مِنْ ماءٍ صَدِيدٍ» (14: 16)!.

«بِئْسَ الشَّرابُ» ماءه كالمهل‏ «وَ ساءَتْ» النار «مُرْتَفَقاً» متكئا يعتمد عليه بالمرفق، كما المرفقة هي المخدة، و كما «مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمِهادُ» هذا مرتفق النار ثم أهل الجنة «مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ نِعْمَ الثَّوابُ وَ حَسُنَتْ مُرْتَفَقاً» و أين مرتفق من مرتفق؟! شراب كالمهل‏

«كعكر الزيت فإذا قرب إليه سقطت فروة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 260 ح 79 في تفسير العياشي عن عبد اللَّه بن سنان عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) في قول اللَّه‏ «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ» قال: تبدل خبزة نقية يأكل الناس منها حتى يفرغ من الحساب فقال له قائل: انهم يومئذ في شغل عن الاكل و الشرب؟ فقال (عليه السلام) له: ان ابن آدم خلق أجوف لا بد له من الطعام و الشراب، أهم أشد شغلا ام هم في النار فقد استغاثوا «وَ إِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ».

و

فيه عن مسعدة بن صدقة عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده (عليه السلام) قال قال امير المؤمنين (عليه السلام‏ ان اهل النار لما غلى الزقوم و الضريع في بطونهم كغلي الحميم سألوا الشراب فأتوا بشراب غساق و صديد يتجرعه و لا يكاد يسيغه و يأتيه الموت من كل مكان و ما هو بميت و من ورائه عذاب غليظ و حميم يغلى به جهنم منذ خلقت كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب و ساءت مرتفقا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 84

وجهه‏ «1»

مشويّا، حرقا من حرارته و حرقا من ثخونته، او فضة مذابة و هي أحر و أحرى ان تشوي الوجوه‏ «2»!.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (30) أُولئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ يَلْبَسُونَ ثِياباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَ إِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ نِعْمَ الثَّوابُ وَ حَسُنَتْ مُرْتَفَقاً (31).

«أَحْسَنَ عَمَلًا» لا فقط ايمانا، و إنما عمل الايمان، حيث ينبثق العمل من الإيمان، لا ايمانا دون عمل، و لا عملا دون إيمان، و إحسان العمل هو أن يعمل الصالحات: التي تصلح انبثاقا من الايمان، و تصلح لساحة الربوبية قولا بعمل، و قولا و عملا بنية، و قولا و عملا و نيته بإصابة السنة! لا ضياع هناك في حساب اللَّه لا ايمانا: «وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ» (3: 143) و لا عملا «إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا» و لا إحسانا أيا كان في عمل ام ايمان‏ «إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَ يَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ» (12: 90).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 4: 220- اخرج احمد و عبد بن حميد و الترمذي و ابو يعلى و ابن جرير و ابن أبي حاتم و ابن حبان و الحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقي في الشعب عن أبي سعيد الخدري عن النبي (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) في قوله‏ «بِماءٍ كَالْمُهْلِ» قال: كعكر الزيت‏

و

في تفسير القمي قال ابو عبد اللَّه (عليه السلام) المهل الذي يبقى في اصل الزيت المغلي.

(2) فلعل التشبيه بعكر الزيت لأنه المشهود لهم دون الفضة المذابة، و وجه التشبيه هو الثخونة بحرارة و ان كانت اكثر من الدردي بكثير، بل و من الفضة المذابة ايضا.

و في الدر المنثور 4: 221 اخرج جماعة عن ابن مسعود انه سئل عن المهل فدعا بذهب و فضة فإذا به فلما ذاب قال: هذا أشبه شي‏ء بالمهل الذي هو شراب اهل النار.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 85

لا تجد في سائر القرآن ايمانا صالحا إلّا قرنا بعمل صالح، كلما ازداد الايمان زاد عملا صالحا، و كلما ازداد صالح العمل ازداد ايمانا، جناحان متناصران في تحليق الإنسان أجواء صافية ضافية تصلح لطائره كدحا الى ربه فملاقيه! «أُولئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ» بساتين تجنّ أشجارها ارضها، تجري من تحتهم الأنهار» تحت الأرضية ام سطح الأرضية، فهما تحت الأشجار التي جنتهما بأرضها «يُحَلَّوْنَ فِيها» حلية الرجولة للرجال، و حلية الأنوثة للنساء «من أساور» «1» جمع سوار: حلية المعصم، ام: دستواره الفارسية «من ذهب» فمهما كانت هي محرّمة يوم الدنيا للرجال و لكنها حلية محلّلة يوم الأخرى، إلّا المحرمات الذاتية التي تخرج العبد عن طور العبودية و تمس من كرامة الربوبية «وَ يَلْبَسُونَ ثِياباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ»: مارق من ديباج و «إستبرق»: ما غلظ منه و قد حلت لهم بعد ما حرمت‏ «2» «مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ»: السرائر الاريكة «3» «نِعْمَ الثَّوابُ وَ حَسُنَتْ مُرْتَفَقاً» خلاف ما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 4: 11)- اخرج ابن مردويه عن سعد عن النبي (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: لو ان رجلا من اهل الجنة اطلع فبدت أساوره لطمس ضوءه ضوء الشمس كما يطمس ضوء النجوم‏

أقول يعني شمس الآخرة و نجومها فلا يرد عليه انها مكورة او مطموسة و

فيه اخرج الطبراني في الأوسط و البيهقي في البعث عن أبي هريرة ان النبي (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: لو ان ادنى اهل الجنة حلية عدلت حليته بحلية اهل الدنيا جميعا لكان ما يحليه اللَّه به في الآخرة أفضل من حلية اهل الدنيا جميعا.

(2)

المصدر اخرج النسائي و الحاكم عن عقبة بن عامر ان رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) كان يمنع اهل الحلية و الحرير و يقول: ان كنتم تحبون حلية الجنة و حريرها فلا تلبسوهما في الدنيا

و

فيه اخرج الطيالسي و البخاري في تاريخه و النسائي و البزار و ابن مردويه و البيهقي في البعث عن ابن عمر و قال قال رجل يا رسول اللَّه أخبرنا عن ثياب اهل الجنة اخلقا تخلق ام نسجا تنسج؟ قال: بل يشقق عنها ثمر الجنة.

(3) المصدر اخرج البيهقي في البعث عن ابن عباس قال: لا تكون اريكة حتى يكون‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 86

للظالمين في النار «بِئْسَ الشَّرابُ وَ ساءَتْ مُرْتَفَقاً» و اين مرتفق من مرتفق! في مرتفق الجنة تنعّم حلو قرير، و في مرتفق النار تهكّم مرير: لأولاء نار معتدة مؤصدة في عمد ممددة، و لهؤلاء حلية من أساور و ثياب خضر من سندس و إستبرق، أولاء يستغيثون من ظمأ النار و حريقه فيغاثون بما يزيدهم ظمأ و حريقا «بِماءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ» فكيف بالحلوق و البطون، و هؤلاء لهم بهجة المنظر و اعتدال النسيم و لهم فيها ما يشتهون نزلا من غفور رحيم!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

السرير في الحجلة فان كان سرير بغير حجلة لم يكن اريكة و ان كانت حجلة بغير سرير لم تكن اريكة فإذا اجتمعا كانت اريكة و فيه عن الحسن قال: لم نكن ندري ما الأرائك حتى لقينا رجلا من اهل اليمن، فأخبر ان الاريكة عندهم الحجلة إذا كان فيها سرير و أخرجه مثله عن قتادة و عكرمة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 87

[سورة الكهف (18): الآيات 32 الى 46]

وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنا لِأَحَدِهِما جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنابٍ وَ حَفَفْناهُما بِنَخْلٍ وَ جَعَلْنا بَيْنَهُما زَرْعاً (32) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَها وَ لَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَ فَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَراً (33) وَ كانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقالَ لِصاحِبِهِ وَ هُوَ يُحاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مالاً وَ أَعَزُّ نَفَراً (34) وَ دَخَلَ جَنَّتَهُ وَ هُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ قالَ ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً (35) وَ ما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلى‏ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً (36)

قالَ لَهُ صاحِبُهُ وَ هُوَ يُحاوِرُهُ أَ كَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً (37) لكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَ لا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً (38) وَ لَوْ لا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ ما شاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مالاً وَ وَلَداً (39) فَعَسى‏ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَ يُرْسِلَ عَلَيْها حُسْباناً مِنَ السَّماءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً (40) أَوْ يُصْبِحَ ماؤُها غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً (41)

وَ أُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلى‏ ما أَنْفَقَ فِيها وَ هِيَ خاوِيَةٌ عَلى‏ عُرُوشِها وَ يَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً (42) وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ ما كانَ مُنْتَصِراً (43) هُنالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَواباً وَ خَيْرٌ عُقْباً (44) وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ وَ كانَ اللَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ مُقْتَدِراً (45) الْمالُ وَ الْبَنُونَ زِينَةُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ الْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَ خَيْرٌ أَمَلاً (46)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 89

وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنا لِأَحَدِهِما جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنابٍ وَ حَفَفْناهُما بِنَخْلٍ وَ جَعَلْنا بَيْنَهُما زَرْعاً (32) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَها وَ لَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَ فَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَراً (33):

«وَ اضْرِبْ لَهُمْ» لقبيل الايمان و الكفر، أهل الجنة و النار «مثلا» يمثل حالتهم و حوارهم و جوارهم، مبدأهم و منتهاهم، كنموذجين في مسرح الحياة لطغوى النفس و تقواها، نفس فقيرة مفتقرة الى اللَّه، و نفس ثرية مستغنية عن اللَّه، هذه تذهله الثروة و تبطره النعمة فينسى نفسه و ينسى اللَّه، و تلك مؤمنة معتزة بإيمانه ذاكرة لربه راضية بقضائه، ماضية في قضاءه، حيث يذكر اللَّه و يذكر نفسه انه عبد مفتقر الى اللَّه! و القرآن يقص القصص الحق من حاق التأريخ و حقه قصّا صالحا عما سبق، و تذكيرا بها صالحا فيما يلحق، دونما اختلاف لقصص لا أثر عنها في التأريخ، ام تاريخية لا تأثير لها تربويا في إبناء التأريخ.

و ها هي قصة الجنتين، لهما ميزات اربع تجعل لهما جمالا راقيا و ثمرا رابيا:

جَعَلْنا لِأَحَدِهِما جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنابٍ‏ كأنها جمع يلمح بمختلف الأعناب، فلو لا هذه اللمحة لكانت «من عنب» جنسا، لا جمعا:

«أعناب» وَ حَفَفْناهُما بِنَخْلٍ‏ حفاظا على الأعناب، و تجميلا للجنتين، و ردفا لما يثمر كثمرها، غذاء و إداما و شرابا، و علّ النخل كأعناب تعني مختلف النخل حيث تأتي مفردة: «كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ» و جمعا: «وَ النَّخْلَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 90

باسِقاتٍ لَها طَلْعٌ نَضِيدٌ» إذا ففيهما ألوان النخل و الأعناب، حافة و محفوفا بها- 3- وَ جَعَلْنا بَيْنَهُما زَرْعاً يزيدها ثمرا و جمالا فوق جمال و ثمر، و علّه مختلف الثمر كمختلف النخل و الأعناب، فان يكن واحدا جي‏ء بصيغته، حنظة او شعير أماذا؟.

4- وَ فَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَراً خلالا بينهما يفصلهما عن بعض، و خلالا في كل منهما سواقي تجري من تحتهما، كما تجري من تحت الجنة أنهار! جنتان مثمرتان من مختلف الكروم، محفوفتان بسياج من مختلف النخيل، بينهما زروع، و نهر متفجر، و يا له من منظر بهيج و حيوية دافقة و جمال رائع و مال جامع! كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَها من أعناب و نخل و زرع عدلا.

وَ لَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً لم تنقص من أكله شيئا، حيث الظلم هو الانتقاص أيا كان و من أيّ كان، جمادا او نباتا أو حيوانا او إنسانا، مهما اختلفت إرادة و شعورا ام دونهما، اختيارا او اضطرارا، ام بينهما كما النحل حيث تنحل بيتا و عسلا غريزيا دون اختيار تام او اضطرار! و لكنما الجنة دون النحل اثمارا و تركا، و الظلم في الأصل من الأفعال الاختيارية القبيحة، و لا تقبح الجنة في انتقاص الثمر أم تركه، و انما حسن التعبير عن هذا المعنى اللااختياري و لا القبيح بالظلم حيث كان ثمر الجنة البستان كالمستحق لمالكها، الساعي لها، المتعب فيها، فإذا أخذ حقه منها على كماله و تمامه حسن القول: أنها «لَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً» حيث لم تمنع منه مستحقه، فتكون كالظالم إذا انتقصت من ثمرها، و لأن الظلم أصله الانتقاص اختياريا ام دونه قبيحا ام سواه حسب اختلاف الفواعل شعورا و سواه في درجاته، تكليفا و سواه في درجاته، فهو إذا حقيقة ام استعارة لطيفة جميلة!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 91

وَ فَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَراً ما يزدادها بهاء و ثمرا و ارتياعا!.

و مما يزيده جمالا مقابلة اللّاظلم من الجنة بالظلم من صاحب الجنة حيث ازدهى و لم يشكر و بطر فاستكبر، و قد امتلى نفسه بالجنتين و ازدهى النظر إليهما، إحساسا بالزّهو، و تنفشا كالديك، و اختيالا كالطاووس، تعاليا على صاحبه و هو يجاوره و يحاوره: «أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مالًا وَ أَعَزُّ نَفَراً» أمّاذا من كلام فاض أجوف أخوف.

وَ كانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقالَ لِصاحِبِهِ وَ هُوَ يُحاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مالًا وَ أَعَزُّ نَفَراً (34).

«وَ كانَ لَهُ»: لما جعلناه له من جنتين- لصاحب الجنتين- لا كل الجنتين- او للنهر «ثمر» و كلها معنية- و علّ تنوين التنكير هنا تلويح لكثرة الثمر عدة و عدة و مدّة أماذا من ثمر- و قد تلمح «كان» بسابق الثمر زمنا متداوما، ام و على أقل تقدير بوجود الثمر حينه كما «آتَتْ أُكُلَها ..».

«فَقالَ لِصاحِبِهِ» الذي يصاحبه ملكا او شغلا أما ذا من صحبة و تعارف‏ «وَ هُوَ يُحاوِرُهُ» حول شؤون الحياة «أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مالًا» حيث «له ثمر» «وَ أَعَزُّ نَفَراً» من ولد و خدم و أعوان مناصرين لان لي مالا و ثمرا! و في الحق لقد ألهاه التكاثر في حواره هذه، و تفخيما لجانبه و تذليلا لصاحبه، و تغافلا عن ربه، ظلما مثلثا يرجع الى نفسه فنكرانا للنشأة الاخرى!:

وَ دَخَلَ جَنَّتَهُ وَ هُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ قالَ ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً (35) وَ ما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلى‏ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً (36).

«وَ دَخَلَ جَنَّتَهُ» و كيف دخل؟ و كيف هي جنته و هي جنة اللَّه حيث أعطاها إياه: «جَعَلْنا لِأَحَدِهِما جَنَّتَيْنِ»؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 92

انه دخل على رعونة و كبرياء، و طنطنة و خيلاء، متحسّبا أنها منه و له دون اللَّه، و كما قاله أخوه قارون: «إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى‏ عِلْمٍ عِنْدِي» (28: 78) و تلك الجنة أم أي مال و منال لأيّ كان و أيان هي من اللَّه ابتلاء، امتحانا او امتهانا، فكم من كادح كثيرا لا يفيده إلّا قليلا، و كم من كادح قليلا او مرتاح يستفيد كثيرا!.

فهي- إذا- جنته إذ جعله اللَّه مستخلفا له فيها ردحا باختيار، و هي جنة اللَّه لأنها من اللَّه فلا قوة إلّا باللَّه.

«دَخَلَ جَنَّتَهُ وَ هُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ» انتقاصا لها تناسيا عن فطرته و فكرته و عقليته تجاه ربه و هو معترف به: «لَئِنْ رُدِدْتُ إِلى‏ رَبِّي» تأبيدا لجنته و هي بائدة فانية بعد ردح قل أو كثر «قالَ ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً» و ماذا يعني هذا الأحمق النكد البطر من أبد جنته؟ هل البقاء دون فناء! بقوته ام قوة اللَّه؟ و الدنيا بحذافيرها دار فناء! ام البقاء ما هو باق، و ماذا الذي يضمن له ذلك البقاء، و كم من ثراء أثرى أصبحت فناء! ام ماذا، مما يشهد على أية حال أنه‏ «ظالِمٌ لِنَفْسِهِ» في قولته الخواء البتراء!.

و من خلفيات هذا الأبد نكران الساعة: «وَ ما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً» ترى و ما هي الرباط بين الأبد لهذه الجنة و نكران دار الأبد، ان هي إلّا جنة الثراء من ثمره و جنته، «هُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ» في جنونه المعمّد المختار، تسامحا عن عقله.

و جنّة ثالثة من جنته‏ «وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلى‏ رَبِّي» كاحتمال أخير على بعده فما يضرني إذا حيث‏ «لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً» تخيلا بخيلائه و كبريائه أنه يملك جنة الساعة باحرى من جنة هذه الساعة! و ما هي الرباط بين الجنتين حيث يجعلهما في ظنه لزام بعض؟

هذه ظنة الجاهلين من أثرياء و فقراء ان من اوتي الحياة الدنيا فهو في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 93

الآخرة أحرى ممن لم يؤتها، ويكأن اللَّه يجازي ذوي الأنفة و الكبرياء و الثراء بما طغوا و بغوا، يجازيهم في الأخرى ثوابا بدل العقاب، فما أظلمه إذا من إله‏ «وَ ما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ»!.

يظنها الأثرياء بجنة الغرور و الكبرياء، و الفقراء لظنهم أن الثراء ثواب من اللَّه و عطاء، إذا فلتكن الطغوى بديل التقوى يستحق بها ثواب الآخرة بعد الاولى!.

«لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً» و كيف و بماذا؟ ألا إنكم تملكون الأخرى كما ملكتم الاولى‏ «فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَ الْأُولى‏» «وَ ما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ زِينَتُها وَ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَ أَبْقى‏» (28: 60) أم لأن اللَّه يخافكم فيفضلكم فيها كما فضّلكم- بحسبانكم- في الدنيا- و هو يخاف منه و لا يخاف! ام لأنه يخلف وعده جهلا ام ظلما او عجزا أم ماذا؟ و ما ذلك إلّا جهالة و جنة ممن أترفته الحياة الدنيا، تنفّخا منها و تنفّجا فيها!.

هذه مقالة و حالة صاحب الجنة هنا، و أما صاحبه الفقير الذي لا مال له و لا نفر و لا جنة عنده و لا ثمر، و لكنه غني باللَّه، فقير المال غني الحال، إنه يواجه صاحبه الفقير الحال، غني المال، كواعظ منبّه، تنديدا به في حواره، و تهديدا له في بداره:

قالَ لَهُ صاحِبُهُ‏ «1» وَ هُوَ يُحاوِرُهُ أَ كَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (37)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). قوله تعالى‏ «قالَ لَهُ صاحِبُهُ‏- و من قبل- فقال لصاحبه، حيث يعبر عن كل من الموحد و المشرك انه صاحب للآخر يدلنا على ان لفظة الصحبة و الصحابة ليست لتدل على الصحبة الايمانية او الشركية، و الا لأصبح هنا المؤمن مشركا و المشرك مؤمنا، فاستدلال إخواننا بآية الغار «إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ» ان أبا بكر لكونه صاحب الرسول في الغار و ليس غيره في نص القرآن فهو الصحابي المؤمن الوحيد لرسول اللَّه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 94

لكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَ لا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً (38).

هل أنت كافر بمثلث: «خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا»؟ و أنت مقرّ انه ربك‏ «وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلى‏ رَبِّي»!.

الصاحب المؤمن الفقير لا يهاب في حواره صاحبه الكافر النكير، فلا يبالي مالا و لا نفرا، و لا يداري ثراء و لا بطرا، و لا يماري إلّا مراء ظاهرا و جدالا بالتي هي أحسن بصامد الايمان و خالص اليقين و الاطمئنان، بتنديد شديد و تبديد حديد هدم صرح كفره، تزييفا لموقفه الكافر و تثبيتا لموقفه المؤمن: «لكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي» لا سواه من آلهة مختلفة مختلقة، هو ربي في حلي و ترحالي، في كافة احوالي، تتمثل ربوبيته الوحيدة فيّ على أية حال، دون أن اوحّده في لفظة القول‏ «وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلى‏ رَبِّي» ثم أشرك، به في الفعل: «ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً. وَ ما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً. وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلى‏ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً» كأنه رب لربه يملكه، دون ان يملكه ربه ..

لكنا ..

لكِنَّا ... لا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً» في اي مقال او حال، في ماض او مستقبل او حال! أ ترى «لكنّا» هي لكننا مخففة يعني بها قبيلة الايمان؟ و قد يصح لفظيا و معنويا ثم يبعده «ربي»! ام هي مدغمة «لكن انا» و هو أقرب، إعراضا عن الإنية و الأنانية المشركة لمحاوره الكافر و تعريفا بكيانه كمؤمن، ف

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

إنه مخدوش بآيتي الكهف، فالثابت من الصحبة ليس إلّا صحبته في الغار و أما الصحبة الايمانية فلا تثبتها كما قد لا تنفيها اللهم إلّا قوله تعالى: «فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ» حيث اختص سكينته بالرسول (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) دونه و هو بحاجة حين يحزن الى السكينة و قد «أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى‏ رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» (9: 26) و (48:

26)! راجع تفسير سورة الفتح من الفرقان ج: 26.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 95

«هُوَ اللَّهُ رَبِّي» بيان واف لكيانه «أنا» و اين «انا» من كافر و «انا» من مؤمن؟! الكافر يجعل «انا» ه محورا رئيسيا و حتى لربه و كما قال‏ «لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً» كأنه يملك ربه، و المؤمن يجعل «انا» ه لا شي‏ء إلّا ما ربّاه ربه «لكن انا»: «هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَ لا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً»! هنالك ثالوث من «انا» انحسه دعوى الألوهية من غير اللَّه‏ «أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى‏» ثم دعوى الوحدة الحقيقة مع اللَّه «انا هو و هو انا» ثم انا المحور و اللَّه الحائر حول هذا المحور، ثالوث الانحراف و الانجراف الى الإنية و الأنانية.

و صالحه «أنا هو الله ربي» حيث‏ «لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ» هو الأصل الأصيل و لا خبر عني «انا» إلا ما هباني ربي، فانا صفر الوجود و هو صرف الوجود، انا مبتدء هو مبدئه و خبره و مبتدئه و منتهاه‏ «لكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي» و ما أحلاه توحيدا «1».

أ ترى أن صاحبه كان مشركا ناكرا للمعاد لمكان الظنّة الكافرة ذات أبعاد- 1- «ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً» تأبيدا للحياة الدنيا- 2- «وَ ما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً» ترديدا في الحياة الآخرة- 3- و تنديدا بوعد اللَّه للمؤمنين و وعيده لغير المؤمنين: «وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلى‏ رَبِّي ..»!.

أم إنه لم يكن مشركا و ثنيا يعبد أصناما، حيث المشركون ينكرون المعاد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 4: 222- اخرج ابن أبي حاتم عن اسماء بنت عميس قال‏ علمني رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) كلمات أقولهن عند الكرب «الله الله ربي لا أشرك به شيئا».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 96

و هو متردد «ما أَظُنُ‏ .. وَ لَئِنْ رُدِدْتُ» و لهم ارباب متعددون و هو يقول:

«ربي» .. و هم بعاد عن‏ «ما شاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ» إلّا ان يؤمنوا، و قد رجاه صاحبه ان يقوله! فهو إذا أشرك بربه بزهوة الثراء و الخيلاء كما هو للأغنياء الأغبياء ذوي الانفة و الكبرياء، «وَ لا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً» في تمنيه بعد الحسبان تنديد بنفسه ان حسب قوته و جنته تكفيان بقاء بادرار و استمرار لثمره من دون اللَّه، و هذه حالة شركية تتمثل لكل من جنّته الثراء و إن كان من الموحدين في قوله الخواء. «وَ ما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ.

وَ لَوْ لا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ ما شاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ .. (39)

«لو لا .. قلت: ما شاء اللَّه كائن لا ما شئته أنا «لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ» دونني أنا، فانا أنما أمشي و أمضي على هامش مشيئة اللَّه، دونما استقلال في نفسي و لا استغلال لمشيئة اللَّه، و «ما شاءَ اللَّهُ» تعم المشيئة التشريعية و التكوينية سواء، لا شريك له فيهما سواء، فلا شرعة صالحة الّا من اللَّه، و لا تكوين أيا كان إلّا من اللَّه، من خير ف «الخير كله بيديه» و من شر ف «الشر ليس اليه» لان تكوينه- أيا كان ينتهي الى اذنه، فلو لا إذنه أخيرا بعد اختيار المختار لم يحصل إذ «لا مؤثر في الوجود إلا الله»:

فانه‏

«لا جبر و لا تفويض بل امر بين أمرين».

ليست الاختيارية في فعل إلّا بمقدمة او مقدمات اختيارية، لا أنه بمقدماته كلها اختيارية، مهما اختلفت الأفعال الاختيارية ثوابا و عقابا بقلة او كثرة في مقدماتها الاختيارية و الاضطرارية، فما يشاءه اللَّه من شر أنت تفعله باختيارك لا يصبح اضطراريا لأنه شاءه، إذ ما شاءه إلّا بعد ما شئته و لكي لا تجبر على ترك الشر كما و لا تجبر على فعله و فعل الخير او تركه، مهما يمتاز

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 97

الخير بتوفيق من اللَّه، و ليس اللَّه بموفق شريرا في شره:

«ما شاءَ اللَّهُ» كلمة جامعة تجمع عالمي التكوين و التشريع، إذ «لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ» فان كل قواتك من اللَّه، و هي لا تكفي حولا عن معصية اللَّه و قوة في طاعة اللَّه إلّا باللَّه، فهما بعد ان متناصران في قوة باللَّه، ثم و لا تكفي فعلا لمعصية اللَّه و تركا في طاعة اللَّه إلّا و أخيرا بقوة اللَّه، فبقوته أعطاك امتحانا ما تشاء التخلف عنه، ثم بقوة منه اخرى يشاء ما تشاء مما لا يرضاه تشريعا، فهو تكوين في امتحان يخالف تشريعا، ليس لأنه مغلوب في عصيانه، بل تحقيقا لواقع الإختيار الامتحان.

و قد يعني‏ «لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ» معنى «لا حول و لا قوة إلا بالله» «1» حيث القوة في ترك المعصية حول عن معصية اللَّه، و القوة على الطاعة قوة باللَّه،

«لا حول عن معصية الله إلا بقوة الله و لا قوة على طاعة الله إلا بعون الله» «2».

و انها باب من أبواب الجنة «3» و

كنز من كنوز الجنة «4»

و دافعة كل آفة حتى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر- اخرج ابن أبي شيبة و احمد و النسائي عن معاذ بن جبل ان النبي (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: ألا ادلك على باب من أبواب الجنة؟ قال: ما هو؟ قال (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم): «لا حول و لا قوة الا بالله»:

(2، 3)

المصدر- اخرج ابن مردويه و الخطيب و الديلمي من طرق عن ابن مسعود عن النبي (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: أخبرني جبرئيل ان تفسير لا حول و لا قوة الا باللَّه انه ...

و

في معناه ما رواه في كتاب التوحيد عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر (عليه السلام) قال: سألته عن معنى «لا حول و لا قوة الا بالله» فقال: معناه: لا حول لنا عن معصية اللَّه الا بعون اللَّه و لا قوة لنا على طاعة اللَّه إلا بتوفيق اللَّه عز و جل.

(4)

المصدر اخرج ابن أبي شيبة و احمد عن أبي ذر قال قال رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 98

تأتي المنية «1» و مبقية لكل عطية إلهية «2» و تزجر الشياطين بها الملائكة «3» و دواء من كل بلية «4» مهما كانت حرقا او غرقا «5» ام أية بلية! «لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ» و «أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً» (2: 165):

فليقل الموحد «ما شاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ» و ليفعل‏ «ما شاءَ اللَّهُ ...»

و ليعتقد «ما شاءَ اللَّهُ ...»! فيصبح بكيانه ككل‏ «ما شاءَ اللَّهُ ..» لا في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و آله و سلم) الا ادلك على كنز من كنوز الجنة: لا حول و لا قوة الا باللَّه؟

و اخرج نصه او ما في معناه جماعة آخرون.

(1).

المصدر اخرج ابو يعلى و ابن مردويه و البيهقي في الشعب عن انس قال قال رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم): ما أنعم اللَّه على عبد نعمة في اهل او مال او ولد فيقول‏ «ما شاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ» الا دفع اللَّه عنه كل آفة حتى تأتيه منيته و قرأ «وَ لَوْ لا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ ما شاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ».

(2)

المصدر اخرج ابن مردويه عن عقبة بن عامر قال قال رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) «من أنعم اللَّه عليه نعمة فأراد بقاءها فليكثر من «لا حول و لا قوة الا بالله» ثم قرأ رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) «وَ لَوْ لا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ ما شاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»

أقول و قد فسره الرسول (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) باضافة الحول كما قدمناه و هنا و قبله يستدل لها بالآية و ليس فيها «حول».

(3)

نور الثقلين 3: 261 ج 85 في محاسن البرقي عن أبي الحسن الرضا (عليه السلام) قال‏ قال لي: إذا خرجت من منزلك في سفر او حضر فقل: بسم اللَّه آمنت باللَّه توكلت على اللَّه، ما شاء اللَّه لا حول و لا قوة الا باللَّه، فتلقاه الشياطين فتضرب الملائكة وجوهها و تقول: ما سبيلكم عليه و قد سمى اللَّه و آمن به و توكل على اللَّه و قال «ما شاء الله و لا قوة الا بالله»؟!.

(4)

الدر المنثور اخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال قال رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) «و لا حول و لا قوة بالله» دواء من تسعة و تسعين داء أيسرها الهم.

(5)

نور الثقلين 3: 260 ج 84 في تهذيب الأحكام عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) قال: اربع لأربع- الى قوله: و الثالثة للحرق و الغرق: ما شاء اللَّه و لا قوة الا باللَّه و ذلك انه يقول‏ «وَ لَوْ لا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ ما شاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ‏-

أقول- و قد أحرقت جنته بحصبان من السماء فأصبحت صعيدا زلقا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 99

لفظة القول دون فعل و اعتقاد ام و في اي منهما ام فيهما دون لفظة القول.

أنت و كل فاعل مختار انما تعمل بقوة اللَّه، منك المشية و الإختيار و تقديم ما عندك من طاقات و امكانيات، و من اللَّه التوفيق بإزالة الموانع و تهيئة ما لا تسطع من الأسباب‏

«لا جبر و لا تفويض بل امر بين أمرين»!.

.. إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مالًا وَ وَلَداً (39) فَعَسى‏ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَ يُرْسِلَ عَلَيْها حُسْباناً مِنَ السَّماءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً (40) أَوْ يُصْبِحَ ماؤُها غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً (41) لك جنة قد يرسل عليها ربي حسبانا «1» من السماء خلاف حسبانك فيها: «ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً»! ولي جنة خير من جنتك هي لا تبيد أبدا و لا يرسل ربي عليها حسبانا من السماء إلّا رحمة متواصلة و رضوانا، فأين جنة من جنة، و اين عقلية ايمان و جنة؟:

و «عسى» هنا ترجّ دون تردد تادبا أمام وعد اللَّه الحق، علّه يؤهل له! أنا هنا اقل منك مالا و ولدا و هنالك في يوم اللَّه أكثر بل ليس لك هنالك إلّا حسبان بدل الجنة و الرضوان، و أنت هنا اكثر مني مالا و ولدا قد يرسل عليها حسبان كما لك هنالك حسبان، و اين حسبان من رضوان.

جنتك قد تصبح بكفرانك صعيدا زلقا: لا ماء فيها و لا كلاء «أَوْ يُصْبِحَ ماؤُها غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً»!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الحسبان هو الحساب و هو هنا ما يحاسب عليه فيجازي و هو الظن، فالحسبان الاول في المتن هو الثاني و الثاني، هو الثالث، فقد يكون عذابا بحسبان او رحمة بحسبان فليس الحسبان إذا- فقط- حسبان العذاب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 100

فقد تصطدم الجنة ببرودة ام حرارة زائدة فتيبس ثم تجبر حيث تعمّر، و لكنما الحسبان من السماء يجعلها غير قابلة الزرع و الإنماء- إذ «تصبح‏ صَعِيداً زَلَقاً»: دحضا لا نبات فيه.

ام قد يقل الماء المتفجر ام يسد بسدات تحت الأرضية فيرجع بالتنقية، و لكنما الغور إبعاد له أو إفناء «فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً»!.

وَ أُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلى‏ ما أَنْفَقَ فِيها وَ هِيَ خاوِيَةٌ عَلى‏ عُرُوشِها وَ يَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً (42).

لقد حصل فعلا ما أنذره صاحبه حيث‏ «أُحِيطَ بِثَمَرِهِ» بما أحاط اللَّه ثمره بحسبان من السماء إمّا ذا، فاستأصل ثمره‏ «وَ كانَ لَهُ ثَمَرٌ» و قد تكون هذه الاحاطة السماوية من كل الجوانب كالبحرية: «جاءَتْها رِيحٌ عاصِفٌ وَ جاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ..» (10: 22)

و الإصابة المحيطة هي التي لا منفذ عنها و لا مخلص منها: «فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلى‏ ما أَنْفَقَ فِيها»: صمر مدمر من كل جانب و كأنه لم يكن له ثمر، حيث لم يبق له أثر إلّا «صَعِيداً زَلَقاً» و «يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ» كناية عن الإنفاق النادم حيث تهدّر دون اي ثمر «و هي» الجنة «خاوِيَةٌ عَلى‏ عُرُوشِها» مهشمة محطمة تذروه الرياح و كان اللَّه على كل شي‏ء مقتدرا «و هو يقلب كفيه» أسفا على ماله الضائع بحاله الضائعه‏ «وَ يَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً» ولات حين مناص و فرار عما قدّمه، و من ورائه جهنم و بئس القرار! ترى و لماذا أصبحت الجنتان في سرد القصة كأنهما جنة واحدة:

آتت- أكلها- لم تظلم- جنته- هذه- منها- جنتك- من جنتك- عليها- فتصبح- ماءها- فيها- عروشها-؟

علهما لأنهما أصبحتا كجنة واحدة لمكان زرع بينهما كما فيهما مهما فصل بينهما جدار من نخل، فدخوله في قسم منها دخول فيهما، أو أنه دخلهما.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 101

وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ ما كانَ مُنْتَصِراً (43) هُنالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَواباً وَ خَيْرٌ عُقْباً (44):

و رغم نفره من ولد و سواهم‏ «لَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ» حيث أحاط اللَّه و قد كان يعتز بمال و نفر «وَ ما كانَ مُنْتَصِراً» و بمن ينتصر؟

بمن لا ينصرونه او ينصرونه؟ أمن اللَّه؟ و لا قوة إلّا باللَّه! او من حسبان السماء؟ و ليس إلا امر اللَّه! «هُنالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ» لا لسواه إلّا باطلا.

و ماذا تعني «هنالك» حيث تخص بها الولاية للَّه؟ و كيف بوصف اللَّه بالحق و لا اله إلّا اللَّه الحق؟ ثم ثوابه و عقبه خير من ايّ كان و لا خير إلّا منه؟

فهل «هنالك» تشير الى مكانة الحيطة الإلهية بعذاب ألا ناصر فيها إلّا اللَّه حيث تعني الولاية النصرة، فمهما كانت الإصابة من غير اللَّه تدفع بغير اللَّه، فالإصابة الخاصة من اللَّه لا دافع عنها إلّا اللَّه الحق، دون الآلهة الباطلة التي يتخذونها آلهة دونه، فحين تتقطع الأسباب و تحار دون الحيطة الغيبية الألباب، تصرخ الفطرة أن لا إله الا اللَّه، و «الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ» دون سواه! و لكنه على صحته في نفسه لا يناسب‏ «هُوَ خَيْرٌ ثَواباً وَ خَيْرٌ عُقْباً» حيث الموقف هنالك هو العقاب و ليس الثواب! ام إن «هنالك» البعيد هي الحياة البعيدة الأخرى، فالولاية النصرة و المالكية للتدبير هي‏ «لِلَّهِ الْحَقِّ» دون الآلهة الباطلة «هُوَ خَيْرٌ ثَواباً» من سواه لو كان لهم ثواب و لا ثواب لسواه‏ «وَ خَيْرٌ عُقْباً» عاقبة من سواه لو كان لهم عقب و لا عقب لسواه، أو ان «خير» مقابل الشر فليس هنا تفضيلا، فليس الخير ثوابا و عقبا إلّا له، و لمن سواه الشر ثوابا و عقبا!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 102

و هذا على حقه في نفسه، و بالنسبة لثوابه و عقبه قد لا يناسب الحيطة المدمرة الإلهية، اللّهم إلّا و هو أشد تنكيلا و عقابا! ام إن «هنالك» يجمع بين الموقف يوم الجمع و يوم الدنيا حين يحاط بالإنسان فيجمع بين المناسبتين، فإذا كانت ولاية النصرة و التدبير للَّه الحق دون آلهة الباطل، ففروا- إذا- الى اللَّه الحق، فهل تريدون من الآلهة إلّا ثوابا و عقبا فهو «خَيْرٌ ثَواباً وَ خَيْرٌ عُقْباً»! إن الولايات الهامشية الاختيارية لمن سوى اللَّه ليست إلّا من قبل اللَّه كما ولىّ استخلافا دون تخويل، فلا تركنوا إليها اللّهم إلّا الى حقها «1» دون باطلها، تذرعا إلى تحقيق أمر اللَّه، و الزلفى إلى ولاية اللَّه، و لتكونوا على نبهة دائبة ألّا ولي إلّا للَّه، و لا ثواب و لا عقب إلّا من اللَّه، ففي ظل ولاية اللَّه تتوارى الولايات كلها، و «لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»! وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ وَ كانَ اللَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ مُقْتَدِراً (45) هنا مثل للحياة الدنيا يأتي في يونس اكثر تفصيلا: «إِنَّما مَثَلُ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَ الْأَنْعامُ حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَ ازَّيَّنَتْ وَ ظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و من حق الولايات الهامشية ولاية الرسول (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) و في ظلها ولاية علي (عليه السلام) و الائمة المعصومين من ولده، و قد تبرز ولاية علي (عليه السلام) تأويلا ل‏ «الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ» كمصداق مختلف فيها في الولايات تحت ظل الولاية المحمدية كما

رواه في الكافي باسناده عن علي بن حسان عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) قال: سألته عن قوله عز و جل‏ «هُنالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ» قال: ولاية امير المؤمنين (عليه السلام) و رواه مثله عن عبد اللَّه الرحمن بن كثير عنه (عليه السلام)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 103

عَلَيْها أَتاها أَمْرُنا لَيْلًا أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» (24).

ألا إن الدنيا

«كروضة اعتمّ مرعاها و أعجبت من يراها، عذب شربها، تمج عروقها الثرى و ينظف فروعها الندى، حتى إذا بلغ العشب أبانه و استوى بنانه، هاجب ريح تحت العروق، و تفرق ما اتّسق، فأصبحت كما قال اللَّه‏ «هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ وَ كانَ اللَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ مُقْتَدِراً» «1»

فهي إذا

«لا تعدوا إذ تناهت إلى أمنية اهل الرغبة فيها و الرضا بها أن تكون كما قال اللَّه‏ «كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ» .. «2».

أ ترى‏ «الْحَياةِ الدُّنْيا» هنا هي الرديئة الدنيئة؟ و «كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ»؟ قد لا يناسبها، فانه رحمة من سماء الرحمة اختلط بها نبات الأرض! أم هي أدنى الحياة العقلية إلينا و أقربها، من وراءها الحياة البرزخية و الاخرى و هما العليا؟ و يناسبها «كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ» و لكنما العاقبة «فَأَصْبَحَ هَشِيماً ..» قد لا تناسبها!- ام هي الدنيا بمعنييها حيث يناسبان موضعيها «ماء و هشيما»؟ و هذا أنسب و أحرى! فكما الماء النازل من السماء طاهر في نفسه، عال في مكانه و مكانته، و حين ينزل يختلط به نبات الأرض لينبت، فلو لا الماء فلا نبات و لا كلاء، كما لو لا بذور النبات لم يفد الماء، و من ثم نبات الأرض الظاهر الزاهر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 362 ح 92 في روضة الكافي باسناده عن علي بن الحسين (عليه السلام) حديث طويل في الزهد في الدنيا و فيه يقول (عليه السلام) «فهي كروضة ..»

(2) عن نهج البلاغة عن الامام امير المؤمنين (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 104

بزخرفاته يصبح هشيما تذروه الرياح، حيث تنتهي شريط الحياة للنبات.

كذلك الروح الإنساني الطاهر ينزل من سماء المشيئة الإلهية إلى أرض البدن‏ «وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ» (32: 9) و أرض الأرض: «قالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلى‏ حِينٍ» (7: 24) فاختلط به نبات الأرضين زينة و زخرفة، ثم يصبح البدن و من ثم أرض البدن بنباته هشيما تذروه الرياح! و الهشيم: الكسير الرخو، و الذرو:

التفريق، فالرياح تفرّق كسير النبات و رخوها كأن لم تكن شيئا! مشهد للحياة الدنيا، خاطف قصير يلقى في النفس لها ظل الفناء في مثلث نزول ماء السماء و خلطه و هشيمه، فلا بقاء إذا لدنياها، و الباقي هو ماء السماء، روح الإنسان بعد تهشّم البدن بدنياه، فليتزود نازل السماء من منزل الأرض زادا لأخراه.

أ لهذه الخليطة الهشيمة، الحطيمة اليتيمة الزهيدة، القصيرة الوهيدة، لهذه تتنافس، فتتقاعس عن واجب الحياة، عن أخراها الى أولاها، لحد تظن ألّا تبيد هذه أبدا؟! حتى متى الغفلة و الغفوة عن حق الحياة و حاقها، الى باطلها و زائلها «يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ» (30: 7) الْمالُ وَ الْبَنُونَ زِينَةُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ الْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَ خَيْرٌ أَمَلًا (46).

أ ترى أن زينة الحياة الدنيا محرّمة على أهلها؟ «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ .. قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَ ما بَطَنَ ..» (7: 33)!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 105

فمن هذه الزينة باقيات صالحات هي خير عند ربك ثوابا و خير أملا، و منها زائلات طالحات لا خير فيها و لا ثواب إلّا شر و تباب! الأعمال كلها باقيات أقوالا و افعالا و نيات، من صالحات و طالحات باغيات، فالصالحات خير عند ربك ثوابا كما الطالحات شر لا تخلّف إلّا عقابا، و الصالحات خير أملا يأملها فاعلها في الدارين، و الطالحات شر املا في الدارين: «وَ يَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً وَ الْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَ خَيْرٌ مَرَدًّا» (19: 76) و إذا كان الإنسان يتعلق بالمال و الأولاد ثوابا و أملا و مردا، فالباقيات الصالحات منهما و سواهما خير ثوابا و خير أملا و خير مردا! و زينة المال و الأولاد قد تكون باقية صالحة لحد توخذ في كل مسجد «يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ» (7: 31) حيث تشمل المال إنفاقا له في كل مسجد و الأولاد تعبّدا كأمثالكم في كل مسجد، فيصبحان على زينتهما من الباقيات الصالحات، فزينة المال و الأولاد كسائر الزينة في الحياة الدنيا هي زينة اللَّه حيث زينها اللَّه و جعلها وسيلة للحياة الأخرى، و لكنما الشيطان يزينها زينة اخرى أنها دائبة ترغب في نفسها فتزلّ فيها قدم بعد ثبوتها، او تضل حين ورودها لمن أبصر إليها فأعمته و لم يبصر بها فبصرته: «زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَياةُ الدُّنْيا وَ يَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ...»

(2: 212) «زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ مِنَ النِّساءِ وَ الْبَنِينَ وَ الْقَناطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَ الْفِضَّةِ وَ الْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَ الْأَنْعامِ وَ الْحَرْثِ ذلِكَ مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ اللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ» (3: 14).

فللزينة قيمة ما تزيد في قيمة الإنسان و هي الباقية الصالحة، و ليست لها قيمة ما تنقص من قيمة الإنسان و تجعله كحيوان، و هي الباقية الطالحة، و ما أهونها و احونها زينة تسلب قيمة الإنسان بدل أن تجلب قيمة للإنسان!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 106

[سورة الكهف (18): الآيات 47 الى 59]

وَ يَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبالَ وَ تَرَى الْأَرْضَ بارِزَةً وَ حَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً (47) وَ عُرِضُوا عَلى‏ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونا كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً (48) وَ وُضِعَ الْكِتابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَ يَقُولُونَ يا وَيْلَتَنا ما لِهذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصاها وَ وَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً وَ لا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً (49) وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَ فَتَتَّخِذُونَهُ وَ ذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِي وَ هُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً (50) ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَ ما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً (51)

وَ يَوْمَ يَقُولُ نادُوا شُرَكائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَ جَعَلْنا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً (52) وَ رَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُواقِعُوها وَ لَمْ يَجِدُوا عَنْها مَصْرِفاً (53) وَ لَقَدْ صَرَّفْنا فِي هذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَ كانَ الْإِنْسانُ أَكْثَرَ شَيْ‏ءٍ جَدَلاً (54) وَ ما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى‏ وَ يَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ قُبُلاً (55) وَ ما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ يُجادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَ اتَّخَذُوا آياتِي وَ ما أُنْذِرُوا هُزُواً (56)

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْها وَ نَسِيَ ما قَدَّمَتْ يَداهُ إِنَّا جَعَلْنا عَلى‏ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذانِهِمْ وَقْراً وَ إِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدى‏ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً (57) وَ رَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤاخِذُهُمْ بِما كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً (58) وَ تِلْكَ الْقُرى‏ أَهْلَكْناهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَ جَعَلْنا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً (59)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 108

وَ يَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبالَ وَ تَرَى الْأَرْضَ بارِزَةً وَ حَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً (47):

و ترى أين و أنى يبرز خير الباقيات الصالحات ثوابا و أملا و مردا؟:

«يَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبالَ ..» و هنا يجمع ردفا بين يومي القيامة إماتة: «نُسَيِّرُ الْجِبالَ ..» و احياء: «وَ حَشَرْناهُمْ ..» جمعا للموتى في الحياة فحسابا و جزاء وفاقا! و بماذا يعطف «و يوم» في بروز الباقيات الصالحات و الطالحات؟ علّه قبله يوم البرزخ فانه دار جزاء برزخ، و قبله الدنيا حيث يرى فيها الباقيات الصالحات و الطالحات بشي‏ء من آثارها، مثلث من الحياة في كلّ حسبها يرى آثار الصالحات و الطالحات، و كما آية السعي تسعى: «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏» كضابطة عامة تبتدء من الدنيا «وَ أَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى‏» انتقالا إلى البرزخ‏ «ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى‏» الى الحياة الاخرى، فليست المساعي و الصالحات موقوفة في ثوابها و أملها و مردّها في الحياة الاخرى، بل تبرز بدرجات او دركات في مثلث الحياة.

و «نُسَيِّرُ الْجِبالَ» هي قيامة الأرض بما فيها و عليها، باقتلاع الجبال عن أصولها و تسييرها سريعة لحد «تَرَى الْأَرْضَ بارِزَةً» ببروز قواعد الجبال و الاتلال، و سرابا: «وَ سُيِّرَتِ الْجِبالُ فَكانَتْ سَراباً» (78: 20) حيث‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 109

«تذل الشم الشوامخ و الصم الرواسخ فيصير صلدها سرابا رقراقا و معهدها قاعا سملقا» «و يسألونك عن الجبال قل ينسفها ربي نسفا فيذرها قاعا صفصفا. لا ترى فيها عوجا و لا أمتا» (20: 107) أرضا مستوية ملساء دون انخفاض فيها و لا ارتفاع- «وَ حَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً» في قيامة التعمير بعد قيامة التدمير، و لكل رجفة تناسبه‏ «يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ، تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ» (79: 7) «وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى‏ فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ. وَ أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها وَ وُضِعَ الْكِتابُ وَ جِي‏ءَ بِالنَّبِيِّينَ وَ الشُّهَداءِ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ» (39: 69) و لعلّ من بروز الأرض إشراقها بنور ربها حيث تطوى ظلمتها و ظلاماتها طيا، كما و أنها تبرز أثقالها المخبوءة فيها «وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها».

و إنه الحشر العام و التام دون إبقاء: «فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً» من الأوّلين و الآخرين: «وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْناهُمْ جَمْعاً» (18: 99) «وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ» (6:) 128).

حشر تبدى فيه الأرض بارزة عارية من أتلال و أشجار و جبال و عن بنايات إمّا ذا من حواجز و فواصل بروزها صافية مستوية، فالقوة التي تسيّر الجبال و تصيّرها كالعهن المنفوش، ماذا ترى تفعل بما دونها من أتلال أم ما ذا؟: فللأرض بروز اوّل رفعا لحواجزها، و بروز ثان إخراجا لأثقالها، و بروز ثالث إشراقا بنور ربها، و من ثم جمع على ظاهرها الساهرة «وَ حَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً» «1» و المغادرة هي المشاركة و الإخلال‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 265 ج 106 في كتاب جعفر بن محمد الدرويستي باسناده الى ابن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 110

بالشي‏ء، فلا متاركة مع أحد و لا إخلال بأحد! تتكشف الأرض و تتكشف خبايا من يحشر على الأرض فلا تخفى منها و لا منه خافية:

وَ عُرِضُوا عَلى‏ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونا كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً (48).

أ ترى انهم لم يكونوا بمعرض «ربك» حتى «عرضوا» بعد حشرهم، «لا تَخْفى‏ مِنْكُمْ خافِيَةٌ» في الدنيا و الآخرة، ثم و من هذا المطلع عليهم قبل «ربك» حتى يعرضهم على ربك؟

ان الكون كله بمعرض اللَّه أيا كان و أيان، و لكنما العرض على «ربك» عرض على ربوبية، فهنا عرض اوّل طول الحياة الدنيا على ربوبية التكليف و هو أمانة الرب على العواتق‏ «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَ أَشْفَقْنَ مِنْها وَ حَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولًا» (33: 72) و هناك عرض على ربوبيته الجزاء «وَ عُرِضُوا عَلى‏ رَبِّكَ صَفًّا» و لا يعرضهم إلّا ربك او من يعرضهم من عمّاله باذنه الموقف التساءل و الحساب فالجزاء، دون ان تخفى منهم خافية:

«يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفى‏ مِنْكُمْ خافِيَةٌ» (69: 18) فليس العرض كما الأشهاد لأنه خاف عليه خافية «أُولئِكَ يُعْرَضُونَ عَلى‏ رَبِّهِمْ وَ يَقُولُ الْأَشْهادُ

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

عباس قال: لما نزلت هذه الآية على رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) «وَ حَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً» غشي عليه و حمل الى حجرة ام سلمة فانتظره أصحابه وقت الصلاة فلم يخرج فاجتمع المسلمون فقالوا: ما لنبي اللَّه قالت ام سلمة:

أن نبي اللَّه عنكم مشغول، ثم خرج بعد ذلك فرقى المنبر فقال: ايها الناس انكم تحشرون يوم القيامة كما خلقتم حفاة عراة، ثم قرأ على أصحابه‏ «وَ حَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً» ثم قرأ «كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ»:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 111

هؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلى‏ رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ» (11: 18).

و لان العرض فيه الهول المطّلع، و آياته تخص عرض الظالمين، فهو- إذا- خاص بغير المؤمنين، و أما هم فوافدون إلى ربهم وفد الكرام الى الكريم- «عُرِضُوا (عَلى‏ رَبِّكَ) صَفًّا» فهم بصفهم في عرضهم يزدادون هولا، فهنا صف هائل لأهله، حيث لا حكمة فيه إلّا هوله، و في القتال صف هائل للعدو «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ» (61: 4) و أين صف من صف! ثم الخطاب الهائل لذلك الصف و العرض الهائل: «لَقَدْ جِئْتُمُونا كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ...» وي كأنه خطاب حاضر، لا مستقبل، تجسيما و تحضيرا لموقف الخطاب العتاب! و ترى كيف المجي‏ء بمعرض الرب‏ «كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ»؟ لقد خلقنا فرادى دون ما خوّلنا و لا شفعاء و كذلك نجيئه كما خلقنا: «وَ لَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادى‏ كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ تَرَكْتُمْ ما خَوَّلْناكُمْ وَراءَ ظُهُورِكُمْ وَ ما نَرى‏ مَعَكُمْ شُفَعاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَ ضَلَّ عَنْكُمْ ما كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ» (6: 94) هذا مجي‏ء «كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ» و مجي‏ء آخر معه‏ «كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ» (21: 104) «كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ» (7: 29) فكما خلقناكم فرادى جئتمونا فرادى، و كما خلقناكم من تراب جئتمونا عائدين كبدئكم من تراب، كما خلقناكم اوّل مرة جئتمونا ثاني مرة:

«بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً»: «أَ فَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَ أَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ» (23: 115) زعمتم إحالة موعد العرض و الحساب، و حسبتم عبث الخلق و عدم الرجوع و الإياب، و لذلك اثاقلتم إلى الأرض و رضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة!:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 112

وَ وُضِعَ الْكِتابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَ يَقُولُونَ يا وَيْلَتَنا ما لِهذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها وَ وَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً وَ لا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً (49).

ذلك الكتاب هو كتاب الأعمال الصوتية و الصورية إمّا ذا كما استنسخه اللَّه‏ «هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (45: 29) استنساخا لنفس العمل كأعمال‏ «وَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً»

«كأنه فعله تلك الساعة» «1»

فلو لم تكن نفس الأعمال و كانت حكاية اخرى غيرها لم يجدوا ما عملوا حاضرا! «وَ لا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً» أن يكتب ما لم يعمل من سوء، او يكبت العامل أزيد من استحقاق جزاء غير وفاق، أم لا يكتب سوء او ينقص من سوء ظلما على تاركي السوء إمّا ذا؟.

«وَ وُضِعَ الْكِتابُ» بمعرض المحشر حيث يراه و يسمعه و يفهمه صاحبه و سواه، و وا ويلاه من هذا العرض و ذلك الوضع، «فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ» و هم يتأملونه و يتملّونه فإذا هو جامع لما أجرموا دون إبقاء «مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ» خائفين على حبه، حبّا لأنه منهم، و خوفا من عقباه الحاضرة، فالإشفاق «من» يزيد خوفه على حبه، و الإشفاق «في» يزيد حبه على خوفه، فلان إشفاقهم خال عن رجاء فخوفه زائد على حبه، بل و لا حب بعد هنيئة يرون جزاء ما فيه و يتمنون فراقه: «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 266 في تفسير العياشي عن خالد بن نجيح عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) قال: إذا كان يوم القيامة رفع الإنسان كتابه ثم قيل له: اقرءه- قلت: فيعرف ما فيه؟ فقال: انه يذكره، فما من لحظة و لا كلمة و لا نقل قدم إلّا يذكره كأنه فعله تلك الساعة فلذلك قالوا: «يا وَيْلَتَنا ما لِهذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها»

و

في نقل آخر و قال (عليه السلام): يذكر العبد جميع ما عمل و ما كتب عليه كأنه فعله تلك الساعة- ثم استدل (عليه السلام) بالآية:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 113

وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَ بَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَ يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَ اللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ» (3: 30) «و يقولون» و الهين حائرين آسفين‏ «يا وَيْلَتَنا ما لِهذَا الْكِتابِ» ما له من قوة ضابطة حافظة، لهذا الشريط و المسجلة «لا يغادر» معصية «صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها» «1» إحصاء لنفس الصغيرة و الكبيرة و رسمها لا اسمها، و كل مسجلة ام شاشة تلفزيونية إنما تحضر ما تلقته إذا سلمت و بقيت على حالتها الاولى حين سجّلت، و هذا الكتاب، المسجلة الأرضية بفضائها، و البدنية بأعضائها اما ذا، نراها تودي أمانتها بعد ما تمزقت: «إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ‏ .. يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها. بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى‏ لَها ..» «وَ وَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً» بما سجله اللَّه و أحضره‏ «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ ..»! و ليس حضور العمل حضورا لما يحكي عنه من قولة حاكيه ام كتابة، اللهم إلّا حضوره نفسه و قد انقضى ام تجسّمه و هو تجشّم! إذ ليس انقلاب العمل- و هو صورة- الى جسم- على فرض امكانيته ليس هو هو او صورته، ثم لا مبرر لهكذا قلب للعمل و لا يجدي نفعا! إن العمل أيا كان يستبقى دون عامله بزمانه و مكانه، و يستنسخ منه صور اخرى: «إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»: «وَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً» يعني أصل العمل المستمر و زيادة هي ما استنسخ منه في كتب صوتية و صورية اخرى من أرض بفضائها، و لا حضور للعمل معقولا هو

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 4: 229- اخرج الطبراني عن سعد بن جنادة قال: لما فرغ رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) من غزوة حنين نزلنا قفرا من الأرض ليس فيه شي‏ء فقال النبي (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) اجمعوا من وجد عودا فليأت به و من وجد عظما او شيئا فليأت به، قال: فما كان الا ساعة حتى جعلناه ركاما فقال النبي (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) أ ترون هذا فكذلك تجتمع الذنوب على الرجل منكم كما جمعتم هذا فليتق اللَّه رجل لا يذنب صغيرة و لا كبيرة فانها محصاة عليه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 114

حجة على العامل إلّا نفسه، و تزيده ما معه من صور مستنسخة أخرى، إذا فتجسّمه تجشّم و ليس به، و اللفظ او الكتاب الحاكيان ليسا نفس العمل، فلا معنى صحيحا ممكنا هو حجة على العامل إلّا حضور العمل، ام حضور صورته التي استنسخها اللَّه‏ «إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» سواء أ كان عمل القلب او القالب، في مثلث من الصور المعنوية و الصوتية و الصورية، كذلك اللَّه يفعل ما يشاء، حجة عينية حاضرة، و صورة حاذرة، و حصبا في سيرته، «إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» مثلث من الأهداف العادلة الكافلة لما يرام من العمل يوم القيامة! «وَ لا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً»! في ذلك الكتاب مربع من الشهادات، عينية سجلتها الأرض- 1- و الأعضاء- 2-، و قوليه- 3- يشهد بها الشهداء من الأنبياء، إمّا ذا- 4- كتبها الكرام الكاتبون، يعلمون ما تفعلون، علّه قولة ام كتابة التعبير، ام تسجيلة لصور الأعمال و أصوات الأقوال في سجلات الأرض و الأعضاء إمّا ذا؟

و علّ هنالك كتبا و دواوين منها ديوان السيآت كما الحسنات و النعمات على حدّ المروي عن الرسول (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) «1» فالكتاب الموضوع جنسه الشامل لها، يشمل كل كتاب يحصي الأعمال كما يشمل كتاب كلّ من العمّال! و ترى هذه الكبيرة تحصى في كتاب الأعمال فما بال الصغيرة تحصى و هي مكفّرة؟

ان الصغيرة مكفرة إذا تركت للذين آمنوا: «إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيماً» و لكنما الصغيرة التي تعمل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 4: 229- اخرج البزاز عن انس عن النبي (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: يخرج لابن آدم يوم القيامة ثلاثة دواوين، ديوان فيه العمل الصالح و ديوان فيه ذنوبه و ديوان فيه النعم من اللَّه عليه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 115

مع الكبيرة، او لغير المؤمنين لا تكفر! و يكفي الكفر كبيرة تحصى معه كل صغيرة و ان لم يأت بكبيرة اخرى! وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَ فَتَتَّخِذُونَهُ وَ ذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِي وَ هُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (50) لقد كرمكم ربكم إذا امر الملائكة بالسجود لآدم، و أهانكم إبليس إذ فسق عن أمر ربه، ثم أنتم هؤلاء تتخذونه و ذريته أولياء و هم لكم عدو، و ترفضون ولاية ربكم، فاذكروا فيما تذكرون ...» و إذ قلنا ...».

و ترى أن إبليس‏ «كانَ مِنَ الْجِنِّ» فلم يكن من الملائكة، كيف- إذا- يشمله ضمن الملائكة الأمر بالسجود لآدم؟

اجل انه لم يكن من الملائكة- قطعا- فإنهم‏ «عِبادٌ مُكْرَمُونَ. لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ» (21- 27)-

«ان الملائكة معصومون محفوظون من الكفر و القبائح بالطاف الله تعالى» «1».

انه‏ «كانَ مِنَ الْجِنِّ» و كان مع الملائكة و كانت الملائكة تراه أنه منها، و كان اللَّه يعلم أنه ليس منها فلما امر بالسجود كان منه ما كان» «2»

«فاستخرج ما في نفسه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 267 ج 117 في عيون الاخبار في باب ما جاء عن الرضا (عليه السلام) في هاروت و ماروت و فيه بعدان مدح (عليه السلام) الملائكة و قال: معاذ اللَّه من ذلك ان الملائكة .. بالطاف اللَّه تعالى- قالا قلنا له (عليه السلام): فعلى هذا لم يكن إبليس ايضا ملكا: فقال: لا- كان من الجن اما تسمعان اللَّه تعالى يقول:

«... كانَ مِنَ الْجِنِّ» فأخبر عز و جل انه كان من الجن و هو الذي قال اللَّه تعالى‏ «وَ الْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نارِ السَّمُومِ».

(2)

نور الثقلين 3: 267 ج 119 في تفسير العياشي عن جميل بن دراج عن أبي عبد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 116

بالحمية و الغضب» «1».

نتلمح كتصريحه من عدم اعتراضه على اللَّه: «لم يشملني الأمر إذ لم أكن من الملائكة» و ان اللَّه امره بخصوصه ام في الملائكة «ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ» (7: 12) انه شمله الأمر «كانَ مِنَ الْجِنِّ» فهو أعقل من ان يتحول الى قياس باطل بدل البرهان! فقد «كانَ مِنَ الْجِنِّ» كونا، و من الملائكة كيانا و محتدا في ظاهره حتى تبين أمره حين تخلّف عن أمر ربه! و قد فرع فسوقه عن أمر ربه بكونه من الجن، و لو كان من الملائكة لم يفسق.

ام و يعني معنى ثانيا: كان ممن يجن و يستر عن الملائكة كونه من الجن و كونه كافرا «فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ» فتبين لهم أنه كان من الجن و انه كافر، و على المعنيين معنيّان و ما أجملهما جمعا و مما يلمح لثانيهما «كان» حيث الاوّل كائن ما كان دون حاجة الى صيغة المضي، و لكن إخفاؤه عنهم كونا او كينونة هو الذي «كان» ثم «ففسق» تفريع للأول، و عطف ترتيب للثاني! فسق عن أمر ربه لأنه لم يكن من الملائكة و هم معصومون بل كان من الجن الوارد منهم الفسق، و كان ممن يجن حالته الكافرة، «وَ كانَ مِنَ الْكافِرِينَ» ففسق عن امر ربه بالسجود إذ لم يتمالك نفسه العاتية المستكبرة امام آدم! ثم و «إِلَّا إِبْلِيسَ» علّه استثناء منقطع إذ كان من الجن، و أمره بالسجود يخصه كما أمرهم يخصهم، أم متصل عني من الملائكة الكيان الملائكي في واجهة الأعمال الايمانية الملائكية، إذ كان معهم يعبد اللَّه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

اللَّه (عليه السلام): قال: سألته عن إبليس كان من الملائكة و هل كان يلي من امر السماء شيئا؟ قال: لم يكن من الملائكة و لم يكن يلي من امر السماء شيئا كان من الجن ...

(1).

المصدر ج 118 في اصول الكافي عنه عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) قال: ان الملائكة كانوا يتحسبون ان إبليس منهم و كان في علم اللَّه انه ليس منهم فاستخرج:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 117

بضعة آلاف من السنين لحد اعتبروه منهم و لأقل تقدير كيانا، ام أمر بأمرين يخصه‏ «إِذْ أَمَرْتُكَ» و يعمه مع الملائكة «إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ» و عله أجمل حيث التمرد بحاجة الى تأكد من الأمر، فليؤمر بأمرين! «أَ فَتَتَّخِذُونَهُ وَ ذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِي وَ هُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ» حيث لم يسجد لآدم، و عدو للَّه حيث عصاه- تتركوني و أنا ربكم و تتولونه و هو عدو لكم و لربكم‏ «بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا» يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير! و ماذا تعني ولاية الشيطان و ذريته؟ قد تعني الولايات الإلهية كلها حسب مختلف دركات العقائد في اتخاذ الشيطان و ذريته اولياء.

من ولاية العبادة «وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى‏» (39: 3) «وَ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ الْجِنَّ» (6: 100) «بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ» (34: 41) فمن الناس من يعبد الشيطان خوفا منه و تقية لكيلا يضره، و عبادته أضر الأضرار، فرارا أخبث من الحفرة بدخول البئرة.

و من ولاية الطاعة «أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ» «وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُماتِ».

و من ولاية التكوين و التدبير و التشريع و التقدير، بمختلف العقائد الشاردة الماردة عن صراط الحق في ذلك البدل البعيد السحيق و «بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا»! «وَ مَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْراناً مُبِيناً» (4: 119):

و ترى كيف انتشاء الذرية و انتسال الانسال من إبليس؟ أمن زواج الزوجين؟ و لم يأت ذكر و لا إشارة في الذكر الحكيم عن شيطانة، و قد ذكرت إنسانة: «وَ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها»!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 118

و لكن التعبير ب «بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ» يلمح أن فيهم ايضا نساء حيث الرجولة و الأنوثة من المضايفات، كل تطلب الأخرى، فلتكن الذرية منهم بين رجال و نساء، دون أن تباض بيضات كما في بعض الروايات! و «بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ» هنا هم من القدة غير الصالحة «وَ أَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزادُوهُمْ رَهَقاً، وَ أَنَّهُمْ ظَنُّوا كَما ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً» (72: 7) فلا موقع للقول: لعل التناسل هو بين صالحي الجن دون من دون ذلك! مع أن الصلاحية هنا لا تعني صلوح التناسل، و انما العقيدة و العمل، و وحدة الجنس بين الصالحين و دون ذلك الشامل للشياطين، إنها تحكم بوحدة الكيفية في انتسال الأنسال! ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَ ما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً (51):

أ ترى من «هم» في‏ «ما أَشْهَدْتُهُمْ» و «أنفسهم»؟ أهم فيهما إبليس و ذريته كما هما محور البحث في آية السجود من عصيانه النكير و ولايته بذريته! فسلب الاشهاد في الخلقين لزامه سلب ولايتهم الإلهية كيفما كانت؟ حيث الولاية التامة لزامها الإحاطة العلمية و في القدرة، أن يحيط فيهما بخلق السماوات و الأرض، أم- و على اقل تقدير- بخلق أنفسهم، فيصبحوا إذا من أعضاد الربوبية، بعدان بعيدان عمن سوى اللَّه أيا كان! فلو كان الإشهاد بإحضارهم على علم، فليكونوا كائنين قبل كونهم، و قد خلقوا بعد خلق السماوات و الأرض فكيف يشهدون خلقهما، و قد خلقوا و لم يكونوا شيئا مذكورا فكيف يشهدون خلق أنفسهم؟

و إن كان إشهادا دون إحضارهم، بان عرّفهم حقيقة خلقهما و خلقهم أنفسهم بعد خلقهما و خلقهم، كأنهم كانوا حضورا حين الخلقين،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 119

فأحاطوا بهما علما و قدرة، فلهم الولاية إذا بما اشهدوا؟ و لكن اللَّه ما أشهدهم! و لو أشهدهم لكانوا يعلمون غيب السماوات و الأرض كما اللَّه، ام و غيب أنفسهم كما اللَّه، فكانوا قادرين عليهما و على أنفسهم كما اللَّه، حيث العلم التام هو القدرة التامة! و هي الولاية الإلهية على سواء.

ثم لو أمكن اعتضاده تعالى بعضد مستحيل في بعدين كالأول، ام في بعد واحد كالثاني، لكان يعتضد بعدول هادين دون المضلين‏ «وَ ما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً! ان اللَّه تعالى يحيط بعض الشي‏ء كإشهاد ثان بعض عباده شيئا من كونه او كله، اراءة للملكوت، و ولاية جزئية دونما اعتضاد لنفسه و لا تخويل لهم، و لكنهم هداة و في قمة العبودية و العدالة، و أما أن يتخذ المضلين عضدا «وَ ما كُنْتُ» منذ بدء التكوين‏ «مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً» و لماذا عضد لمن هو على كل شي‏ء قدير «وَ لا يَؤُدُهُ حِفْظُهُما وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ»؟ و لماذا المضلين و شأنه الرحمة و الهداية؟! إذا فأيّة ولاية إلهية بعيدة عن الشيطان و ذريته في أبعاد عدة، بعد الاستحالة في نفسه كما الإشهاد الاوّل ام في ساحة الربوبية كما الثاني!.

ثم‏ «وَ هُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ» كما هم أعداء اللَّه، فكيف يتخذهم عضدا، اللّهم إلّا لمزيد إضلال فيما اللَّه يعجز عنه فيعتضد بالشيطان و ذريته! فسبحانه سبحانه و تعالى عما يشركون! فهل يتخذ اللَّه من غير المضلين عضدا حتى يتخذهم و هم مضلون عضدا صيغة صائغة مجاراتا لأوهام المشركين لاستئصالها ببرهان مكين متين! انه لا عضد للَّه يعتضد به، و إنما له أولياء في شرعته بما أشهدهم إياها: ولاية شرعية، دون ولاية تشريعية، أن لم يشهدهم جذور مصالح‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 120

التشريع حتى يشرعوا بل هو الذي‏ «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَ ما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى‏ وَ عِيسى‏ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ» (42: 13) دون ان يخوّلهم تشريعا اللهم إلّا حكما بشرعته جماعيا و فرديا و في كافة الحاجيات المختلف فيها بين الأهواء و العقول و في مختلف الحقول! و اما ولاية التكوين، فهي منحصرة في اللَّه في أصلها: التكوين لا من شي‏ء، و قد يمنحها اللَّه في فرعها: التكوين من شي‏ء كآيات النبوات بقلة في إراءة الملكوت كإحياء الموتى فيما تطلّبه ابراهيم‏ «رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى‏» (3: 360) و بكثرة فيما هم فيها مظاهر لفعله كخلق الطير للمسيح فانه في جسمه باذنه، و في روحه باذنه، دون تكوين للمسيح إلّا خلق الطين كهيئة الطير في صورة، و اما هيئته في حقيقته‏ «وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي» فضلا عن روحه‏ «فَتَنْفُخُ فِيها فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي» (5:) 110) فانما هما من تكوينه تعالى لا تكوينه! فلا ولاية إلهية هي من خلفيات العلم المحيط بالكون، لأحد من خلقه، اللّهم إلا شرعية بما أوحى، او تكوينية كاداة صورية لا حقيقية! ثم ل «هم» في «أشهدتهم» و «أنفسهم» وجوه ثلاثة أخرى و ما قدمناه أصح و أحرى.

1- انهما راجعان الى من يتولون الشيطان و ذريته في كل ما مضى من إشهاد و هو في نفسه صحيح، لا لهم فحسب، بل و لمن سوى اللَّه ككل، حيث ما أشهدهم خلق السماوات و الأرض و لا خلق أنفسهم- و لكنه لا يناسب‏ «وَ ما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً» حيث المتولون هؤلاء لم يدّعوا كونهم أنفسهم أعضاد اللَّه، و انما الشيطان و ذريته حيث يتولونهم كأنهم أعضاد للَّه!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 121

2- ان الاول راجع الى الشياطين و الثاني من يتولونهم، أن الشياطين ما أشهدوا خلق الكون ليتخذوا أولياء، و هم ما أشهدوا خلق أنفسهم، أنها في الكيان بحيث يتخذونهم أولياء؟ و لكنما التولي هكذا لا يحتاج هكذا إشهاد لخلق أنفسهم، و إنما وحي أو كتاب أو اثارة من علم إمّا ذا؟ ثم يكفي سلبا لهذا التولي‏ «وَ ما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً».

3- عكس الثاني ان المتولين الشياطين ما اشهدوا خلق السماوات و الأرض، و الشياطين ما أشهدوا خلق أنفسهم، فإذا لا يحيطون علما بالسماوات و الأرض فكيف يتخذون الشياطين أولياء من دون اللَّه، أ تخرصا على الغيب أن اللَّه اتخذهم لهم أولياء و أذن لهم؟ ام علما بالغيب‏ «ما أَشْهَدْتُهُمْ» و ما أشهدت الشياطين خلق أنفسهم انهم خلقوا اولياء؟ و لكنما الولاية الإلهية يكفيها الإعلام، دون إشهاد لخلق أنفسهم! او يقال: إذا لم يشهدوا خلق أنفسهم فأولى ألّا يشهدوا خلق السماوات و الأرض، فأنّى لهم الولاية الإلهية و لزامها العلم التام و القدرة؟

و هذا في نفسه صحيح، و لكنه بنفسه غير فصيح، و لا تتحمله لفظ الآية، حيث‏ «وَ لا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ» عطف على‏ «ما أَشْهَدْتُهُمْ» ف «هم» فيهما- إذا- جماعة واحدة، حيث اللفظة الصحيحة الفصيحة لاختلافهما «و لا أشهدتهم خلق أنفسهم» بل «و لا أشهدت هؤلاء ..»! 4- و قد تعنيهما الآية جمعا بين الحجتين.

و وجه خامس‏ «وَ لا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ» اي ما أشهدت إبليس و ذريته خلق السماوات و الأرض سنادا لولايتهم، و لا أشهدت المتولين لهم خلق انفس إبليس و ذريته ليحيطوا علما بتأهّلهم لذلك الولاية! و وجه سادس يجمع بين الوجوه الصحيحة في نفسها.

و اولى الوجوه هو الاول، ثم هي بين غلط و صحيح ما ضمن الاول،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 122

و الجمع بين الصحيحة هو أصح الوجوه!:

انه تعالى ما أشهد الشياطين و لا المتولين لهم و لا المؤمنين و لا أولياءه المكرمين، خلق السماوات و الأرض و لا خلق أنفسهم، لا إشهاد الحضور حيث لم يكونوا حضورا، و لا إشهاد الإحاطة علما و قدرة، فانه ولاية إلهية لا تثنى و لا إشهاد الاطلاع للمتولين الشياطين أن لهم ذلك التولي! او لشياطينهم تلك الولاية- و لا انه يعتضد بمن سواه، و لو كان معتضدا لم يكن بالمضلين‏ «وَ ما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً»- فالرسول (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) و هو اوّل العابدين و آخر المرسلين ليس عضدا و لا وكيلا و لا وليّا تكوينيا و لا تشريعيا عن رب العالمين: «قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَ لا ضَرًّا إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ وَ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَ ما مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»: (7: 188) «قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ وَ لا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ...» (6: 50).

و اشهاد خلق السماوات و الأرض و إشهاد نفس المشهود له لنفسه ككلّ فيه علم الغيب كله، و القدرة على الغيب كله، فإذ لا ولاية عامة الأوّل العابدين الهادين فكيف إذا حال اوّل المضلين؟ «وَ ما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً! و كما ان للعضد الخير الهدى درجات كلها منفية للَّه، كذلك للعضد الشر الضلال دركات و أحرى ان تكون منفية عن اللَّه، من عضد الولاية الإلهية، او الرسالة و ما دونها من دعوة إلهية بمراتبها، ثم و غير العضد المستحيل للَّه أيا كان، من أنصار للَّه فيما صح و أمكن، ليس إلّا لمن هو على هدى و يهدي الى الحق‏ «أَ فَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدى‏ فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ» (10: 35) ذلك اعتضاد مستحيل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 123

للَّه على أية حال و لندرس منه حرمة اعتضاد المضلين فيما أمكن على اية حال كما لم يتخذ الإمام علي معاوية عضدا «1».

إن المضلّ و إن في جهة من الجهات او وجه من الوجهات- ما صدق عليه مضل- لا يعتضد، كما لم يعتضد الإمام الحسين (عليه السلام) من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 268 ج 122 في امالي شيخ الطائفة باسناده الى جبلة بن سحيم عن أبيه قال: لما بويع امير المؤمنين علي بن أبي طالب بلغه ان معاوية قد توقف عن اظهار البيعة له و قال: ان اقرني على الشام او الأعمال التي ولانيها عثمان بايعته، فجاء المغيرة الى امير المؤمنين (عليه السلام) فقال له: يا امير المؤمنين! ان معاوية من قد عرفت و قد ولاه الشام من كان قبلك، فولّه أنت كيما يتسق عرى الأمور ثم اعزله إن بدا لك، فقال امير المؤمنين (عليه السلام): أ تضمن لي عمري يا مغيرة فيما بين توليته الى خلعه؟ قال: لا! قال: لا يسألني اللَّه عز و جل عن توليته على رجلين من المسلمين ليلة سوداء ابدا «وَ ما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً»

و

فيه 124 في كتاب الخصال عن جابر الجعفي عن أبي جعفر (عليه السلام) عن امير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل يقول فيه (عليه السلام) و قد ذكر معاوية بن حرب: و اعجب العجب انه لما رأى ربي تبارك و تعالى قد رد الي حقي في معدنه و انقطع طمعه في ان يصير في دين اللَّه رابعا و في امانة حملناها حاكما كر على العاص بن العاص فاستماله فمال اليه ثم اقبل به بعد ان أطمعه مصر و حرام عليه ان يأخذ من الفي‏ء دون قسمته درهما، و حرام على الراعي إيصال درهم اليه فوق حقه، فاقبل يحيط البلاد بالظلم و يطأهم بالغشم، فمن تابعه أرضاه و من خالفه ناواه، ثم توجه اليّ ناكثا علينا مغيرا في البلاد شرقا و غربا و يمينا و شمالا، و الأنباء تأتيني، و الاخبار ترد علي بذلك فأتاني اعور ثقيف فأشار عليّ ان اوليه البلاد التي هو بها، لأداريه بما اوليه منها، و في الذي أشار به الرأي في امر الدنيا لو وجدت عند اللَّه عز و جل في توليه لي مخرجا، او أصبت لنفسي في ذلك عذرا، فأعملت الرأي في ذلك، و شاورت من أثق بنصيحته للَّه عز و جل و لرسوله (عليه السلام) ولي و للمؤمنين، فكان رأيه في ابن آكلة الأكباد رأي ينهاني عن توليته، و يحذرني ان ادخل في امر المسلمين يده، و لم يكن اللَّه ليراني ان اتخذ المضلين عضدا!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 124

تأبى عن نصرته بنفسه، و عرض عليه فرسه و سيفه‏ «1».

وَ يَوْمَ يَقُولُ نادُوا شُرَكائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَ جَعَلْنا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً (52).

هنا يوم يتجاهلون أن شركاءهم لا يجيبونهم إذ يدعون، و هناك يوم لا يسطعون تجاهلهم ... «يَوْمَ يَقُولُ ..» موقف بائس كارث لا تجدي فيه دعوى بلا برهان حيث الديان يطالبهم قائلا: «نادُوا شُرَكائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ» و هل يقدرون او يجسرون ألّا ينادوهم لأنهم يعلمون انهم لا يستجيبون؟ كلّا! «فدعوهم» أصناما لا يعقلون‏ «فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ» او طواغيت يعقلون‏ «فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ» نداء من زعموهم بدعائهم شركاء حيث تبلى السرائر و لا تخبأ الجرائر، ام صلحاء من ملائكة و أنبياء، امّن ذا و حاشاهم ان يستجيبوا نداء المشركين‏ «فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ» إذ يعلم هؤلاء و هؤلاء أنهم ما كانوا ايّاهم يعبدون فقد كانوا يعبدون أهواءهم‏ «ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكانَكُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَكاؤُكُمْ فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ وَ قالَ شُرَكاؤُهُمْ ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ» (10: 28) «وَ جَعَلْنا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً»: مهلكا يهلك رباطا بينهم كانوا يزعمون و يهلكهم بما كانوا يزعمون، و يهلك غير المؤمنين من شركائهم أوثانا و طواغيت: «وَ ما نَرى‏ مَعَكُمْ شُفَعاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَ ضَلَّ عَنْكُمْ ما كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ» (6:) 94):

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 268 ج 123 في كتاب مقتل الحسين (عليه السلام) لابي مخنف‏ ان الحسين (عليه السلام) قام يتمشى الى عبد اللَّه بن الحر الجعفي و هو في فسطاطه حتى دخل عليه و سلم عليه، فقام اليه ابن الحر و اخلى له المجلس فجلس و دعاه الى نصرته فقال عبيد اللَّه بن الحر: و اللَّه ما خرجت من الكوفة الا مخافة ان تدخلها، و لا أقاتل معك، و لو قاتلت لكنت اوّل مقتول، و لكن هذا سيفي و فرسي فخذهما فاعرض عنه بوجهه فقال: إذا بخلت علينا بنفسك فلا حاجة لنا في مالك‏ «وَ ما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً»:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 125

وَ رَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُواقِعُوها وَ لَمْ يَجِدُوا عَنْها مَصْرِفاً (53).

ترى و إذا «لَمْ يَجِدُوا عَنْها مَصْرِفاً» و هم عارفون أنهم أهل النار و هم يرونها، فكيف «ظنوا أَنَّهُمْ مُواقِعُوها» و لم يستيقنوا؟

ان مواقعة النار و هي الوقوع من جانبي النار و اهل النار، هي دخولهم في النار و اشتغال النار بهم‏ «وَ أُولئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ» .. هذه المواقعة رغم أنها واقعة لهم دون شك، و لكنهم حيث يترجون مهلة لهم بين رؤية النار و مواقعتها من ناحية، و يرونهم قريبين إليها من أخرى‏ «فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُواقِعُوها» أو أنهم على احتمال النجاة من النار ان يجدوا عنها مصرفا كما يرجوا كل مجرم‏ «فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُواقِعُوها» حال أنهم‏ «وَ لَمْ يَجِدُوا عَنْها مَصْرِفاً»: صرفا أو مكانا أو زمانا للصرف عنها، خلاف ما ظنوه من مصرف أيا كان و أيان.

فليس الظن هنا و لا في غيرها علما كما العلم أيا كان ليس ظنا، فاي منهما ليس بفصيح و لا صحيح حتى إذا قرن بقرينة و ليست في ايّ منها! و الحديث الوارد في ظن اليقين مطروح او مؤول‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 269 ج 125 في كتاب التوحيد حديث طويل عن علي (عليه السلام) يقول فيه‏ و قد سأله رجل عما اشتبه عليه من الآيات و اما قوله‏ «وَ رَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُواقِعُوها» يعني أيقنوا انهم داخلوها و رواه في الاحتجاج مثله عنه (عليه السلام)

و قد يكون بعض ظن الكافرين يقينا و ذلك قوله «و راى ...» أقول: قد يعني كون ظنهم يقينا انما يظنونه متيقن الوقوع و ان كانوا يظنونه دون تيقن كا نرى الرسول (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) يرى ظنهم‏

ففي الدر المنثور عن أبي سعيد الخدري عن رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: ينصب الكافر يوم القيامة مقدار خمسين الف سنة ما لم يعمل في الدنيا و ان الكافر ليرى جهنم و يظن انها مواقعته من مسيرة أربعين سنة و اللَّه اعلم»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 126

وَ لَقَدْ صَرَّفْنا فِي هذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَ كانَ الْإِنْسانُ أَكْثَرَ شَيْ‏ءٍ جَدَلًا (54).

«وَ لَقَدْ صَرَّفْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبى‏ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

أقول: فظن المواقعة من هذه المسيرة كما قلناه انهم يرونهم قريبين إليها من جهة و بعيدين من اخرى فظنوا قربها «أَنَّهُمْ مُواقِعُوها» فاسم الفاعل دليل الوقوع حالا رغم استقبال الوقوع مسيرة أربعين سنة في مرآهم! ففي 62 موضعا من القرآن ذكر فيها الظن بمختلف صيغة لا نجد ظنا بمعنى اليقين كما العلم و اليقين لا نجدهما في ساير القرآن بمعنى الظن، و لماذا يستعمل كل في الآخر أ حقيقة و ليس بها ام مجازا و لا مجوز محسنا له و دون اية قرينة، و حتى لو كانت ما كانت محسنة لمجازه!.

و لو تأملوا فيها تأولوه بالعلم و اليقين لرجعوا الى معنى الظن دون تأويل و إليكم موارد من 62 موضعا: (1) «وَ ذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ» 21:

87- ظن بربه خيرا أن لن يضيق عليه بذهابه عن قومه مغاضبا، فلا موضع هنا لليقين، حيث المقام محتمل الضيق جزاء ذهابه عن قومه، و لكنه ظن لحسن ظنه بربه، «الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ» (48: 6)! (1) «إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسابِيَهْ» 69: 20 و هو ظن من اوتي كتابه بيمينه و ملاقاته حسابه هو لقاء ثوابه، و ظنه تواضع منه و حسن ظن بربه، فاليقين منه كان مطالبة حق ثابت.

(2) «وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ، تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِها فاقِرَةٌ» 75: 25- فانها ترجو رجاء كاذبا ألا يفقرهم العذاب تنحيا عن فقاره ام عن اصل العذاب.

(3) «الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ»: (2: 46) في وصف الخاشعين و هو ظن القلب حيث الخشوع فعل القلب، و ظن القلب يوازي يقين العقل ثم و في ثالث اليقين‏ «حَقُّ الْيَقِينِ» يصبح يقينا في القلب كما في العقل و قد يعنيه:

(4) «قالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ» 2: 249، أ فهل يكون صحيحا او فصيحا حمل الظن في هذه الخمس على اليقين دون قرينة إلا عدم التأمل ضمن 62 موضعا من القرآن العظيم؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 127

(17: 89) «1» و مهما كان الإنسان اكثر شي‏ء جدلا «لَقَدْ صَرَّفْنا فِي هذَا الْقُرْآنِ» لكل جدل مثلا يواصف المقصود بما يمثله و يقرّبه الى الأفهام تحقيقا للحق المرام.

فأية صورة من جدل الإنسان لا تقوى دحضا لمثل القرآن حيث يضرب إلى إعماق البرهان، فطرة و عقلا و حسا حيث لا تبقى باقية، مهما بغت جدال الإنسان باغية، فأين مثل من جدل، و هطل من وحل! هنا نعرف مدى جدل الإنسان في حق او باطل، فهو «أَكْثَرَ شَيْ‏ءٍ جَدَلًا» من شي‏ء الملائكة في حق و من شي‏ء الجن في حق او باطل، و من شي‏ء كائن يوازي الإنسان أيا كان! انسان الحق يجادل في التفتيش عن الحق و تحقيقه بكل مثل، و إنسان الباطل يجادل في تهديم صرح الحق و تحقيق الباطل، و أمثال القرآن تحلّق في أجواء الباطل لإبطاله، و في أجواء الحق لإحقاقه، دحضا لحجج الباطل دون إبقاء، و قفزا لتحقيق الحق دون إبقاء.

ان مثل الحق صيغة سائغة للتصريف بمختلف الصيغ، و اللَّه يصرف مثل الحق إلى كافة الصيغ السائغة لتنظيم جدل الإنسان فتقويم حقه و تحطيم باطله! وَ ما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى‏ وَ يَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ قُبُلًا (55).

موانع مخيّرة لا مسيّرة تصدّ عن الايمان و الاستغفار، من أمنعها التّرف و الاستكبار: «وَ ما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى‏ إِلَّا أَنْ قالُوا أَ بَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولًا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مضى تفسيرها في الاسراء فلا نفصله هنا-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 128

(17: 94) سنة بئيسة تعيسة للاوّلين منهم و الآخرين، طيلة الرسالات الإلهية حتى الاخيرة، في جدال بالتي هي أسوء: «أَ بَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولًا» «لَوْ ما تَأْتِينا بِالْمَلائِكَةِ» «لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى‏ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ» و أضرابها من الأعذار اللّامعقولة حيث تمنعهم أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى و يستغفروا ربهم.

و من هذه السنة مطالبة العذاب إن كانت الهدى حقا: «اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ» (8: 32) و لكن هذه السنة او تلك كائنة للمستكبرين ككل و هنا «إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ» و من اين تأتيهم و كيف و هي لزام لهم عندهم؟

قد تدخل في هذه السنة أو هي الأصل هنا، سنة الأولين في عذاب الاسئصال: «فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ» (35: 43) فعدم إتيان عذاب الاستئصال، او عدم إتيانه قبلا كان من موانع الايمان في زعمهم الى سائر موانعه! و عند تحقق سنة الاوّلين عذابا واقعا لا يبقى مدعي الايمان حينه حتى يؤمن! و عند رؤية العذاب قبلا لا يفيد الايمان‏ «فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنَّا ... فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ» (40: 85) حيث خيل لهم أن مانعهم عن ايمانهم عدم ايقانهم، فبرؤية البأس يوقنون فيؤمنون.

فإتيان سنة العذاب المستأصل او العذاب قبلا- و لمّا يأت- هو في عداد موانع الايمان و الاستغفار، موانع حمقاء، ليست إلّا اعذارا أسوء من حماقات الطغيان.

و ليس إتيان سنة العذاب قبلا او استئصالا لإثبات الحق من سنة الرسل و إنما هم يبشرون و ينذرون حجاجا و جدالا بالتي هي أحسن دونما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 129

حاجة إلى عذاب إمّا ذا؟ ثم العذاب او الثواب من اللَّه:

وَ ما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ يُجادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَ اتَّخَذُوا آياتِي وَ ما أُنْذِرُوا هُزُواً (56).

هذه الآية و كثيرة أمثالها تحصر رسالة المرسلين في التبشير و الإنذار و تحسرها عما سواها مما يتعنته الكفار من الإتيان بما يتطلبون من آيات و ما يتكلبون خلاف الرسالة الإلهية من أصحاب الرسالات، امّا يتمناه الرسل فيتحسرون إذ لا ينالون من هدي من لا يهتدي، فتتواتر الآيات قارعة متطلبات المتفّتي، متصدية لتسلية خواطر المرسلين‏ «وَ ما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ ...» و لكن:

«وَ يُجادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْباطِلِ ..» فقد يكون الجدال بالحق، و بالتي هي أحسن تفتيشا عن الحق و تثبتا للحق فواجب على أهل الحق و دعاته، و قد يكون لتزييف الحق او تضعيفه، بالباطل كان ام بالحق‏ «1»، و كلاهما جدال بالباطل لدحض الحق، فحرام مطلق! و أصل الدحض الزّلق، فهم أولاء يجادلون بالباطل ليزلقوا الحق بعد ثباته، و يزيلوه عن مستقراته، فيكون كالكسير بعد قوته و المائل بعد استقامته‏ «وَ اتَّخَذُوا آياتِي وَ ما أُنْذِرُوا هُزُواً»: آيات الرسل و آيات الرسالات، و ما أنذروا من مخلّفات التكذيب بتلكم الآيات، اتخذوها هزوا، يجادلون بالباطل: طريقة باطلة لا تعني حقا، و إنما هزء و لعبة لتوهين الحق و تهوينه أمام العالمين و هم اظلم الظالمين.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كأن يجادل و يستدل بقرآن ام سنة ليّا لابطال القرآن و السنة و هو من انحس الجدال، و هو جدال بالباطل حيث الاستدلال لابطال الحق بمادة الحق و صورته، بتحريف في كيفية الجدال هي من أضل المزال للاقدام.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 130

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْها وَ نَسِيَ ما قَدَّمَتْ يَداهُ إِنَّا جَعَلْنا عَلى‏ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذانِهِمْ وَقْراً وَ إِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدى‏ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً (57):

هنالك قلوب مفتّحة لاستقبال الحق، تفتحها أصحابها فزادهم اللَّه تفتّحا «وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً» و هنا قلوب مقلوبة مغلقة عن تقبل الحق بإعراض أصحابها عما ذكروا بآيات الرب و تناسي ما قدمت أيديهم فزادهم اللَّه إغلاقا جزاء وفاقا «وَ إِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدى‏ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً»! فكنّ القلوب عن استقبال الحق و وقر الآذان عن استماعه و وعيه هما بما اعرضوا و قدمت أيديهم و أن اللَّه ليس بظلام للعبيد.

هنالك تذكير بآيات الرب‏ «ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ» لكي يهتدوا «وَ إِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدى‏» و لكنهم بدل أن يتذكروا و يهتدوا و يشكروا نعمة ربهم بالذكرى و الهدى‏ «فَأَعْرَضَ عَنْها»: عنادا و تعمدا «وَ نَسِيَ ما قَدَّمَتْ يَداهُ»: نسيان التناسي المتعمد ما قدمت يداه من إعراض عن آيات الرب و خلفياته، لحد قد يحسبه يحسن صنعا: «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً» فهنالك- إذا- الطامة الكبرى: «إِنَّا جَعَلْنا عَلى‏ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ» أكنة بما قدموها «وَ فِي آذانِهِمْ وَقْراً» بما وقروها فما و قرّوها، اثنان باثنين في وفاق عددا و عددا، ثم النتيجة العاجلة «وَ إِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدى‏ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً» ثم الآجلة هي أشد و أنكى! وَ رَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤاخِذُهُمْ بِما كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا (58) وَ تِلْكَ الْقُرى‏ أَهْلَكْناهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَ جَعَلْنا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً (59)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 131

«الغفور» هو معدن الغفر و الستر و منبعه، فهو إذا «ذو الرحمة» الواسعة ما وجد لها سبيل، لا الرحمة الفوضى التي هي زحمة على الصالحين و راحة للطالحين! «لو» أنه «يؤاخذهم» هؤلاء البغاة الطغاة «بِما كَسَبُوا» اخذة عاجلة «لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذابَ» في الاولى قبل الأخرى «بل» كضابطة عامة لا تستثنى‏ «لَهُمْ مَوْعِدٌ» لمؤاخذتهم بما كسبوا منذ الموت الى يوم يقوم الحساب‏ «لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا»: مخلصا ثم و موعد آخر لمن تمادى في الطغيان يوم الدنيا و من أمثاله‏ «تِلْكَ الْقُرى‏» الغاربة في عمق التأريخ‏ «أَهْلَكْناهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا» حيث الظلم ليس ليصبر عليه مهما كانت الدنيا دار عمل و الآخرة دار جزاء، «وَ جَعَلْنا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً» بالسنة رسلهم، فلا يغرنكم إمهال اللَّه لهم فانه إملال، و ان موعدهم آت في مستقبل أم حال، و سنة اللَّه لا تتخلف على أية حال.

[سورة الكهف (18): الآيات 60 الى 82]

وَ إِذْ قالَ مُوسى‏ لِفَتاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً (60) فَلَمَّا بَلَغا مَجْمَعَ بَيْنِهِما نَسِيا حُوتَهُما فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً (61) فَلَمَّا جاوَزا قالَ لِفَتاهُ آتِنا غَداءَنا لَقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هذا نَصَباً (62) قالَ أَ رَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَ ما أَنْسانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَ اتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً (63) قالَ ذلِكَ ما كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلى‏ آثارِهِما قَصَصاً (64)

فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَ عَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً (65) قالَ لَهُ مُوسى‏ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلى‏ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً (66) قالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (67) وَ كَيْفَ تَصْبِرُ عَلى‏ ما لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً (68) قالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ صابِراً وَ لا أَعْصِي لَكَ أَمْراً (69)

قالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْئَلْنِي عَنْ شَيْ‏ءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً (70) فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا رَكِبا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَها قالَ أَ خَرَقْتَها لِتُغْرِقَ أَهْلَها لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً (71) قالَ أَ لَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (72) قالَ لا تُؤاخِذْنِي بِما نَسِيتُ وَ لا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً (73) فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا لَقِيا غُلاماً فَقَتَلَهُ قالَ أَ قَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً (74)

قالَ أَ لَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (75) قالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْ‏ءٍ بَعْدَها فَلا تُصاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً (76) فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا أَتَيا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَما أَهْلَها فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُما فَوَجَدا فِيها جِداراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقامَهُ قالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً (77) قالَ هذا فِراقُ بَيْنِي وَ بَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ما لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً (78) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكانَتْ لِمَساكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَها وَ كانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً (79)

وَ أَمَّا الْغُلامُ فَكانَ أَبَواهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينا أَنْ يُرْهِقَهُما طُغْياناً وَ كُفْراً (80) فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَيْراً مِنْهُ زَكاةً وَ أَقْرَبَ رُحْماً (81) وَ أَمَّا الْجِدارُ فَكانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَ كانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُما وَ كانَ أَبُوهُما صالِحاً فَأَرادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغا أَشُدَّهُما وَ يَسْتَخْرِجا كَنزَهُما رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَ ما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذلِكَ تَأْوِيلُ ما لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً (82)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 134

حلقة منقطعة النظير في القرآن كله عن مسيرة موسى (عليه السلام) مع من تعلم هو منه شيئا مما كان يجهله، تقص مقاطع هامة من قصته تهم السالكين سبيل الهدى، المتعلمين على سبيل نجاة من الردى.

إنها ليست اسطورة مختلفة كما يهرفها الخارفون، بل هي حقيقة تقصّ من عمق التاريخ كسائر القصص القرآنية، تحمل أمثالا حقة من التربية الإلهية، و ذلك لمن ألقى السمع و هو شهيد.

و ترى إن موسى القصة هو ابن عمران ثالث اولى العزم من الرسل الذين دارت عليهم الرحى؟ و أولوا العزم هم المفضّلون على من سواهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 135

من رسل و أنبياء أمن ذا في زمنهم و حتى ولاية عزم اخرى علما و عملا لدنيا من عند ربنا، فكيف يحمل موسى هذا نصبا في سفره حتى يلقى لنفسه معلما بأمر اللّه: «عَبْداً مِنْ عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَ عَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً، قالَ لَهُ مُوسى‏ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلى‏ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً، قالَ إِنَّكَ لَنْ ..»؟! و معلمه هذا أيا كان هو من أمته و متعلمه في شرعته خضرا أمّن ذا؟! فهل هو- إذا- موسى غير ابن عمران، نبيّا او أيّا كان، بتعلم من معلّم له هو فوقه علما و خبرا؟ و قد ذكر موسى فيما ذكر (134) مرة يعنى به ابن عمران، أفي هاتين المرتين اليتيمتين هنا يعنى به غيره دونما أية قرينة و لا إشارة؟ سبحانك اللّهم إن هذا إلا خرافة جارفة جازفة لا صحيحة في ادب التعبير و لا فصيحة! «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 4: 29! اخرج البخاري و مسلم و الترمذي و النسائي و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه و البيهقي في الأسماء و الصفات من طريق سعيد بن جبير قال‏ قلت لابن عباس: ان نوفا البكالي يزعم ان موسى صاحب الخضر ليس موسى صاحب بني إسرائيل؟ قال ابن عباس كذب عدو اللَّه حدثنا أبي بن كعب انه سمع رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) يقول: ان موسى قام خطيبا في بني إسرائيل فسئل اي الناس اعلم؟ فقال: انا! فعتب اللَّه عليه إذ لم يرد العلم اليه فأوحى اللَّه اليه ان لي عبدا بمجمع البحرين هو اعلم منك قال موسى: يا رب كيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتا تجعله في مكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثمّ فأخذ حوتا فجعله في مكتل ثم انطلق و انطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما و اضطرب الحوت في المكتل فخرج فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سربا-

الى آخر القصة و قد نذكر مواضيع منها حسب المناسبات- إنشاء اللَّه تعالى.

و

في نقل أخر بنفس السند عنه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) ان موسى بني إسرائيل سأل ربه فقال اي رب ان كان في عبادك احد اعلم مني فدلني عليه قال: نعم في عبادي من هو اعلم منك فنعت له مكانه، فان له في لقية فخرج موسى و معه فتاه و معه حوت‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 136

إنه هنا موسى بن عمران كما في سائر القرآن، و قد ابتلى بسفره النصب بسبب منه حيث خيّل إليه أنه أعلم ممن سواه في علمي الظاهر و الباطن، فقد و كلّ موسى بعلم لا يطيقه خضر كما و كلّ خضر بعلم لا يطيقه موسى فليتعلم كلّ ما عند الآخر ليكتمل بما عند الآخر كما و علّ آصف بن برخيا وزير سليمان كان أعلم منه حيث آتاه عرش بلقيس قبل ان يرتد إليه طرفه، و كان آصف من أمته في الشرعة الظاهرة.

فعلم الشرعة الظاهرة و علم الباطن قد يفترقان كما في موسى و خضر و سليمان و آصف و قد يجتمعان كما في أهل بيت الرسالة المحمدية (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) و كما قد ينتفيان كمن يجهلهما وحيا أمّاذا؟.

و خضر هذا نبيا كان ام غير نبي هو كلقمان‏ «1» كان أعلم من موسى بن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

مليح قد قيل إذا حيي هذا الحوت في مكان فصاحبك هنالك و قد أدركت حاجتك ..

و

في نور الثقلين 3: 27 ج 128 في تفسير القمي و في العياشي عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) و كان سبب ذلك انه كلم اللَّه موسى تكليما و انزل عليه الألواح و فيها كما قال اللَّه عز و جل‏ «وَ كَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْ‏ءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْ‏ءٍ» رجع موسى (عليه السلام) الى بني إسرائيل فصعد المنبر فأخبرهم ان اللَّه عز و جل قد انزل عليه التوراة و كلمه و قال في نفسه: ما خلق اللَّه خلقا اعلم مني فأوحى اللَّه عز و جل الى جبرئيل (عليه السلام) أدرك موسى قد هلك و اعلمه ان عند ملتقى البحرين عند الصخرة رجل اعلم منك فصر اليه و تعلم منه فنزل جبرئيل (عليه السلام) على موسى (عليه السلام) و أخبره فذل موسى في نفسه و علم انه اخطأ و دخله الرعب و قال لوصيه يوشع: ان اللَّه عز و جل قد امرني ان اتبع رجلا عند ملتقى البحرين و أتعلم منه فزود يوشع حوتا مملوحا فلما خرجا و بلغا ذلك المكان وجدا رجلا مستلقيا على قفاه فلم يعرفاه، فاخرج موسى الحوت و غسله الماء و وضعه على الصخرة و مضيا و نسيا الحوت و كان ذلك الماء ماء الحيوان فحيى الحوت و دخل الماء:

(1). تتضارب الروايات هنا في ان خضر كان نبيا او لم يكن نبيا، و لا دلالة في هذه الآيات على نبوته، و لا اثر عنه في ساير القرآن.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 137

عمران في التأويل: «آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَ عَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً ..»-

«قالَ هذا فِراقُ بَيْنِي وَ بَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ما لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً»! «وَ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ» اللهم إلّا علام الغيوب، أو من علّمه من علم ما كان و ما يكون و ما هو كائن كالرسول محمد (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) و أهل بيته المعصومين! و لان القرآن لا يذكر زمن هذه القصة، أ كانت في نبوءة موسى قبل رسالته؟ ام كانت في بداية رسالته و لما تنضج النضجة الكاملة بعلم التأويل، ام في نبوته بولاية عزمة و في قمتها، إذا فكل محتمل، مع العلم أنه كان يوحي إليه، و إلّا فكيف عرف ذلك الموقف لمجمع البحرين و «قالَ ذلِكَ ما كُنَّا نَبْغِ» و لا يأتي مثل هذا الغيب إلّا بوحي، اللّهم إلّا وحيا دون نبوءة كما «أَوْحَيْنا إِلى‏ أُمِّ مُوسى‏ أَنْ أَرْضِعِيهِ» فقد تكون هذه المصاحبة قبل نبوته ام فيها قبل رسالته، ام فيها قبل ولاية عزمه، ام و في ولاية عزمه، فعلى أية حال لا يبقى اشكال في كيف يتعلم موسى من خضر؟ فان ولاية العزم في الشرعة الظاهرة لا تلزمها الولاية الباطنة مهما تجتمعان في البعض من أولياء العزم كالرسول محمد (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم).

و لكن الرقابة على تكاليف الشرعية تنتج نورانية في الباطن‏ «مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً» و «إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً وَ يَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ» فكيف إذا كانت رقابة العصمة في ولي العزم، فليعلم موسى من علم الباطن ما يعلمه خضر و سواه بل و اكثر و أحرى، فكيف يتطلب منه ان‏ «تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً»؟

علّه لأنه كما علم الشريعة قد يحصل بتحصيل، و قد لا يحصل إلّا بوحي، فما كل متعلّم محاول للحصول عليه يوحى إليه، كذلك علم الباطن منه ما يحصل بتلك الرقابة، و رقابة العصمة أحرى و أجري‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 138

للحصول عليه و لكن منه ما لا يحصل برقابة كالعلم الباطن اللدني، فعلم الوحي الشريعة لا يستلزم ذلك العلم اللدني مهما يستلزم علما دون ذلك، فقد أوتي خضرا رحمة من عند اللَّه و علم علما من لدن اللَّه ليس من مخلفات وحي الشريعة و الرقابة التامة عليه!.

و لان ولاية العزم لزامها الحفاظ على حقوق الامة و مصالحها في الباطن كما الظاهر، فليعلم موسى الرسول في ولايته العظيمة العزيمة، تأويل قضايا كمثل السفينة و الغلام و الجدار، فقد يحتمل أن القصة كانت في بداية أمره و لما يعظم و يعزم امر رسالته القمة- و اللَّه اعلم حيث يجعل رسالته!.

وَ إِذْ قالَ مُوسى‏ لِفَتاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً (60) مجمع البحرين هو عنوان ملتقاه مع خضر كما أوحي إليه و لكن موسى لا يعرفه بتفصيل، فلو كان عارفه فلما ذا «أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً» سنة الى ثمانين و كما جاوزه إذ نسيا حوتهما، فقد يعرف ان فيه ملتقاه و أنه في سفرته هذه يمرّ عليه، كما تلمح له‏ «مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ» لا «مجمعا لبحرين» حتى تكون له مصاديق عدة، و إنما قال كغير عارف بالملتقى‏ «أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً» لأن مجمع بينهما كان متسعا شاسعا قد يحتاج الوصول الى منتهاه الى ان يمضي حقبا و اقله التأكيد على ذلك التصميم و إن لم يحتج وصوله الى مضي حقب، فحق لموسى و فتاه لمّا بلغا مجتمع بينهما أن ينسيا حوتهما حيث بهرهما بلوغ المجمع نظرة الملتقى، و أما فتاه فزاد نسيانا على نسيان لما أويا الى الصخرة.

موسى الرسول ما كان يعرفه بعينه، و لا أن القرآن عرّفه لنا، فما لنا من سبيل الى معرفته القطعية إلّا حدسيات: أنه منطقة كانت مسرح‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 139

تاريخ بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر كملتقى بحري الروم و القلزم أي الأبيض و الأحمر، و مجمعهما في منطقة البحيرات المرة و بحيرة التسماح، او مجمع خليجي العقبة و السويس الأحمر، او ما ينتهي اليه بحر الروم من الجانب الشرقي و بحر الفرس من الجانب الغربي أمّاذا؟

إلا ان مسرح تاريخ بني إسرائيل المعلوم لدى الجميع يختلف عن مسرح موسى الرسول (صلوات اللَّه عليه) الخاص به، و هو لا يعرفه بتفصيل، و الا فلما ذا «أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً»؟ فلنترك ما تركه القرآن و نسكت عما سكت اللَّه عنه، و قصارى ما يعرفه موسى من ذلك الملتقى أنه مجمع البحرين و فيه حياة الموتى كما اتخذ غذائه الحوت فيه‏ «سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً .. عَجَباً» «قالَ ذلِكَ ما كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلى‏ آثارِهِما قَصَصاً، فَوَجَدا ...»

و فتى موسى هو صاحبه الخاص فعلّه وصيه يوشع بن نون بفتوّة صحبة الايمان‏ «1» و قد يكون «و إذ قال ...» معطوفا على محذوف يناسبه ام على قصة اصحاب الكهف ان يذكره الرسول و من معه ذكرى ثانية للرحمة الخاصة الإلهية الخانية على عباده الأخصاء و هو من أخصهم، فلتتواتر عليه رحمة من لدنه و علم من لدنه، ربوة على كل عالم و مرحوم! و لا أَبْرَحُ‏ تصريحة بملاحقة السير في هذه السفرة إذ يقصد من ورائها امرا امر بالحصول عليه إعلانا لفتاه في البداية استعدادا لوعثاء السفر و نصبه، مهما طال الزمن: «أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً» تعبيرا حاسما عن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور في الحديث السابق عنه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) «ثم انطلق و انطلق معه فتاه يوشع بن نون ..

و

في نور الثقلين 3: 272 ج 130 عن أبي حمزة عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: كان وصي موسى بن عمران يوشع بن نون و هو فتاه الذي ذكره اللَّه في كتابه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 140

تصميمه القاطع، عارفا صارما بوصوله عاجلا او آجلا الى ملتقاه في مجمع البحرين.

و هذه من السنن الحسنة مع رفقة السفر التابعين لك ان تعلن دون إسرار كالشمس في رايعة النهار مسيرك و مصيرك في سفرتك دون تحميل عليهم كما «قالَ مُوسى‏ لِفَتاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ» دون «لا نبرح حتى نبلغ ...» و ليجعل صاحبه في سعة من أمره إن شاء لزمه عارفا بالسفرة و ان شاء تركه.

و «لا أبرح» يعني لا أزال سائرا مسافرا دونما انقطاع، مما يوحي باهمية بالغة للهدف المرام، اعدادا لفتاه إن شاء استعد على علم بهامة السفر و نصبه.

و ليبلّغه مدى تصميمه مقصدا و زمنا لأقصى حدّه كما أبلغه‏ «أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً»! و «مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ» هنا هو الغاية القصوى من السفر النصب و ليجمع فيه بين بحري العلم الظاهر من موسى و الباطن من خضر، او بحري الرسالة الظاهرة و الولاية الباطنة، و كما قال له خضر في ملتقاه «إني وكلت بأمر لا تطيقه و وكلت بأمر لا أطيقه».

فيما لمجمع البحرين من نبضات الحياة و ومضاتها حيث الحوت المطبوخ الغذاء فيه يحيى‏ «1» «فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً» «و عجبا» و موسى الرسول يزداد حياة من علم الباطن إلى علمه الظاهر و كما الخضر يزداد علم الظاهر الى علمه الباطن.

فَلَمَّا بَلَغا مَجْمَعَ بَيْنِهِما نَسِيا حُوتَهُما فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً (61) فَلَمَّا جاوَزا قالَ لِفَتاهُ آتِنا غَداءَنا لَقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هذا نَصَباً (62)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في الدر المنثور في حديثه (صلى الله عليه و آله و سلم) عن القصة: فلما نزلا و مس الحوت الماء حيي فاتخذ سبيله في البحر سربا.

و كما في أحاديث عدة و لا نجد في اي حديث أنه كان حيا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 141

قالَ أَ رَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَ ما أَنْسانِيهُ إِلَّا الشَّيْطانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَ اتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً (63) قالَ ذلِكَ ما كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلى‏ آثارِهِما قَصَصاً (64).

الحوت هو السمك العظيم، و السرب هو المنحدر المسبّل ذهابا مخيرا، لا سقوطا أو انقفازا مسيّرا، أ ترى أن حوتهما الغذاء أخذاه من مجمع بينهما؟ و «نَسِيا حُوتَهُما» عند بلوغ المجمع! فقد كان معهما قبل بلوغه! أو أنه كان حيا معهما في سفرتهما ليطبخاه إذا جاعا؟ و لزامه ان يأخذا معهما ماء بقدر يكفيه بقية الحياة، و هذا غريب في سفرة كهذه النصب، حملا لكثير الماء ليعيش فيه الحوت: السمك العظيم و لماذا هذا التعب الشعب نصبا على نصب؟! حوتهما هذا كان غداءهما فليكن مطبوخا جاهزا لغذائهما حيث السفرة لا تسمح للطبخة و لا سيما تلك الساذجة الناصبة، فقد كان ميتا مطبوخا و كما في حديث رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) «1» ثم‏ «وَ اتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً» تصريحة بحياته، فلتكن بعد موته، إذ لا عجب الحيوان البحر أن يتخذ سبيله في البحر سربا منحدرا إليه، بل و تركه عجب‏ «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1، 2). اتفقت الأحاديث التي تنقل القصة ان الحوت حيي عند الصخرة و اتخذ سبيله في البحر سربا و عجبا، و لكنه تختلف في انه كان مشويا او مملوحا و في مرسلة القمي و روايات الشيخين و النسائي و الترمذي و غيرهم انه كانت عند الصخرة عين الحياة و في رواية مسلم ان الماء كان ماء الحياة من شرب منه خلّد و لا يقاربه شي‏ء ميت الا حيى فلما نزلا و مس الحوت الماء حيي، و في بعضها ان فتى موسى توضأ من الماء فقطرت منه قطرة على الحوت فحيى، و في ثالث انه شرب منه الفتى و لم يكن له ذلك فأخذه الخضر و طابقه في سفينة و تركها في البحر فهو بين أمواجها حتى تقوم الساعة، و في رابع انه كانت عند الصخرة عين الحياة التي كان يشرب منها الخضر ثم الباقية خالية من ذكرها- ثم في رواية الاحتجاج و غيرها ان الحوت سقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سربا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 142

ترى و ماذا كان يدري موسى من الملتقى و ماذا لا يدري؟ «حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ» دليل أنه كان يدري ان مكانا من المجمع هو الملتقى، و لكنه اين هو الذي يحيى فيه ميت و ما هو؟ لا يدري أنه حوته و إلّا لم ينسه! و لم يطلبه بعد ذكره غداءه! فقد «قالَ ذلِكَ ما كُنَّا نَبْغِ» فما كان يدري ان الملتقى هو المجمع الذي بلغاه، و إلّا لما تجاوزه! و لا أن الذي فيه يحيى هو حوتهما، و إلّا لماذا اتخذه غداءهما، و لماذا نسيه؟ معلومان و مجهولان لموسى، و فتاه يجهل ثالثا هو أن حياة ميت فيه آية انه الملتقى المبتغى و إلّا لما نسيه إذ رأى الحوت‏ «اتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً»!.

«فَلَمَّا بَلَغا مَجْمَعَ بَيْنِهِما»: بين البحرين و بين موسى و خضر، و ما درى موسى منه ملتقاه و إلّا لما تجاوزاه‏ «نَسِيا حُوتَهُما» موسى و فتاه، نسيان موسى كان بطبيعة الحال حيث السالك يركّز على الغاية الملتقى فينسى الغداء أماذا من وسائل اللقاء، و لكنما الفتى لماذا ينسى و قد حمّل حمله و الحفاظ عليه؟ علّه لأنه ينابع مسيرة موسى فعلى هامشه ينسى أمام الغاية غيرها! و هذا النسيان المشترك كان عند بلوغهما المجمع.

ثم هنالك نسيان ثان يخص فتاه لما أويا الصخرة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

فامسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق، و في بعض ان موسى لما رجع ابصر اثر الحوت فأخذا اثر الحوت يمشيان على الماء حتى انتهيا الى جزيرة من جزائر العرب، و في حديث الطبري عن ابن عباس فرجع موسى حتى أتى الصخرة فوجد الحوت فجعل الحوت يضرب في البحر و يتبعه موسى يقدم عصاه يفرج بها عنه الماء و يتبع الحوت و جعل الحوت لا يمس شيئا من البحر الا يبس حتى يكون صخرة، و في أكثرها ان موسى لقي الخضر عند الصخرة، و في بعضها انه ذهب من سرب الحوت أو على الماء حتى وجده في جزيرة من جزائر البحر، و في بعضها انه وجده على سطح الماء جالسا او متكئا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 143

«فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ::» أ نسيانا مع موسى فهنالك نسيا و هنا نسيت؟ فهو إذا نسيان ثان تدخّل فيه الشيطان يخص فتاه: «فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَ ما أَنْسانِيهُ إِلَّا الشَّيْطانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَ اتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً» .. هنا «وَ اتَّخَذَ سَبِيلَهُ ..»

عطفا على نسيانه، و هناك‏ «فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ ...» تفريعا على نسيانهما، فبينهما فرق قد لا يكون إلّا أن النسيان الاوّل أغفلهما عن كونه معهما «فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ ..» و النسيان الثاني هو بعد ذكر «وَ اتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً» فالواو إذا للحال، أنني نسيته حال أنه اتخذ سبيله في البحر عجبا، نسيت أن اذكره بعد ذلك و أذكرك، و علّه لأنه ما اهمته غدائهما رغم ذلك العجب أمام غايتهما القصوى، فقد ينسى الطريق و الرفيق فضلا عن الغداء إمّا ذا:

«فَلَمَّا .. نَسِيا حُوتَهُما» استغفالا عنه إذ لم يكن محورا في تلك السفرة «فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً» لم يدره موسى و دراه فتاه و كما اخبر «وَ اتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً» و ترى ما هي سبيله السرب؟ «قالَ أَ رَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ» فمن الصخرة العالية منحدر يتخذ إليه سبيل سرب فالسبيل هو الطريق المنحدر، و السرب هنا انحدار ثان يزيد السبيل سبلة و انحدارا.

أو هي عين الحياة المنحدرة من الصخرة الى البحر «1» و قد حيي بها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في عديد من الروايات انه عين الحياة كما في نور الثقلين 3: 272 ح 131

في عيون الاخبار عن الرضا (عليه السلام) قال قال علي (عليه السلام) و قد سأله بعض اليهود عن مسائل- و أنتم تقولون ان اوّل عين نبعت على وجه الأرض العين التي ببيت المقدس و كذبتم، هي عين الحياة التي غسل يوشع بن نون السمكة و هي العين التي شرب منها الخضر (عليه السلام)، و ليس يشرب منها احد الا حيي؟

قال: صدقت و اللَّه انه لبخط هارون و إملاء موسى‏ و رواه مثله في كمال الدين و تمام النعمة باسناده الى أبي الطفيل عامر بن واثلة عن علي (عليه السلام)

و فيه ايضا باسناده الى ابراهيم بن يحيى المدائني عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) حديث طويل يقول فيه (عليه السلام) ان علما و فيه ايضا باسناده الى الحكم بن مسكين عن صالح عن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 144

الحوت فاتخذها سبيلا؟ ام ساقية اخرى و قد حيي بغيرها؟ ام قفزة من منحدره ام لزقة فانزلاقا الى البحر و بينه و بينه بر إمّا ذا؟ على أية حال‏ «اتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً»! فاتخاذ سبيل سرب عجب ذو دلالات على أن حوتهما الغداء الشواء أصبح حيا على الصخرة على غفلة لموسى و ذكر لفتاه، و من ثم تناساه فنسي ان يخبر موسى بأمره:

«فَلَمَّا جاوَزا» بداية المجمع و السرب العجب «قال» موسى‏ «لِفَتاهُ آتِنا غَداءَنا» الحوت «لقد» تأكيدا ذا بعدين‏ «لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هذا نَصَباً» فلنتغذّ لكي نستجدّ طاقة بدنيّة نواصل بها سفرنا، مما يدل أنه كان متغافلا جوعهما مع نسيان حوتهما، ثم النصب ذكره غداءهما الحوت فطلبه من فتاه، فانه التعب المنصوب تأتيا في مداه:

و الغداء هي غذاء الغداة، فلعّلهما جاوزا مجمع بينهما ليلا، و لم يعتبره موسى ملتقاه إذ لم ير ما يريه انه هو ملتقاه حتى أخبره به فتاه:

قالَ أَ رَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنا إِلَى الصَّخْرَةِ المطلّة على البحر، فأنت رأيت إذ أوينا إليها تخفيفا عن وعثاء السفر، او و انتظارا علّه هو الملتقى‏ «فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ» ما ذا حصل له و ماذا فعل، بعد ما نسيناه مع بعض‏ «وَ ما أَنْسانِيهُ إِلَّا الشَّيْطانُ أَنْ أَذْكُرَهُ» و اتخذ: حال انه‏ «اتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً» نسيان عجب بعد ما رأيته اتخذ سبيله في البحر عجبا حيث الحوت الميت المطبوخ يمشي في سبيله السرب إلى البحر! و لم يكن نسيانا مني تغافلا عن أمره العجب و انما ذلك الشيطان انسانيه ان اذكره فاذكّرك بسربه العجب.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

جعفر بن محمد (عليه السلام) عن علي (عليه السلام) أقول: على اختلاف في بعض الألفاظ و اتفاق في عين الحياة:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 145

أفترى الشيطان له سبيل إلى الأنبياء، و كان فتاه يوشع منهم؟ علّه لم يكن حينذاك نبيا، فقد كان وصيا ثم بعد موت موسى أصبح نبيا وصيا! ام بقي وصيا دون نبوة؟ «1» أم إن هكذا نسيان ليس في عداد نسيان ذكر الرب حتى ينحى عنه الشيطان، فانما هو حسب الظاهر نسيان الغداء أولا و من ثم نسيان السرب العجب، و قد يبرران امام الهدف الإمام و هو التحري عن ملتقى البحرين، و لم يكن يدري فتاه أن من آيات ملتقاه حياة ميت او علّها هي منها حتى يتذاكر الحوت، رغم أن سربه العجب هو آية الملتقى:

قالَ ذلِكَ ما كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلى‏ آثارِهِما قَصَصاً (64): ذلك البعيد المدى العظيم المحتوى، الملتقى المدلول عليه بآية السرب العجب «ما كنا» طول سفرنا «نبغ» ه- فلنرجع الى مجمع بينهما من نفس الطريق الذي جئنا «فارتدا» رجوعا إليه‏ «عَلى‏ آثارِهِما» آثار الأقدام في مشيتهما «قصصا»:

تتبّعا لتلكم الآثار كيلا يخطاها.

فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَ عَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً (65).

فيا لوجد الوجدان من شعف و شغف، ما ينسي نصب السفر و وعثاءه، و كيف عرف موسى خضره؟ طبعا كما عرّف بوحي اللَّه مكانه، كذلك عرّف مكانته و المؤمن ينظر بنور اللَّه! تعريف إلهي لطيف بخضر في زوايا ثلاث 1- «عَبْداً مِنْ عِبادِنا» 2- «آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا» 3- «وَ عَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً»! هنالك عبودية في كمالها دون أكملها- فانه لاوّل العابدين- فرحمة على‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). لا دلالة في القرآن و لا في السنة واضحة ان فتى موسى كان حينذاك نبيا:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 146

صاحبها: «من عندنا» خاصة، ثم‏ «مِنْ لَدُنَّا عِلْماً» دون تعلم خلقي، إنما علما لدنيّا بوحي او الهام ليس في نطاق وحي النبوة لزاما، إلّا الأنبياء الأولياء الذين جمعوا علمي الوحي ظاهرا و باطنا كالرسول محمد (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) و أضرابه في الوحي القمة أو إلهامه‏ «1».

و تلك الرحمة ليست هي العلم لقرنها به، فهي من مدارج الرحمة المعرفية و المعارج العملية، فلقد كانت عبودية ذات جناحين، لا علما دون معرفة و لا معرفة دون علم، مهما كان علم ظاهر الشريعة تقليديا عن رسول كما كان هو يقلد موسى الرسول (عليه السلام)، رغم أنه معلمه من علم الباطن و كما

قال: «إني و كلت بعلم لا تطيقه و وكلت بعلم لا أطيقه» «2»

و

قال‏ «اني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت و أنت على علم من علم الله لا أعلمه» «3».

و قد يكون تنكير «عبدا» هنا للتفخيم كما الإضافة «من عبادنا» للإفاضة و التعظيم.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 275 ج 142 في اصول الكافي باسناده الى سيف التمار قال: كنا مع أبي عبد اللَّه (عليه السلام) جماعة من الشيعة في الحجر فقال (عليه السلام) علينا عين، فالتفتنا يمنة و يسرة فلم نر أحدا فقلنا: ليس علينا عين فقال: و رب الكعبة ثلاث مرات لو كنت بين موسى و خضر لأخبرتهما اني اعلم منهما و انبأتهما بما ليس في أيديهما لان موسى و الخضر (عليهما السلام) أعطيا علم ما كان و لم يعطيا علم ما يكون و ما هو كائن حتى تقوم الساعة و قد ورثناه من رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) وراثة.

(2)

نور الثقلين 3: 281 ج 154 في كتاب علل الشرايع عن جعفر بن محمد (عليهما السلام) قال له الخضر «إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً» لاني و كلت .. و في البحار 13: 279 بدل بعلم «بأمر».

(3) المصدر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 147

و خضر هذا تتواتر في شأنه الروايات الإسلامية و سواها «1» و انه باق الى قيام المهدي (صلوات اللَّه عليه) و لا تنافي حياته لهذا الحد اصل من الأصول الإسلامية، اللّهم إلّا إذا كان نبيا، إلّا بانقطاع الوحي عنه يوم نبئ الرسول محمد (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) حيث لا نبوة بعد نبوته و لا وحي بعد وحيه الى يوم القيامة، و كما في المسيح (عليه السلام) و هو في السماء حيث ينزل زمن المهدي (صلوات اللَّه عليه)، فالخضر و المسيح و سائر المكلفين أيا كانوا و أيان، إنهم منذ بزوغ الرسالة المحمدية أصبحوا من أمته و تحت لوائه، و هل عزل المسيح عن رسالته بعد نصبه؟ إنه انعزال عن أمته و ليس عزلا! ثم لا بأس بعزل ليس فيه مهانه! قالَ لَهُ مُوسى‏ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلى‏ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً (66) عند اللقاء الحبيب سلم عليه موسى (عليه السلام) فقال الخضر:

و أنى بأرضك السلام؟ قال: أنا موسى! قال: موسى بني إسرائيل؟

قال: نعم- أتيتك لتعلمني مما علمت رشدا، قال: إنك لن تستطيع معي صبرا، يا موسى! اني على علم من علم اللَّه علمنيه لا تعلمه أنت و أنت على علم من علم اللَّه علمك اللَّه لا أعلمه» «2»

«إني وكلت بأمر لا تطيقه»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هنالك في مختلف النقل و التاريخ قيلات و مقالات حول خضر لا يهمنا ذكرها الا ما نبه عليه القرآن في مثلث التعريف ب «عَبْداً مِنْ عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَ عَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً»! و قد رويت القصة عن النبي (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) كما في الدر المنثور بعدة طرق من ارباب الجوامع كالبخاري و مسلم و النسائي و الترمذي و غيرهم عن ابن عباس عن أبي بن كعب عن النبي (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم):

(2) من حديث رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) و قد ذكرنا شطرات منها».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 148

و وكلت بأمر لا أطيقه» «1»

موسى الرسول (عليه السلام) بعد ما يتحمل أعباء السفر و وعثاءه ليلقى الخضر، تراه كيف يحترمه و يتأدب عنده، و هو رسول إليه في الشرعة الإلهية، و ولي عليه، و ان كان الخضر علّم من علم التأويل ما لم يعلمه موسى فليكونا- لأقل تقدير- على سواء! و لكنه يعلمنا أن المتعلم أيا كان عليه في سبيل التعلم من أيّ كان ان يحترمه و يتأدب لديه: «هَلْ أَتَّبِعُكَ ..»؟ دون ان تأخذه طنطنة الأعلمية الرسالية فيقول: «اتبعني آخذ عنك مما عندك،» او يتنزل شيئا:

«أتبعك ..» و لكنه قال: «هل اتبعك .. استيئذانا منه في اتباعه تعلما، حال أنه رسول اللَّه، و قد أمره اللَّه ان يتعلم مما عنده! «اتبعك» اتباعا لأمرك في سبيل التعلم، و متابعة لك أينما تذهب، دونما استقلال أمامك فاستغلالك لصالح التعلم، و انما «أتبعك» إن تسمح لي، تواضعا مضاعفا أمام المعلّم مهما كان المتعلم إمامه في شرعته و هو يقتضي كونه متبوعا او مساويا و مستقلا بجنبه لا تابعا، و لكنه في مقام التعلم يتأدب هكذا!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 27 ح 128- القمي حدثني محمد بن علي بن هلال عن يونس قال: اختلف يونس و هشام ابن ابراهيم في العالم الذي أتاه موسى (عليه السلام) أيهما كا اعلم و هل يجوز ان يكون على موسى حجة في وقته و هو حجة اللَّه عز و جل على خلقه؟ فقال قاسم الصيقل: فكتبوا الى أبي الحسن الرضا (عليه السلام) يسألونه عن ذلك فكتب في الجواب أتى موسى العالم فأصابه في جزيرة من جزائر البحر فاما جالسا و اما متكئا فسلم عليه موسى فأنكر السلام إذا كان بأرض ليس فيها سلام قال: من أنت؟ قال: انا موسى بن عمران- قال: أنت موسى بن عمران الذي كلمه اللَّه تكليما؟ قال: نعم- قال: فما حاجتك؟ قال: جئت لتعلمني مما علمت رشدا، قال: انى وكلت بأمر لا تطيقه و وكلت بأمر لا أطيقه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 149

و «مِمَّا عُلِّمْتَ» دون «ما علمت» تواضع آخر أنني لا أعني من هذه المتابعة ان أصبح مثلك و إنما «مِمَّا عُلِّمْتَ» أن تعلمني بعض ما علّمت! ثم و ليس ذلك الإتباع تقليدا أعمى و انما «عَلى‏ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً»:

رشدا في اتباعك و رشدا فيما تعلمني و رشدا مما علمت، فاتباع المعلم و تعليم الرشد في أسلوب غير رشيدة، غير سديد، كتعليم الضلال في أسلوب رشيده، فانه ضلال بعيد حيث يخيل الى المتعلم أنه رشيد.

فعلى المتعلم أن يكون على بصيرة للحصول على رشدي التعلم بعد رشد الإتباع: «فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلى‏ طَعامِهِ»: اي الى علمه الذي يأخذه عمن يأخذه و كيف يأخذه؟

و بهذا الأدب اللائق بنبي يستفهم دون جزم و يطلب العلم الراشد من المعلم الراشد، باتباع راشد فانه ليس ليستسلم أمام ذلك التعليم ما لم توافق مواده موازين العقل و الشرعة الإلهية! لذلك ينبهه العبد الصالح بما يؤول أمره، لاختلاف ميزاني الظاهر عند المتعلم، و الباطن عند المعلّم.

قالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (67) وَ كَيْفَ تَصْبِرُ عَلى‏ ما لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً (68).

إحالة في تأكيدي: «إن- لن» ان يصبر معه صبرا، و لا في مادة واحدة، حيث النكرة في نطاق النفي المؤكد و لا سيما المحيل، إنها تفيد الاستغراق الحاسم الجاسم.

و لكي لا تكون هذه البداية مزعجة غير مترقبة من صالح الى نبي، و بعد هذه الآداب، و الحرمات المسبقة، يعذره المعلم في‏ «لَنْ تَسْتَطِيعَ» ب «وَ كَيْفَ تَصْبِرُ» على ما ترى من خلاف الشرعة و هو خلاف العدالة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 150

و العصمة أن يسكت صاحب الرسالة عن التنديد بأمر إمر، أو نكر، او خلاف العقل، حيث التقرير زاوية من مثلث السنة! يعذره عن أن يصبر «عَلى‏ ما لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً» و حيطة الخبر لزام عقلي و شرعي فيما يخالف ظاهره الشرع او العقل، لكي يتغلب باطنه الأمين على ظاهره غير الأمين فيصبر على إمر الظاهر لأمر الباطن، و الصبر ما أوله مرّ و آخره حلو فمن دخله من أواخره فقد دخل و من دخله من اوائله فقد خرج و من عرف قدر الصبر لا يصبر عما منه الصبر ..» «1» و موسى يعرف قدر الصبر و موقعه فلا يصبر عما منه الصبر و هو عصيان في ظاهر الشرعة و حتى في احتمال أن آخره حلو! فالشرعة الإلهية أعلى محتدا و واجب رعاية و حرمة من حرمة المعلم ايّا كان، إذا تناحرتا، فلا طاعة لمخلوق- و لا رعاية- في معصية الخالق، و كما لا معصية لمخلوق في طاعة الخالق، و انما هي طاعة اللَّه لا سواه، و احاطة الخبر فريضة عادلة في كل فعل او ترك ان يعرف وجهه في شرعة اللَّه فيؤتى به او يترك، بوحي او اجتهاد او تقليد صالح، و ليس موسى ممن يقلد خضرا فانما يمشي و يمضي بوحي، ثم التقليد الصالح قد يجابه بما يحير العقل فسؤالا و جوابا مقنعا ام تركا و اعتراضا محتاطا! و مهما يكفي خبر ما في فعل او ترك لا يرفضه العقل، و يفرضه ظاهر الشرع، فلا يكفي فيما يرفضه حكم العقل و ظاهر الشرع إلّا احاطة الخبر لحدّ يحوله الى مسموح او مفروض! نرى موسى حينما يواجه و يجابه ب «لَنْ تَسْتَطِيعَ» حيث تحيل أهليته‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

مصباح الشريعة عن الامام الصادق (عليه السلام) و استدل في ختامه بالآية قال اللَّه تعالى في قصة موسى و الخضر (عليهما السلام) «وَ كَيْفَ تَصْبِرُ عَلى‏ ما لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 151

لذلك التعلم، لا يتبرّم و ينزعج فيترك تعلما فيه مهانة، بل يجيبه بما يؤهله‏ «إِنْ شاءَ اللَّهُ» و يعذره‏ «إِنْ شاءَ اللَّهُ» فيمضي في هذه الرحلة الدراسية على ضوء «إِنْ شاءَ اللَّهُ» تعليم صعب و تعلّم صعب على عبدين من الرعيل الأعلى في علم الظاهر و الباطن.

قالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ صابِراً وَ لا أَعْصِي لَكَ أَمْراً (69).

يقولها موسى و لا يدري أنه يواجه امرا إمرا او نكرا او خلاف العقل! و حيث الصبر- و بمشية اللَّه في هكذا أمر- لا يترجّاه مؤمن فضلا عن موسى الرسول (عليه السلام).

و «إِنْ شاءَ اللَّهُ» هنا هي مشية اللَّه تشريعا فتكوينا «سَتَجِدُنِي‏ ...

صابِراً وَ لا أَعْصِي لَكَ أَمْراً» مهما أبهم أمره، ما وافق شرعة اللَّه ثم شاءه اللَّه توفيقا لما أشاءه.

و هذه تكفل حتمية الصبر من موسى (ع) شرط «إِنْ شاءَ اللَّهُ» في بعديها، فلا خلف في وعده و لا تخلف عن مشيئة اللَّه إذ لم يصبر على أمر إمر أو نكر، إذ لا يشاءه اللَّه في شرعة ظاهرة، و لا تكوينا بعد ان لا يصبر موسى حسب تكليفه الظاهر.

اجل‏ «وَ لا أَعْصِي لَكَ أَمْراً» إلّا ان يكون أمرك عصيانا للَّه و إمرا، فقد تمت شروطات و آداب التعلم من موسى (عليه السلام) و ثم ماذا من الخضر؟

قالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْئَلْنِي عَنْ شَيْ‏ءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً (70) ينبّهه أن أمره يثير السؤال العاجل و قد لا يصبر عنه إلى آجل، فلذلك يشترط عليه الآخر المطاف ترك العجال في السؤال و يربطه بمتابعته التي هي اوّل المطاف في هذا المجال! «فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي» دون ان يفرض عليه عدم السؤال إلا بشرط اتباعه المطلق في رحلته المدرسية، الذي لزامه التسليم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 152

أمام المعلم كما يراه لصالح التعليم، تأدبا أمام موسى الرسول (عليه السلام) كما تأدب هو أمامه مع أنه إمامه في الشرعة الإلهية! إذا فلا سؤال فيما يأتي من امره كيفما كان‏ «حَتَّى أُحْدِثَ» دون سؤال‏ «لَكَ مِنْهُ ذِكْراً» هو اجابة عن كل سؤال على أية حال في هذه الرحلة العلمية إحداثا منه و ابتداء دون سؤال! و يا لها من صعوبة ان موسى الرسول المحيط خبرا بكل ما يفعل او يقول، او يؤتى أمامه عن اي فاعل او قائل، أن يسكت طول هذه الرحلة عن مجاهيل الأمر، على احتمال ان فيه نكرا او إمرا! لكنه مأمور لمواصلة هذه الرحلة، و هكذا مأمور معذور إلّا فيما لا يعذر، فعليه التحمل ما لم يكن حملا لا يحمله الشرع و العقل، فيرضى موسى محتاطا في صبره و عدم عصيانه و سؤاله ب «إِنْ شاءَ اللَّهُ» رقابة تامة على ظاهر الشرعة، و على ضوءها ما يحدث في رحلته مواصلة لها، و قد يتناسى لرعاية الشرعة لزوم صبره و إن كان على أمر إمر، و خضر يستأجله في تأويل ما لم يحط به خبرا، و لكنما التعود على الالتزام بظاهر الشرع و لرسول معصوم لا يمهله ان يصبر حيث يراه إهمالا للشرع! ..

فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا رَكِبا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَها قالَ أَ خَرَقْتَها لِتُغْرِقَ أَهْلَها لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً (71) «فانطلقا» هنا دون «انطلقوا» دليل ان موسى ترك فتاه في الملتقى، و لأن الانطلاق هو التخلي عن وثاق كما الطلاق تخلية عن وثاق، فقد كان وثاق حتى الملتقى فمن هناك الانطلاق، وثاق موسى بفتاه، و وثاقه بعلم الظاهر، ثم وثاق خضر بوحدته و بعلم الباطن، «فانطلقا» يعني لكلّ انطلاقين و الى مجمع بحري الظاهر و الباطن:

«... حَتَّى إِذا رَكِبا فِي السَّفِينَةِ» .. «السفينة» معرفة تلمح أنها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 153

بخصوصها كانت مقصودة للخضر كأوّل المطاف في هذه الرحلة، فلم يقل «سفينة» كما و أن «إذا» تؤيد هذه المعرفة المستبقة عن السفينة، فهما إذا في هذه الرحلة المدرسية «في السفينة» يتابعان واجب التعليم و التعلم!- «خرقها»! مسافر باجرة ام دون اجرة «1» و لا يملك السفينة و حتى لو ملكها «خرقها»؟ أمر امر: داهية عظيمة، تستقبل موسى بداية الأمر! لن يستطيع موسى امامه صبرا فيبتدر في اعتراض: «قالَ أَ خَرَقْتَها لِتُغْرِقَ أَهْلَها» كغاية يخلفها خرقها و ان لم يقصد به غرقها و لكنه حسب العادة يعرف غرقها بخرقها! «لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً» حكم على أمره بإمره في تأكيدين: «لقد» حيث الإمر و هو الداهية العظيمة هناك، كان إمرا من جهات عدة أعظمها الذي ذكره كغاية كأنها المقصودة فقط: «لِتُغْرِقَ أَهْلَها» و فيه ضمن أهلها غرقهما، و فيه- لأقل تقدير- تصرف ضار في مال الغير، فلان تعريض الغير و لا سيما جماعة الى الخطر أنكر من تعريض النفس كما هو أنكر من إتلاف المال، لا يأتي هنا من إمر أمره إلّا «لِتُغْرِقَ أَهْلَها» حيث الخرق كان لحد الغرق.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور في حديث رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) عن القصة «فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت بهم سفينة فكلموهم فعرفوا. الخضر فحملوه بغير نول فلما ركبا السفينة فلم يفجأه الا و الخضر و قد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم فقال له موسى قوم حملونا بغير نول عهدت الى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها لقد شيئا امرا ...

قال رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) كانت الاولى من موسى نسيانا قال و جاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة فقال له الخضر ما علمي و علمك من علم اللَّه الأمثل نقص هذا العصفور من هذا البحر.

و

في نور الثقلين 3: 27 ح 151 في تفسير العياشي عن عبد الرحمن بن سيابة عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) و ساق القصة الى قوله (عليه السلام) فانطلقا حتى انتهيا الى معبر (سفينة) فلما نظر إليهم اهل المعبر قالوا: و اللَّه لا نأخذ من هؤلاء اجرا اليوم فحمل عليهم فلما ذهبت السفينة و كثرت الماء خرقها ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 154

لقد كان موسى (عليه السلام) هنا معذورا في اعتراضه بلفظة قاسية، و يعذره موقفه الرسالي من ناحية، و علّه لم يدر ان خرق السفينة هو من موارد تعليمه و مواده من اخرى، حيث تعود التعلم بوحي الشرعة قولا، و امّا ان عملا ما كهذا داخل في التعليم فلم يتعوده رساليا، ففوجأ هنا بالخرق الغرق فانبرى غضبانا أسفا «أَ خَرَقْتَها ... إِمْراً»؟! سفينة تحملهما بركاب لها و هم وسط اللجة تلعب بها في جزرها و مدها، ثم يأتي عبد الصالح في رحلة تعليمية لموسى الرسول (عليه السلام) فيخرقها ليغرقها و أهلها، انها طامة كبرى و داهية عظمى تغطي على موقف المعلّم و ما وعده موسى‏ «سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ صابِراً» و لكن كيف يشاء اللَّه صبرا في مثل هذه الداهية، فحق له أن ينسى ما وعده و إن لم يستثن و قد استثنى! ثم العبد الصالح لا يزيد على ما بدء.

قالَ أَ لَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (72): و هذه اوّل خطوة في رحلتنا ما صبرت معها، و كما قلت لك بداية الرحلة، و ما هي الفائدة في تعليم لا تتوفر شروطه و لن:!؟ إذا فاتركني و شأنك و شأني، ام حاول لإحالة ظاهر الحال الإمر إلى باطن الأمر بصبر هو مفتاح الفرج! قالَ لا تُؤاخِذْنِي بِما نَسِيتُ وَ لا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً (73) فانما نسيت وعدك دون تقصير، بل نسيان او تناس واجب بظاهر الشرع فترك ذلك النسيان عصيان، فلا تؤاخذني! «وَ لا تُرْهِقْنِي»: لا تغشني بقهر في تكليف التكلّف ألّا أنسى و من حقي أن انسي أو أتناسى‏ «لا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي» تعلما في هذه الرحلة العسيرة «عسرا» على عسرها، فان لم اصبر أنا و لن .. فاصبر أنت إذا، و لكي ننهي أمرنا على إمره، فلا تزد إمرا على إمر و عسرا على عسر! و التكليف في عسر مرفوض في ظاهر الشرع‏ «لا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً»!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 155

و «امري» يشمل أمري النسيان و الرحلة المدرسية، فلا تندد بي إذ نسيت و لا تترك تعليمي بعد ما نسيت.

نرى هنالك اجتمعت المشيئتان التكوينية و التشريعية التي تبنتها أن لم يصبر على امره الإمر، و ينهاه موسى عن مؤاخذته بما نسي و إرهاقه من أمره النسيان و التعليم عسرا، و لو كان نسيانه محظورا لكانت المؤاخذة عليه حقا في ظاهر الشرع، فلما ذا ينهاه موسى عن مؤاخذة و إرهاق و ليس لينهى إلّا حسب الشرع، كما لم يصبر حسب الشرع! و ترى‏ «أَ خَرَقْتَها لِتُغْرِقَ ..» لم تكن فرية على الخضر و حكما على أمره بإمره، و مجال الاحتمال لحلية أمره واقع حيث التنبيه المسبق‏ «إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً .. فَلا تَسْئَلْنِي ..»؟

الجواب انه سؤال استفهام و ليس حكما، و لم تكن المؤاخذة «أَ لَمْ أَقُلْ ..» إلّا على سؤاله لا فريته، و «لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً» حكم على فرض عدم الجواب المقنع، او حكم بظاهر الشرع دون باطنه فلا محظور فيه، و قد أعذره الخضر! فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا لَقِيا غُلاماً فَقَتَلَهُ قالَ أَ قَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً (74).

«فانطلقا» انطلاقة ثانية في مواصلة الرحلة المدرسية، انطلق موسى تخليا و تخلصا عن وثاق الوعد: النسيان الاعتراض في سؤال التنديد، و انطلق الخضر عن المؤاخذة بما نسي موسى (عليه السلام) إرهاقه العسر «حتى إذا» وقعا في وثاق ثان‏ «لَقِيا غُلاماً فَقَتَلَهُ»: قتله فور لقاءه دون حوار، و حسب الظاهر دون معرفة مسبقة عن حاله، و هذا أمر و أدهى من خرق السفينة «1» فانه يخلّف الغرق و قد يمنعه مانع من سدّ

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور في حديث رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) عن القصة ثم خرجا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 156

الخرق كما فعل، و لكنما القتل واقع لا يجبر بشي‏ء، فانبرى موسى نبرة أشد من الأولى ناسيا وعده هنا و كان أحرى إذ يرى نكرا بعد ما رأى إمرا «قالَ أَ قَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً».

ترى و كيف عرف ان الغلام نفس زكية، أو أن قتله كان بغير نفس؟

أ كانت زكية حيث الغلام لائح في غير البالغ، و هو نفس زكية على أية حال حيث كونه مرفوع القلم حتى و ان قتل نفسا فالدية إذا على العاقلة دونه.

و لكن فرض الدية على العاقلة لا يجعل القاتل غير البالغ زكيا و غير قاتل، و ان لم يجز قتله حيث القلم عنه مرفوع! أو أنه كان بالغا و الغلام من بلغ حدّ الغلومة و الشبق بالغا و سواه، و قد نتبلّغ بلوغه هنا من‏ «بِغَيْرِ نَفْسٍ» اللائح في تجويز قتله بنفس، و من ثم الجواب في تجوز قتله بكفره المرهق‏ «فَخَشِينا أَنْ يُرْهِقَهُما طُغْياناً وَ كُفْراً» و الكفر المرهق الطاغي مما يفرض القتل فانه فتنة و فساد كبير «وَ الْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ» فانها قتل لنفوس مؤمنة لايمانها! و كيف عرف موسى انه نفس زكية دون معرفة عنه مسبقة، و انه لم يقتل نفسا او لم يأت بما يهدر دمه؟ علّه لأنها كانت لقياه الاولى، و الأصل في كل نفس كونها زكية غير كافرة، و انها لم تقتل نفسا، أو انها زكية عن قتل الغير ان كانت اللقيا في ارض كافرة، «بِغَيْرِ نَفْسٍ» تأكيد لكونها زكية، و أصل البراءة حكم من ظاهر الشرع يحكم بهذه و تلك، إلّا ما خرج بدليل، و لا دليل على خلافه حاضرا في هذه اللقيا، و موسى (عليه السلام) رسول و امام يحكم بظاهر الشرع: «لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً»: يستنكره كل عارف بموقفه!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذا ابصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله فقال له موسى ... و هذه أشد من الاولى ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 157

او ان حكمه لم يكن بتا حيث احتمال البراءة قائم، فانما حكم شرط كونها «نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ» و إذا «لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً».

و لماذا يذكر موسى مسوغا واحدا للقتل‏ «بِغَيْرِ نَفْسٍ» ان قتل النفس إنما يجوز بنفس؟ علّه لأنه المسوغ الأصل لقتل النفس قصاصا ثم يلحقه غيره من فساد في الأرض ام ماذا «مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً» (5: 32) نقلا قرآنيا عن ذلك الحكم في التوراة! او ان «زكية» تلمح الى سبب عام في هدر الدم، انها كافرة بارتداد إمّا ذا، ام مفسدة في الأرض؟ و قد أجمل عن أسباب اخرى كهذه حيث الغلام بعيد عنه إفساد على غلمته! فإذا كانت المرحلة الاولى من هذه الرحلة خرق السفينة و احتمال غرق من فيها، ففي الثانية «قتل نفس زكية بغير نفس» امر نكر لا يستطيع موسى أن يصبر عليه، فقد يستنكر هنا دونما نسيان، و كما لم يعتذر كالأولى‏ «بِما نَسِيتُ» و انما «إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْ‏ءٍ بَعْدَها فَلا تُصاحِبْنِي ..» دونما تأول سبب يعتذره- هنا- و بعد هذا السؤال العضال- يردد المعلم تنديده الأديب.

قالَ أَ لَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (75).

كما مضى دون زيادة إلّا «لك» اقل لك موسى الرسول كليم اللّه متابعي في هذه الرحلة، لك لا سواك، لك مرتين: قبل الرحلة و عند الخطوة الاولى‏ «إِنَّكَ لَنْ ..» كمستحيل عليك ان تستطيع معي صبرا، حيث «وكلت بأمر لا تطيقه و وكلت بأمر لا أطيقه» فكما لا تطيق أنت معي صبرا بحكم الشرعة الظاهرة، كذلك أنا لا أطيق على سؤالك صبرا بحكم الشرعة الباطنة!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 158

و لو كانت لهذا المعلم ولاية مطلقة إلهية على ذلك المتعلم كان عليه التسليم المطلق، و لكنما الولاية المطلقة هناك انما كانت لموسى (عليه السلام) على خضر (عليه السلام) و هو من أمته، فكيف يستلم له في رحلته و ان كان وعده متابعته و اتباعه، و لكنه استثناها بمشيئة اللّه في بعديها، و هذه تختلف في بعد المشيئة التشريعية عن المتابعة المطلقة لمن له الولاية المطلقة كأنبياء اللّه و أضرابهم، و البعد التكويني في استثناء المشيئة كائن أيا كان و لأي كان و كما الرسول‏ «وَ لا تَقُولَنَّ لِشَيْ‏ءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ».

لذلك لا يستسلم موسى أمام الخضر إلّا على ضوء ظاهر الشرعة الإلهية مهما بلغ في رحلته من رهق الصعوبة او الحرمان.

قالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْ‏ءٍ بَعْدَها فَلا تُصاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً (76).

إن المرة الثالثة بعد الأولى و الثانية هي آخر المرات و ليست آخر الخطوات، و لكنك لا تحملني و أنا لا أحملك لاختلاف المعيارين، «إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْ‏ءٍ بَعْدَها» و أحاول ألّا اسأل‏ «إِنْ شاءَ اللَّهُ»- «فَلا تُصاحِبْنِي» استمرارا في هذه الرحلة ف «قد بلغت» إذا «مِنْ لَدُنِّي عُذْراً» حيث أعذرك في ترك الصحبة إذ لا تتحمل سؤالي قبل ان تحدث لي جوابا، و لكنني اتحملك في تأجيل الجواب مهما لا اتحملك عن تعجيل السؤال، و الفرق لائح من‏ «قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي» دون «قد بلغت عذرا من لدني و لدنك»! فحيّاه إلى المشهد الثالث و الأخير.

فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا أَتَيا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَما أَهْلَها فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُما فَوَجَدا فِيها جِداراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقامَهُ قالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً (77).

خطوة ثالثة و هي الاخيرة من تلك الرحلة المدرسية هي أخف وطأة من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 159

سابقتيها فانها في ظاهر الحال خلاف العقل و ليس محرما شرعيا ام يخف! «فانطلقا» كلّ من وثاقه‏ «حَتَّى إِذا أَتَيا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَما أَهْلَها» الأهل الثاني علّهم الأهل من أهلها: من فيه الأهلية ان يستطعم، أ ترى كيف يجوز عليهما الاستطعام؟ أ سؤالا و هو حرام إلا عند الضرورة المدقعة بقية على حياة و لم تكن حيث أقام الجدار! ام استضيافا كما «فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُما»؟ فكذلك الأمر و ان كان أهين.

علّه كان جوعا لحد الحرج حيث لا يسطعان مواصلة الرحلة الواجبة، و الاستضياف عنده، و ممن يؤهل للإضافة هو في حدّ الوجوب، ام لأقل تقدير يجوز، ثم و ليظهر لهم لؤمهم، فتظهر اقامة الجدار دون طلب لأجر أكثر و اظهر عجابا لموسى فتكتمل الرحلة بذلك الأمر الأمر العجاب، و ليخجلوا لما رأوا إقامة الجدار دون بغية الأجر، إمّا ذا من حكم مجوزة او موجبة لاستضيافهما.

و ما الأمهم حيث «أبوا أَنْ يُضَيِّفُوهُما» و

قد يروى‏ أنهم لما سمعوا نزول هذه الآية استحيوا و جاءوا الى رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) بحمل من الذهب و قالوا يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم):

نشتري بهذا الذهب ان تجعل الباء في «أبوا» تاء: «أتوا» ليندفع عنا هذا اللؤم؟ فامتنع رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) .. «1».

أ ترى بعد هذه اللئامة اللعينة و الإهانة المهينة يستحق أهل هذه القرية كرامة متعبة مجانة و على رهق الجوعة المهلكة؟ و لكن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). التفسير الكبير للفخر الرازي ج 21 ص 157: رأيت في كتب الحكايات ...

و في روآية ابن بابويه و القمي ان هذه القرية هي الناصرة التي تنسب الى النصارى، و في بعضها أن الأرض كانت آذربيجان و القرية باجر و كان أهلها لئاما و عن القرظي أنها طنجة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 160

«فَوَجَدا فِيها جِداراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقامَهُ» على وعثاء السفر و شقوة الجوع و لئامة أهلها «فأقامه» الخضر، و طبعا لا يساعده موسى حيث السؤال الفادح: «قالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً» و «لو» هنا تلمح الى حالة من الجوع و النصب يرثى لها و تحيل اي عمل فضلا عن إقامة الجدار، ف «لو شئت» عملا كمستحيل تحميلا على نفسك لاتخذت قبله عليه أجرا.

جدار يريد أن ينقض، و كيف يريد الجدار و لا إرادة للجماد، إلّا تصويرا لمقارفة الانتقاض، حيث ظهرت فيه أماراته من ميل بعد ثبات و اضطراب بعد انتصاب! و ترى ان الخضر استأذن صاحب الجدار فأقامه؟ و «كان‏ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ» إنه اقامه بولاية شرعية، و لكنه مجهول لدى موسى فيعترض «لو شئت ..». و ترى‏ «لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً» بعد ما أقامه؟ و ليس لغير الأجير أجر، بل و علّه عليه وزر تصرفا في مال الغير بدون إذنه! طبعا قبل ما أقامه عليه أن يستأذن أهله على اجر، حيث الضرورة قائمة هناك على أخذ الأجر، مما يفرض عرض الإنسان نفسه لعمل بأجر بقية على حياة و تداوما في تلك الرحلة الواجبة.

فحسب الظاهر ليس هذا الموقف موقف الترحم على هؤلاء اللئام، فليرحم نفسه و صاحبه بأخذ الأجر، فتركه خلاف العقل و لا يسمحه الشرع!.

قالَ هذا فِراقُ بَيْنِي وَ بَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ما لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً (78).

فراق حسب الشرط «فَلا تُصاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً» و قد تعلم منه مما علّمه رشدا، و قد تبين الرشد في كليهما معلما و متعلما بكل احترام دون اخترام.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 161

في الخطوة الاولى و الثانية اعتذرت فأعذرتك و للثالثة أعذرت دون اعتذار ف «هذا» السؤال دون إعذار «فِراقُ بَيْنِي وَ بَيْنِكَ» كما اتفقنا «سأنبئك» كما وعدتك: «حَتَّى أُحْدِثَ ..» بتأويل مأخذ و مرجع‏ «ما لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً»! فراق حنون بعد وفاق حنون و كلّ خطى خطواته كما علّم، و قد حصل ما قصد كأن يعلم موسى أن في أمته من هو أعلم منه في علم الباطن، مهما كان هو أعلم منه في علم الظاهر، «فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ» اللّهم إلّا علّام الغيوب، فلا يزعمنّ أحد أنه أعلم الخلق أجمعين و إن كان كموسى الرسول، فضلا عمن سواه، حيث العطيات موزّعات بعلم العليم الحكيم حسب القابليات! أَمَّا السَّفِينَةُ فَكانَتْ لِمَساكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَها وَ كانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً (79).

أراد اللّه أن تبقى السفينة لمساكينها، و لو شاء لحقق ما يشاء بصرف إمّا ذا من خارقة. و لكنه شاءه بفعل من غيره غير خارق: «فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَها» أردته تحقيقا لمشيئة تشريعية، و اخرى تأييدة تكوينية إلهية كما في كافة الواجبات.

لم يقل أردنا حيث لم يشاركه موسى، و لا أراد اللّه حيث لم يرد اللّه الإعابة بفعله خارقة، و إنما أراد تعالى إصلاحها بما أعابها الخضر، فالإعابة فعله بسماح شرعي، و الإصلاح فعل اللّه بسماح تكويني.

«وَ كانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ»: ملك وراء المساكين يلاحقهم أيا كانوا «يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً» فليست الوراء هنا وراء الخلف، «1» و انما وراء التخلّف‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 4: 237- اخرج سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن أبي حاتم و الحاكم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 162

و الملاحقة من أية جهة كانت و «كُلَّ سَفِينَةٍ» تعني من مساكين و سواهم حيث هي صالحة للاستثمار، فلتكن صالحة غير معيبة، «فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَها» في الظاهر لأصلح أصلها لكيلا تغتصب.

على الملوك أن يكونوا وراء الشعوب و لا سيما المساكين خدمة لهم و إصلاحا، و هذا الملك كان وراءهم خيانة و إفسادا «يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً» فلأنني أحطت بذلك خبرا أعبتها للحفاظ على أصلها، ثم الحفاظ على أهلها عن غرقها حاصل بما سددنا ثغرتها.

بهذا العيب الصغير نجت السفينة عن الضرر الكبير الذي يكنه الغيب إن لم يكن لها عيب، و لتكن هذه سنة للحفاظ على الأصلح و كما عاب الإمام الصادق (عليه السلام) زرارة في ظهر الغيب حفاظا على نفسه، و بهذا المعنى الغاية تبرر الوسيلة، فإعابة السفينة محرمة لو لا هذه الغاية، دون أن تتبرر كل وسيلة بكل غاية، و إنما الغاية الأهم بوسيلة دون الأهم، فغاية توطيد اركان الخلافة بواسطة تثبيت معاوية ردحا من الزمن لا تتبرر، حيث الخلافة العادلة لا ترتضي ظلما يتبناها او يوطّدها، و إبقاء معاوية إبقاء للظلم ريثما يثبت العدل ثم يزيل معاوية الظلم، و من ذا الذي يضمن بقاء الإمام في هذه الفترة حتى يعزل معاوية، و من ذا يضمن إمكانية عزله إن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و صححه و ابن مردويه عن ابن عباس‏ ان النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) كان يقرأ «و كان امامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا».

أقول: اما «صالحة» فهي تفسير بيان للسفينة، و اما «امامهم» فقد يعني «بين أيديهم» دون ان يكون «امامهم» بدل «وراءهم» و «صالحة» محذوفة عن القرآن، حيث تطارده أحاديث العرض و لا نصدق الا كتب القرآن المتواتر و المجمع عليه طوال القرون الاسلامية! و يشهد لذلك ما

رواه العياشي عن حريز عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) انه كان يقرء «وَ كانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ» يعني امامهم «يأخذ كل سفينة صالحة غصبا».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 163

بقي الإمام و هو يقوى كما الإمام يقوى، حيث هما في سبيلهما إلى الاستبقاء! فهنا نرى ان في امهال معاوية الطاغية رعاية لاستحكام حكم علوي مجهول، و إبقاء لاستمرار و استحكام ظلم الطاغية و هو معلوم، بيد ان غاية العدل لا يبررها اي ظلم! فليست «الغاية تبرر الوسيلة» ضابطة صالحة لا تستثنى، و لا حابطة طالحة لا تصلح، و انما الضوابط الشرعية الاخرى هي التي قد تبرر و قد لا تبرر، كما بررت في خرق السفينة، دون إمهال معاوية!.

إذا فكل ما دون قتل النفس من المحرمات تتبرر كمقدمات للحفاظ على النفس، كأن تغتاب أخاك او تفتري عليه او تهتكه و تضربه أمّاذا حفاظا على نفسه، و كلما هو فوق القتل كضياع الشرع أماذا لا تتبرر للحفاظ على النفس، و هذه الفوقية و التحتية مستفادة من الشرع، فإذا كانا على سواء فعلى سواء، ضابطة عامة في تقديم الأهم على المهم! هنالك شروط عدة في تبرير الغاية الوسيلة، من كونها أهم من الوسيلة كما في زرارة و السفينة، و كون الغاية الأهم قطعية كالوسيلة، فان كانت هي محتملة و الوسيلة قطعية فلا تبرر، إلّا فيما المحتملة ايضا أهم من تلك الوسيلة، كمظنة حفظ النفس او احتماله حيث تبرر وسيلة خفيفة كضرب او شتم او اغتياب إمّا ذا؟

و ان تتوارد الغاية و الوسيلة على فرد او جماعة، كأن تظلم فردا او جماعة بظلم لئلا يظلم بأكثر منه كما في السفينة، فأما ان تظلم فلانا ليسلم غيره من ظلم و ان اكثر منه فلا كما في إبقاء معاوية تظلم الجماعة المؤمنة في فترة بقاء معاوية لسدّ ظلم اكثر منه- و لا اكثر منه!- في مستقبل مجهول و عن جماعة غير معلومة، علّ فيها من هؤلاء- لا كلهم- و علّهم ليسوا فيها!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 164

لا نسطع في هذا المجال الخاصر الحاصر ان نستعرض كل المعارضات بين الوسائل و الغايات من الفقه كله، فنحشر الفقه لنحشركم على حافة من المسرح العام، فليتبع و في كلّ ضابطته علما بان الغاية ليست لتبرر الوسيلة كضابطة عامة، فقد تبرر بضابطة و قد لا تبرر بضابطة، فليست هي إذا ضابطة و انما السلب و الإيجاب لتبريريها حسب الضوابط المقررة في مجالاتها.

و من أهم السياسات الحفاظية على الصالحين كسرهم عند من يريد كسحهم حتى لا يبيدهم و كما

فعل الامام الصادق (عليه السلام) بزرارة معتذرا إليه في تعييبه إياه موضحا له موقفه قائلا له «يرحمك اللّه فانك و اللّه أحب الناس إلي و أحب أصحاب أبي إلي حيا و ميتا فإنك أفضل سفن ذلك البحر القمقام و إن من ورائك لملكا ظلوما غصوبا يرقب عبور كل سفينة صالحة ترد من بحر الهدى ليغصبها و أهلها فرحمة اللّه عليك حيا و ميتا و رحمته و رضوانه عليك ميتا «1».

و في دوران الأمر بين المهم و الأهم لا بد من تشخيص ذلك من اجتهاد او تقليد كما يصح: دون الهوسات و التصورات السطحية الخاطئة، حيث‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 285 ح 163 في كتاب تلخيص الأقوال في تحقيق احوال الرجال في ترجمة زرارة ابن أعين روى في الصحيح‏ ان أبا عبد اللّه (عليه السلام) أرسل اليه انما أعيبك دفاعا مني عنك! فان الناس و العدو يسارعون الى كل من قربناه و حمدنا مكانه لادخال الأذى فيمن نحبه و نقربه و يذمونه لمحبتنا له و قربه و دنوه منا و يرون إدخال الأذى عليه و قتله و يحمدون كل من عبناه فانما أعيبك لأنك رجل اشتهرت بنا و يميلك إلينا و أنت في ذلك مذموم عند الناس فيكون ذلك دافع شرهم عنك لقول اللّه عز و جل‏ «أَمَّا السَّفِينَةُ فَكانَتْ لِمَساكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَها وَ كانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً» هذا الرسل من عند اللّه صالحة، و اللّه ما عابها الا لكي تسلم من الملك، فإنهم المثل يرحمك اللّه فانك و اللّه أحب الناس اليّ و اصحاب أبي الي حيا و ميتا فانك أفضل سفن ذلك البحر القمقام و ان من ورائك لملكا ظلوما غضوبا يرقب عبور كل سفينة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 165

تورّط الى طامة كبرى لا علاج لها ام يصعب.

ف «الغاية تبرر الوسيلة» ليست ضابطة فقهية عامة، حتى تلعب بها العامة كما تستعملها الخاصة، و حتى إذا كانت ضابطة فلا تنضبط في التحقيق و التطبيق إلّا عند أهلها الخاصة، و لكنها كما نبهنا ليست آية من كتاب أم رواية من سنة، بل هي حسب المظاهر المواتية للواقع، ضابطة سياسية يبرر بها الساسة دسائسهم الجهنمية، و كما نجدها في الأصل عند الصهيونية العالمية، حيث أوصلوها الى حدّ إقحام آيات في التورات و تحريف آيات أخرى إمّا ذا من اقتحامات ضالة مضلة.

ثم على ضوء الفقه الاسلامي السامي نصلح هذه الضابطة غير الضابطة بحيث تصلح في العناوين الثانوية حسب الضوابط الاسلامية القاطعة.

وَ أَمَّا الْغُلامُ فَكانَ أَبَواهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينا أَنْ يُرْهِقَهُما طُغْياناً وَ كُفْراً (80) فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَيْراً مِنْهُ زَكاةً وَ أَقْرَبَ رُحْماً (81).

هنا يبرر الخضر قتل الغلام بفساده كفرا و إفساده أن يرهق أبويه المؤمنين طغيانا و كفرا، «وَ الْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ» و الإفساد في الأرض من مبررات القتل‏ «كَتَبْنا عَلى‏ بَنِي إِسْرائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً» (5: 32).

«إِنَّما جَزاءُ الَّذِينَ يُحارِبُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ ..» (5: 33) و إرهاق الأبوين المؤمنين طغيانا و كفرا- و هما يستحقان رحمة اكثر ممن سواهما- انه من أبرز الإفساد و السعي فيه.

فكون الغلام حينذاك كافرا دليل كونه مكلفا! «1» و كون أبويه مؤمنين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 236- اخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن عبد العزيز في قوله:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 166

يجعله مرتدا فطريا يستحق القتل و لا يستتاب و إن تاب لم تقبل! فخشية ارهاقه إياهما طغيانا و كفرا يهدّر دمه ثانيا بعد تهدره بارتداده! و ارادة ابدالهما ربهما خيرا منه زكاة و اقرب رحما، زاوية ثالثة تفرض قتله! فحتى لو كان غير بالغ لكان يحق القتل دفعا للإفساد المحتوم.

فهذا الغلام الذي لا يبدو في ظاهره و حاضره انه مستحق القتل، إذا هو في متن الغيب كافر طاغ يخشى ان يرهق أبويه طغيانا و كفرا.

و ترى لماذا هنا «فَخَشِينا .. فَأَرَدْنا» و هنالك‏ «فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَها» لان إرادة الاعابة لم تكن إلّا منه دون موسى حيث ندّد بها! و حتى إذا عرف موسى جوازها فلا حاجة في الإعابة إلا ارادة و اعابة واحدة، و اما الخشية من الإرهاق، فهي كائنة للخضر و مقدرة لموسى و على كل مؤمن باللّه أن يخشى الارهاق، مهما كان دفع الخشية بالقتل يكفيه واحد، و بعد العلم و الخشية

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

لقيا غلاما قال كان غلاما ابن عشرين سنة فيه-

اخرج مسلم و ابو داود و الترمذي و عبد اللّه بن احمد في زوائد المسند و ابن مردويه عن أبي بن كعب عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قال: الغلام الذي قتله الخضر طبع يوم طبع كافرا و لو أدرك لأرهق أبويه طغيانا و كفرا و روى مثله عن ابن عباس عنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) إلّا ذيله،

أقول: قد يعني «طبع كافرا» انه منذ ان بلغ طبع نفسه كافرا فان اللّه لا يطبع أحدا على الكفر فكل مولود يولد على الفطرة، ثم «و لو أدرك» يؤول الى إدراكه أبويه على كفره ارهاقا لهما كفرا.

و

في نور الثقلين 3: 285 ح 164 في مجمع البيان روى عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) «اما الغلام فكان كافرا و أبواه مؤمنين-

أقول: و هذا تفسير و ليس نقلا لاصل الآية.

و

فيه (167) عن إسحاق بن عمار عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: سمعته يقول: بينما العالم يمشي مع موسى إذ هم بغلام يلعب قال: فوكزه العالم فقتله قال له موسى «اقتلت ...» قال: فادخل العالم يده فاقتلع كتفه فإذا عليه مكتوب «كافر مطبوع».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 167

تأتي الارادة «أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَيْراً ..».

يا موسى لست أنا الوحيد في هذا الميدان، فأنت معي و كل مؤمن باللَّه أن نخشى ما أخشاه و نريد ما أريده بعد العلم بموقف الغلام و أبويه المؤمنين، و أما إرادة الإعابة فيكفيها واحد ثم لا يريد سائر من يعرف الواقع إلّا الحفاظ على سفينة المساكين باية طريقة ممكنة، دون ضرورة ايمانية في ارادة جماهيرية للإعابة! و ترى إن خشية الإرهاق طغيانا و كفرا و هي دون العلم كيف تبرر القتل و لا علم و لا إرهاق حينذاك؟

هنالك المبرر لقتل الغلام يكفي كونه مرتدا فطريا و في حالة الإفساد و لمّا يرهق أبويه، ثم الخشية لا تنافي العلم الحاضر الظاهر، حيث الواقع قد يتخلف عما تعلم، فالصيغة الأدبية عن العلم الظاهر فيما لا يجوز هي الخشية، خوفا ان يستقبل خلاف ما يعلمه حاضرا، فلم يكن- إذا- قتل الغلام قصاصا قبل الجناية، حيث الارتداد الفطري هو جنايته الحاضرة، اضافة الى خشية الإرهاق حيث تلمح الى حاضر السعي في الإفساد، و لكي يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة و اقرب رحما.

أ ترى ان الغلام كان خيرا و قريب الرحم حتى يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة و أقرب رحما؟ كلّا فلا خير في هذا الكافر و لا رحم لأبويه، و إنما الافضلية في «خيرا و اقرب» مجاراة ظاهرة في خير الغلام و رحمه.

و هل إن‏ «طُغْياناً وَ كُفْراً» مفعولان ل «يرهقهما» ان يغشيهما بقهر طغيانا و كفرا، ليطغيا و يكفرا؟ ام حالان ل «يرهقها» ارهاقا لهما حالة الكفر و الطغيان؟

قد يعنيهما المنصوبان حالين حال كونهما مفعولين حيث يتحملهما أدب اللفظ و جمال المعنى، فالمرهق حالة الطغيان و الكفر يرهق الى حالة الطغيان‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 168

و الكفر دون زكاة منه و لأرحم اكثر مما في غير حالته.

و لقد سلبت «خشينا» بقتله و تحققت «أردنا» حيث أبدلهما ربهما خيرا منه زكاة: طهارة و ايمانا في نفسه، و اقرب رحما: رحمة لأبويه‏ «1».

مثلث من موجبات القتل يسبب قتل هذا الغلام الكافر و زاوية منه كافية و مثلث آخر هي من موجبات الرحمة يفرض إقامة الجدار دون اجر:

وَ أَمَّا الْجِدارُ فَكانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَ كانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُما وَ كانَ أَبُوهُما صالِحاً فَأَرادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغا أَشُدَّهُما وَ يَسْتَخْرِجا كَنزَهُما رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَ ما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذلِكَ تَأْوِيلُ ما لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً (82).

.. جدار هو ليتيمين في المدينة يريد أن ينقض، تجب إقامته مجانا على ولي اليتيم و الخضر من أفضل الأولياء «وَ كانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُما» يجب الحفاظ عليه باقامة الجدار مجانا، «وَ كانَ أَبُوهُما صالِحاً» و يكرم الرجل في ولده، فتجب اقامة الجدار إكراما لوالديه المؤمنين مجانا، زوايا ثلاث من فرض إقامة الجدار لا أجر فيها ماديا و كما قال اللَّه‏ «وَ مَنْ كانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَ مَنْ كانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ» (4: 6) و لم يكن موسى و الخضر فقيرين رغم حاجتهما الحاضرة المفقرة، و لو كانا فقيرين فكيف يأكلان هنا بالمعروف و لا مال لليتيمين إلّا الكنز «2» الواجب حفظه حتى‏ «يَبْلُغا أَشُدَّهُما وَ يَسْتَخْرِجا كَنزَهُما»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في تفسير القمي عن عثمان عن رجل عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الآية إنه ولدت له جارية فولدت غلاما فكان نبيا

و في اكثر الروآيات انها ولد منه سبعون نبيا.

(2)

في بعض الروآيات‏ ان الكنز كان لوحا من ذهب مكتوبا فيه مواعظ،

و في الأب الصالح انه أبوهما الأقرب او السابع او العاشر او بينهما سبعون أبا او سبعمائة سنة.

و

في الدر المنثور 4: 235- اخرج ابن مردويه عن علي عن النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) في قوله: و كان تحته كنز لهما- قال: لوح من ذهب مكتوب فيه: شهدت ان لا اله الا الله شهدت ان محمد (صلى الله عليه و آله و سلم) رسول الله عجبت لمن أيقن بالقدر كيف يحزن عجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح عجبت لمن تفكر في تقلب الليل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 169

و حتى إذا كان لهما مال سوى كنزهما فالفقر المجوز لأكل الولي هو الناتج عن ولايته عمليا، و لولاها لما افتقر ثم و لو لا اقامة الجدار لم يكن هنا شغل له أجر! و الرحمة الربانية تقتضي الّا يؤخذ من مال اليتيم، و ليس‏ «فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ» للولي الفقير إلّا سماحا حالة الضرورة لا فرضا، فترك الأكل‏ «رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ» كما إقامة الجدار حفاظا عليه و على الكنز رحمة من ربك، و الاطلاع على واقع الأمر رحمة من ربك «و ما فعلته من أمري» فكل ذلك كان بأمر من ربك، يرى موسى في الخطوة الاولى إمرا و في الثانية نكرا، هما في الظاهر من أشد القساوة، ثم يرى في الثالثة رحمة زائدة لحد لا يبررها موسى الرسول و هو رسول الرحمة، كتضاد في خلق الخضر يشبه طرفي النقيض، فكان لموسى موقفا حرجا لن يستطيع معه صبرا! و لماذا «فأراد ربك و رحمة من ربك» و لم يقم الجدار إلّا الخضر، لا موسى و لا ربه؟ اما الارادة فلم تكن إلّا من ربك فان بلوغهما الأشد من إرادة ربك، و كذلك الرحمة هنا في كل زواياها ليست إلّا من ربك.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و النهار و يأمن فجأتهما حالا فحالا!

و

في تفسير العياشي عن إسحاق بن عمار قال سمعت أبا عبد اللَّه (عليه السلام) يقول: ان اللَّه ليصلح بصلاح الرجل المؤمن ولده و ولد ولده و يحفظه في دويرته و دويرات حوله فلا يزالون في حفظ اللَّه لكرامته على اللَّه ثم ذكر الغلامين فقال‏ «وَ كانَ أَبُوهُما صالِحاً» الم تر ان اللَّه شكر صلاح أبويهما لهما.

و

فيه عن مسعدة بن صدقة عن جعفر بن محمد عن آبائه (عليهما السلام) ان النبي (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: ان اللَّه ليخلف العبد الصالح بعد موته في اهله و ماله و ان كان اهله اهل سوء ثم قرء هذه الآية «وَ كانَ أَبُوهُما صالِحاً».

و

في الدر المنثور اخرج ابن مردويه عن جابر قال قال رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم): ان اللَّه يصلح بصلاح الرجل الصالح ولده و ولد ولده و اهل دويرات حوله فما يزالون في حفظ اللَّه ما دام فيهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 170

اعلاما له أن تحته كنز لهما، و امرا بإقامته حفظا لكنزهما، و ترك الأجر وجوبا في شرعة اللَّه كأجر، و أكلا دون اجر رحمة و فضلا! ثم و «ربك» تعني التربية التشريعية و ليس رسولها المبلغ لها إلّا موسى، و التربية التكوينية و موسى هو امام الخضر فيما أخذ منها، فهذه حرمة و حسن ادب من الخضر الى موسى ان قال‏ «فَأَرادَ رَبُّكَ‏ .. رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ» فانما انا الخضر ماش على ضوء التربية الإلهية المتمثلة فيك كإمام، المتحققة عمليا بيدي كمأموم، و ان كنت لم تدره حيث الشرعة ظاهرة و تلك من الغيب، كما لم أكن ادريه لو لا رسالتك بالشرعة الظاهرة «ذلِكَ تَأْوِيلُ ما لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً»! و قد نرى الأفعال المنسوبة الى فاعليها كلها في محالها، فإرادة الاعابة بفعلها هي من الخضر، لا و موسى و لا ان اللَّه أرادها تكوينا إلا كما يريد فعل كل مختار، و خشية الإرهاق هي شريطة الايمان لكل مطلع على ضمير الغيب و لكنما اللَّه لا يخشى، و ارادة إبدالهما خيرا تتبع قتله و خشيتهما، و ما أراد اللَّه الأبدال الا في ظرف هذه الإرادة، و الإبدال فعل من اللَّه دون سواه، كما و ارادة بلوغهما أشدهما ليست إلّا من اللَّه ..

«وَ ما فَعَلْتُهُ» كل ذلك‏ «عَنْ أَمْرِي» و إنما عن أمر ربك، فمهما غاب عنك الموضوع فالحكم نازل عليك رسولا إلي و اماما علي فانا على ضوء شرعتك، فبأمر من ربك فعلت ما فعلت: «ذلِكَ تَأْوِيلُ ما لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً»! في هذه المسارح الثلاثة كانت معارضة بين الحكم الظاهر و الباطن باختلاف ظاهر الموضوع و باطنه، و قد طبق كل من موسى و خضر واجبه، و ترجى رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) فيما

يروى عنه‏ «يرحم الله‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 171

موسى وددنا انه لو صبر حتى يقص علينا من حديثهما»

يضرب الى عمق الغيب دون تنديد بموسى (عليه السلام) كما و هو (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) يحيله ب «لو» و كما ان «علينا» قد تعني غيره (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) حيث جمع، و قد اوتي (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) ما اوتي كل من يعلم ظاهرا او باطنا في الطول التاريخي و العرض الجغرافي و كل خليقة أيا كان و أيان! و قد أعذر الإمام الحسن نفسه في صلحه مع معاوية في‏

قوله (عليه السلام): «إذا كنت إماما من قبل الله تعالى ذكره لم يجب ان يسفه رأيي فيما أتيته من مهادنة او محاربة، و إن كان وجه الحكمة فيما أتيته ملتبسا، ألا ترى إلى الخضر (عليه السلام) لما خرق السفينة و قتل الغلام و اقام الجدار سخط موسى (عليه السلام) فعله لاشتباه وجه الحكمة عليه حتى أخبره فرضي، هكذا أنا سخطتم علي بجهلكم بوجه الحكمة فيه و لو لا ما أتيت لما ترك من شيعتنا على وجه الأرض أحد إلا قتل» «1».

و أنتم أدنى من موسى و كان يحق له السؤال لولايته على خضر، و انا أعلى من خضر و موسى، ولي الولاية عليكم فما كان يحق لكم سؤالي سخطا و تنديدا! ..

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 29 ج 192 في كتاب علل الشرايع باسناده الى أبي سعيد عقيصا قال‏ قلت للحسن ابن علي بن أبي طالب (عليه السلام) يا بن رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم)! لم هادنت معاوية و صالحته و قد علمت ان الحق لك دونه و ان معاوية ضال باغ؟ فقال: يا أبا سعيد! الست حجة اللَّه تعالى ذكره على خلقه و اماما عليهم بعد أبي (عليه السلام) قلت: بلى- قال: الست الذي قال رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) لي و لاخي الحسين: امامان قاما او قعدا؟ قلت: بلى- قال: انا فإذا امام لو قمت و انا امام إذا قعدت، يا أبا سعيد علة مصالحتي لمعاوية علة مصالحة رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) لبني ضمرة، و بني أشجع و لأهل مكة حين انصرف من الحديبية، أولئك كفار بالتنزيل و معاوية و أصحابه كفار بالتأويل، يا أبا سعيد إذا كانت اماما من قبل اللَّه تعالى ذكره لم يجب ان يسفه رأيي فيما أتيته ..».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 172

[سورة الكهف (18): الآيات 83 الى 102]

وَ يَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً (83) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَ آتَيْناهُ مِنْ كُلِّ شَيْ‏ءٍ سَبَباً (84) فَأَتْبَعَ سَبَباً (85) حَتَّى إِذا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَها تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَ وَجَدَ عِنْدَها قَوْماً قُلْنا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَ إِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً (86) قالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلى‏ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذاباً نُكْراً (87)

وَ أَمَّا مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلَهُ جَزاءً الْحُسْنى‏ وَ سَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنا يُسْراً (88) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً (89) حَتَّى إِذا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَها تَطْلُعُ عَلى‏ قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِها سِتْراً (90) كَذلِكَ وَ قَدْ أَحَطْنا بِما لَدَيْهِ خُبْراً (91) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً (92)

حَتَّى إِذا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِما قَوْماً لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً (93) قالُوا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَ مَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلى‏ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنا وَ بَيْنَهُمْ سَدًّا (94) قالَ ما مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ رَدْماً (95) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذا ساوى‏ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذا جَعَلَهُ ناراً قالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً (96) فَمَا اسْطاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَ مَا اسْتَطاعُوا لَهُ نَقْباً (97)

قالَ هذا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَ كانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (98) وَ تَرَكْنا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْناهُمْ جَمْعاً (99) وَ عَرَضْنا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكافِرِينَ عَرْضاً (100) الَّذِينَ كانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَ كانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً (101) أَ فَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبادِي مِنْ دُونِي أَوْلِياءَ إِنَّا أَعْتَدْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ نُزُلاً (102)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 174

وَ يَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً (83).

«ذِي الْقَرْنَيْنِ» لم يذكر في سائر القرآن إلّا هنا جوابا عن سؤال، فهل كان نبيا؟ لخصوص‏ «قُلْنا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ» خطابا يلمح أنه وحي، و عموم‏ «وَ آتَيْناهُ مِنْ كُلِّ شَيْ‏ءٍ سَبَباً» و منه سبب الوحي؟ و لكنما القول من اللَّه لا يخص وحي النبوة و حتى قول الوحي كما «وَ أَوْحَيْنا إِلى‏ أُمِّ مُوسى‏» فضلا عن «قلنا» و في هذه اليتيمة فقط! و يشاركه فيه غيره‏ «وَ إِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ» و لم يكونوا أنبياء! «وَ قُلْنا يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ» و ما كان نبيا حينذاك او «قالَ يا إِبْلِيسُ» و لن يكون نبيا! فقد يعنى‏ «قُلْنا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ» إلهاما دون وسيط كما في هؤلاء، ام وحيا بوسيط كما في سائر الوحي إلى الناس أجمعين! و ظاهر القول الخطاب هو الإلهام كما في أم موسى، و ليس في قوله تعالى هنا ما يحمل مادة الوحي النبوة!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 175

و السبب هو ما يتوصل به الى المقصود لا يشمل سبب الوحي و النبوة، فلا يؤتى النبي سبب النبوة بل نفسها، فانما سببها عند اللَّه و بيد اللَّه، و من ثم لو كان نبيا لكان من أبرز التعريف به تصريحة النبوة، دون اختصاصه بالقدرات الأرضية، فلم يك نبيا و كما في أحاديثنا «1».

و هل كان ملكا؟ قد يعنيه‏ «إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَ آتَيْناهُ مِنْ كُلِّ شَيْ‏ءٍ سَبَباً»! و لا يؤتى ملك من كل شي‏ء سببا! فقد يكون دون النبي و فوق الملك عبدا صالحا «2» قويا بما آتاه اللَّه، مؤيدا من عند اللَّه! كمثل طالوت الملك على ضوء نبوة منفصلة! و نعرف من الإجابات التالية حول ذي القرنين أن السؤال كان حول أفعاله الخارقة، دون نبوته او ملكه او نسبه و بلده، أم و إذا كان يعم ذلك كله او يخص الثاني كما هو دأب القصيصين فلم يأت الجواب حسب الحكمة إلّا المفيد المفيد الذي فيه دعوة إلهية و ذكرى إيمانية!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما

في الدر المنثور 4: 241 اخرج ابن مردوية عن سالم بن أبي الجعد قال‏ سئل علي (عليه السلام) عن ذي القرنين أ نبي هو؟ فقال: سمعت نبيكم (عليه السلام) يقول: هو عبد ناصح اللَّه فنصحه.

(2)

الدر المنثور 4: 241- اخرج ابن عبد الحكم في فتوح مصر و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابو الشيخ في العظمة عن خالد بن معد ان الكلاعى‏ ان رسول اللَّه لا (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) سئل عن ذي القرنين فقال ملك مسح الأرض من تحتها بالأسباب‏ و فيه أخرجه مثله الشيرازي في الألقاب عن جبير بن نفير ان أحبارا من اليهود قالوا للنبي (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) حدثنا عن ذي القرنين ان كنت نبيا فقال: ...

و قد تضارب الحديث عن علي (عليه السلام) انه كان نبيا ام لا و قد نفى كونه ملكا و عله بفتح اللام ردا على من زعمه ملكا، و هناك روايات متضاربة اخرى في نفي نبوته و إثباتها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 176

ثم «و يسألونك» يشمل زمن الرسول (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) و إلى اعماق المستقبل، فلا جواب صالحا عن ذي القرنين إلّا ما أجاب، و مهما كان السؤال عنه في العهد الرسولي من اليهود «1» و لكنما العهد الرسالي و هو منذ الرسول الى يوم الدين تشمله «و يسألونك»! و «ذكرا» هنا يدلنا أنه لا يقص قصص ذي القرنين إلّا طرفا منها هاما يذكرنا موقفه في تمكنه في الأرض، حيث لم يستخدمه إلّا خدمة للناس و طردا للنسناس الخناس .. و «ذكرا» يعني قرآنا يذكر قدر الواجب الصالح تذكرة.

و لا يستثني هنا بمشيئة اللَّه حيث القائل هو اللَّه، و إنما الناقل هو رسول اللَّه و اللَّه لا يستثني ما يريده بمشيئته اللهم إلّا تعليما «لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ»!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر 240- اخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال‏ قالت اليهود للنبي (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم): يا محمد! انما تذكر ابراهيم و موسى و عيسى و النبيين، انك سمعت ذكرهم منا فأخبرنا عن نبي لم يذكره اللَّه في التوراة الا في مكان واحد، قال (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم): و من هو؟ قالوا: ذو القرنين، قال: ما بلغني عنه شي‏ء فخرجوا فرحين و قد غلبوا في أنفسهم فلم يبلغوا باب البيت حتى نزل جبرئيل (عليه السلام) بهؤلاء الآيات‏ «وَ يَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ.:».

و

فيه و اخرج ابن أبي حاتم عن عمر مولى غفر قال: دخل بعض اهل الكتاب على رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) فسألوه فقالوا: يا أبا القاسم كيف تقول في رجل كان يسيح في الأرض؟ قال: لا علم الي به! فبينما هم على ذلك إذ سمعوا نقيضا في السقف و وجد رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) غمة الوحي ثم سرى عنه فتلا «وَ يَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ‏ الآية فلما ذكر السد قالوا: أتاك خبره يا أبا القاسم حسبك.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 177

و لقد تضاربت الآراء و الروايات حول «من هو ذو القرنين هذا»؟ و لا يهمنا شخصه كما سكت عنه القرآن و إنما شخصيته بذكراه أيا كان و أيان! قصارى ما يستفاد من اسمه أنه عربي، و ليس من دأب القرآن مسخ الأسماء الأعجمية، و إنما تغيير مّا قدر ما يجعله وفق الأدب العربي كإبراهيم معرب آبراهام و موسى معرب موشه، و «ذي القرنين» لا يلمح بسمة غير عربية، و «ذي» تلمح كأنه من الأذواء اليمنيين و أنه اسمه الخاص أم أشهر أسمائه قضية للغة الفصحى في‏ «بَيانٌ لِلنَّاسِ»! فاسمه يدلنا على أنه أحد التبابعة الأذواء اليمنيين من ملوك حمير باليمن و قد تردد ذكره في عديد من أشعار الحميريين و بعض شعراء الجاهلية «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و

في نور الثقلين: 293 ج 199 في قرب الاسناد للحميري باسناده الى موسى بن جعفر (عليه السلام) حديث طويل‏ يذكر فيه آيات النبي (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) و فيه: و من ذلك ان نفرا من اليهود أتوه فقالوا لابي الحسن جدي استأذن لنا على ابن عمك نسأله قال: فدخل عليّ فاعلمه فقال النبي (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم): و ما يريدون مني؟ فاني عبد اللَّه لا اعلم الا ما علمني ربي ثم قال: اذن لهم فدخلوا فقال: اسألوني عما جئتم له ام أنبئكم؟ قالوا: نبئنا- قال: جئتم تسألوني عن ذي القرنين؟ قالوا: نعم- قال: كان غلاما من اهل الروم ثم ملك و أتى مطلع الشمس و مغربها ثم بنى السد فيها قالوا: نشهد ان هذا كذا و كذا:

(1). ذكر جمع من المؤرخين ان ذا القرنين احد التبابعة الأذواء اليمنيين من ملوك حمير باليمن كالاصمعي في تاريخ العرب قبل الإسلام و ابن هشام في السيرة و التيجان و أبي ريحان البيروني في الآثار الباقية و نشوان بن سعيد الحميري في شمس العلوم- و اختلفوا في اسمه انه مصعب بن عبد اللَّه او صعب بن ذي المرائد و هو اوّل التبابعة و هو الذي حكم لإبراهيم في بئر السبع او تبع الأقرن و اسمه حسان او اسعد الكامل الرابع من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 178

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

التبابعة بن حسان الأقرن ملكي كرب تبع الثاني ابن الملك تبع الاول او اسمه «شمر يرعش»:

و قد ورد ذكر ذي القرنين و الافتخار به في عدة من اشعار الحميريين و بعض شعراء الجاهلية ففي البداية و النهاية انشد ابن هشام للأعشى:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و الصعب ذو القرنين أصبح ثاويا |  | بالجنو في جدث أشم مقيما |

و انشد عثمان بن أبي الحاضر لابن عباس قول بعض الحميريين.

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| قد كان ذو القرنين جدي مسلما |  | ملكا تدين له الملوك و تحشد |
| بلغ المشارق و المغارب يبتغي‏ |  | اسباب امر من حكيم مرشد |
| فرأى مغيب الشمس عند غروبها |  | في عين ذي خلب و ثأط حرمد |

و فيه يقول النعمان بن بشير:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| فمن ذا يعاودنا من الناس معشرا |  | كراما فذو القرنين منا و حاتم‏ |

و يقول فيه الحارثي:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| سموا لنا واحدا منكم فنعرفه‏ |  | في الجاهلية لاسم الملك محتملا |
| كالتبعين و ذي القرنين يقبله‏ |  | اهل الحجى فأحق القول ما قبلا |

و يقول ابن أبي ذئب الخزاعي:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و منا الذي بالخافقين تغربا |  | و اصعد في كل البلاد و صوبا |
| فقد نال قرن الشمس شرقا و مغربا |  | و في ردم يأجوج بني ثم نصبا |
| و ذلك ذو القرنين تفخر حمير |  | بعسكر فيل ليس يحصى فيحسب‏ |

و لقد حفظت اسماء الأذواء كالملوك المثامنة و هم ثمانية أذواء حيث ناهضوا حمير ايام دولتهم كما يقول شاعرهم:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| اين المثامنة الملوك و ملكهم‏ |  | ذلوا لصرف الدهر بعد جماح‏ |
| ذو ثعلبان و ذو خليل ثم ذو |  | شجر و ذو جدن و ذو صرواح‏ |
| او ذو مغار بعد او ذو جوفز |  | و لقد محا ذا عثكلان ما حي‏ |

ثم سائر الأذواء أكبرهم مرثد و هو جد الناظم قال فيه:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| او ذو مراثد جدنا القيل بن ذي‏ |  | شجر ابو الأذواء رحب الساح‏ |

ثم يذكر في اشعاره التسعة عشر 53 آخرين من الأذواء ك: ذونين- ذو سفر- ذو

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 179

و لأن هذا الاسم وصفي و ليس الاسم الخاص فقد يجوز كونه ترجمة عربية عن حالته الخاصة التي تميزه عن غيره بميزة وحيدة، إضافة الى سائر أفعاله المذكورة في هذه الآيات، فقد يجوز عدم كونه عربيا كاسكندر الثاني المقدوني المعروف لدى الخاص و العام بذي القرنين، المنسوب إليه السد لحد صار مثلا يقال: كسدّ الإسكندر؟ و كما ورد في بعض الروايات‏ «1» و قد سيطر على الشرق و الغرب بما لا مزيد عليه‏ «2».

و لأن هذه السيطرة لا تخصه، و أنه كان وثنيا من الصابئين و قد ذبح ذبيحته للمشتري، و القرآن يصف ذا القرنين بالعدل و صلاح العبودية للَّه،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

عمران- ذو بيان- ذو- الرمحين- ذو يرحم- ذو بهر- ذو يزن- ذو نوش ذو نوح- ذو الانواح- ذو تيقان- ذو أصبح- ذو الشعبين- ذو حوال- ذو مناح- ذو غمدان- ذو فائش- ذو رعين و ...

(1). كرواية عقبة بن عامر عن النبي (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) و رواية قرب الاسناد عن موسى بن جعفر (عليه السلام) و ذهب اليه جماعة من قدماء المفسرين من الصحابة و التابعين كمعاذ بن جبل و قتادة و من المتأخرين الامام الرازي في تفسيره.

(2) يؤكد عليه الرازي في تفسيره قائلا: ان إسكندر المقدوني جمع ملوك الروم و المغرب و قهرهم و انتهى الى البحر الأخضر ثم الى مصر و بنى الاسكندرية ثم دخل الشام و قصد بني إسرائيل و ورد بيت المقدس و ذبح في مذبحه ثم انعطف الى ارمينيا و باب الأبواب و دان له العراقيون و القبط و البربر و استولى على ايران و قصد الهند و الصين و غزا الأمم البعيدة و رجع الى خراسان و بنى المدن الكثيرة ثم رجع الى العراق و مات في شهرزر او رومية المدائن و حمل الى اسكندرية و دفن بها و عاش ثلاثا و ثلاثين سنة و مدة ملكه اثنتا عشرة سنة، فلما ثبت بالقرآن ان ذا القرنين ملك اكثر المعمورة و ثبت بالتواريخ أنه الإسكندر فليكن ذو القرنين هو الإسكندر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 180

إذا فليس هو المقدوني، و قد يجوز أنه الإسكندر الاوّل، و بينهما أزيد من الفي سنة (2300) ق م فقد كان عبدا مؤمنا صالحا و ملكا عادلا «1» و كان وزيره الخضر؟

و لان التأريخ لا يسجل لنا ملكا قبل المسيح بأكثر من ألفين و ثلاثمائة ملك الأرض من أقصاها إلى أقصاها و بنى السد و .. فقد لا ينطبق ذو القرنين على واحد منهما! و ان كان المحتمل هو الاول قويا، مهما لا يوجد «ذو» في الاغريقيين اليونان حيث الوصفية في التسمية تحل هذه المشكلة!.

و علّه هو «كورش» أحد ملوك الفرس الهخامنشيين (539- 560 ق م) فقد جمع بين مملكتي الفارس و ما دو سخر بابل و أذن في رجوع اليهود من بابل إلى أورشليم و ساعد في بناء الهيكل و سخر مصر ثم اجتاز إلى يونان فغلبهم و بلغ المغرب ثم سار إلى اقاصي المعمورة شرقا «2» و تشهد كتب‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 4: 241- اخرج ابن عبد الحكم في فتوح مصر و ابن أبي حاتم و ابو الشيخ و البيهقي في الدلائل عن عقبة بن عامر الجهني قال كنت اخدم رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم)- و ساق حديث سؤال جماعة من اهل الكتاب عنه في ذي القرنين الى ان قال: ان أول امره انه كان غلاما من الروم اعطي ملكا فسار حتى أتى ساحل ارض مصر فابتنى مدينة يقال لها اسكندرية فلما فرغ من شأنها بعث اللَّه عز و جل اليه ملكا فعرج به فاستعصى بين السماء ثم قال له: انظر ما تحتك فقال ارى مدينتي و ارى مدائن معها ثم عرج به فقال انظر فقال قد اختلطت مع المدائن فلا اعرفها ثم زاد فقال انظر قال ارى مدينتي وحدها و لا ارى غيرها قال له الملك انها تلك الأرض كلها و الذي ترى يحيط بها هو البحر و انما أراد ربك ان يريك الأرض و قد جعل لك سلطان فيها فسر فيها فعلم الجاهل و تثبت العالم فسار حتى بلغ مغرب الشمس ...

(2) سار نحو المغرب لدفع طاغية «ليديا» الطاغي عليه ظلما دون عذر فحاربه و عاصره في عاصمته ففتحها و اسره ثم عفى عنه و احسن اليه‏ «حَتَّى إِذا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ ..»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 181

العهد العتيق على ايمانه و صلاحه‏ «1» كما النقوش و الكتابات المخطوطة بالخط المسماري المأثورة عنه ناطقة بكونه موحدا، و قد سار نحو المغرب فاستولى على ليديا و حواليها ثم نحى نحو المشرق حتى بلغ مطلع الشمس و وجد عندها قوما بدويين همجا ثم بنى السد المعروف بمضيق داريال بين جبال قفقاز قرب مدينة تفليس.

و لماذا يعبر عنه القرآن بذي القرنين- أيا كان من المذكورين-؟ علّه لأنه أدرك قرني الشمس شرقا و غربا «2» و عاش قرنين و ضرب على قرنيه و كان لتاجه قرنان و سخر له القرنان الليل و النهار «3» و أيد في قرنيه بكشف من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

ثم سار نحو الصحراء الكبير بالمشرق حوالي بكتريا لإخماد نائرة قبائل بدوية همجية انتهضوا هناك للافساد «حَتَّى إِذا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَها تَطْلُعُ::» و بنى السدّ الموجود في مضيق جبال قفقاز الممتدة من بحر الخزر الى البحر الأسود و يسمى «داريال» و هذا السد واقع بين جبلين شاهقين يمتدان من جانبيه و هو وحده الفتحة الرابطة بين جانبي الجبال الجنوبي و الشمالي، و كان يهجم في تلك الاعصار أقوام شريرة من قاطني الشمال الشرقي من آسيا من مضيق جبال قفقاز الى ما يواليها من الجنوب و هجموا في حوالي المائة السابعة قبل الميلاد فعمموا البلاد قتلا و سبيا و نهبا حتى بلغوا نينوى عاصمة الآشور و كان ذلك في القرن السابق على عهد كورش تقريبا:

(1). كما في كتاب عزرا (الاصحاح 1: 1- 4) و دانيال (الاصحاح 6: 28) و كتاب اشعياء (الاصحاح 44: 28 و 45: 1- 27) و قد سمي في اشعياء راعي الرب و في (45) منه «هكذا يقول الرب لمسيحه لكورش الذي أمسكت بيمينه لأدوس امامه امما و أحقاد ملوك أحل لا فتح امامه المصراعين و الأبواب لا تغلق: انا أسير قدامك و الهضاب امهد اكسر مصراعي النحاس و مغاليق الحديد اقصف: و أعطيك ذخائر الظلمة و كنوز المخابي: لكي تعرف اني انا الرب الذي يدعوك باسمك: لقبتك و أنت لست تعرفني»:

(2)

نور الثقلين عن الامام العسكري (عليه السلام) انه رأى في المنام انه أخذ بقرني الشمس فعبر له بملك الشرق و الغرب و سمي بذي القرنين.

(3)

نور الثقلين 3: 296 ج 212 في كتاب كمال الدين و تمام النعمة سأل رجل عليا (عليه السلام) أ رأيت ذي القرنين كيف استطاع ان بلغ الشرق و الغرب؟ قال: سخر

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 182

السماء فيه ظلمات و رعد و برق‏ «1» و قد اكتشف تمثال «كورش» الحجري أخيرا في مشهد مرغاب جنوبي ايران، مثل فيه ذا قرنين‏ «2» نابتين من أم رأسه من منبت واحد أحدهما مايل إلى قدامه و ثانيهما إلى خلفه، و كما في كتاب دانيال في رؤياه كورش على صورة كبش ذي قرنين‏ «3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

له السحاب و مدّ له في الأسباب و بسط له النور فكان الليل و النهار عليه سواء و في نقل أخر عنه (عليه السلام) فسر بسط النور ب «كان يضي‏ء بالليل كما يضي‏ء بالنهار»

(1).

نور الثقلين 3: 293 ح 215 عن الأصبغ بن نباتة عن امير المؤمنين (عليه السلام) في حديث‏ اقتسمناه حسب مختلف مواضيعه‏

و كما في الرقم (2):

(2)

المصدر 215 عن الأصبغ بن نباتة عن امير المؤمنين (عليه السلام) قال‏ سئل عن ذي القرنين قال: كان عبدا صالحا و اسمه عياش اختاره اللَّه تعالى و ابتعثه الى قرن من القرون الاولى في ناحية المغرب و ذلك بعد طوفان نوح (عليه السلام) فضربوه على قرن رأسه الأيمن فمات منها ثم أحياه اللَّه بعد مائة عام بعثه اللَّه الى قرن من القرون الاولى في ناحية المشرق فكذبوه و ضربوه ضربة على قرنه الأيسر فمات منها ثم أحياه اللَّه بعد مائة عام و عوضه من الضربتين اللتين على رأسه قرنين في موضع الضربتين أجوفين .. أقول و أخرجه مثله في معنى قرنيه في الدر المنثور ابو الشيخ في العظمة عن أبي الورقاء عن علي (عليه السلام) (4: 241) و رواه مثله في الاسم القمي عن أبي بصير عن الصادق (عليه السلام):

(3) في الاصحاح 8: 1- 9 من دانيال «في السنة الثالثة من ملك «بيلشاصر» الملك ظهرت لي انا دانيال رؤيا بعد التي ظهرت لي في الابتداء فرأيت في الرؤيا و كأن في رؤياي و انا في «شوشن» القصر الذي في ولاية- عيلام: و رأيت في الرؤيا و انا عند نهر «اولاي» فرفعت يميني و إذا بكبش واقف عند النهر و له قرنان و القرنان عاليان و الواحد أعلى من الآخر و الأعلى طالع أخيرا: رأيت الكبش ينطح غربا و شمالا و جنوبا فلم يقف حيوان قدامه و لا منفذ من يده و فعل كمرضاته و عظم .. ثم يذكر بعد تمام الرؤيا أن جبرئيل تراءى له و عبر رؤياه بما ينطبق فيه الكبش ذو القرنين على كورش و قرناه مملكتا الفارس و ماد، و التيس ذو القرن الواحد على الإسكندر المقدوني.

و في «قاموس كتاب المقدس» ترجمة مستر هاكس الامريكي باللّغة الفارسية ص 743 تحت عنوان «كورس» يقول يعني: الشمس، مؤسس الملك الفارسي و فاتح الممالك‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 183

و أيا كان ذو القرنين فانما يهمنا شخصية قوية روحية منه عن التاريخ لا شخصه، و لا مفخرة في كونه عربيا أم روميا ام ايرانيا امّن ذا، و لذلك أهمل القرآن إلّا عن شخصيته و لكيلا يجعل مثار التفاخرات! فالتسجيل التاريخي ليس هو المقصود في قصص القرآن و إنما هو العبرة المستفادة من القصة و هي حاصلة منها دون ان تزيدنا معرفة الشخص دلالة اللّهم إلّا دلالة قومية عنصرية و القرآن يطاردها! ثم التأريخ أيا كان و من اي كان ليس الّا ركاما من خليط الحق و الباطل، و بعضه باطل كله، و لا نجد الحق كله إلّا في قصص القرآن، فهي القصص الحق الجارفة تخيلات باطلة معمدة او ساهية تسربت و دخلت في التاريخ! و لئن استفتينا التاريخ حول ذي القرنين أم أي شخص مجهول، فانما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الاخرى، ثم ينقل عن كتاب دانيال (6: 28) ان دانيال كان حينذاك في ديوان كورش و قد توفي كورش عن الجراحة التي اصابته في حربه (525 ق: م):

فلكورش دور في الكتب المقدسة مجيد يهمه اهل الكتاب و لذلك سألوا الرسول (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) عن ذي القرنين، و لا اثر في الكتب المقدسة عن شخصية هذه سيرته الا كورش:

و مما يبعد كونه كورش ألّا اثر عن هذا الاسم في الروايات الاسلامية إطلاقا، ففي بعضها انه عياش (كما في تفسير العياشي عن الأصبغ بن نباتة عن علي (عليه السلام) و في البرهان عن الثمالي عن الباقر (عليه السلام):

) و ثان: إسكندر (كما يظهر من رواية قرب الاسناد للحميري عن الكاظم (عليه السلام) و رواية الدر المنثور عن عدة عن عقبة بن عامر عن النبي (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم):)) و ثالث: مرزيا بن مرزبة اليوناني من ولد يونن بن يافث بن نوح (كما في الدر المنثور عن بعض من اسلم من اهل الكتاب.) و رابع: مصعب بن عبد اللَّه من قحطان (كما في البداية و النهاية) و خامس: عبد اللَّه بن ضحاك بن معد (البداية و النهاية عن ابن هشام في التيجان.) و الى غير ذلك:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 184

نصدق منه ما يصدقه القرآن، و نكذب ما يكذبه و نتردد فيما يسكت عنه! دون أن نستفتيه كأصل نفرع عليه القرآن فانه منكر من القول و زور! ثم هؤلاء الأذواء الثلاثة المؤمنون لكل منهم رجاحة متقابلة، فاليمني يترجح بان اليمن بلد الأذواد قرابة مائة، و اليوناني يترجح لشهرته العالمية بذي القرنين و ذكره في بعض أحاديثنا و رغم و فرة الأذواء في اليمين فلا قرنين فيه! و الايراني يترجح لذكره في التوراة و لكن ليس فيه ذو و لا قرنين اللهم الا و صغبا و لكلّ وجه.

إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَ آتَيْناهُ مِنْ كُلِّ شَيْ‏ءٍ سَبَباً (84):

دعامتان إلهيتان لهذه السلطة العالمية المنقطعة النظير، اللهم إلّا في داوود و سليمان (عليهما السلام) سلفا، و في المهدي القائم من آل محمد (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) خلفا: 1- تمكين إلهي في الأرض كلها- 2- و سبب إلهي من كلّ شي‏ء على ضوء هذا التمكين و في سبيله! هنالك تمكين للمترفين الأثرياء ذوي السلطة و الكبرياء يعني امتحانا و امتهانا و هو من مخلفات التخاذل من أهل الدين المستضعفين: «أَ لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ» (6: 6) و من ثم تمكين لبسط الخير إكراما لمن يعرفون نعمة اللَّه و يشكرونها: «الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ وَ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَ لِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ» (22: 41).

و ذلك التمكين قد يكون جانبيا كما في يوسف‏ «وَ كَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ..» (12: 21) حيث يخص أرض مصر، و آخر عالمي في درجات أعلاها لبقية اللَّه و حجته الكبرى و آيته العظمى محمد بن الحسن المهدي صلوات اللَّه عليه و على آباءه الكرام، تمكين له و لصحبه الخصوص و لمن تابعه على وجه العموم: «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 185

لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضى‏ لَهُمْ وَ لَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ» (24: 55) ثم و أدنى منها ما كان لداود و سليمان بين النبيين و لذي القرنين بين الملوك الصالحين، و ادنى منه ما كان لطالوت امّن ذا؟

«إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ» في تأكيدات ثلاثة ترفع من شأن هذه السلطة المباركة و «في الأرض» تعممها في كافة أرجاء المعمورة، فقد ذلت له الصعاب و استسلمت له البلاد! و السبب أيا كان هو الذي يتوسل به الى غاية لا تحصل إلّا به، من عقلي او علمي او عملي.

ثم الأسباب لبسط الملك إمّا ذا؟ قد تكون حاضرة ظاهرة، و أخرى حاضرة غير ظاهرة، ام ظاهرة غير حاضرة تحصل بمحاولة بشرية مهما طالت ام قصرت، صعبت ام يسّرت، فهي في نطاق العلم و القدرة البشرية ممكنة! و ثالثة لا من هذه و لا تلك، بل هي خفية عن العلم بعيدة عن القدرة، فلا يؤتيها إلّا اللَّه لمن يشاء و يرضى! «وَ آتَيْناهُ مِنْ كُلِّ شَيْ‏ءٍ سَبَباً» يعني ثالثتها و هي الأسباب الخارقة الإلهية التي تقصر دون التوسل بها العقول و العلوم و ساير القدرات غير الإلهية! و «كل شي‏ء» هنا لا يعني الاستغراق الشامل لسبب الوحي و النبوة و اضرابها! و انما «كل شي‏ء» في سبيل تمكينه في الأرض، ثم و لا يعني كلا من هذا الكل، و انما البعض من كلّ قدر ما يحتاجه كما تلمح له «من»! فقد آتاه اللَّه بعضا من الأسباب اللائقة من كل شي‏ء في سبيل تمكينه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 186

في الأرض، من اسباب معرفة الحق الناصع الصراح عن الباطل‏ «1» و من اسباب السفر كالسحاب الذلول إمّا ذا؟ «2» و من اسباب الضوء حيث تضي‏ء له ليلا كما تضي‏ء الشمس نهارا فهو ذو قرني الليل و النهار حيث هما عليه سواء؟

و من اسباب الشبع و الريّ منّا او سلوى أمّاذا؟ ثم و من أسباب التفتح في مشارق الأرض و مغاربها كسبب تفهّم مختلف اللغات‏ «3» و أضرابه كالطرق‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر ج 216 ص 304 عن تفسير العياشي جبرئيل بن احمد عن موسى بن جعفر رفعه الى أبي عبد اللَّه (عليه السلام) قال: ان ذا القرنين عمل صندوقا من قوارير ثم حمل في مسيره ما شاء اللَّه ثم ركب البحر ..

و

215 العياشي عن الأصبغ بن نباتة عن امير المؤمنين (عليه السلام) قال: سأل عن ذي القرنين- ثم سار في جوابه (عليه السلام) الى قوله: ثم رفعه الى السماء الدنيا فكشط له عن الأرض كلها جبالها و سهولها و فجاجها حتى ابصر ما بين المشرق و المغرب و آتاه اللَّه من كل شي‏ء يعرف به الحق و الباطل و أيده في قرنيه بكشف من السماء فيه ظلمات و رعد و برق ثم اهبط الى الأرض و اوحى اليه ان سر في ناحية غربي الأرض و شرقيها فقد طويت لك البلاد و ذلّلت لك العباد فأرهبتهم منك، فسار ذو القرنين الى ناحية المغرب ... فلم يبلغ مغرب الشمس حتى دان له اهل المشرق و المغرب و ذلك قول اللَّه‏ «إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَ آتَيْناهُ مِنْ كُلِّ شَيْ‏ءٍ سَبَباً ...».

(2) في الدر المنثور 4: 242- اخرج ابن أبي حاتم عن قتادة .. فخير بين ذلال السحاب و صعابها فاختار ذلالها فكان يركب عليها.

و

في تفسير البرهان 2: 481 ج 11 عن الباقر (عليه السلام) اما ان ذا القرنين قد خير بين السحابتين فاختار الذلول و ذخر لصاحبكم الصعب فقلت: و ما الصعب؟

فقال: ما كان من سحاب فيه رعد و صاعقة و برق فصاحبكم يركبه اما انه يركب السحاب و يرقى في الأسباب اسباب السماوات السبع و الأرضين السبع خمس عوامر و ثنتان خراب.

(3) الدر المنثور 4: 247- اخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله: وَ آتَيْناهُ مِنْ كُلِّ شَيْ‏ءٍ سَبَباً» قال: علما من ذلك تعليم الالسنة كان لا يعرف قوما الا كلمهم بلسانهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 187

و كلها خارقة إلهية.

تذكر له في تالية الآيات ثلاثة أسباب لثلاثة أسفار بعيدة المدى، قد تكون هي من أهم الأسباب التي أوتيها في سفراته، و قد أطبقت أحاديثنا أنها السحاب الذلول و ان الصعب منها تختص بالإمام المهدي عجل اللَّه تعالى فرجه الشريف! «1».

و لان «سببا» تأتي بنفس الصيغة ثلاث مرات، دون أن تأتي ثانية و ثالثة «السبب» اشارة الى الاوّل، فقد تعني ثلاث مركبات فضائية مهما كانت كلها من صعبة السحاب أما ذا؟

هنالك أسباب غيبية أرضية أم فوق الارضية ام السماوية تستخدم في مثلث الأسفار بما آتاه اللَّه، قد يشار الى وجودها و إمكانية التسبب بها: «أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ» (38: 10) و لو لا أن هناك أسبابا ترقي الى السماوات لم يكن لهذا التحدي مجال على أية حال، و منها المركبة المعراجية المحمدية (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم)، و قد يشار الى إمكانية الارتقاء الى السماء بأسباب مصطنعة إمّا ذا؟: «مَنْ كانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّماءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ما يَغِيظُ» (22: 15).

و لقد خيّل الى فرعون إمكانية البلوغ إلى أسباب السماوات، و طبعا لم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 296 ج 212 في كتاب كمال الدين و تمام النعمة سأل رجل عليا (عليه السلام) أ رايت ذا القرنين كيف استطاع ان بلغ الشرق و الغرب؟

قال: سخّر له السحاب و مدّ له في الأسباب و بسط له النور فكان الليل و النهار عليه سواء

و 213 في تفسير العياشي عن أبي بصير (عليه السلام) قال: ان ذا القرنين خير بين السحاب الصعب و السحاب الذلول فاختار الذلول فكان إذا انتهى الى قوم كان رسول نفسه إليهم لكي لا يكذب الرسل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 188

يك يعرف واقعها إلّا بمعرفة الوحي من موسى ام سواه: «وَ قالَ فِرْعَوْنُ يا هامانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ. أَسْبابَ السَّماواتِ فَأَطَّلِعَ إِلى‏ إِلهِ مُوسى‏ وَ إِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذِباً» (40: 37) «1».

المركبة الفضائية الاولى لذي القرنين‏ فَأَتْبَعَ سَبَباً (85) حَتَّى إِذا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَها تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَ وَجَدَ عِنْدَها قَوْماً قُلْنا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَ إِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً (86) قالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلى‏ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذاباً نُكْراً (87) وَ أَمَّا مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلَهُ جَزاءً الْحُسْنى‏ وَ سَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنا يُسْراً (88) هل الإتباع هو الإلحاق يتبعه مفعولان؟ كما وَ أَتْبَعْناهُمْ فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً» (28: 42) إذا فما هو المفعول الثاني ل «اتبع سببا؟! ام هو اللحوق و لا يتبع إلّا مفعولا واحدا: «فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ»؟ (7: 175) أو أنه كما نراه يستعمل متعديا الى مفعول واحد أحيانا و الى مفعولين اخرى؟ إذا أليس من الأفصح «فتبع» نصا في اللحوق؟ و لكنه قد يعني في مفعول واحد سرعة اللحوق و كما نراها في موارده‏ «2» و هذه طبيعة الحال في المركبة الفضائية السحابية ام ماذا؟ و هي دائبة السير، فليلحقها ذو القرنين سريعا كما لحقها! «حَتَّى إِذا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ» و هو المغرب الأقصى، و بينه و بينه شاسعة المسافة بين المشرق الأوسط او الأدنى الى المغرب الأقصى، و لا تجتاز تلك البعيدة المدى مشيا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع تفسير الآية في المؤمن تجد فيه تفصيلا عن اسباب السماوات.

(2) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَ جُنُودُهُ» (10: 90) «فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ» (20: 78) «فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ» (26: 60) «فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ مُبِينٌ» (15: 18) شِهابٌ ثاقِبٌ» (37: 10).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 189

او ركوبا بالوسائل القديمة إلّا في سنين بمعدات قد تستحيل مهما طال الزمن، و هي اولى السفرات الثلاث الطائلة لذي القرنين، فلو لا أنه‏ «أَتْبَعَ سَبَباً» سماويا آتاه اللَّه لما قطع واحدة منها إلّا انقطع و لمّا! مغرب الشمس وقتذاك هو آخر المعمورة اليابسة من الجانب الغربي، و إلّا فلا مغرب للشمس كنقطة خاصة من المعمورة، و لكلّ أفق من الشمس مشرق و مغرب عدد أيام السنة!.

فلأن ذا القرنين كان من الشرقيين أيا كان، فمغرب الشمس بالنسبة الى مبدءه في سفرته هو المغرب الأقصى إلى جانب البحر حيث الأفق البحري لغروبها مد البصر في البحر، هو بحر الظلمات المسمى بالمحيط الأطلانطيقي.

«وَجَدَها تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ» أ ترى الشمس تغرب في عين حمئة أم غير حمته، و لا غروب حقيقيا للشمس، فلها مشارق و مغارب منذ خلقت حتى يوم تكويرها، دون شروق مطلق، ام غروب مطلق بالنسبة لارضنا و أضرابها، ام هي شارقة دون غروب بالنسبة لنفسها .. ثم و هي في مشارقها و مغاربها، و في مشرقيها و مغربيها، و في مشرقها و مغربها، لا تشرق او تغرب إلّا في ملتقى أفقي الأرض بريا او بحريا و أفق السماء «1» دون عين حمئة إمّا ذا؟

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 306 ج 221 في كتاب التوحيد حديث طويل عن أبي ذر عن النبي (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: كنت آخذا بيد النبي (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) و نحن نتماشى جميعا فما زلنا ننظر الى الشمس حتى غابت فقلت: يا رسول اللَّه! (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) أنّى تغيب الشمس؟ قال: في السماء ثم ترفع من سماء الى سماء حتى ترفع الى السماء السابعة ..

أقول قوله «في السماء» ظاهر لا مرية فيه انها تغرب في ملتقى الأفقين الارضي و السماوي، و اما «ترفع في سماء الى سماء .. حتى ترفع الى السماء السابعة» انه اما مؤول او مختلق مردود، و تأويله انه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 190

نجد الجواب في الآية نفسها: «وَجَدَها تَغْرُبُ ..» لا أنها «غربت» فهي ينظر الى منظرها في غروبها دون واقعه «وجدها ..» بيانا لمنتهى المعمورة الغربية بالمحيط البحري الأطلانطيقي.

فكما أننا نجد الشمس تغرب في الآفاق الصحراوية، في قلل الجبال او الأتلال او مستوية الأرض إمّا ذا، كذلك سكان الجزائر لا يجدون غروب الشمس او و طلوعها إلّا في الآفاق البحرية.

و كأن ذا القرنين وصل الى نقطة على شاطئ المحيط الاطلسي (بحر الظلمات) حيث يخيّل ان اليابسة منتهية عنده، و كان عند مصبّ أحد الأنهار حيث تكثر فيه الأعشاب و تتجمع حولها طين حمى: لزج، فرأى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) اقتسم ملتقى الآفاق الارضية السمائية الى سبعة و لماذا؟ لا ندري! ان الشمس تحول حول الأرض و يترائى لها مغارب سبعة و علّها في الأقاليم السبعة امّ ماذا.

ثم أقول: و ما روي ان الشمس تغرب و تطلع بين قرني الشيطان اختلاق ممن يكرهون الصلاة عند طلوع الشمس و عند غروبها، و لم ترد في بعض رواياتنا الا تقية

ففي الكافي عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: يصلّى على الجنازة في كل ساعة، انها ليست بصلاة ركوع و لا سجود و انما تكره الصلاة عند طلوع الشمس و عند غروبها التي فيها الخشوع و الركوع و السجود لأنها تغرب بين قرني الشيطان و تطلع بين قرني الشيطان» و تقية الفرار هنا لائحة،

حيث النص الذي يروون ان كان بلفظة الصلاة فيشمل كل صلاة، و ان كان نصا فيما فيها الركوع و السجود لم تك حاجة الى الاستدلال، ثم الخشوع يعم كل صلاة دون اختصاص بما فيها الركوع و السجود، ثم نرى نقضا صارما يجتث هذه الحكمة المختلقة او انها تقية، فيما أخرجه إكمال الدين و تمام النعمة باسناده الى محمد بن جعفر الاسدي قال كان فيما يورد عليّ من الشيخ أبي جعفر محمد بن عثمان العمري في جواب مسائلي الى صاحب الزمان: و اماما سالت عنه من الصلاة عند طلوع الشمس و عند غروبها و لئن كان كما يقولون ان الشمس تطلع بين قرني الشيطان و تغيب بين قرني الشيطان فلا شي‏ء أفضل من الصلاة و أرغم أنف الشيطان!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 191

الشمس تغرب هناك كأنها «عَيْنٍ حَمِئَةٍ»: المحيط الغربي الذي فيه الجزائر «الخالدات» حيث كانت مبدء الطول الجغرافي مسبقا ثم غرقت.

و العين الحمئة قد تعني إضافة الى السوداء حيث الحمأة هي الطين الأسود، قد تعني الحارة حيث الحمأ هي الحرار المتولدة من الجواهر المحميّة و المغرب الأقصى في افريقيا الحارة من أحرّ ما فيها، فبحره حار كما برّه، فهي‏ «عَيْنٍ حَمِئَةٍ» في حمأتين! حرارة في سواد و حمرة، كما الشمس ترى عند غروبها محمرّة.

لا نعرف بالضبط المحدّد ذلك المكان إلّا ما عرّفنا اللَّه‏ «تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ» و كفانا! و انما القصد القوم الذين عند المغرب الأقصى حيث ظلموا و أتاهم ذو القرنين تأديبا و تقويما: «وَ وَجَدَ عِنْدَها قَوْماً» (86)؟ وجد عند الشمس في مغربها قوما، في منتهى اليابسة الغربية، لا عند الشمس ذاتها! ام عند العين الحمئة فيفيد نفس المعنى.

يجد هناك قوما حمئا عند عين حمأة. أ تراه تغاضيا عن أقوام ظالمين بينه و بين مغرب الشمس و الأقرب يمنع الأبعد؟ طبيعة رسالة عادلة كملكية كهذه تقتضي و تقضي بعدم التغاضي، و لكنه كيف؟ لا ندري! .. قُلْنا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَ إِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً (86).

هل القول الخطاب هنا دليل على نبوة للمخاطب؟ كلا! حيث الخطاب أعم من وحي النبوة و الإلهام كما في مريم و أم موسى و آدم قبل توبته و قد يجوز انه كان معه نبي يوحى اليه بواسطته كما كان لطالوت بنبيّ معه! و ترى الترديد التخيير بين التعذيب و اتخاذ الحسن ليس تخييرا بين الحسن و القبيح، لقرن التعذيب باتخاذ الحسن؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 192

اتخاذ الحسن فيهم هو السماح عما يستحقونه من النكال رجاء الرجوع و التوبة، و التعذيب تحقيق النكال، و كل يتبع ظرفه الصالح، إذا فالتخيير هنالك صالح! تخويلا قياديا صالحا لسلطة صالحة حسب المصطلحات العادلة الفاضلة.

و ترى كلهم كانوا ظالمين يستحقون العذاب؟ و تقسيمهم في الجواب‏ «أَمَّا مَنْ ظَلَمَ‏ .. وَ أَمَّا مَنْ آمَنَ ..» يطارده! أم جلّهم و الباقون لا يستحقون العذاب؟ فلكل حكمه و لا تخيير! إنهم جلّهم و ليس التخيير إلّا فيهم، فلم يقل «إما أن تعذبهم» و إنما «تعذب» يعني من يستحق العذاب منهم‏ «وَ إِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ» هم أنفسهم «حسنا».

قالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ .. (87) يعني استمرارية الظلم من قبل و حتى لقاء ذي القرنين دون ان يفيق فيؤمن‏ «1» فلا مجال له إلّا عذابه‏ «وَ أَمَّا مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلَهُ جَزاءً الْحُسْنى‏ ..» آمن بعد كفرة توبة عما سلف فحسن، ام آمن من قبل و استمر في ايمانه فأحسن، و لكلّ حسب ايمانه و عمله الصالح عدّة و عدة و مدة «جَزاءً الْحُسْنى‏»: أحسن مما آمن و عمل صالحا فضلا من ربك عطاء حسابا!.

و التخيير بين التعذيب و اتخاذ الحسن ليس إلّا في فيمن آمن بعد ظلمه، و قد يشمل المستمر على كفره في فرض بعيد، اللّهم إلّا في غير الواجب قتله جوازا في قتله و السماح عنه، تخيرا عاقلا عادلا دون فوضى و كما في المحاربين و المفسدين في الأرض:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 298 ج 215 عن امير المؤمنين (عليه السلام) «اما من ظلم و لم يؤمن‏

أقول: يعني لم نؤمن عند ذي القرنين بعد كفره قبله، و لم يقل و اما الظالم لكيلا يشمل الذي ظلم سابقا ثم تاب عن ظلمه فآمن.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 193

«إِنَّما جَزاءُ الَّذِينَ يُحارِبُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ..» فالتخير هناك كالتخير هنا راجع الى ما يختاره الحاكم الشرعي وفق مختلف الموازين في مختلف المجرمين دون ان يكون أعمى و فوضى ان يجزى اقل الساعين في الأرض فسادا قتلا، ثم ينفى أشد المحاربين حبسا! المعذب هنا يعذب حسب مرسوم الشرعة الإلهية بينا و عرفا: «فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ» و من ثم نكرا: غير معروف و لا منتظر هنا «ثُمَّ يُرَدُّ إِلى‏ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذاباً نُكْراً» حيث ظلم دون إفاقة بعد الذكرى و رؤية البأس، و اما التائب عند رؤية البأس فقد لا يعذب هنا إذا كانت توبة صادقة او تحتمل، ثم أمره الى ربه! فالظرف هنا للظالمين الجلّ بمختلف ظلمهم، و توبتهم و عدم توبتهم، هو يقتضي تخيّر الحاكم فيهم كما اختار ذو القرنين و ما أحسنه، و حسب مرسوم الشرعة العادلة و الفاضلة الإلهية: إعلانا في هذه الإذاعة القرآنية أن للظالمين المعتدين عذابهم عاجلا، و آجلا يزيد نكرا، و لغير المعتدين منهم إمهال دون إعجال رجاء الرجوع الى عدلهم، و للتائبين الآئبين قول يسردون عسر «وَ سَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنا يُسْراً» دون تعذيب و لا تأنيب في قولة لاذعة، فالإسلام يجبّ ما قبله! و انما قول يسر حيث تاب عما سلف: «قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ وَ إِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ» (8: 38) ثم قول يسر فيما يتوجب عليه تداركا لما قد سلف، و الأمر في «من إمرنا» شرعي للحاكم المتمكن، إشارة الى أنني لست ممن يتذرع الحكم للقول العسر و التكليف العسر، و إنما يسر في يسر.

ثم مقابلة «من ظلم» ب «الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ» يوسع نطاق الظلم الى كفر عقائدي و عملي لازما او متعديا، و الى فسق عملي لمن آمن على مراتبهما بأحكامهما الجزائية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 194

و ما هو «جَزاءً الْحُسْنى‏» للذين آمنوا و عملوا الصالحات؟ انه جزاء أحسن مما عمل و مما يجزى في الحياة الدنيا، فهناك تصريحة بعذاب الدنيا لمن ظلم «فنعذبه» لأنه ثابت حكما على أية حال و عملا لمن مكن في الأرض، و هنا تلميحة للجزاء الحسن و تصريحة بالأحسن حيث الثواب يوم الدنيا غير ثابت و لا موعود إلّا أحيانا!.

و لماذا «جزاء» منصوبا «لان الحسنى مبتدء ل «له» و قدم الخبر للحصر «له لا لسواه»: فله الحسنى جزاء، و النصب على التمييز، دون حاجة الى تكلفات أدبية اخرى لا يرضاها أدب القرآن!: فله- فقط- من حيث الجزاء المثوبة الحسنى أحسن مما قدم و يستحقه في الحياة الدنيا «1».

و هذه طريقة مثلي و معاملة حسنة مع فريقي الظلم و الايمان، تخيرا للحاكم المبسوط اليد بالتي هي أحسن في «إما .. و إما» دون تخير فوضى و أعمى، و إنما عدل صارم عقابا لزاما، و فضل كارم ثوابا كراما! إنه ليس الحكم و السلطة الإلهية ظلما و زورا و غرورا ما وجدت لها سبيلا، و إنما هي رحمة على المجموعة و قضيتها القضاء على المعتدين، فإمهالهم اعتداء على المظلومين، فهي رحمة ما وجدت لها سبيلا و حتى للذين ظلموا إذا كان السماح عنهم لا يضر بالمجموعة و ان لم تنفعهم توبة، فضلا عمن يفيق و يتوب، دستور إصلاحي بكل معانيه، يتبني الصلاح بكل مبانيه! نرى القمة الرفيعة من هذا الدستور في الشرعة الإسلامية، و تدلنا سيرة الرسول (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) و الأئمة من آل الرسول (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) على مدى هذه الأخلاق الفاضلة و من نماذجها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فالحسنى وصف لمقدر المثوبة و جزاء تمييز عن سائر ما له في الأخرى، و تقديم جزاء لافادة تهيئ اكثر من العادة، و ما أحسنه لفظا و معنى! ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 195

«ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ» (23: 96) فقد يدفع السيّ‏ء بالسماح، أم إذا لزم الأمر لدفع ظلمه بتأديب و تأنيب كما يصلحه او يحجز عن ظلمه، و أخيرا كآخر الدواء الكي، القتل، إذا كانت حياته على أية حال ظلما على المجموعة، فكل ذلك الدفع ليس إلّا بالتي هي أحسن، و كصورة اولى‏ «.. فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ» (41: 34)!.

ان التعذيب في‏ «إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ» يشمل مراتب النكال هنا اعتداء بالمثل او دون ذلك، من ضرب الى قتل و بينهما متوسطات، و كما أن حسن الجوزاء و حسناه في الاولى و الاخرى له درجات حسب الدرجات‏ «وَ لا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً».

و بصيغة اخرى إن تحقيق ذلك التخيّر في مراتب التعذيب و حسن الجزاء هو يمثل‏ «وَ إِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً» فان تعذيب الظالمين إحسان بالمجموعة و حتى بالنسبة للظالمين رجاء رجوعهم ام- لأقل تقدير- تقليلا لظلمهم. فلو ظلوا طويلا لأضلوا و ظلموا كثيرا! كما و من اتخاذ الحسن فيهم إرشادهم عن غيّهم و مساعدتهم عن عيّهم و لكي يجيدوا الايمان و عمل الصالحات و يجيدوا عن الطالحات.

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً (89) حَتَّى إِذا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَها تَطْلُعُ عَلى‏ قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِها سِتْراً كَذلِكَ وَ قَدْ أَحَطْنا بِما لَدَيْهِ خُبْراً (91).

خطوة ثانية في مثلث الرحلة كأنها أطولها فانها من أقصى المغرب الى أقصى المشرق طوال اليابسة الأرضية مهما كانت بينهما بحار و أنهار! و «ثم» هنا تلمح للتراخي بين وصوله الى أقصى المغرب و مغادرته عنها، و هذه طبيعة الحال في سفرة اصلاحية كهذه، و في قوم لم تسبق لهم سابقة إصلاح كهذه السابغة اللائقة، هذا و إن كنا لا ندري زمن ذلك المكوث اللهم إلّا لمحة ثمة من «ثم».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 196

«ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً» و تنكير «سببا» يدلنا انه غير السبب الاوّل شخصا، مهما كان من جنسه إمّا ذا؟ فلا يهمنا شخص السبب و لا جنسه و نوعه، و إنما «سببا» إليها لم يحصل إلا بما آتاه اللَّه.

اتبعه لحوقا سريعا «حَتَّى إِذا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ» مطلعها من أقصى الآفاق الشرقية في عين الرائي، و كما في مغربها لاقصاه، في يابسة المعمورة بجانب البحر المحيط، فما قيل عن مغرب الشمس يقال عن مطلعها دون اختلاف بينهما إلا فارق المغرب عن المشرق و عين حمئة.

.. وَجَدَها تَطْلُعُ عَلى‏ قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِها سِتْراً لا سترا خلقيا من مرتفعات غابات و جبال و أشجار و اتلال، و لا سترا مصطنعا من بيوت‏ «1» او خيام إمّا ذا فتنكير «سترا» يستغرق نفي الستر أيا كان و حتى الملابس‏ «2» فانها ستر عن الحر و القرّ! و مهما كان جعله إلهيا دون وسيط من سكان الشرق الأقصى حينذاك، كالأوّل، ام بوسيط كالثاني، فهما على أية حال راجعان إلى اللَّه! إذا فهم قوم بدائيون و من أبداهم، كانوا يسكنون في أرض مستوية

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 307 ج 222 في تفسير العياشي عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام) في قول اللَّه عز و جل‏ «لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِها سِتْراً كَذلِكَ ..» قال: لم يعلموا صنعة البيوت‏

و

في الدر المنثور 4: 249- اخرج ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابو الشيخ في العظمة عن ابن جريح‏ في قوله: «حَتَّى إِذا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ‏ الآية قال: حدثت عن الحسن عن سمرة بن جندب قال قال النبي (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) «لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِها سِتْراً» انها لم يبن فيها بناء قط كانوا إذا طلعت الشمس دخلوا أسرابا لهم حتى نزول الشمس‏

أقول: و قد لا يلائم هذا الحديث استغراق النفي في «سترا» حيث الأسراب ستر كما البيوت.

(2) المصدر في تفسير القمي في الآية قال «لم يعلموا صنعة الثياب» أقول: تشمل الخيام.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 197

مكشوفة لا تظلهم إلّا شمسهم و لا تقلهم إلّا أرضهم، دون اي ظلّ او قلّ سواهما!

«قد أحرقتهم الشمس و غيرت أجسادهم و ألوانهم حتى صيرتهم كالظلمة» «1».

فهل كانوا كلهم مؤمنين؟ و هو في العادة مستحيل و لهذه البدائة القاحلة البعيدة عن الدعوات الإلهية ام و سواها! ثم و لماذا لم يحدّث لنا بحديثهم البارع او حديثه لهم! ام كانوا كلهم فاسقين؟ فأحرى بهذا المصلح إصلاحا لهم او تعذيبا و لم يلمح هنا بشي‏ء في هذا البين! ام كالقوم الاول: منهم مؤمنون و منهم دون ذلك؟ فلما ذا لم يكرر لهم ما حصل لهؤلاء «تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى‏»! و إذا هم خارجون عن هذا المثلث من المكلفين فمن هم إذا؟ و لماذا يتحمل هذا المصلح العالمي الكبير هذه السفرة البعيدة المدى، و هي ابعد من الاولى و الاخرى، دون انتاج له و لهم؟! يبدو كما تلمّحناه أنهم من أبدى البدائيين، كانوا ضلّالا غير عارفين، لا مؤمنين و لا فاسقين، و مهما كانوا هم من المكلفين، فهم ممن لا يهتدون سبيلا، منقطعين عن وحي الرسالات أم بلهاء لا يعرفونها، إذا فهم مرجون لأمر اللَّه في مختلف الدرجات تكليفا و جزاء: 1- «وَ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ» (100)- 2- وَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ .. (101)- 3-

وَ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ .. (102) وَ قُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ‏ .. فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (105)» فهؤلاء الثلاث من قمة الايمان و درك الكفر و المتوسط بينهما، له ما أصلح و عليه ما أطلح، و من ثم رابع‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). من حديث الأصبغ بن نباتة عن امير المؤمنين (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 198

«وَ آخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَ إِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» (9: 106).

و قد يكون القوم في أقصى المشرق حينذاك من أبدى البدائيين من «و آخرون» فليس لذي القرنين كثير شغل معهم مهما أرشدهم كما يسطعون، كما قد يلمح له‏ «وَ قَدْ أَحَطْنا بِما لَدَيْهِ خُبْراً» و كما يلمح لغاية أخرى من هذه السفرة أن يحيط خبرا بأدنى المكلفين في المعمورة.

«أحطنا» هنا تضرب إلى أعماق الماضي لحد الحال و الاستقبال في ذي القرنين على أية حال، و لكن الخبر المحاط لربنا قد يخبرنا به و قد يسكت عنه دون ضنّة، و انما بحكمة كما هنا، و علّنا نستعمل نحن ما لدينا من طاقات و استنباطات كالذي قلنا.

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً (92) حَتَّى إِذا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِما قَوْماً لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (93) قالُوا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ. (94)

خطوة ثالثة هي الأخيرة من هذه الرحلة العالمية، يتبع فيها سببا ثالثا نقول فيه مثل الذي قلناه في الثانية، فهي غير الاولى و الثانية، و علّه من نوعه لمكان التنكير «سببا»:

حَتَّى إِذا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ‏ سفرة بسببه من أقصى المشرق الى‏ «بَيْنَ السَّدَّيْنِ» فأين هو؟ لحد الآن لا ندريه! و أما من هم‏ «قَوْماً لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا»؟ و إذا لا يفقهون فكيف‏ «قالُوا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ ..؟!

نحن لا نعرفهم و لا مكانهم إلّا ما عرّفه القرآن أنه‏ «بَيْنَ السَّدَّيْنِ» و هو طبعا بين أقصى الشرق و الغرب شمالا او جنوبا إمّا ذا؟ فانه قطعا- ليس مشرق الشمس او مغربها حيث بلغهما قبل هذه.

ثم «السدين» هما ما يسدان و يحجزان، أ هما صناعيان؟ و انما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 199

الصناعي لغرض صد الماء دفعا لضره او انتفاعا من جمعه! و الفتحة ناقضة لهذا القصد، او صد الهجمات عمن وراء السدين؟ و هذان السدان لم يكونا صدين لأيّ هاجم، حيث الفتحة بينهما ممرّ لكل مارّ، و قد طلبوا إليه أن يجعل بينهم و بين المفسدين سدا! ثم و هم على سذاجتهم لحد لا يكادون يفقهون قولا لم يكونوا ليفقهوا صناعة سدّ و قد فقهها المهندسون في دور التقدم و الرقي، ثم و لم يكملوا الصد في السدين طمّا للفتحة بينهما؟! إذا فهما حاجزان طبيعيان لا يظهر عليهما و لا ينقبان‏ «فَمَا اسْطاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَ مَا اسْتَطاعُوا لَهُ نَقْباً» و ان كان يختص هنا بالردم، و لكن السدين ان لم يكونا في هذا الإختصاص كالردم، كان جعل الردم دون فائدة! إذا فهما جبلان‏ «1» صلبان شاهقان، لا ينقصهما حجزا عن الهاجمين إلّا ردم بينهما و قد طلبوه إليه! و قد يلمح لذلك‏ «حَتَّى إِذا ساوى‏ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ»: الجانبين الصلبين.

و لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (93) لا يعني إلّا النفي المعمّق لفقه القول، لا نفي القول، فرب قائل لا يفقه ما يقال له و لكنه يفقه ما يقول! او يكاد يفقه قولا.

ثم «قولا» قد يعني معنى صالحا من قوله، لا لغة، فإنهم- لأقل تقدير- يفقهون لغتهم و قد تكلموا بها «قالُوا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ ..» و لا يرجى من أهل كلّ لغة إلا تفهم لغته دون اللغات الاخرى.

فعلّهم كانوا في بساطتهم و سذاجتهم لحدّ لا يفقهون قول اي قائل سواهم اللّهم إلّا من هو في مستواهم، و ذو القرنين كان يتحدث مع أهل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في حديث الأصبغ عن امير المؤمنين (عليه السلام) «قالُوا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَ مَأْجُوجَ» خلف هذين الجبلين و هم يفسدون في الأرض.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 200

كل لغة بلغتهم بسبب إلهي آتاه اللَّه من كل شي‏ء و منه شي‏ء اللغة، و لكنهم‏ «لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا» فقد لا يفقه الإنسان قولا و لكنه يفقه لاستعداده ان يفقه بمحاولة، و قد لا يستعد التفقه و لكنه يكاد أن يستعد فيفقه، و لكن هؤلاء كانوا في البساطة و خفة الفهم لحد «لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا» ايّا كان هذا القول إلّا ممن هو في مستواهم، و يردد عليهم مفاهيمهم دون ان يخطوها الى سواها، و ذو القرنين يريد ليحدثهم بلغتهم و بكل بساطة، إلّا أنهم «لا يكادون» حيث الفقه هو التوصل بعلم حاضر الى علم غائب، و هم غيّب عن تفهم اي غائب ف «قولا» يعني قولا يحتاج الى تأمل و تفقه.

هنا ييأس هذا المصلح العالمي ان يفيدهم فقها و يزيدهم علما، فهل يذرهم بعد و وعثاء السفر دونما افادة؟ كلّا- إنه أصغى إليهم ما هي متطلباتهم‏ «قالُوا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ ..»! فهم مهما لا يفقهون قولا فقد يفقهون الخطر الحادق عليهم ليل نهار من‏ «يَأْجُوجَ وَ مَأْجُوجَ» فلما رأوه صالحا قويا مصلحا تطلّبوا إليه صد المفسدين أن يجعل سدا.

قالُوا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَ مَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلى‏ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنا وَ بَيْنَهُمْ سَدًّا (94):

إنهم على بساطتهم يرون فيه فاتحا عدلا قويا صارما يتوسمون فيه الصلاح و الإصلاح و هم مستضعفون تحت وطأة الإفساد الدائب من وراء السدين من‏ «يَأْجُوجَ وَ مَأْجُوجَ» حيث كانوا يهاجمونهم من وراء السدين فيعيثون في أرضهم فسادا و هم ضعاف عن مقابلتهم، إفسادا في النسل و الزرع‏ «1» أما ذا؟

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في حديث الأصبغ عن امير المؤمنين (عليه السلام) .. إذا كان ابان زروعنا و ثمارنا خرجوا علينا من هذين السدين فرعوا من ثمارنا و زروعنا حتى لا يبقون منها شيئا ...».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 201

فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً؟ ذات دلالتين على التماسهم منه 1- «أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنا وَ بَيْنَهُمْ سَدًّا» 2- هل تجعل سدا- و إذا فهل نجعل لك خرجا: اجرا نخرجه عما تخرجه من مال او قوة؟ دون زيادة عنهما، و الأجر أعم من الخرج، فقد يتأجر أكثر مما يخرج اعتبارا بلباقة الرأي و لياقة صاحب الرأي، و هو عدل ما لم يجحف، او يسوي بين خرجه و أجره و هو فضل إذ لم يأخذ على تخصصه شيئا، ام لا يأخذ خرجا و إنما يساعد طالب العمل العاجز بنفسه فيه، يساعده في طلبه، و هو فضل حيث اشتغل دون عوض، و تفضل على صاحب العمل حيث استعمله كما يستطع دون بطالة، و هكذا يفعل ذو القرنين، كأفضل ما يمكن ان يقدّمه مصلح قوي حكيم لمستضعفين مظلومين، يتعاون معهم في صالحهم، دون أن يأخذ أجرا أو خرجا إلّا ان يستعملهم، لما يطلبون إعانة بقوة و مال هما خرج للردم و دون أن يكون له شي‏ء إلّا أجر من ربه.

فذو القرنين يبلغ بين السدين، و يطلب منه ان يجعل بينهم و بين يأجوج و مأجوج سدا، ان يصد بين السدين تخلصا لهم عن افسادهم في أرضهم، مما يبين كونهم مستضعفين و غير ظالمين، و إلّا تطلبوا إليه صد الإفساد فيما بينهم كما بينهم و بين المفسدين وراء السدين، و بطبيعة الحال هؤلاء البله الذين لا يكادون يفقهون قولا لا يسطعون الإفساد، أم إذا اسطاعوه لم يكونوا ليفسدوا فيما بينهم، يدل على كل ذلك تطلبهم إلى هذا المصلح العظيم ان يجعل سدا هو صدّ عن الإفساد في أرضهم! من هذه الدعوة على بساطتها و من تلكم الاجابة الخارقة في ذلك التعاون الصارم ندرس مدى وجوب صد الإفساد من اي كان و أيا كان و أيان! تكريسا لكافة الطاقات البشرية مع التوصل بامدادات إلهية، خروجا عن الاستضعاف و عيث الفساد، دون اي مبرر لأية جماعة مستضعفة في تصابرهم على الفساد و تخاذلهم أمام المفسدين، فصدا صدا أو

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 202

سدا سدا! بعد ما كلت كلّ المحاولات للقضاء على المفسدين او على فسادهم ام الهجرة عنهم إمّا ذا؟ فلا يتبرر المستضعف تحت نير الإفساد من المستكبرين قولة «كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ» حيث يقال لهم: «أَ لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها فَأُولئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ» .. اللهم‏ «إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَ النِّساءِ وَ الْوِلْدانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَ لا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا» (4: 98) فما دام هنا سبيل الى التخلص اي سبيل، كائنا او متمكنا، فلا يعذر المستضعف، و حتى إذا لم يستطع حيلة و لا يهتدي سبيلا «فَأُولئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ ..» ترجيا دون تحتم! إذ فيهم من كانت له الهجرة او أية مقاطعة فتصابر على تركها بنير الذل حتى زالت استطاعته و حيلته ..! إلّا من انتشأ و ظل بين المستكبرين قصورا دون تقصير و قليل ما هم؟

فيا له تكليفا لزاما ما أشمله: مجانبة عوامل الفساد قدر المستطاع، دون سماح لأي همول او خمول، سلبا لكل فساد، و من ثم محاولة دوافع الصلاح و الإصلاح فرضا لزاما قدر المستطاع دون سماح لاي همول او خمول! و لنكن ثالث ثلاثة من المستضعفين في حياة الجهاد الدموي الدائب ..

و الى رابع أضلاع الحياة: «ورثة الأرض» لا مستكبرين و لا مستضعفين، و انما مؤمنين أقوياء في دولة مباركة عالمية زمن المهدي من آل محمد صلوات اللَّه و سلامه عليهم أجمعين! «و نقول‏

لا قوام يظهرون الزهد و يدعون الناس أن يكونوا معهم على مثل الذي هم عليه من التقشف: اخبروني أين أنتم من سليمان بن داود ثم ذو القرنين (عليهما السلام)، عبد أحب اللَّه فأحبه اللَّه، طوى له الأسباب، و ملّكه مشارق الأرض و مغاربها، و كان يقول الحق و يعمل به ثم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 203

لم نجد أحدا عاب عليه! «1».

قالَ ما مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ رَدْماً (95) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذا ساوى‏ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذا جَعَلَهُ ناراً قالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً (96):

«ما مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي» أن مكنني في الأرض و آتاني من كل شي‏ء سببا- إنه «خير» من خرجكم .. فأنا أستعين بسبب من ربي علما و قوة، ثم‏ «فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ» بشرية، فليست القوة الخارقة الإلهية لتبطل او تعطّل قوة بشرية، فمهما كان بالإمكان جعل الردم بسبب الهي صارم دون تسبب الى قوة بشرية، و لكنه عطالة عارمة لهذه القوة، فانما الخارقة- للعادة فيما تقصر عنه العادة قدره، ام تثبيتا لنبوة إلهية ليست لذي القرنين، ام لحجة إلهية آية باهرة على رحمته.

و هذه سنة اللَّه الدائبة، عدم التغاضي عن الحول و القوة الخلقية، فانه بطالة، و أحيانا فعل خارقة إلهية يساند الفعلة الخلقية، و كما في جعل ذلك الردم.

«فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ» قدر المستطاع من مال أو حال، ألا جعل لكم سدا كيفما كان؟ لا! بل «ردما» يسد الثلمة، فأيسر طريقة و أقواها هي ردم الممر بين السدين، ليردم الماردين المفسدين، فلا يسطاعوا ان يظهروه لارتفاعه، و لا ان ينقبوه لحدّته، فكم من سد يظهر عليه و هو حديد، و كم من سدّ رفيع ينقب لأنه وهيد غير حديد، و لكنه ردم يسد الثلمة نقبا و ارتفاعا!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 3: 308 ج 234 في الكافي علي بن ابراهيم عن أبيه عن هارون بن مسلم عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) حديث يقول فيه (عليه السلام) لا قوام ....

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 204

لم يكن هنالك طريقة أخرى لصدهم عن الإفساد إلّا بسدهم ردما، فهل يقتل او يعذب المفسدين ثم يتركهم؟ فمن ذا يضمن عدم عودة الباقين إلى افسادهم؟ و ما ذا يضمن من لا يسطع منهم الإفساد او هو تاركه الآن ألّا يفسد بعد الآن؟ او يبيدهم كلهم؟ فقصاصا قبل الجناية لبعضهم! و علّ في أنسال مفسديهم صالحين او مصلحين: فلا طريقة إذا أمثل من صدهم بسدهم! «قالَ هذا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَ كانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا» (98).

آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ و الزبرة واحدتها و هي القطعة العظيمة، فقد طلب إليهم ان يأتوه قطعا من الحديد دون تحديد «حَتَّى إِذا ساوى‏ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ» حيث ملأ بينهما من زبر الحديد لحد ساوى بين الصدفين:

الجانبين الصلبين من السدين، و هي ركامة حديدية بين الحاجزين فأصبحا كأنهما صدفتان تغلقان ذلك الكوم الممر حيث الركام سامت القمتين، و من لطيف الصدف تساوي الصدفين كما تدل عليه «ساوى».

و كيف يلحم بين زبر الحديد حتى تصبح كأنها زبرة واحدة كجبل حديدي بين الجبلين؟ هنالك نفخ و قطر يلحّمان زبر الحديد كأقوى تلحيم! «قالَ انْفُخُوا» بمنافخ فنفخوا «حَتَّى إِذا جَعَلَهُ» المنفوخ «نارا» فضمير المفرد رغم جمعية زبر الحديد يلمح الى حدة الالتحام بينهما لحد الوحدة أو كأنها زبرة واحدة، و من ثم «نارا» لا نيران، لمحة مليحة الى وحدة نارية بعد وحدة الالتحام وحدتّه، نار واحدة في شدة الحرارة و الالتحام.

و هل يكتفي بذلك، و علّ بين هذه الوحدة النارية فرجا؟ كلّا، إنه القطر: النحاس المذاب، يفرغ على هذه النار الزبرة الحديدية فيكتمل أمر السد الردم!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 205

قالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً نحاسا مذابا يتخلل الحديد النار و يقويه أقوى من خالص الحديد، قطر على حديد و نار على نار.

و هذا الخلط كان من الأسباب القوية لتحكيم الردم، و قد استخدمت هذه الطريقة حديثا في تقوية كلّ من النحاس و الحديد فكل بمفرده أضعف من هكذا خلط يجعلهما كالفولاذ! كما و ان ذلك النفخ و زبر الحديد و مذاب النحاس بعيد عن قوم‏ «لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا» حيث البداءة و السذاجة في أبسط مراحلها جعلت منهم بلها لا يعرفون شيئا، فكيف لهم بإتيان زبر الحديد، و النفخ فيه لحد جعله نارا و النحاس المذاب، فلم يكن لهم شغل في هذه الثلاث الّا إتيان زبر الحديد «آتوني ...» دون استخراجها من معدنها، او نفخ فيها دون المنفخ‏ «قالَ انْفُخُوا» ثم إيتاء «آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً» حيث إفراغ القطر من فعله دونهم، و إنما هم عمّال في هذه الثلاث: إيتاء و نفخ و إيتاء، و أما تحصيل زبر الحديد و المنفخ و النحاس و إذابته فكل ذلك مما آتاه اللَّه من كل شي‏ء سببا! فهناك معدن للحديد دلّهم ذو القرنين على استخراجه، و منفخ دل على اصطناعه إمّا ذا، و معدن للقطر ثم مذيب، كل ذلك بأسباب خارقة إلهية و هم عمّال يؤمرون لا مصطنعون و مخترعون! فَمَا اسْطاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَ مَا اسْتَطاعُوا لَهُ نَقْباً (97) فقد صدهم هذا السدّ، إذ حاولوا أن يظهروه فما اسطاعوا، و حاولوا له نقبا لينفذوه فما استطاعوا، فاستراح هؤلاء المستضعفون عن إفسادهم و كأنهم سألوه من اين هذه الكرامات الخارقة ف:

قالَ هذا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَ كانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (98)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 206

ذلك الملك العدل الرؤف يحتاج الأرض مشارقها و مغاربها ممكنّا متمكّنا ميسرا له من كل الأسباب، و لا تأخذه العزة بالإثم و الكبرياء بالخيلاء، و لا يطغى تبطرا، و لا يبغي من القدرة مغنما، و لا يستغل السلطة استعبادا، و إنما ينشر عدلا و رحمة، و يأتي بخارقة تلو الأخرى، و عند انتهاء هذه الحلقة «قالَ هذا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي» يسند كل ما أتى به الى رحمة ربه دون سناد إلى نفسه إلّا كواسطة في هذه و تلك الخارقة.

و لكيلا يخلد الى خلد خلود ردمه الفولاذي يدكّه بوعد ربه: «فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي» تدميرا بعد تعميره‏ «جَعَلَهُ دَكَّاءَ»: ليّنة سهلة، بعد ما كانت فولاذية مرتفعة صلبة «وَ كانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا» في دكّها.

ترى و ما هو ذلك الوعد؟ هل هو الوعد العام بدكداك الأرض و ما عليها و بضمنها ذلك الردم: «إِذا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا، وَ بُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا»؟

وَ تَرَكْنا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْناهُمْ جَمْعاً (99) وَ عَرَضْنا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكافِرِينَ عَرْضاً (100) تدلنا على تماوج الأحياء بعد دكداك الردّم، ثم بعدهما نفخ الصور و جمع الجمع! ثم و آية الأنبياء قد تناصرها أن وعد الدكداك هذا قبل القيامة الكبرى: «وَ حَرامٌ عَلى‏ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ، حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَ مَأْجُوجُ وَ هُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ. وَ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يا وَيْلَنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا بَلْ كُنَّا ظالِمِينَ» (21: 97).

ففتح يأجوج و مأجوج بدكّ الردم، و الدك الفتح هما في الآيتين قبل جمع الجمع، فهناك‏ «وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْناهُمْ جَمْعاً» و هنا أدل منها و اقرب‏ «وَ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ» فجمع الجمع و الوعد الحق هما بعد وعد الرب و دكّ الردم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 207

وعد اوّل خاص يشمل دك الردم، ففتح يأجوج و مأجوج كشرط من أشراط الساعة الوعد العام.

ثم الوعد الحق في قيامتي التدمير و التعمير هو مقترب- لا واقع- عند وعد الرب بهدم الردم و فتحهم و تركهم يومئذ يموج بعضهم في بعض و هم من كل حدب ينسلون، «وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْناهُمْ جَمْعاً» الرامي إلى نفخة الإحياء ليس إلّا بعد نفخة الإماتة، و هي بعد اقتراب الساعة بأشراطها التي منها: «فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ::»! و ترى من «هم» في‏ «وَ تَرَكْنا بَعْضَهُمْ ..»؟ أهم يأجوج و مأجوج؟

و هم كان بعضهم مائجا في بعض قبل دكّاء الردم! ام هم المجموعة منهم و القوم الذين كانوا لا يكادون يفقهون قولا، مستضعفين و مستكبرين، إذ انفتح الردم ففتحوا كما كانوا قبل سد الردم، فأصبحوا كأمواج البحر الملتطم يتلاطمون في تماوج عارم و تهارج صارم، و هو الصحيح! او هم مجموعة المكلفين من الجنة و الناس أجمعين، يتركهم يومئذ يموج بعضهم في بعض، في هرج و مرج و فساد دائم و ظلم عارم، و علّه الأصح! ان يأجوج و مأجوج- أيا كانوا- إنهم بعد ذلك الفتح من كل حدب ينسلون، و لأن «حدب» هو المرتفع، فكلّ حدب يعم كلّ مرتفع يمكن أن يرتفع: من مرتفعات بحرية و برية او جوية، محلّقين على كل محلق، دون اختصاص بحدب الردم و لا حدب له بعد دكّه!.

و ان «ينسلون» هو: ينفصلون مسرعين، و يلدون، «هُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ» قد يعني الهرج و المرج العالمي من قبيل يأجوج و مأجوج، مسيطرين على كل مرتفع، مسرعين في الانفصال عنه الى الناس‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 208

المستضعفين، ناسلين ولدا به يكثرون، و عند ذلك الطامة الوسطى: ان تملأ الأرض ظلما و جورا نظرة ان يملأها اللَّه بعده قسطا و عدلا بالقائم المهدي عجل اللَّه تعالى فرجه و سهل مخرجه.

و لان «الموجان» من صفات الماء الكثير، ف «يموج بعضهم في بعض» توحي بشدة اختلافهم، و دخول بعضهم في بعض لكثرة اضدادهم، تشبيها بموج البحر المتلاطم، و التفاف الدبا المتعاضل، تماوج مختلف المياه عذبا و مالحا و مرا أجاجا.

و هكذا تكون الفتنة العالمية حيث تملأ الأرض ظلما و جورا، فلا يبقى موضع قدم إلّا و فيه هرج و مرج! اين ردم ذي القرنين؟

لان ذلك الردم بدكه و فتح يأجوج و مأجوج هما شرط من أشراط الساعة: «اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ...» فلنحاول في الحصول على معرفة عنها قدر المستطاع على ضوء القرآن، و ما يلائمه او يثبت من السنة و التأريخ الجغرافي و سواه.

فهل إن ذلك الردم هو جدار الصين؟ و ليس سدّا و لا ردما! و ليس حديديا و ذلك الردم حديد بقطر! و ليس بين جبلين، بل بين سهول و جبال عدة و الردم بين جبلين! و قد بناه ذو القرنين و جدار الصين بناه «شين هوانك تي» في طول ألف كيلو مترا و عرض تسعة امتار و ارتفاع خمسة عشر مترا بالأحجار، و هو قاطن الصين دون سفر إليه لبناء جداره و ذلك بنى ردمه في سفرة بعيدة.

ثم و بناء سد في حجم 135000000 مترا بحاجة الى ملايين الأطنان من خليط القطر و الحديد، فأين سد من جدار و بان من بان؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 209

فهل هو بعد سد باب الحديد في عمالة بلخ وراء جيحون بمقربة من مدينة ترمذ كما جاء في بعض المؤلفات‏ «1»؟ و لم يتضح لنا بعد وجود هجمات تصدّ بذلك السد و هو خلاف اسمه ليس فيه حديد و قد بناه كسرى نوشروان.

ام سد ثان في مضيق جبال قفقاز الممتدة من بحر الخزر الى البحر الأسود، المسمى بمضيق داريال‏ «2» بين بلدة تفليس و ولادي كيوكز.

و هذا السد المسمى باللغة المحلية «دمير قاثو» اي: باب الحديد: يقع في ذلك المضيق بين جبلين شاهقين يمتدان من جانبيه، و هو الفتحة الوحيدة الرابطة بين جانبي الجنوبي و الشمالي مع ما ينضم إليها، من بحر الخزر و البحر الأسود، حاجز طبيعي بطول ألوف من الكيلومترات يحجز جنوب آسيا من شمالها.

و كان يهجم في تلك الأعصار أقوام شريرة من قاطني الشمال الشرقي من آسيا من مضيق جبال قفقاز الى ما يواليها من الجنوب، فيغيرون على ما دونها من أرمينستان ثم ايران حتى كلدة و الآشور، كما هجموا حوالي المائة السابعة قبل الميلاد فعمموا البلاد قتلا و سبيا و نهبا حتى بلغوا نينوى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في مجلة المقتطف المصري 1888 كما نقله في الجواهر انه اتضح لنا من المصنفات العربية وجود سد وراء جيحون في عمالة بلخ و اسمه سد باب الحديد بمقربة من مدينة ترمذ و قد اجتازه تيمور لنگ بجيشه و دعا مؤرخه شرف الدين اسم المحل «خلوجة» و مر به ايضا شاه روح و كان في خدمته و من بطانته الالماني: سيلد برجر- و ذكر السدّ في كتابه و ذلك في أوائل القرن الخامس عشر و ذكره الاسباني: كلما فيجو في رحلته سنة 1403 و كان رسولا من ملك كستيل (قشتاله) بالأندلس الى: تيمورلنك- قال: ان سد مدينة باب الحديد على الطريق الموصل بين سمرقند و الهند.

(2) لعله من اصل داريول بمعنى المضيق بالتركية و يسمى باللغة المحلية «دمير قاپو» اي: باب الحديد.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 210

عاصمة الآشور و ذلك في عهد كورش.

و يذكر المؤرخون في كهردوت اليوناني سير كورش الى شمالي ايران لإخماد نائرة الفتن المشتعلة هناك، و كأنه هو باني ذلك الردم في هذا المضيق، و هو الردم الوحيد الذي بني بالحديد بين جبلين، و يذكره يوسف اليهودي المؤرخ عند ذكر رحلته الى شمالي قفقاز «1» و بينه و بين كسرى باني سد باب الحديد قرون! ثم هناك نهر بالقرب منه يسمى «سايروس» و هو اسم كورش عند الغربيين‏ «2».

و لأنه الردم الوحيد الذي نعرفه حتى الآن فعلّه هو الذي بناه ذو القرنين، او سوف يكتشف ردمه، لا نتأكد الآن شيئا، و الظاهر لحد الآن أنه «باب الحديد» هذا، حيث يوافق الردم اسما و مسمى و موقعا جغرافيا، و هو الوحيد فيما نعرفه! ثم و لا غرض عقلائيا و لا قوة عاديا و لا موقع جغرافيا في بناء ردم فولاذي إلّا كما يقصه القرآن، و إذ لا نجد غير «دمير قاثو» في نفس الموقع و الهدف و القوة فليكن هو الردم المذكور في القرآن و اللَّه اعلم‏ «3»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 4: 250- اخرج ابن المنذر عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) انه سئل عن الترك فقال: هم سيارة ليس لهم اصل هم من يأجوج و مأجوج لكنهم خرجوا يغيرون على الناس فجاء ذو القرنين فسد بينهم و بين قومهم فذهبوا سيارة في الأرض.

(2) هذا التاريخ ننقله عن الميزان ج 16 ص 394 و التحليل و المقايسة منا.

(3)

الدر المنثور 4: 250- اخرج ابن جرير و ابن مردويه عن أبي بكرة النسفي‏ ان رجلا قال: يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)! قد رأيت سد يأجوج: قال:

(صلّى اللَّه عليه و آله و سلم): انعته لي- قال: كالبرد المجر طريقة سوداء و طريقة حمراء- قال: (صلّى اللَّه عليه و آله و سلم) قد رأيته.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 211

و من هم يأجوج و مأجوج؟

لقد كثير القيل و القال حولهما، ما يحمل تناقضات من أسطورات تدهش العقول و توحش الحقول، و لأن فتح يأجوج و مأجوج من أشراط الساعة كما في الكتاب و السنة «1» فعلينا النقب و التنقير الكثير حول «من هما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 309 ج 239 في كتاب الخصال عن أبي الطفيل عامر بن واثلة عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: كنا جلوسا في المدينة في ظل حائط قال: و كان رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) في غرفة فاطلع إلينا فقال: فيم أنتم؟ قلنا:

نتحدث- قال: عماذا؟ قلنا عن الساعة- فقال: انكم لا ترون الساعة حتى تروا قبلها عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها و الدجال و دابة الأرض و ثلاثة خسوف يكون في الأرض: خسف بالمشرق و خسف بالمغرب و خسف بجزيرة العرب و خروج عيسى بن مريم و خروج يأجوج و مأجوج و يكون في آخر الزمان نار تخرج من اليمن من قعر الأرض لا تدع خلفها أحدا الا تسوق الناس الى المحشر، كلما قاموا قامت ثم تسوقهم الى المحشر.

و

في ح 240 حديث حذيفة قال سمعت رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) يقول: عشر آيات بين يدي الساعة: خمس بالمشرق و خمس بالمغرب فذكر الدابة و الدجال و طلوع الشمس من مغربها و عيسى بن مريم و يأجوج و مأجوج و انه يغلبهم و يغرقهم في البحر و لم يذكر تمام الآيات.

و

في الدر المنثور 3: 252- اخرج الحاكم و صححه عن حذيفة قال قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) انا اعلم بما مع الدجال معه نهران أحدهما نار تأجج في عين من رآه و الآخر ماء ابيض فان أدركه احد منكم فليغمض و يشرب من الذي يراه نارا فانه ماء بارد و إياكم و الاخر فانه الفتنة و اعلموا انه مكتوب بين عينية كافر يقرءه من يكتب و من لا يكتب و ان احدى عينيه ممسوحة عليها ظفرة انه يطلع من آخر امره على بطن الأردن على ثنية أفيق و كل احد يؤمن بالله و اليوم الآخر ببطن الأردن و انه يقتل من المسلمين ثلثا و يهزم ثلثا و يبقى ثلث و يجن عليهم الليل فيقول بعض المؤمنين لبعض ما تنتظرون ان تلحقوا إخوانكم في مرضات ربكم من كان عنده فضل طعام فليفد به على أخيه و صلوا حتى ينفجر الفجر و عجلوا الصلاة ثم اقبلوا على عدوكم فلما قاموا يصلون نزل عيسى بن مريم امامهم فصلى بهم فلما انصرف قال هكذا فرجوا بيني و بين عدو الله فيذوب و سلط الله عليهم من المسلمين فيقتلونهم حتى ان الشجر و الحجر لينادي يا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 212

و اين هما و هل فتحوا حتى الآن أماذا»؟ فلنجعل الكتاب الإمام أمامنا، فندرس آيتي يأجوج و مأجوج نبراسا ينير لنا الدرب الى معرفتهما، و متراسا يبير كل يأجوج و مأجوج اختلقتها ايدي الدس و التجديف، و تقولتها ألسنة التحريف.

فَمَا اسْطاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَ مَا اسْتَطاعُوا لَهُ نَقْباً (97) قالَ هذا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَ كانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (98) وَ تَرَكْنا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْناهُمْ جَمْعاً (99) «وَ حَرامٌ عَلى‏ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ (95) حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَ مَأْجُوجُ وَ هُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (96) وَ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يا وَيْلَنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا بَلْ كُنَّا ظالِمِينَ» (21: 97) قد تعني مقابلة «جَعَلَهُ دَكَّاءَ» ل «فَمَا اسْطاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَ مَا اسْتَطاعُوا لَهُ نَقْباً»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

عبد الله يا عبد الرحمن يا مسلم هذا يهودي فاقتله فيقتلهم الله و ينصر المسلمون فيكسرون الصليب و يقتلون الخنزير و يضعون الجزية فبينما هم كذلك اخرج الله يأجوج و مأجوج فتشرب أولهم البحيرة و يجي‏ء آخرهم و قد انتشفوا و لا يدعوا فيه قطرة فيقولون ظهرنا على أعدا انا قد كان هاهنا اثر ماء فيجي‏ء نبي الله و أصحابه وراءه حتى يدخلوا مدينة من مدائن فلسطين تقال لها: لد فيقولون ظهرنا على من في الأرض فتعالوا نقاتل من في السماء فيدعو الله نبيه عند ذلك فيبعث عليهم قرحة في حلوقهم فلا يبقى منهم بشر فيؤذي ريحهم المسلمين فيدعو عيسى فيرسل الله عليهم ريحا فتقذفهم في البحر أجمعين.

و

فيه اخرج نعيم بن حماد في الفتن و ابن مردويه بسند رواه عن ابن عباس قال قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) بعثني الله ليلة أسري بي الى يأجوج و مأجوج فدعوتهم الى دين الله و عبادته فأبوا ان يجيبوني فهم في النار مع من عصى من ولد آدم و ولد إبليس.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 213

إضافة الى دكداك الردم نفسه، أنهم سوف يسطعون ان يظهروه او يستطيعون له نقبا فينقبونه، ظهور الغلبة عليه هدما ام التحليق عليه دون هدم! لذلك ترى آية الأنبياء تنسب الفتح الى يأجوج و مأجوج، دون تصريحة او تلويحة لدكداك الردم هدما، بل‏ «وَ هُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ» قد تلمح أنهم يظهرون على حدب الردم ضمن كل حدب دون دكّ لايّ حدب حتى الردم.

فان ثبت لدينا فتح لياجوج و مأجوج و الردم باق، لم يثبت تهافت بين آيتي الكهف و الأنبياء! كما و مقابلة «وَعْدُ رَبِّي» ب «رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي» تعني رجعة الإفساد من يأجوج و مأجوج كوعد للعذاب بعد الرحمة، سواء أبقى الردم ام دكّ بدكاء الوعد العذاب.

و ذلك الوعد هو قبل القيامة الكبرى و هو من أشراطها، حيث‏ «نُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْناهُمْ جَمْعاً» بعده، و فتح يأجوج و مأجوج عند اقتراب الوعد الحق! و ترى إن‏ «وَعْدُ رَبِّي» شرطا من أشراط الوعد الحق، هل يختص بردح خاص من الزمن او قد يتكرر؟

آيات الإفساد العالمي الاسرائيلي مرتين كما شرحناها في «الأسرى» تدلنا على كرور الوعد، فعلّ العالمي منه اثنان ثم هناك وعد أم وعود جانبية و منها الهجمة الجنكيزخانية التي سودت وجه التاريخ الانساني! و مهما كان يأجوج و مأجوج في البداية أمتين من بني الإنسان في سالف الزمن، فقد تعني، «حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَ مَأْجُوجُ» كل امة مفسدة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 214

تؤجج نيران الفساد في هذه المعمورة و من أفسدها «إسرائيل»: لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ..»! مهما كان الاوّلون من المغول و التتار امّن ذا؟

آية الأنبياء الأولى: «وَ حَرامٌ عَلى‏ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ» تحرم الرجعة الى الدنيا بعد الموتة فهي من آيات الرجعة «1» و الثانية: «حَتَّى إِذا فُتِحَتْ» تقرر أمد هذه الرجعة أنها بعد ما فتحت يأجوج و مأجوج، و علّه الإفساد العالمي الثاني الإسرائيلي قبيل الرجعة، أو الأوّل قبلها، ام الهجمة الجنگيزية قبلهما، ام تعنى الثلاثة تعميما ليأجوج و مأجوج الى مؤججي نيران الفساد أيا كانوا و أهمه الإفسادان العالميان‏ «وَ قَضَيْنا إِلى‏ بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ» او ان بني إسرائيل هم رؤوس الفساد في هذين، و يأجوج و مأجوج يؤججانه إمّا ذا؟

يأجوج و مأجوج هما كلمتان أعجميتان معربتان حيث هما ممنوعا الصرف، و لا شك أنهما أمتان من امم البشرية هما أمثولة الإفساد طول التاريخ بمن يساندهما.

و قد يلمح‏ «وَ هُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ» إلى انتشارهم في أرجاء المعمورة بعد ما صدهم ذو القرنين بسدّهم، و

قد سئل الامام علي (عليه السلام) عن الترك فقال: هم سيارة ليس لهم أصل، هم من يأجوج و مأجوج و لكنهم خرجوا يغيرون على الناس فجاء ذو القرنين فسد بينهم و بين قومهم فذهبوا سيارة في الأرض» «2»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفصيل البحث حول آية الأنبياء تجده عند تفسيرها، و من الوجوه الراجحة ان اهل قرية أهلكناها حرام عليهم الرجوع لتكملة الحياة حتى إذا فتحت .. فإذا فتحت يرحبون لا لتحصيل السعادة و انما لتكميل الشقاوة فإنهم ممن محض الكفر محضا، فالآية إذا من آيات الرجعة و تدل على ان فتح يأجوج و مأجوج قبيل الرجعة فيناسب قبلها القريب كالإفساد العالمي الثاني الإسرائيلي، و البعيد كفتنة المغول، او انهما معنيان.

(2) الدر المنثور 4: 251- اخرج ابن المنذر عن علي بن أبي طالب ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 215

و كذلك نرى الامة الاسرائيلية كانوا طول قرونهم و الى احتلال فلسطين، كانوا سيارة في الأرض مفسدين أيا كانوا.

لست أقول انهم من أصل الترك و يأجوج و مأجوج، فانما كونهم سيارة الأرض المفسدين يجعلهم مع يأجوج و مأجوج أمة الإفساد في التاريخ، بل هم لعلهم أشد منهم و أنكى او هم الأصل في الإفساد منذ كانوا و على هوامشهم سائر الأمم المفسدة.

و لان اللغات متطورة كما المجتمعات، فقد يقرب القول أنهما المغول و التتار و هما من الترك، و المغول في الصيني «منكوك» او «منجوك» و كأن الكلمتين نقل عبراني و هما في التراجم اليونانية و غيرها للعهد العتيق «كوك» و «ماكوك» و المشابهة الكاملة بين «ماكوك» و «منكوك» يقضي انها متطورة من «منكوك» كما اشتق منه «منغول» و «مغول».

فلعل يأجوج هو «كوك» و مأجوج هو «ماكوك» فهذا المغول و ذلك التتار، و قد ذكر بعض المدققين أن المغول و التتار من رجل واحد يقال له «ترك» و هو الذي سماه أبو الفداء باسم يأجوج، و قد كانوا يشغلون الجزء الشمالي من آسيا، تمتد بلادهم من «التبت و الصين» إلى المحيط المنجمد الشمالي و تنتهي غربا بما يلي بلاد «تركستان» «1».

و يذكر المؤرخون المسلمون و الإفرنج أن هذه الامة النكدة كانت تغير قديما و في مختلف الزمن على الأمم المجاورة لها، و منهم المتوحشة كالسيول الجارفة التي انحدرت من الهضبات المرتفعة من آسيا الوسطى و ذهبت الى أوروبا قديما، فمنهم أمة السيت و السمرياق و المسجيت و الهون، و كم أغاروا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما في (فاكهة الخلفاء) و ابن مسكوية في (تهذيب الأخلاق) و في (رسائل اخوان الصفا) فقد ذكروا ان هؤلاء هم يأجوج و مأجوج.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 216

على بلاد الصين و على أمم آسيا الغربية التي كانت مقر الأنبياء، فكانوا يحذرون قومهم من هؤلاء .. «1».

طلب من ذي القرنين أن يجعل بينهم و بين قاطني الشرق الأقصى سدّا فعمل ردما فظلوا محجوزين ردحا من الزمن‏ «حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَ مَأْجُوجُ وَ هُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ» في مثلث الإفساد العالمي، يتكفل أولاه في داهية دهياء و غارة عشواء «تموجين» الملقب نفسه «جنكيزخان» إنه- و كما في القرآن: «وَ هُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ» خرج بجيشه الجرار من الهضبات المرتفعة و الجبال الشاهقة التي في آسيا الوسطى في أوائل القرن السابع من الهجرة- جنكيزخان بعد ما يجمع أمة التتار تحت حكمه العارم يخضع الصين الشمالية ثم يذهب إلى البلاد الإسلامية و يخضع سلطان محمد السلجوقي ملك خوارزم، و كان يمتد ملكه على بلاد تركستان و الفرس، فسقطت هذه الدولة بعد عشر سنين من الحرب المتواصلة- جنكيزخان المغول الفاتح بعد هذه المدة يرتكب من المنكرات هناك ما لم يسمع مثله في التأريخ، فقد قتّلوهم رجالا و نساء و أطفالا، و ارتكبوا من الفواحش ما سوّد وجه التأريخ- في مدينة خوارزم وحدها، يفتك بها هدما و إحراقا و إهراقا لدماء الأبرياء فأصبحت أنهارا من الدماء، كما فعلوا مثلها بسمرقند و بخارى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). لقد فصل في رسائل قديمة ألفت في القرنين الثالث و الرابع ان امة يأجوج و مأجوج هم سكان تلك الجبهة المتقدمة شمال الصين و حددت بلادهم بأنها من نحو سبع و عشرين درجة من العرض الشمالي الى نحو خمسين درجة منه و هذه البلاد الآن جزء عظيم من الصين و فيها بكين عاصمتها الآن و لقد كانوا أغاروا على الأمم جميعا و كانوا كفاتحين للعالم كله.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 217

و غيرهما، و فتكوا بأهالي نيسابور و أفنوهم عن آخرهم حتى الأطفال و الحيوان و أحرقوا البلد، و أصبحت القتلى في واقعة مرو مليونا و ثلاثمائة و ثلاثين ألفا! و هذه نبذة يسيرة من بحر فظايحهم هناك‏ «1» و من ثم كافة البلاد إلّا شذرا: فقد أخضعوا بلاد الهند فمات «جنكيزخان» و لما ملك ابنة (اقطاى) أغار ابن أخيه (باتو) على الروس (722) و دمروا (بولونيا) و (بلاد المجر) و أحرقوا و خرّبوا- و بعد موت (اقطاى) قام مقامه (جالوك) فحارب ملك الروم و ألجأه إلى دفع الجزية.

ثم مات (جالوك) و قام مقامه ابن أخيه (منجوا) فكلف أخويه (كيلاى و هولاكو) ان يستمر في طريق الفتح، فيتجه الأوّل الى بلاد الصين و الثاني إلى الممالك الإسلامية. ففعلوا ما فعلوا من القتل و التدمير.

أسلمت بغداد سبعة ايام للقتل و السلب و النهب فسالت فيها أنهر الدماء و طرحوا الكتب العلمية في دجلة و جعلوها جسرا يمرون عليه بخيولهم و قتل الخليفة العباسي المستعصم باللّه و علقت جثته في ذنب حصان و ساروا بها بين أسوار بغداد .. و قد استمرت فتوحات المغول إلى سوريا ..

الفتنة المغولية تفتك بالبلاد كلها من مشارق الأرض و مغاربها إلّا مكة و المدينة و بيت المقدس، و علّه إليها الاشارة في حديث يأجوج و مأجوج أن مقدمتهم في الشام و ساقتهم بخراسان، و كما في تصريحة أخرى انهم لا يدخلون المدن الثلاث.

و قد يعنيه الحديث «و يخرج في آخر الزمان رجل يسمى أمير العصب»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع دائرة المعارف و ابن خلدون و فاكهة الخلفاء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 218

أصحابه محسورون محقرون مقصون عن أبواب السلطان يأتونه من كل فج عميق كأنهم فزع الطريق يورثهم اللّه مشارق الأرض و مغاربها.

و من «السبب الظاهر في هذه الفتنة أن سلطان خوارزم يقتل رسل «جنكيزخان» و التجار المرسلين من بلاده و يسلب أموالهم و يغير على أطراف بلاده فيغتاظ «جنكيزخان» و يكتب اليه كتابه يهدّده فيه بما فعل‏ «1».

ذلك إفساد في الأرض مرة شاملة من‏ «يَأْجُوجَ وَ مَأْجُوجَ» و قد تلمح‏ «حَتَّى إِذا فُتِحَتْ» أنها الأولى منهم و الأخيرة كشرط من أشراط الساعة، و من ثم إفسادان عالميان من بني إسرائيل كما في آية «الأسرى»، فانها تخص إفسادهم في مرتين لا كل إفساد من ايّ كان، كما و آية الفتح ليأجوج و مأجوج تخص فتحهم في افسادهم الظاهر في مرة.

أو أن فتحهم يعني جنسه الشامل للمرات الثلاث، مرة تخصهم كما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نص الكتاب هكذا: «كيف تجرأتم على اصحابي و رجالي و أخذتم تجارتي و مالي؟

و هل ورد في دينكم او جاز في اعتقادكم و يقينكم ان يريقوا دم الابرياء او تستحلوا اموال الأتقياء او تعادوا من لم يعادكم و تكدروا صفو عيش من صافاكم، و تحركون الفتنة النائمة و تنبهون الشرور الكامنة او ما جاءكم عن نبيكم سريكم و عليكم ان تمنعوا عن السفاهة غويكم و عن الظلم الضعيف قويكم او ما خبركم مخبروكم و بلغكم عنه مرشدوكم و نبأ محدثوكم «اتركوا الترك ما تركوكم» و كيف تؤذون الجار و تسيئون الجوار و نبيكم قد اوصى به مع انكم ما ذقتم طعم شهده او صابه و لا بلوتم شدائد أوصافه او صابه، ألا إن الفتنة نائمة فلا توقظوها و هذه وصايا إليكم فعوها و احفظوها و تلافوا هذا التلف قبل ان ينهض داعي الانتقام و تقوم سوق الفتن و يظهر من الشر ما بطن و يروج بحر البلاء و يموج و ينفتح عليكم سد يأجوج و مأجوج و سينصر اللّه المظلوم و الانتقام من الظالم امر معلوم و لا بد ان الخالق القديم و الحاكم الحكيم يظهر سر ربوبيته و آثار عدله في بريته فان به الحول و القوة و منه النصرة مرجوة فلترون من جزاء أفعالكم العجب و لينسلن عليكم يأجوج و مأجوج من كل حدب (جنكيزخان) (تفسير الجواهر 9: 204).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 219

مرت، ثم هم يشتركون في المرتين الإسرائيليتين العالميتين، طالما هم فيها أصلاء، و يأجوج و مأجوج هوامش عملاء، كسائر المفسدين الهوامش اللّعناء.

فكل من يشارك إسرائيل في مرتي الإفساد العالميين من عمال الفساد هو في سجيته و علانيته و سريرته، إنه إسرائيلي مهما كان من يأجوج و مأجوج امّن ذا؟

كما الفتنة اليأجوجية تشمل كل عميل من غيرهما أيا كان و أيان! و طبيعة الحال قاضية أن الإفساد العالمي الإسرائيلي في مرّتيه، لا يخص بني إسرائيل إلّا كأصول، فكل مفسد في الأرض يشاركهم أصيلا و بديلا و عميلا أمّن ذا؟:

نحن نعيش الآن الإفساد الاسرائيلي العالمي الاوّل، فالمفسدون الأصلاء هم إسرائيليون، و المفسدون العملاء او البدلاء من كفار الشرق و الغرب، و من يساندهم من زعماء المسلمين امّن ذا- هؤلاء كلهم إسرائيليون فروع! فالكفر ملة واحدة! او قد يعني‏ «إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَ مَأْجُوجُ» الإفساد العالمي الثاني بعلوّه الكبير من إسرائيل، و يأجوج و مأجوج و هما أمثولة الإفساد شرقا و غربا يعملون عمالاتهم الإسرائيلية في مشارق الأرض و مغاربها؟ كل محتمل! مع الحفاظ على ان هناك مراحل ثلاث من الإفساد العالمي طول التاريخ الرسالي يتكفل أولاها «يَأْجُوجَ وَ مَأْجُوجَ» كأصلين اصيلين في ذلك الإفساد، و الأصلاء في الأخريين هم الاسرائيليون و غيرهم عملاء من يأجوج و مأجوج و سواهم! و أيا كان إفساد يأجوج و مأجوج فاللائح من آيتي الكهف و الأنبياء وحدته فيما هم فيه أصلاء: «وَ تَرَكْنا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ» فهو يوم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 220

و زمن واحد «حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَ مَأْجُوجُ وَ هُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ» فهو فتح واحد بنسل واحد! مهما كانوا في المرتين الإسرائيليتين فروعا عملاء، كما قد يكون هؤلاء عملاء في المرة التي يأجوج و مأجوج فيها أصلاء.

و قصارى الاقتصار على المرتين الإسرائيليتين أن يأجوج و مأجوج في الثانية أصلاء كما الاسرائيليون لا عملاء، و لكنهم الأصل الاول و هما الأصل الثاني.

و قصارى المستفاد من الآيتين في الزمن التقريبي لفتحهما أنه قبيل الرجعة و قيام المهدي (عجل اللّه تعالى فرجه الشريف) حيث عقّب قيام الساعة: «وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْناهُمْ جَمْعاً» ب «وَ تَرَكْنا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ» في آية واحدة، و لو لا آية الأنبياء «حَتَّى إِذا فُتِحَتْ‏ ..

وَ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ..» بعد «وَ حَرامٌ عَلى‏ قَرْيَةٍ ..» لاحتملنا قريبا او قلنا أن فتحهم بين الرجعة و القيامة! فهنالك قرب قريب إلى الوعد الحق هو الرجعة و قيام المهدي (عليه السلام) و قبلهما قرب ابعد منه هو فتح يأجوج و مأجوج، مما يقرّب احتمال أنه من الإفساد الاسرائيلي العالمي! ثم‏ «وَ تَرَكْنا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ» يعني ترك المستضعفين و المستكبرين المفسدين يموج بعضهم في بعض، و به تملأ الأرض ظلما و جورا و من ثم ملأها قسطا و عدلا بالقائم المهدي من آل محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم).

و مما يؤيده او يؤكده أن هناك وعدين لا ثالث لهما، الوعد الاوّل يخص فتح يأجوج و مأجوج: «فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ..» و الوعد الثاني هو القيامة الكبرى‏ «وَ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ» إذا فقبل الوعد الحق كأنه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 221

وعد واحد، رغم ان الإفسادين العالميين الإسرائيليين هما وعدان قبل الوعد الحق‏ «فَإِذا جاءَ وَعْدُ أُولاهُما ... فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ..» فليكن الوعد اليأجوجي مع الوعد الثاني الإسرائيلي! اللّهم إلّا أن الوعدين هذين متجهان الى الاسرائيليين، و ذلك الوعد اليأجوجي متجهة الى غيرهم حيث هم بفتحهم وعد العذاب على العالم أجمع؟ و قد يكون الإفساد الثاني الإسرائيلي محط الوعدين ضد إسرائيل و عملائه، و ضد العالم اجمع! و مهما يكن من شي‏ء فلا ريب أن الإفساد الثاني و الأخير العالمي يشترك فيه كافة المفسدين، يفتح فيه كل يأجوج و مأجوج و الإسرائيليون و كافة العملاء، و فيه العلو الكبير «لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَ لَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً».

و لأنه من أقرب أشراط الساعة لحد تلحقه القيامة «وَ تَرَكْنا.

وَ نُفِخَ ..» «فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ‏ ... وَ جَعَلْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ حَصِيراً»! و أن الإفساد العالمي يتطلب نسل المفسدين من كل حدب دون ايّ صدّ او سدّ «وَ هُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ» و أن كلا من إسرائيل و يأجوج و مأجوج أصل في هذه الفتنة العالمية، فقد يقرب ما قربناه! و لكنما الفتنة المغولية التي هي من يأجوج و مأجوج قد تجعل نسلهم من كل حدب لمرات ثالثتها أقواها و هي في الإفساد الاسرائيلي الثاني.

و قد يظهر من‏

حديث النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) «ليحجن البيت و ليعتمرن بعد خروج يأجوج و مأجوج» «1»

أن افسادهم يمنع الحج‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). رواه البخاري في صحيحه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 222

و العمرة ثم اللّه يفرج عن المستضعفين و يبدلهم من بعد خوفهم أمنا، و ليس هذا إلّا في الإفساد الاسرائيلي الثاني حيث تملأ الأرض ظلما و جورا ثم تملأ قسطا و عدلا.

و كما يظهر من‏

حديثه الاخر «فإذا كان عند خروج يأجوج و مأجوج أرسل اللّه تعالى جبرئيل فرفع من الأرض القرآن و العلم و الحجر من ركن البيت و مقام ابراهيم و تابوت موسى بما فيه .. «1»

يظهر أن الأرض يومئذ تملأ ظلما حتى فيما بين المسلمين لحد كأن القرآن رفع عنهم و العلم، و لن يرفع عن كونه بينهم و إنما عن كيانه! و قد يعني حديث النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) عن فتح الردم أن لفتحه مراحل أخيرتها المرة الأخيرة من الإفساد الإسرائيلي اليأجوجي:

«لا إله إلّا اللّه ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج و مأجوج مثل هذه و حلق- قلت يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم)! أ نهلك و فينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث‏ «2»

«يَأْجُوجَ وَ مَأْجُوجَ» مثال عن كل أمة شريرة، و لفتحهم مراحل عدة اخيرتها التي هي أوسعها تواطئ الإفساد العالمي الأخير الإسرائيلي، «إذا كثر الخبث» لحد ملئت الأرض ظلما و جورا! فلقد أخذ ذلك الفتح يتسع منذ الرسول كلما كثر الخبث حتى القرن السابع من الهجرة ففتح شبه العالمي بالمغول و التتار، ثم يتسع اكثر و اكثر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). سفينة البحار للمحدث القمي ج 1 ص 11 و يدلج، النبوي.

(2)

الدر المنثور 4: 251- اخرج البخاري عن زينب بنت جحش قالت‏ استيقظ رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) من نومه و هو محمر وجهه و هو يقول: لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ ...»

و

اخرج ابن أبي شيبة عن أبي هريرة عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قال: فتح اليوم من ردم يأجوج و مأجوج مثل هذه و عقد بيده تسعين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 223

في هذين الإفسادين العالميين و أقواهما الأخير بعلو كبير، تتساعد فيه كافة السواعد الطاغية من مشارق الأرض و مغاربها مهما كان الإسرائيليون هناك أصلاء أم أقوى الأصلين أم ماذا؟

فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَ كانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (98) وَ تَرَكْنا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْناهُمْ جَمْعاً (99) وَ عَرَضْنا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكافِرِينَ عَرْضاً (100).

ان النفخ في الصور هو الناقور مرتان، أولاهما هي نفخة الإماتة و أخراهما نفخة الإحياء «1»: «وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى‏ فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ» (39: 68) و علّ هذه نفخة الإحياء «فَجَمَعْناهُمْ جَمْعاً» او ان «جمعا» يعني جمعي الإماتة و الإحياء كما النفخ يجمع الجمعين، نفخة أولى يجمعهم الى الموت- و نفخة اخرى يجمعهم بعد جمع الموت إلى الحياة، فيوم القيامة ككل- قيامة الإماتة و الإحياء- إنه يوم الجمع‏ «يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذلِكَ يَوْمُ التَّغابُنِ» (64: 9) «وَ تُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ» (42: 7) جمعا الى موت ثم جمعا الى حياة و من ثم جمع الحساب فالثواب و العقاب:

وَ عَرَضْنا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكافِرِينَ عَرْضاً (100) في جمع الإحياء و بين جموع الأحياء تعرض جهنم للكافرين عرضا للعقاب بعد العرض على الرب للحساب: «وَ عُرِضُوا عَلى‏ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونا كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً» (18: 48) «أُولئِكَ يُعْرَضُونَ عَلى‏ رَبِّهِمْ» (11: 18) ثم لا عرض‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع ج 30- الفرقان ص 34 حول الآية «يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 224

للمؤمنين على الرب! و من ثم الكافرون يعرضون على جهنم النار: «وَ تَراهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ» (42: 45) ثمة عرض الحساب و هنا عرض العقاب و لمّا.

فلما ذا العرض و ليس الدخول؟ حيث الدخول الحسبان لزامه الحجة العيان، فليعرض الكافر على ربه ليرى هل تربى بما رباه؟ ثم عرضا على جهنم هل عمل لها و هو من أهلها؟ فلما رأى اللّاتربية هناك في نفسه، و رأى مجانسته مع النار هنا فليدخل- إذا- النار بحجة باهرة: «وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَ لَيْسَ هذا بِالْحَقِّ» (46: 34) «... أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِي حَياتِكُمُ الدُّنْيا وَ اسْتَمْتَعْتُمْ بِها» (46: 30) فبعرضهم على الرب يعرف و يعرفون أنهم ما تربوا بتربيته، و بعرضهم على النار أنهم من أهل النار إذ لم تبق لهم طيبات في الحياة! «عَرَضْنا .. عَرْضاً» به يفضحون و ينكبون، و به يدخلون النار و يخلدون، إعراضا عن الرب هنا، فعرضا على الرب و على ناره هناك! الَّذِينَ كانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَ كانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً (101).

و ترى الأعين المغطية عن ذكر اللّه فلا يستطيع ذكرا، و السمع المغطية عن استماع كلام اللّه فلا يستطيعون سمعا كيف يعرض أصحابها على الجحيم، و الاستطاعة شرط التكليف؟

انها الأعين المغطية بما غطّوها تعاميا عن ذكر اللّه، أعين الأبصار و أعين البصائر عشوا متعمدا متعاميا: «وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ» (43: 36)

«لم يعتبهم بما صنع هو بهم،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 225

و لكن عابهم بما صنعوا و لو لم يتكلفوا لم يكن عليهم شي‏ء» «1»

ثم و

«غطاء العين لا يمنع عن الذكر و الذكر لا يرى بالعين» «2»

و انما الغطاء على تبصّر العين فهي مفتوحة حيوانيا و مغطية إنسانيا.

فهي السمع المغطاة عن السمع بما غطّوها و: «إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ» (26: 212) فلما عشوا عن ذكر الرحمن و صمّوا عن سمعه، أصبحوا صمّا عميا بما صموا و عموا «ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَ ما كانُوا يُبْصِرُونَ» (11: 20) فقد كانوا ينظرون فلا يعتبرون، او تعرض لهم العبر فلا ينظرون.

ليس ذلك عشو البصر عمى و صمم الاذن، بل تعامي البصر و عشو البصيرة و صمم القلب: «أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَ لكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ» (22: 46) لذلك: «وَ نَطْبَعُ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ» (7: 10) «وَ لَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَ لَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ» (7: 179).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 310 ح 242 في تفسير العياشي عن محمد بن حكيم قال: كتبت رقعة الى أبي عبد اللّه (عليه السلام) فيها: أ تستطيع النفس المعرفة؟ قال فقال: لا- فقلت يقول اللّه: «الَّذِينَ كانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَ كانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً» قال: هو كقوله‏ «ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَ ما كانُوا يُبْصِرُونَ» قلت فعابهم؟ قال: ..

(2)

المصدر ج 243 عيون الاخبار باسناده الى أبي الصلت الهروي قال: سأل المأمون أبا الحسن علي بن موسى الرضا (عليه السلام) عن قول اللّه تعالى‏ «الَّذِينَ كانَتْ أَعْيُنُهُمْ ...» فقال: ان غطاء العين .. و لكن اللّه شبه الكافرين بولاية علي بن أبي طالب بالعميان لأنهم كانوا يستقلون قول النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فيه‏ «لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً» ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 226

فتلك هي أعين في غطاء الغفلة و التعامي‏ «لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» (50: 22) و هي آذان لا يسمعون بها، فلا يستطيعون بعد ذلك سمعا و لا إبصارا بما ختم اللّه على سمعهم و على أبصارهم كما ختموا «خَتَمَ اللَّهُ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ وَ عَلى‏ سَمْعِهِمْ وَ عَلى‏ أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ» (2: 7).

ثم و «كانَتْ أَعْيُنُهُمْ‏ .. وَ كانُوا» يضربان الى اعماق الماضي، أنهم كانت أعينهم في غطاء منذ كانت لهم أعين، و كانوا لا يستطيعون سمعا منذ كانت لهم سمع، امتناعا بالاختيار، ثم‏ «جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَ بِئْسَ الْقَرارُ».

و من ثم‏ «فِي غِطاءٍ عَنْ ذِكْرِي» تجعل أعينهم غارقة في غطاء حيث غطتها من كل جانب، فلا منفذ إذا لمعاينة الحق و ذكره و هذه أعمى العمى! «وَ كانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً» تجعل على آذانهم وقرا و صمما محيطا لحدّ لا يستطيعون سمعا لو أرادوا سمعا و هذه أصم الصمم! حيث الأصم قد يسمع إذا صيح عليه و أصغى، و ذلك لا يستطيع سمعا! و كما لمعاينة الآيات و ذكر اللّه و سمعها درجات، كذلك لغشاء الأعين و صمم السمع دركات و هذه أسفل الدركات.

و «عن ذكري» تلميحة كتصريحه أن غطاء الأعين لم تكن على الحقيقة في غطاء يسترها، و حجاز يحجزها، بل كانوا ينظرون فلا يعتبرون، أو تعرض لهم العبر فلا يعبرون، فقد كانت أعينهم تذهب سدى و صفحا عن مواقع العبر، فلا يفكرون فيها، و لا يعتبرون بها فيذكرون اللّه سبحانه و تعالى عند إجالة افكارهم، و تصريف خواطرهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 227

[سورة الكهف (18): الآيات 103 الى 110]

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالاً (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (104) أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَ لِقائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً (105) ذلِكَ جَزاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِما كَفَرُوا وَ اتَّخَذُوا آياتِي وَ رُسُلِي هُزُواً (106) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ كانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً (107)

خالِدِينَ فِيها لا يَبْغُونَ عَنْها حِوَلاً (108) قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي وَ لَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً (109) قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى‏ إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً وَ لا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (110)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 228

«أَ فَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا» بي إلحادا و نكرانا لي، ام بتوحيدي إشراكا «أَنْ يَتَّخِذُوا عِبادِي» الذين هم «من دوني» او «يَتَّخِذُوا عِبادِي» دون إذني‏ «مِنْ دُونِي أَوْلِياءَ» يتولونهم كآلهة ام شركاء لي او مخولين في ولاية شرعية أما ذا؟ «إِنَّا أَعْتَدْنا» تحضيرا «جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ نُزُلًا» نزولا إليها كما نزّلوني عن وحدتي و ربوبيتي في زعمهم.

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (104) «بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا» هم في الدرك الأسفل من ضلال السعي و خسار الأعمال، لا يوازيهم أحد من الخاسرين حيث الأفعل هنا مطلق فلا يساوى أو يسامى، كما لا يفوقهم أحد في الخسران! و أصل الضلال ذهاب القصد عن سنن طريقه، فكأن سعيه لما كان في غير طريقه المؤدي الى مرضاة ربه، فهو ضال في سعيه، خابط في غيّه و حابط في عمله.

فقد يكون الإنسان بطّالا لا يسعى في الحياة الدنيا، لا لها و لا للأخرى، او يسعى للدنيا، مهتديا الى منافعها دون الاخرى، او يسعى دونها ضالا في سعيه للدنيا و هو عارف بضلاله ام يسعى لها ضالا في سعيه و هو يحسب أنه يحسن صنعا دركات بعضها سفل بعض و الرابعة سفلاها، حيث يحرم الآخرة إذ لم يسع لها، و يحرم الدنيا لضلال سعيه لها، و يحرم الاهتداء إلى ضلاله إذ يحسب أنه يحسن صنعا «خَسِرَ الدُّنْيا وَ الْآخِرَةَ ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ»!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 229

و ترى‏ «فِي الْحَياةِ الدُّنْيا»؟ ظرف لضلاله؟ أن سعيه ضل عن الحياة العليا في الحياة الدنيا، فظل يسعى لها دون الأخرى، و قد يكون ناجحا في هذه الأدنى مهما حرم الأخرى؟ و ليس من الأخسرين أعمالا، حيث الأخسر منه من زاد ضلالا على ضلال، 1- ضل سعيه عن الآخرة- 2- ثم ضل في سعيه للدنيا، أن تكون‏ «فِي الْحَياةِ الدُّنْيا» ظرفا لسعيه، فسعيه في الحياة الدنيا ضل، ضلال في ضلال، و من ثم‏ «وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً» ضلال ثالث، فهنالك يتم ثالوث الضلالة! فطالما البطالون خاسرون و لكنهم قد يهتدون، و كما الساعون للدنيا المهتدون الى منافعها، فقد يفيقون عن غفوتهم، و يستقيمون عن زلتهم، بل و الضالون في سعيهم لها، العارفون بضلالهم، مهما كانوا بعادا عن الهدى، و لكن الذي ضل في سعيه عن الحياة العليا إلى الحياة الدنيا، ثم ضل في سعيه للدنيا، و هو يحسب انه يحسن صنعا، غارقا في ثالوث الضلالة، فانه دائب في سعيه الى خساره في الأولى و الأخرى، و لا ترجى إفاقته عن غفوته و ضلاله إذ لم يبق له منفذ إلى صالحه، فهو من الأخسرين أعمالا! إنه بسعيه الهادف إلى فوائده في الدنيا يخسرها كما خسر الأخرى، كادحا إلى خسران، منفقا حياته في تعب هدرا دونما عائدة إلّا الخسران، كمن يذبح نفسه بذات يده و هو يحسب انه ذابح خروفا يشويه لطعامه مكدا مجدا في ذبحه! قد يصبح الساعي بضلاله فيما يعمل من الأخسرين أعمالا في الآخرة و هو في الدنيا رابح حياتها: «.. أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ .. الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَبْغُونَها عِوَجاً وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ: أُولئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ ما كانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ يُضاعَفُ لَهُمُ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 230

الْعَذابُ ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَ ما كانُوا يُبْصِرُونَ، أُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ. لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ» (11: 22) «إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ. أُوْلئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذابِ وَ هُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ» (27: 5) هؤلاء و هؤلاء من الأخسرين في الآخرة، و منهم من لم يخسر دنياه، فليس من الأخسرين اعمالا في النشأتين إلّا في الأخرى، فاما الذي ضل سعيه في الحياة الدنيا و هو يحسب أنه يحسن صنعا فقد خسر الاولى كما الاخرى و قد تكون خسراه في عقباه أقوى حيث هو في أولاه أغوى.

لا أخسر مطلقا في سائر القرآن إلّا هنا و فيمن كادوا بإبراهيم‏ «وَ أَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَخْسَرِينَ» (21: 7) و لكنهم الأخسرون في الآخرة كالأوّلين، و في دنياهم في الكيد الذي كادوا به إبراهيم و هم في سائر دنياهم رابحين.

لآية الأخسرين مصاديق من ضلّال أهل الكتاب و المسلمين- الغارقين في ثالوث الضلالة في الدنيا و الدين ك

«الرهبان الذين حبسوا أنفسهم في السواري» «1»

و كفرة أهل الكتاب المبتدعين‏ «2»

«و لا أظن إلا أن الخوارج منهم» «3»

و كل من يتقشف فيما يظنه شرعة أهلية و هو خطر على الدين و الدينين.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 253- اخرج ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن أبي خميصة عبد اللّه بن قيس قال سمعت علي بن أبي طالب (عليه السلام) يقول في هذه الآية انهم ..

(2)

نور الثقلين 3: 312 ح 250 في كتاب الاحتجاج عن الأصبغ بن نباتة قال‏ ابن الكوا لأمير المؤمنين (عليه السلام) اخبرني عن قول اللّه عز و جل: «الآية» قال:

كفرة اهل الكتاب اليهود و النصارى و قد كانوا على الحق فابتدعوا في أديانهم و هم يحسبون انهم يحسنون صنعا.

(3) الدر المنثور 4: 253- اخرج عبد الرزاق و الفريابي و ابن المنذر و ابن أبي حاتم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 231

و كما لها مصاديق من المكذبين بآيات اللّه الصادقين عن سبيل اللّه، و قد يكون المتظاهر بالدين، و المتقشف الجاهل أخطر منهم و أضل سبيلا! فالأخسرون اعمالا دركات بعضها سفل بعض، مهما كان الغارقون في ثالوث الضلالات كلهم من الأخسرين، و لكنما الذين كفروا بآيات ربهم و لقائه هم الأسفلون و كما جرت عليهم الآية و تتلوها:

أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَ لِقائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً (105):

«كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ» عشوا عنها و تعاميا و مدّا في كفرهم بقرن شيطانهم فضلّ سعيهم في الحياة الدنيا و هم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، و غرهم في دينهم ما كانوا يفترون، كفر مطلق لا مخلص عنه‏ «كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَ لِقائِهِ» يوم الدنيا بما يقربهم الى اللّه زلفى و يوم الآخرة بنكرانها فلقاء الرب هو لقاء ربوبيته، في الأولى ربوبيته التكليف التكميل فزلفى المعرفة، و في الأخرى ربوبية الحساب و من ثم الثواب و العقاب فإلى جنة او نار، في دار ليس الأمر فيها إلّا للّه، يصيرون إليها و لا محيص لهم عنها، و إذ لا أحد فيها يستطيع انصرافا عن الوجهة التي أمر اللّه سبحانه بجمع الناس إليها و حشرهم نحوها سمي ذلك لقاء الرب.

فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ‏ و مساعيهم فأصبحت‏ «كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حَتَّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَ وَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسابَهُ» فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً» إذ لا أعمال لهم صالحة حتى توزن و لا وزن للطالحة فتوزن! «أولئك ..» تعريف ثالث بالأخسرين اعمالا بعد «وَ مَنْ يَعْشُ» و

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و ابن مردويه من طريق عن علي (عليه السلام) انه سئل عن هذه الآية فقال: لا أظن.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 232

و «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ» ثالوث الضلالة في مثلث التعريف باهل الدرك الأسفل من النار.

فكفرهم مطلق لا مخلص عنه و لا مناص حيث يشمل آيات ربهم كلها، آفاقيا و انفسيا، تكوينيا و تشريعيا، رساليا و رسوليا إمّا ذا، حيث عشوهم عن ذكر الرحمن مطلق، و آيات الرحمن تذكّر الرحمن لغير العاشين عنها.

ثم الكفر بآيات الرب كفر بلقائه، و الكافر بآيات ربه و لقائه لا أعمال له ثابتة إلّا زائلة خابطة حابطة، و اصل الحبط انتفاخ بطن الدابة بنوع سامّ من الكلإ فتلقى حتفها، فالجاهل يراها سمينة شبعانة، و هي في سبيل الموت! و هذا أنسب وصف لأعمال الكفار، أنها تنتفخ و يظنها أصحابها رابية رابحة و هي بائرة رائحة.

أ ترى اعماله الحابطة هي الطالحة؟ و هي ثابتة كما الصالحة! «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ. وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ»! ام الحابطة هي الصالحة؟ و ليست للأخسرين اعمالا اعمال صالحة! لكفرهم المطلق! الحبط هنا يعني زوال الوزن، فصالحة أعماله خاوية عن وزن للكفر المطلق، مهما أنفق و سعى في إصلاح الحياة، فتحبط أعمالها عن وزن، و طالحة اعماله خفيفة حابطة بلا إحباط «فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً» حيث تبقى أعماله كلها طالحة خفيفة ليس لها وزن، فكيف يقام له وزن؟

و ذلك الحبط يشمل الدنيا و الآخرة «فَأُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ» (2: 317) في ميزان اللّه، فلا وزن لهم في الدنيا كما الآخرة، إذ لا تحسب صالحاتهم صالحات، و لا فلاح لهم في طالحات، فهم أخفّاء عند اللّه و عند أهل اللّه في الأولى كما الاخرى: «وَ الْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 233

ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَ مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِما كانُوا بِآياتِنا يَظْلِمُونَ» (7: 9).

فهنالك الوزن محصور في الحق‏ «1»، فلا وزن للباطل حتى يقام له وزن، سواء أ كان الباطل حابطا من أصله كسائر الباطل، ام محبطا كان فيه شائبة الحق فأحبطه اللّه لخبطه في شاكلته، كصالحات الكفار من خدمات بشرية تصلح الحياة: «مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَ زِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها وَ هُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ. أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَ حَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها وَ باطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ» (11: 16) ليس الوزن عند اللّه إلّا ما يقرب إلى اللّه‏

«ليؤتين يوم القيامة بالعظيم الطويل الأكول الشروب فلا يزن عند الله تبارك و تعالى جناح بعوضة» «2»

و من أخفهم و أخسهم‏

«أئمة الكفر و قادة الضلالة فأولئك لا يقيم لهم يوم القيامة وزنا و لا يعبأ بهم، لأنهم لم يعبأوا بأمره و نهيه ..» «3».

قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي وَ لَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً (109).

هذه تحيل مداد كلمات الرب و لو كان ضعف البحر، و أخرى تحيل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). لم يقل «الوزن يومئذ حق» و انما «الحق» تدليلا على ان الوزن هو الحق فلا وزن للباطل حتى يوزن او يقاس بوزن الحق!

(2) الدر المنثور 4: 254- اخرج ابن عدي و البيهقي في شعب الايمان عن أبي هريرة قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) ... اقرؤا ان شئتم‏ «فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً.

(3) نور الثقلين 3: 312 ح 253 في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن امير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل يذكر فيه اهل الموقف و أحوالهم و فيه و منهم أئمة الكفر ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 234

مداد كلمات اللّه و لو كان ثمانية أضعاف البحر: «وَ لَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَ الْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» (31: 27).

فما هو البحر؟ ثم مداد مثله، او من بعده سبعة أبحر؟ و ما هي كلمات ربي؟ و كلمات اللّه؟ ثم و لها حد بعد ام لا حد لها؟

علّ «البحر» فيهما هو مجموعة بحار الأرض، فانها هي المعروفة لدينا عينيا و قرآنيا «1» دون سواها من بحار، و «ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ» لا تجاوب إلّا ما في الأرض من بحار، حيث البحر المحيط في الكون تناسبه الشجر المحيط في الكون! فلا هو مطلق البحر في الكون، و لا بحر بعينه في الأرض، حيث اختلاف بحار الأرض ينافي تعريف «البحر» الّا جنسه الشامل لكل بحر، ف «البحر» إذا عوان بين البحرين لمطلق الكون أو خاص من الأرض.

و المداد ما يمدّ به من مادة للمدّ او قلم يمدّها، فهناك البحر مداد و ما في الأرض من شجرة أقلام المداد.

ثم‏ «كَلِماتُ رَبِّي» هي الدالات لفظيا و علميا و عينيا على الربوبية العليا كما «كلمات الله» هي الدالات على الألوهية و هي أشمل من كلمات الربوبية، فالكلمة ما تدل على معنى في أيّة زاوية من الثلاثة أماهيه، و إذا كانت نعمة اللّه لا تحصى و هي محدودة في الواقع لحدوثها «وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها» فأحرى بكلمات الرب و كلمات اللّه ألّا تحصى! ثم «لو» في آيتي مداد الكلمات تحيل ان يكون البحر مدادا لكلمات‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). لا نجد في 40 موضعا فيها البحر بصيغة موضعا يدلنا على بحر في غير الأرض، اللهم إلا ما يصلح التعميم و هذا ليس دلالة على بحر في غير الأرض يستدل بها! مهما دلت أحاديث عدة أن في السماء بحار.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 235

ربي و كلمات اللّه، و «لو» الثانية في الأولى إحالة ثانية دون وقفة عليها، «يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ» في الثانية تعني استمرارية الاستحالة دون وقفة على السبعة الزائدة، الرامزة الى الكثرة الكثيرة، و القصد فيهما إلى استحالة مدّ الكلمات ككلّ باي مداد، حيث إن مداد البحار و الأشجار هي ايضا من الكلمات، أيا كان الكاتب، و باية سرعة كانت الكتابة و أيان‏ «لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي».

«كلمات ربي و كلمات الله» و هي كل دالة على اللّه، ليست هي ذات اللّه و لا من ذات اللّه، و إنما هي مخلوقات اللّه و لا بد و أنها حادثة محدودة، كما توحيه‏ «قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي» و لكنها ليست بالتي تعد أو تحصى، فضلا عن ان تكتب، إحالة في بعدين:- 1- ان لا احد يمكنه إحصاءها فضلا عن كتابتها- 2- و لو أمكنه فالكاتب نفسه، و مداد البحار و الأشجار و الورق المكتوب فيه، هي كلها من كلمات اللّه، و لو أنها كتبت فيما يكتب فنفس الكتابة بحذافيرها من كلمات اللّه فتسلسل مستحيل، او «لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي»! إن كتابات الوحي و كافة التشريعات الإلهية، التي تحملها الأصوات و الكتابات و المفهومات، هي من كلمات الرب، و حملتها الرسل و الأئمة و سائر العلماء باللّه، هم من كلمات الرب، و كافة الرحمات الإلهية رحمانية و رحيمية هي من كلمات الرب، و مجموعة الكائنات هي آيات اللّه و كلماته، فأين مداد البحار و الأشجار من مدّ كلمات اللّه! فكلمات الرب هي الدالات على ربوبيته، و كلمات اللّه هي الدالات على ألوهيته في ذاته و رحماته رحمانية و رحيمية، و من نعم او نقم إمّا ذا.

ففيما «إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها» فاستحالة الإحصاء و الكتابة التي هي أصعب، في كلمات النعم و النقم إمّا ذا هي أحرى!:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 236

و اين أنت ايها الإنسان الهزيل الجاهل العاجز الذليل، و الغوص في خضم ذلك البحر الملتطم، و اليمّ المنجسم من كلمات الرب اللّه، إلّا غرقا فيها عن سباحتك! قد يدرك الإنسان الغرور بما يسجّله من مكامن الكون، فتاخذه نشوة الظفر في ظهور علمي و في القدرة فيحسب أنه على شي‏ء! و لكنما الآيات الربانية و الإلهية تواجههم بآفاقها المترامية، فإذا هم على خطوات من الشاطئ و لما يخوضوا البحر .. و حتى لو كان البحر مدادا بيده‏ «لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي وَ لَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً» «يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ» مدادا!

«قد أخبرك ان كلام الله عز و جل ليس له آخر و لا غاية لا ينقطع ابدا» «1»

فيما نحصيه! كلمات اللّه بعد كل مداد تنتظر مدادا يمدها، و لن يمددها أي مداد، فطالما هو أيضا من كلمات اللّه إذا «لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي»! فيا لنا من غباوة و عمى، و حماقة كبرى، نعيش كلمات اللّه، غارقين في خضمّها، و مارقين عن الذي تدل عليه و ترشدنا إليه‏ «فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَ لكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ»! كلمات تذكرنا الرحمن‏ «وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ»!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 3: 313 ح 256 حدثنا محمد بن احمد عن عبد اللّه بن موسى عن الحسن بن علي بن أبي حمزة عن أبيه عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في حديث قلت: قوله عز و جل‏ «قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي وَ لَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً،» قال: قد أخبرك ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 237

قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى‏ إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صالِحاً وَ لا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (110) آية يتيمة منقطعة النظير في ساير قرآن التوحيد، تجمع من مجامع التوحيد ما لا توجد في غيرها، لحد

يقول الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) عنها: «لو لم ينزل على أمتي إلا خاتمة سورة الكهف لكفتهم» «1»

كفاية عن سائر التوحيد في القرآن و أصلي النبوة و المعاد! و كأنها تحتصر الوحي في خاتمة الرسالة على ما يتبنى كل الرسالة و تتبناه كل الرسالة: «إِنَّما أَنَا بَشَرٌ .. أَحَداً» إظهارا لها و تظاهرا بها في عقيدة القلب، و لفظة اللسان و عمل الأركان و توجيه العالمين أيا كانوا و أيان! و قد جمعت الأصول الثلاثة نبوة: «يُوحى‏ إِلَيَّ» و توحيدا في كافة الجنبات:

«أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ» و معادا: «فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ ..» و قد تقدمت النبوة السامية المحمدية لأنها أكمل تعريف بنفسها و بأصلي التوحيد و المعاد! هنا و في «فصلت» يؤمر الرسول ان يقول‏ «إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى‏ إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ» كلمة توحيدية أحكمت هنا و هناك و في اضرابهما ثم فصلت في ساير القرآن.

في فصلت يؤمر بعد مع العالمين بالاستقامة الى اللّه‏ «.. فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَ اسْتَغْفِرُوهُ وَ وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ» (6) و هنا يكمل كلمة التوحيد «فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ ..»! و احتصار كيان محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في نفسه بانه بشر، كلمة يقولها المرسلون أجمع: «قالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلى‏ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ ما كانَ لَنا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 257- اخرج الطبراني و ابن مردويه عن أبي حكم قال قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم): ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 238

(14:

12) فهو بشر في كل ما للبشر.

ثم و لا يستثنى هو و هؤلاء إلّا في وحي الرسالة: «يُوحى‏ إِلَيَّ» فيستثنى عن بشريته كل خطأ و شر، دونما استقلال بجنب الإله، و لا استغلال لشأن من الإله، و إنما «بشر رسول»: «قُلْ سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولًا» (17: 93).

إنه بشر كسائر البشر في جسمه و روحه محمد، اللّهم إلّا في روحه كرسول حيث يمتاز بها عن سائر البشر! فهو في حاجيات و متطلبات البشرية كسائر البشر يأكل و يمشي في الأسواق و يتزوج و ينام و يفيق ... و لكنه معصوم بالوحي عن أخطاء البشر و كلما ينافي الرسالة الإلهية من مثلث العصمة: تلقيا للوحي و إلقاء و تطبيقا في نفسه و سواه! إن الرسول البشر- أم أي كائن سوى اللّه- ليس ليشرك باللّه أم يشارك اللّه، او يخوّل عنه ما ليس إلّا للّه: «ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِباداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ ..»

(3: 79) كما و أن البشر ليس ليمنع عن رسالة الوحي لأنه بشر رغم ما يهرفه الخارفون: «وَ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قالُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى‏ بَشَرٍ مِنْ شَيْ‏ءٍ» (6: 91) «ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ» (32: 24) «ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَ يَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ» (23: 33) «فَقالُوا أَ بَشَرٌ يَهْدُونَنا فَكَفَرُوا وَ تَوَلَّوْا وَ اسْتَغْنَى اللَّهُ» (64: 6) «إِنْ هذا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ» (74: 25)! إن كيان محمد كرسول يحتصر فيما يوحى إليه من ربه دون استمداد بمن سواه شورا و سواه او اجتهادا من رأيه، «ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى‏. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى‏» فلا يتجّه في نفسه او يواجه العالمين ألّا بالوحي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 239

«قُلْ إِنَّما أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ» «إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى‏ إِلَيَّ»! ثم هذه الآية الوحيدة تحمل توحيدات عدة: 1- توحيد محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في البشرية كونا و كيانا «إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ» 2 توحيد نبوته المحتصرة في وحي اللّه‏ «يُوحى‏ إِلَيَّ» 3- توحيد اللّه في كافة شؤون الالوهية: «أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ»- 4- توحيد اللقاء فلا يرجوا الموحد إلا لقاءه: «فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ»- 5- توحيد العمل في الصالح لذلك اللقاء: «فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صالِحاً»:- 6- و توحيد العبادة للّه: «وَ لا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً»! 1- ف «قل إنما أنا في البشرية مثلكم» «يوحى الي». و

لكن خصني بالنبوة دونكم» «1»

لا أزيد و لا انقص عن نوع البشر كما يقتضيه «انما» بحصرها كيانه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في البشرية المماثلة.

2- يُوحى‏ إِلَيَ‏ و انا في النبوة كسائر من يوحى اليه مهما كانت بيننا درجات، ليس نازلتها خارجة الوحي، و لا عاليتها أعلى من الوحي، و ليس الوحي إلّا اتصالا علميا معرفيا و عمليا خارق العادة المستمرة باللّه.

3- و مادة الوحي‏ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ: هي ترك الإشراك في كافة دركاته و هي هي الحجب كلها، التي تحول دون لقاء الرب، فاللقاء المعرفي الزلفى للرب، و لقاء رحمات الرب، لزامه خرق الحجب الإشراك في كافة دركات الإشراك! لترقى درجات اللقاء، فاختراق كل دركة ارتقاء الى درجة، كما اختلاق كل دركة تنزل عن درجة فهنالك كفر و بعد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين في الاحتجاج للطبرسي عن أبي محمد الحسن العسكري قال‏ قلت لابي علي بن محمد عليهما السلام- الى ان قال: قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ» يعني آكل الطعام‏ «مِثْلُكُمْ يُوحى‏ إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ» يعني: قل لهم: انا في البشرية مثلكم و لكن ربي خصني بالنبوة دونكم ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 240

مطلق للمشرك و الملحد المطلق، و هنا لقاء مطلق للموحد المطلق، و بينهما درجات بعضها فوق بعض و دركات بعضها تحت بعض.

أ ترى ان وحيه محتصر في‏ «أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ» و من وراءه أصول أخرى و فروع؟ علّه لأنه الأصل الذي تتبناه كافة الرسالات الإلهية، و سائر الأصول و كل الفروع تتبنى ذلك الأصل! و لأن أصل الرسالة هنا أصل موضوع «يوحى الي» ثم‏ «أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ» و من ثم ثالث الأصول المعاد «فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ» ثم الأعمال التي تنتجها الأصول‏ «فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صالِحاً وَ لا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً»! (4) فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ‏ و طالما الرب واحد و لكنما لقاء الرب درجات حسب مختلف المقامات و القابليات و الفاعليات، ف «ربه» تلمح الى مقام الملاقي الخاص به في لقائه، و «كانَ يَرْجُوا» تضرب الى عمق الماضي المستمر، ثم‏ «فَلْيَعْمَلْ‏ .. وَ لا يُشْرِكْ» هما دعامتان للحصول على ما يرجوا من لقاء ربه، و الوصول إليه.

في سائر القرآن اللقاء المرجو للصالحين لقائان: لقاء اللّه و لقاء الرب، سواء أ كان في الدنيا و الآخرة ام فيهما، كما أن هناك لقاء في الآخرة لغير الصالحين لا يرجونه و هو الحشر إلى يوم اللّه و عالم اللّه، و رجاء اللقاء يخص الصالحين بما قدموا من صالحات: «مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» (29: 5) و لا مقابل و مضاد لرجاء اللقاء إلا الكفر به و المرية فيه و عدم رجاءه.

و آيتا رجاء اللقاء تعنيان فيما تعنيان لقاء الزلفى المعرفي في الحياتين مهما كان في الأخرى أهدى سبيلا، كذلك و لقاء ثوابه، دون اختصاص بالأولى و إن كانت الأخرى أنبل و اجلى، و قد تشملهما «الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 241

رَبِّهِمْ وَ أَنَّهُمْ إِلَيْهِ راجِعُونَ» فلا تخص الرجاء الحياة الحساب فانها متيقنة فوق الرجاء و لا تكفيها الرجاء و انما «يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ» في مثلث اللقاء بما فيه اللقاء القرب الزلفى و لقاء الثواب، إذ لا يحتّمان على الرب قضية الحالة الايمانية العوان بين الخوف و الرجاء.

فإذا قال «فمن كان يوقن لقاء ربه» اختص بأصل المعاد، و حين يقول «فمن كان يرجو لقاء الله» يعمه و الآخرين المرجوين للمؤمنين! فيما تتوفر كافة الربوبيات الرحيمية لرب العالمين هنالك يتحقق اللقاء التام و المطلق دونما حجاب، اللّهم إلّا حجات ذات الالوهية فانها لزام الذات، كما حصل للرسول محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في مقام «أو أدنى» حيث «تدّلى» فلم يبق بينه و بين اللّه احد و لا من حجب النور حتى نور ذاته (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فأصبح عينا كلّه، متغافلا عما سوى اللّه.

ثم و فيما دونه من لقاء، تستمر الموازاة بين العمل الصالح للّقاء و بين اللقاء.

(5) فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صالِحاً لما يرجوه من لقاء ربه معرفة و ثوابا أمّاذا؟.

عملا صالحا في مادته، في علانيته و سريرته، زوايا ثلاث في صلاح العمل تتبنى إصلاحه، فانه «لا قول إلا بعمل و لا قول و لا عمل إلا بالنية، و لا قول و لا عمل و لا نية إلا باصابة السنة» فإصابة السنة هي مادة العمل و علانيته، و النية هي سريرته.

فلا تنفع النية الصالحة «لِقاءَ رَبِّهِ» ما لم يعمل، و لا ينفع العمل الصالح‏ «لِقاءَ رَبِّهِ» ما لم ينو، و لا ينفع العمل بالنية الصالحة «لِقاءَ رَبِّهِ» ما لم يصب السنة.

و من صلاح العمل هو خلوصه للّه دون اي اشراك فيه لمن سوى اللّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 242

(6) وَ لا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً فالمشرك باللّه لا يعبد اللّه، و طالما المؤمن يعبد اللّه دون اشراك في الالوهية، و لكنه قد يشرك في العبودية رئاء او سمعة إمّا ذا: «وَ ما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ».

عبادة الرب لها جنبات قوامها النيات، ثم ظواهرها و مظاهرها، فلا إشراك في نفس العمل في نفسه او مقدماته و لا في نيته باعثا و لا غاية في أية زاوية من مثلث الزمان و لا إشراك فيها لأحد حتى نفسه أن يعبد ربه حظوة روحية او ثوابا أو فرارا عن عقاب أم حالة خارقة للعادة تحصل لبعض العابدين، فالعبادة الصالحة للقاء ربه مطلقا متحللا عن أية واسطة، هي المتحللة عن أي إشراك كما يقول أهلها «ما عبدتك خوفا من نارك و لا طمعا في جنتك بل وجدتك أهلا للعبادة فعبدتك»! فالعمل العبادي بادئ من أسفل الدركات الى أعلى الدرجات و بينهما متوسطات، من عبادة باطلة، ثم صحيحة غير مقبولة غير قابلة للقاء ربك، ثم مقبولة قابلة و لكنها درجات الى مقام التدلي. «او أدنى» و هو أعلى الدرجات.

و من أسفل الدركات العبادة الباطلة علانية و سرا، حيث تفقد شروط الصحة في ظاهرها، و النية الخالصة الصادقة في باطنها، ثم الفاقدة لإحداهما ..

و الفاقدة لصالح النية هي التي يؤتى بها رئاء حين يؤتى، أم بعد حين حيث يحب أن يظهر بعد خفاء و يحمد عليه فتشملها الرئاء،

«الإبقاء على العمل أشد من العمل إن الرجل ليعمل فيكتب له عمل صالح معمول به في السر يضعف أجره سبعين ضعفا فلا يزال به الشيطان حتى يذكره للناس و يعلنه فيكتب علانية و يمحى تضعيف أجره كله ثم لا يزال به الشيطان حتى يذكره للناس. الثانية و يحب أن يذكر و يحمد عليه فيمحي من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 243

العلانية و يكتب رئاء، فأتقى لله امرء صان دينه فان الرياء شرك» «1»

بل و

«إن يسيرا من الرياء شرك» «2»

سواء أ كان قبل العمل ان تخبر غيرك أنك سوف تعبد ربك، او معه ان ترائي غيرك في العمل، ام بعده، ان تخبر بما عملت سرا و جهرا بنية صافية، فالعمل الصالح الخالي عن الرياء هو المتحلل عنه في مثلث الزمان.

فقد تعبد ربك علانية دون رئاء إذ لا ترائي الناس، فانما تعبد بينهم تقربا الى ربك إذ أمرك كالحج و صلاة الجماعة، او تقريبا لغيرك و تشويقا كالإنفاق جهرا، و هي عبادة صالحة خالية عن إشراك.

و قد تعبده سرا إذ لا تجد أحدا ترائيه و أنت تحب ان ترى‏ «3» ثم تخبر أنك عبدت ربك سرا، او تعبده سرا مخلصا و لا تحب الرئاء، ثم الشيطان يحملك على المرائاة فتخبر أم أخبرت غيرك أنك سوف تعبد ربك سرا، و لكنك أخلصت حين العبادة ثم لم تخبر أحدا بعدها، فأنت فيها كلها مراء

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 257- اخرج البيهقي عن أبي الدرداء ان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قال: ...

(2)

المصدر- اخرج الحاكم و صححه و البيهقي في شعب الايمان عن معاذ بن جبل سمعت رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يقول: ان يسير من الرياء شرك و ان من عادى اولياء اللّه فقد بارز اللّه بالمحاربة و ان اللّه يحب الأبرار الأخفياء الأتقياء الذين ان غابوا لم يفتقدوا و ان حضروا لم يدعوا و لم يعرفوا قلوبهم مصابيح الدجا يخرجون من كل غبراء مظلمة.

و

اخرج احمد و البيهقي عن أبي امامة عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قال: ان احسن اوليائي عندي منزلة رجل ذو حظ من صلاة احسن عبادة ربه في السر و كان غامضا في الناس لا يشار اليه بالأصابع عجلت منيته و قل تراثه و قلت بواكيه.

(3)

نور الثقلين 3: 315 ح 264 في اصول الكافي عن أبي جعفر (عليه السلام) في الآية- قال: الرجل يعمل شيئا من الثواب لا يطلب به وجه اللّه انما يطلب تزكية الناس يشتهي ان تسمع به الناس فهذا الذي أشرك بعبادة ربه ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 244

رغم اختلاف دركات الرئاء.

فان كانت عبادة واجبة بطلت، و ان كانت مستحبة سقطت، و علّ الاخيرة صحيحة لأنك فيها تائب عما نويت.

«لا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً» لا تنحصر بحال العمل، بل تشمل كل الأحوال، فمن مات عن عمل و لم يشرك به غير اللّه، فهو صالح خالص للّه، و من مات عن عمل أشرك به غير اللّه لم يكن صالحا، سواء أتى به حينه مراءاة الناس، أم اخبر به قبل او بعد و قد أتى به سرا، أم و لم يخبر و لكنه كان يحب أن يراه الناس‏ «1»، كل ذلك رئاء الناس مهما اختلف الرئاء فيها.

ثم ما وقع رئاء لا ينقلب عما وقع، و ما وقع صالحا دون رياء ينقلب الى رياء إذا استقبله الرئاء، و لا ينقلب رئاء إن كانت بنية صالحة مهما تقدمه الرئاء.

فمهما أشرك العابد في عبادة ربه أحدا سوى ربه، فعمله- إذا- غير صالح، حتى إذا كان هذا الأحد نفسه أنه يرتاح و يبتهج نفسيا من هذا العمل، اللّهم إلّا إذا كانت رياحة في مرضات اللّه دون شهوة النفس، فضلا عما إذا ارتاح برئاء الناس، أظهر لهم عملا أم أسرّ عنهم‏

«إذا جمع الله الأولين و الآخرين ببقيع واحد ينفذهم البصر و يسمعهم الداعي قال أنا خير شريك كل عمل عمل لي في دار الدنيا كان لي فيه شريك فأنا أدعه اليوم و لا أقبل اليوم إلا خالصا ..» «2»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 4: 255- اخرج هنا دفي الزهد عن مجاهد قال‏ جاء رجل الى النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فقال يا رسول اللّه: أتصدق بالصدقة و التمس بها ما عند اللّه و أحب ان يقال لي خيرا فنزلت: «فَمَنْ كانَ يَرْجُوا ..»

(2)

المصدر اخرج الطبراني عن شداد بن أوس قال قال النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): ... ثم قرأ «إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ‏ فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 245

و الإشراك في العبادة قد يكون في نفس العبادة كان يتوضأ بمساعد «1» او يصلي متكأ ام بمساعد و هو قادر على الصلاة دون متكأ او مساعد.

ثم الإشراك في نية العبادة قد يكون في باعثها او غايتها ام هما معا، فمن لا يبعثه أمر الله و رضوانه إلا بأمر آخر فقد أشرك فيها، و من يبتعث بأمره تعالى و لكن أخف مما يكون هناك امر آخر فقد أشرك فيها، فالإخلاص في باعث العبادة و غايتها شرط لصحتها، و قد لا ينافيه ان يسره ظهورها «2» دون ان يكون باعثا او غاية لها.

و إشراك أحد في عبادة ربه يشمل رئاء الناس فيها، و إرضاء نفسه ضمن ما يرضي ربه، و الاشتراك فيها و قد أمر أن يأتي بها وحده، و كل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

صالِحاً وَ لا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً».

(1).

المصدر ح 267 في الكافي علي بن محمد بن عبد اللّه عن ابراهيم بن إسحاق الأحمر عن الحسن بن علي الوشا قال: دخلت على الرضا (عليه السلام) و بين يديه إبريق يريد ان يتهيئا للصلاة فدنوت منه لأصب عليه فأبى ذلك و قال: مه يا حسن! فقلت له: لم تنهاني ان أصب عليك تكره ان أوجر؟ قال: توجر أنت و أوزر انا؟ قلت له: و كيف ذلك؟ قال: اما سمعت اللّه عز و جل يقول: «فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صالِحاً وَ لا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً» و ها أنا ذا أتوضأ للصلاة و هي العبادة فاكره ان يشركني فيها احد

و

روى‏ انه (عليه السلام) دخل يوما على المأمون فرآه يتوضأ للصلاة و الغلام يصب على يده الماء فقال: لا تشرك بعبادة ربك أحدا، فصرف المأمون الغلام و تولى إتمام الوضوء بنفسه.

(2)

نور الثقلين 3: 215 القمي عن زرارة عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: سألته عن الرجل يعمل الشي‏ء من الخير فيراه انسان فيسره ذلك؟ قال: لا بأس! ما من أحد الا و كتب ان يظهر له في الناس الخير إذا لم يصنع ذلك لذلك-

أقول يعني لم يكن ظهوره من بواعثه او غاياته.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 246

ذلك يشمله النفي‏ «وَ لا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً»، و لكن في شمول «أحدا» لنفسه خفاء فلا تبطل.

و أما أن يأتي بها دون إشراك أحد، يبتغي بها الفرار عن العقاب او طلب الثواب، فلا تشملها الآية مهما كانت عبادة العبيد او التجار، دون الأحرار، فهذه درجات ثلاث للعبادة الصحيحة المقبولة حيث لا شريك فيها و لا في نيتها مع اللّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 249

سورة مريم‏

[سورة مريم (19): الآيات 1 الى 15]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

كهيعص (1) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (2) إِذْ نادى‏ رَبَّهُ نِداءً خَفِيًّا (3) قالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَ اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَ لَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (4)

وَ إِنِّي خِفْتُ الْمَوالِيَ مِنْ وَرائِي وَ كانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (5) يَرِثُنِي وَ يَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَ اجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (6) يا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيى‏ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (7) قالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَ كانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً وَ قَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (8) قالَ كَذلِكَ قالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَ قَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ تَكُ شَيْئاً (9)

قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيالٍ سَوِيًّا (10) فَخَرَجَ عَلى‏ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرابِ فَأَوْحى‏ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَ عَشِيًّا (11) يا يَحْيى‏ خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ وَ آتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (12) وَ حَناناً مِنْ لَدُنَّا وَ زَكاةً وَ كانَ تَقِيًّا (13) وَ بَرًّا بِوالِدَيْهِ وَ لَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيًّا (14)

وَ سَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَ يَوْمَ يَمُوتُ وَ يَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (15)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 250

سورة تسمت بمريم، و لا تجد في سائر القرآن امرأة اخرى و حتى أفضل منها كفاطمة (عليها السلام) تسمت باسمها سورة أو يؤتى باسمها في آية، و مريم آتية في أربع و ثلاثين آية و خامسة هي «سورة مريم»! أ ترى ذلك لفضلها على نساء العالمين؟ و فاطمة أفضل منها حسب النصوص الإسلامية «1» و ذكر الاسم في القرآن لا يدل على فضيلة، فزيد يذكر في القرآن و لا يذكر الاكثرية الساحقة من النبيين، و لا احد من خلفاء الرسول المعصومين و لا من صحبه الكرام الميامين! و رغم ان القرآن ليس من دأبه ذكر النساء بأسمائهم حفاظا عليهن حتى في أسماءهن، نراه يدأب في ذكر مريم مرات عدّة ليس إلا ذودا عنها ما مسته‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع سورة الكوثر من الفرقان ج 30.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 251

اليهود و النصارى من كرامتها و نسبتها الى غير اللائق بحرمتها، فكان من الواجب الرسالي في الوحي الأخير ذكرها في مذكرات شأنها بعصمتها و طهارتها، كما و في سائر القرآن مذكرات لعصم المرسلين حيث تعرضت في محرفات من كتابات الوحي لما لا يليق بساحة الرسالة و لا الايمان بل و لا أي إنسان! و آي الذكر الحكيم عاصمة عصم الوحي، كما هي عاصمة الرسالة و الوحي.

كهيعص (1).

إنها الفريدة في الحروف المقطعة القرآنية في العدد التركيبي، ففي الشورى‏ «حم عسق» خمسة في تركيبين اثنين، و هنا خمسة في تركيب واحد، ثم لا خمسة في سائر القرآن، و المتبع من قراءتها هي المتواترة في كتب القرآن «كاف- ها- يا- عين- صاد» دون سائر القراآت‏ «1».

و لا بد هنا من رباط بينها و مغزى السورة، كما في سائر الحروف المقطعة مهما كانت هنالك إشارات أخرى لا تحويها السورة، فإنها مفاتيح كنوز القرآن و برقيات رمزية إلى نبي القرآن! روايات من الفريقين تدلنا أنها حروف من أسماء اللّه على اختلافها في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). من كسر الهاء و فتح الياء و هي قراءة أبي عمرو و ابن مبادر او (مناذر) و القطعي عن أيوب و من عكسها و هي قراءة حمزة و الأعمش و طلحة و الضحاك عن عاصم، و من امالتهما كسرا فيهما و هي قراءة الكسائي و المفضل و يحيى عن عاصم و الوليد بن اسلم عن ابن عامر و الزهري و ابن جرير، و من ضم الهاء و فتح الياء و هي قراءة الحسن و يروى عنه عكسها ايضا و روى صاحب الكشاف عنه ضمها، و اشمامهما شيئا من الضمة (تفسير الفخر الرازي ج 21: 78)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 252

«ما هي تلك الأسماء» «1»

و هذه الأسماء المرموز بها لا تختص بهذه السورة، فقد تأتي بألفاظها أو معانيها في السور كلها! و يروى عن القائم المهدي (عجل اللّه فرجه الشريف) أنها إشارات الى رزية العاشور «2» و ليس بذلك البعيد، لمكان المشابهة التامة بين الحسين (عليه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 4: 358- اخرج ابن مردويه عن الكلبي‏ انه سئل عن‏ «كهيعص» فحدث عن أبي صالح عن ام هاني عن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قال:

كاف هاد عالم صادق»

أقول: لم تذكر هنا اشارة الياء و قد ذكرت فيما

رواه القمي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: هذه اسماء اللّه مقطعة و اما قوله‏ «كهيعص» قال:

اللّه هو الكافي الهادي العالم الصادق ذو الايادي العظام» ف «ذو الايادي من اليد فهو رمز الياء

و

في معاني الاخبار باسناده الى محمد بن عمارة قال: حضرت عند جعفر بن محمد (عليهما السلام) فدخل عليه رجل فسأله عن‏ «كهيعص» فقال (عليه السلام): «كاف» كاف بشيعتنا «ها» هاد لهم «يا» ولي لهم «عين» عالم باهل طاعتنا «صاد» صادق لهم وعده حتى يبلغ بهم المنزلة التي وعدهم إياها في باطن القرآن»

أقول: و هذا يختلف في اشارة الياء «ولي» عن سابقه «ذو الايادي» و ظاهر الاشارة فيها الى اسماء اللّه تعالى هو الحرف الاول، فذو الايادي مفضل على «ولي» الا ان تؤول الولاية الى ذي اليد. و

في المجمع روي عن امير المؤمنين (عليه السلام) انه قال في دعائه: اسألك يا كهيعص.

(2)

نور الثقلين 3: 319 في كتاب كمال الدين و تمام النعمة باسناده الى سعد بن عبد اللّه القمي عن الحجة القائم حديث طويل و فيه‏ «قلت: فاخبرني يا بن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم)، عن تأويل‏ «كهيعص»؟ قال (عليه السلام): هذه الحروف من أنباء الغيب، اطلع اللّه عبده زكريا عليها ثم قصها على محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و ذلك ان زكريا (عليه السلام) سأل ربه ان يعلمه اسماء الخمسة فاهبط اللّه عليه جبرئيل (عليه السلام) فعلمه إياها فكان زكريا إذا ذكر محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و عليا (عليه السلام) و فاطمة (عليها السلام) و الحسن (عليه السلام) سرى عنه همه و انجلى كربه و إذا ذكر الحسين (عليه السلام) خنقته العبرة و وقعت عليه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 253

السلام) و يحيى، و «كهيعص» هي‏ «ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا» و قد تعنيهما هذه الخمس فيما تعنيه من إشارات، ما وصلتنا منها إلا هذه و تلك.

و ماذا يمنع أن تكون هذه أسماء للّه او حروفا من أسماء للّه، و بضمنها إشارات اخرى منها رزية الحسين (عليه السلام) و هو اسم من أسماء اللّه و قد حقق كفاية الكافي و هدايته و عمله و صدقه و يده و ولايته في جهاده و جهوده، و هو صنو عظيم من يحيى بن زكريا في‏ «لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا» و في استشهاده اما ذا من امره المرير.

ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (2) إِذْ نادى‏ رَبَّهُ نِداءً خَفِيًّا (3).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

البهرة فقال ذات يوم: إلهي ما بالي إذا ذكرت أربعا منهم (عليهم السلام) تسليت بأسمائهم من همومي و إذا ذكرت الحسين (عليه السلام) تدمع عيني و تثور زفرتي؟

فأنبأه تبارك و تعالى عن قصته فقال: «كهيعص» فالكاف اسم كربلاء و الهاء هلاك العترة. و الياء يزيد لعنه اللّه و هو ظالم الحسين (عليه السلام) و العين عطشه و الصاد صبره، فلما سمع بذلك زكريا (عليه السلام) لم يفارق مسجده ثلاثة ايام و منع فيها الناس من الدخول عليه و اقبل على البكاء و النحيب و كانت ندبته: الهي أ تفجع خير خلقك بولده؟ أ تنزل بلوى هذه الرزية بفناءه؟ أ تلبس عليا و فاطمة ثياب هذه المصيبة الهي أ تحل كربة هذه الفجيعة بساحتهما؟ ثم كان يقول: الهي ارزقني ولدا تقر به عيني عند الكبر، و اجعله وارثا و وصيا و اجعل محله مني محل الحسين (عليه السلام) فإذا رزقتنيه فافتني بحبه و افجعني به كما تفجع محمدا حبيبك (ص) بولده، فرزقه اللّه يحيى (ع) و فجعه به و كان حمل يحيى ستة أشهر و حمل الحسين (عليه السلام) كذلك.

و في مناقب ابن شهر آشوب عن إسحاق الاحمري عن الحجة القائم (عليه السلام) مثله سواء.

أقول: لا غرو ان ذلك الترتيب اسم واحد او اسماء من اللّه تعالى تحمل في حروفها إشارات الى ضحية اللّه و ثأره.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 254

كأن «ذكر» خبر ك «كهيعص» ام «هذا» اما ذا؟ و الأول أولى لذكر ما يصلح كونه المبتدء، و يناسبه بعض التأويل، فرحمة الكفاية و الهداية و اليد الولاية و العلم و صدق الوعد، رحمات خمس إلهية لعبده زكريا، و كلها رحمات ربانية لعباد اللّه المخلصين، اما ذا من رحمات تذكر في هذه السورة لمريم (عليها السلام) و اضرابها من المكرمين .. و قد يعني «عبده» الرسول محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) ف «زكريا» إذا عطف بيان ل «رحمة» ف «كهيعص» و «إِذْ نادى‏ رَبَّهُ»، هي ذكر رحمة ربك زكريا لعبده محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) او المعنيان معنيان، ف «عبده» يشملهما على البدل و هو أجمل.

و من رحمته استجابة دعوة عبده‏ «إِذْ نادى‏ رَبَّهُ نِداءً خَفِيًّا»- «وَ زَكَرِيَّا إِذْ نادى‏ رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَ أَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ. فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَ وَهَبْنا لَهُ يَحْيى‏ وَ أَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَ يَدْعُونَنا رَغَباً وَ رَهَباً وَ كانُوا لَنا خاشِعِينَ» (21: 90).

و النداء هي الدعوة جهرا للمدعو مهما كانت خفية عن الآخرين و كما «نادى‏ رَبُّكَ مُوسى‏ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» (26: 10) و «إِذْ ناداهُ رَبُّهُ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً» (79: 16) فلا تنافي «نداء» كونها «خفيا» كما الوحي الى موسى جلي لموسى و خفي عمن سواه، و لا سيما بالواد المقدس إذ لم يكن معه أحد حتى أخيه هارون المشارك له في وحي النبوة أحيانا.

و من آداب الدعاء كونها خفية: «ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَ خُفْيَةً» (7:) 55) ابتعادا عن الرئاء، و «إِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَ أَخْفى‏» (20:) 7) فلما ذا الجهر إذا و ان لم تكن رئاء؟!.

و ليس من لزام النداء العبد حتى توجّه نداء زكريا بتخيّل البعد عن ربه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 255

تخضعا، رغم ان الدعاء حالة القرب حتى للبعيدين عن ساحة القرب فضلا عن المقربين! انه يناجي ربه بعيدا عن أسماع و عيون الناس، إخلاصا لربه و كشفا عما يثقل كاهله و تجنبا عن مقالة هازئة: زكريا يطلب ولدا و قد اشتعل رأسه شيبا و كانت امرأته عاقرا، يدعوه في سر مستسر و ان كان ربه يسمع دون دعاء و يرى دون رئاء و لكنما المكروب يستريح الى الدعاء و قد أمره ربه بالدعاء:

وَ قالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ» حيث الدعاء التماس و التجاء و هو مخ العبادة:

قالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَ اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَ لَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (4).

عرض متين من نبيّ أمين لشروط لاستجابة الدعاء و مقتضيات و عدم الموانع فيما لديه: «رب» دون «يا» لتكون اقرب لفظيا كما هو قريب معنويا فان «يا» لنداء البعيد! «اني و هو العظم مني» و إذا و هن العظم و هو المتن المكين فسائر البدن أو هن و سرعة الفناء إليه أهون‏ «وَ اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً» شعلة النور و البيضاء حتى لا تبقي سوادا، فانه بتعبير ما ألطفه عن تكاثر الشيب في الرأس كأنه مشتعل يقهر بياضه و ينصل سواده، سرعة في تضاعف الشيب و تزايده و تلاحق مدده حتى يصير في الإسراع و الانتشار كاشتعال النار، يعجز مطفيه و يغلب متلافيه.

و ترى الشيب من شروط استجابة الدعاء و قد يشيب الإنسان على الشقاء؟ «وَ لَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا» لم تسبق لي منذ التكليف لحد المشيب شقوة في دعائك: دعاءك إياي فيما امرتني و نهيت حيث أطعت دونما شقاء و عناء، و دونما تعنت و كبرياء، و هذا من اصول إجابة الدعاء «وَ أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَ إِيَّايَ فَارْهَبُونِ» (2: 40) فعهدي هو عهد العبودية

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 256

الخالصة: «أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ. وَ أَنِ اعْبُدُونِي هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ» (36: 61) و من عهدكم استجابة الدعاء «ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ» «وَ لَمْ أَكُنْ» فيما مضى «بدعائك» إياي و هو العهد الأول‏ «رَبِّ شَقِيًّا» و على ضوءه، و لم أكن بدعائي إياك و هو العهد الثاني‏ «رَبِّ شَقِيًّا» فان دعاء الأشقياء لا تستجاب، و إذ لم أكن شقيا بدعائك إياي لم أكن شقيا بدعائي إياك‏ «1».

هذه سابقتي المشرقة في بعدين قبل المشيب، أ فبعد المشيب و انا أحرى بالاستجابة و أرحم أنت لا تستجيب؟.

و رغم «إني و هن العظم مني» فلا يهن العزم منك، و مع أنه‏ «اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً» فرحمتك مشتعلة للشيب اكثر مما قبل المشيب، فحالي الضعيفة و ماضيّ من حالي إذ «لَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا» تقتضي رعاية حالي و استقبالي، و كما لم أكن في حال بدعائك رب شقيا فلا تكن بدعائي ربّ إلا حفيا، فقد عودتني الاستجابة في فتوتي و قوتي فما أحوجني في هرمي و كبرتي! ثم و ليست هذه الاستجابة لصالحي شخصيا، بل و الحفاظ على مستقبل الرسالة وراثة الدعوة:

وَ إِنِّي خِفْتُ الْمَوالِيَ مِنْ وَرائِي وَ كانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً (5).

ليس لي ولد يرثني رضيّا، و إني خفت من يليني من ورائي ان يصبحوا أخلافا متخلفين، فلا يقوموا على تراث النبوة مالا و حالا، تضييعا للمال في غير موضعه، و تحويلا للحال الى غير حال.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ف «دعائك» يعني المعنيين على الترتيب في الأدب اللفظي باضافة المصدر الى الفاعل كما في «عهدي» ثم اضافته الى المفعول كما في عهدكم، و كما هو الترتيب المعنوي ان استجابة الدعاء من مخلفات استجابة العبد دعاء ربه و ما الطفه جمعا لهما لفظيا و معنويا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 257

و رغم ان حالي و ماضيّ و استقبالي تقتضي إجابة دعائي لصالحي و صالح استمرارية الدعوة و الحفاظ على بيت النبوة، و لكني «و هن العظم مني» كمانع أوّل للإيلاد «وَ كانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً» كمانع ثان للولادة، و لكنك لا يمنعك أيّ مانع و لا يقف دون مشيتك اي رادع، «و كانت» تلمح لكونها عاقرا منذ ماض بعيد و هي الآن شيخة فأصبحت ذات عقرين! فهذه- إذا- ثلاث! فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (5) يَرِثُنِي وَ يَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَ اجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (6).

«هُنالِكَ دَعا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعاءِ» (3: 38) «رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَ أَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ» (21: 89).

يدعو ربه بكل ضراعة آيسا من نفسه، و هنا لعظمه و عقرا لزوجه، راجيا ربه أنه سميع الدعاء و هو خير الوارثين، فهب لي وليا يرثني خيرا و أنت خير الوارثين، و قد تشير «من لدنك» إلى أن مطلوبه يحمل رحمة لدنية رحمانية حيث الأسباب العادية قاصرة لمكان العقر و الشيخوخة و رحمة لدنية رحيمية هي النبوة و هما من خوارق العادة في الرحمتين‏ «فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ..»!

و هنا «وَ اجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا» تصرف‏ «يَرِثُنِي وَ يَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ» عن وراثة النبوة، او تعمها لكل وراثة من مال و نبوة «1» فلو كانت «يرثني» مختصة بوراثة النبوة و هي تتطلب في أصلها و فرعها كون الوارث رضيا، لكانت‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 259 و اخرج الفرياني عن ابن عباس قال كان زكريا لا يولد له فسأل ربه فقال: رب هب لي من لدنك وليا يرثني و يرث من آل يعقوب قال: يرثني مالي و يرث من آل يعقوب النبوة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 258

«وَ اجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا» طلبا لتحصيل الحاصل، أو أن اللّه يورث النبوة لغير المرضي فيدعوه زكريا «وَ اجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا»!.

فلقد كانت دعائه ذات بعدين‏ «فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي ..»

«وَ اجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا» و كما في آل عمران: «رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ..» (38) كتصريحه ثانية، ثم و تلميحة في الأنبياء «رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَ أَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ» (89).

فلا يطلب و يستوهب وليا غير رضي، و لا رضيا غير ولي، و انما يطلب وليا رضيا يرثه و هو الولد من صلبه فميراث النبوة- على مجازها- لا يختص بذرية وارثة، كما و هذا الإرث لا يقتضي كون الوارث رضيا. فقد يدعو زكريا ربه أن يهبه ولدا هو مجمع الوارثين، و لو اختصت بوارثة النبوة أصبحت مجازا لا محسن له و لا دليل، و سقطت «و اجعله رضيا» عن الفائدة. فليعن ب «وَلِيًّا يَرِثُنِي» ميراث المال و الأعم بقرينة «وَ يَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ» و ب «وَ اجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا» النبوة المجعولة في وارث المال، و على أية حال فارث المال أصل قاطع في «يرثني» و لكي ينضبط «وَ اجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا»!.

فهنا الحديث المختلق على الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) هضما لفدك البتولة الزهراء (عليها السلام)، مصلحية الحفاظ على الخلافة البتراء

«نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدقة»

يردّ الى قائله لمخالفته نصا من كتاب اللّه‏ «يَرِثُنِي وَ يَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ..» و حيث لا تختص بإرث النبوة، بل لا تورث النبوة حتى تشملها «1»، و إنما هي المستفادة من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فالوراثة في وجه عام تختص بالمال حيث ينتقل بحكم الله الى الورثة، فاما العلم و التقى، و الرسالة و اضرابها من الخصائل المعنوية فلا تورث كما المال، اللهم إلا مجازا، ان الله يجعل النبوة في ولد النبي فيعبر عنه بالورثة لمشابهتها وراثة المال رغم الفوارق‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 259

«وَ اجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا» جعلا الهيا ثانيا باصطفاء بعد جعل الولادة.

و لان عموم الحكم في هذا المختلق معلل بالنبوة «معاشر الأنبياء» فلا تخصيص فيه إلّا تعاميا عن العلة فتغاضيا عن أصل الحكم، فلا يقبل تخصيصا بالكتاب ان وراثة المال في آل يعقوب تستثنى من عموم الحكم رغم عموم النص و نص العموم في‏ «يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ» (4: 11) أ فعلى عمد يترك كتاب اللّه في عمومه و خصوصه؟ او ان الصديقة الزهراء لم تكن من أولاد الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) ام لم تكن مسلمة ترث أباها اماهية؟!.

تقول فيما

يروى عنها (سلام اللّه عليها): «أ فعلى عمد تركتم كتاب اللّه و نبذتموه وراء ظهوركم إذ يقول اللّه تبارك و تعالى: وَ وَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ و قال عز و جل فيما اقتص من خبر يحيى بن زكريا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَ يَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَ اجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا و قال عز ذكره: «وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى‏ بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ» و قال:

«يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ» و قال: «إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ» و زعمتم ان لا حظوة لي و لا ارث من أبي و لا رحم بيننا! أ فخصكم اللّه بآية أخرج نبيه منها؟! ام تقولون أهل ملتين لا يتوارثان؟! أو لست و أبي من أهل ملة واحدة؟! أم أنتم أعلم بخصوص القرآن و عمومه من النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم)؟ أَ فَحُكْمَ الْجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ»؟ أ أغلب على إرثي ظلما و جورا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

بينهما، و لا مجال في هذه الآية لهذا المجاز، اللهم الا ان يعنى من «يرثني ..» كلا الميراثين و القدر الثابت وراثة المال، حيث النبوة مذكورة في‏ «وَ اجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 260

وَ سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ..» «1».

هنا «يرثني» يعم الإرثين او يخص ارث المال. فما ذا يعني‏ «وَ يَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ»؟

قد يعني يعقوب بن ماثان أخا عمران ابن ماثان أبي مريم، و كانت امرأة زكريا اخت مريم، فلأنها من آل يعقوب فأرثه عنها إرث من آل يعقوب، و لكنه بعيد في عرف القرآن حيث لا يذكر فيه يعقوب إلا ابن إسحاق، إذا فآل يعقوب هم بنو إسرائيل فالميراث إذا يعم النبوة و المال.

يا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيى‏ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (7).

«فَنادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَ هُوَ قائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيى‏ مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَ سَيِّداً وَ حَصُوراً وَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ» (3: 39) «فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَ وَهَبْنا لَهُ يَحْيى‏ وَ أَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَ يَدْعُونَنا رَغَباً وَ رَهَباً وَ كانُوا لَنا خاشِعِينَ» (21:: 90).

لقد تحققت الاستجابة لتوفر شروطها، مسارعة في سابق الخيرات و سابغها و الدعاء رغبا و رهبا و الخشوع للّه و قد جمعها في إجمال‏ «وَ لَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا».

و قد تعني‏ «وَ أَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ» إصلاحها عن عقرها لتلد، و إصلاحها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ج 6 بحار الأنوار، يقول صاحب البحار هذه الخطبة من المشهورات بين الفريقين مع بعض الاختلاف في بعض الألفاظ و ينقلها هنا عن كتاب «بلاغات النساء» لابي الفضل احمد بن أبي طاهر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 261

لإيلاد صالح ليصلح رضيا، مهما كانت صالحة «إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ ..»!.

كما «وَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ» لا تلمح لنبوة غير صالحة لمكان الوصف‏ «1» ف «نبيا» يعني رفيعا «مِنَ الصَّالِحِينَ» تعني رفيعا من الصالحين، لا رضيا كسائر الصالحين، فهي استجابة فوق المستدعى! حيث النبي يصطفى بين الصالحين و هم المرسلون‏ «تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى‏ بَعْضٍ» و قد فضل يحيى في هذه الدعاء على جماعة من الصالحين بمن فيهم رسل غير أنبياء.

و «لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا» تنفي غلاما قبله اسمه يحيى، و قد تنفي معه من كانت من قبل سمته كيحيى، ف «سميّا» تشمل الاسم و السمة، و هكذا كان يحيى ثم من بعده نجد له أسمياء في الاسم، لا في السمة إلا الحسين بن علي (عليهما السلام).

«لَمْ نَجْعَلْ ..» دليل أن اللّه هو الذي سماه يحيى و قد سمى من قبل بعض عباده بأسمائهم، «و سميّا» لا يخص الاسم إذ ليس بخصوصه كثير الاهمية، و إنما هو مع السمة و الميزة الخاصة و كما اللّه‏ «فَاعْبُدْهُ وَ اصْطَبِرْ لِعِبادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا» (19: 65) حيث الاسم بمجرده ليس ليخص العبادة و الاصطبار لها بالمسمى لأن التسمي باي الأسماء هين، فالسمي هو المثل في الاسم و السمة و هي اولى و طالما المسيح كان سميه في سمات عدة فهو بعده و تنقصه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فلا يقاس ب «وَ اجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا» حيث يقابله غير الرضى، فهو قبل ذلك الجعل ليس من الصالحين فضلا عن كونه من النبيين، و لكن الصالحين منهم نبي و منهم غير نبي و زكريا طلب فقط صلاحه في‏ «وَ اجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا» فزاده اللّه تعالى نبوة «وَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ»!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 262

سمة الشهادة الخاصة و هي للإمام الحسين (عليه السلام) خاصة، و كما لم يجعل له (عليه السلام) من قبل سمي في الاسم و لا الشهادة، اللهم إلا يحيى في سمة الشهادة! فهو أسمى الاسمياء ليحيى بعده‏ «1» و بعده المسيح (عليهما السلام).

و ترى ان اللّه بشره دون وسيط كما تلوح‏ «يا زَكَرِيَّا .. لَمْ نَجْعَلْ لَهُ ..»؟ ام بوسيط الملائكة «فَنادَتْهُ الْمَلائِكَةُ»؟ و كيف الجمع بينهما! .. ان قول ملائكة الوحي المرسلين الى الرسل هو قول اللّه، فلا فرق إذا بين‏ «قالَ رَبُّكَ ..» و «فَنادَتْهُ الْمَلائِكَةُ» أو أنه نداءان، بواسطة الملائكة أولا، ثم دون وسيط ام بوسيط ملك الوحي الخاص جبريل ثانيا! قالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَ كانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً وَ قَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (8).

و ترى كيف يختار زكريا فيما يدعو و يختار، فلو كان بعيدا عن رحمة اللّه أو مستحيلا في قدرة اللّه لما كان يختاره بكل ضراعة و إصرار؟ و قد عرض في معرض دعائه مانعا منه فيه و في زوجه، عقرا و كبرا عتيا، رجاء من اللّه أن يزيله فيهب له غلاما رضيا زكيا!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 224 عن مجمع البيان عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في الآية و كذلك الحسين (عليه السلام) لم يكن له من قبل سمي و لم تبك السماء إلّا عليهما أربعين صباحا، قيل له: و ما كان بكاءها؟ قال: كانت تطلع حمراء و تغيب حمراء و كان قاتل يحيى ولد زنا و قاتل الحسين ولد زنا

و

في ارشاد المفيد روى سفيان بن عينية عن علي بن يزيد عن علي بن الحسين (عليه السلام) قال: خرجنا مع الحسين بن علي (عليهما السلام) فما منزل نزلا و لا رحل منه الا ذكر يحيى بن زكريا و قتله و قال: و من هو ان الدنيا على اللّه أن رأس يحيى بن زكريا اهدي الى بغي من بغايا بني إسرائيل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 263

إنه لا يتساءل‏ «كَيْفَ يَكُونُ» استبعادا لأصل الولادة او كيفيتها، و إنما «أَنَّى يَكُونُ» سؤالا عن زمانها، أ قريب أم بعيد، رغم أن‏ «امْرَأَتِي عاقِراً وَ قَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا» فليكن قريبا لكي تكون لي و لأمه حظوة، و لا فرق عندك بين تعجيله و تأجيله حيث الكبر و العقر قائم و لا سيما في تأجيله.

و ان كان الجواب يلوح باستبعاد لزكريا في الاستجابة «قالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ..» فانما هو من قصور فيه و في زوجه، و لا أنه كان يستبعد القدرة الإلهية، أو أنه كان يستبعد الإجابة لأنها خارقة، فأخذته الحيرة لما بشر بيحيى فانفلت من لسانه «أنى»! إذ لم يتمالكه في عجاب البشرى و استفسار خصوصياتها، استغرابا من الأسباب، لا من هبة مسبب الأسباب، كما و لا يذكر إلّا عقرا لامرأته و عتيا لنفسه دون شي‏ء من ربه إلا ما سبق في دعائه‏ «إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعاءِ» «وَ لَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا»!.

هنا يذكر من قصوراته في موانعه: لامرأته عقرا و شيخوخة، فلو لم تكن عاقرا لم تلد الآن للشيخوخة و هي عاقر شيخة! و لنفسه اشتعال الرأس شيخوخة و انخماد الشهوة عتوة: يبسا و جفافا لنبعة النطفة، ضعف على ضعف و عقر على عقر فاستعجاب من بشارة الولادة جانبيا، يستوضح ب «أنّى» زمنها و كيفيتها، لا أصلها المستجاب فيما تطلّبه بكل رغبة و:

قالَ كَذلِكَ قالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَ قَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ تَكُ شَيْئاً (9).

«قال» اللّه «كذلك» الذي بشرت هو واقع دون منعة مانع و لا دفعة دافع‏ «كَذلِكَ قالَ رَبُّكَ»: «هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ» كيف لا «وَ قَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ تَكُ شَيْئاً» أفعيّا بعد عن خلق غلام من أبوين؟.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 264

و ترى‏ «خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ» تعني خلق زكريا من أبويه الصالحين للإيلاد؟

فهو أهون من خلق يحيى من أبوين عاقرين و لا اولوية في هذا القياس! ام يعني خلق الإنسان الاول دون أبوين، المنتهي خلق زكريا إليه؟ و الصحيح الفصيح هو الإفصاح عنه ب «و قد خلقت آدم و لم يك شيئا»!.

و قد يلمح‏ «وَ لَمْ تَكُ شَيْئاً» الى خلق المادة الأولية- و هو منها- لا من شي‏ء، و هو اولوية قاطعة بالنسبة لكل خارقة، حيث الخلق من شي‏ء أهون من الخلق لا من شي‏ء و ينتهي خلق كل شي‏ء الى «لا من شي‏ء».

أو أنه ليس قياسا و إنما تسوية في الخلق الهيّن بين خلقه من صالحين و بين خلق يحيى منهما بموانعه‏ «هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ» كما «قَدْ خَلَقْتُكَ ..» و كان هينا، دونما صعوبة عليّ في خارقة العادة، و هذا هو الواقع في حساب اللّه ان ليس في خلقه على مختلف المراتب سهولة و أسهل و صعوبة و أصعب، و انما ذلك في حسابنا و كما يحدثنا بهذا الحساب: «وَ هُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ» (30: 27) فالصعب يعيي و لكن اللّه لا يعيى:

«أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ لَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلى‏ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى‏» (46: 33)! و قد يعنيهما «وَ لَمْ تَكُ شَيْئاً» جمعا بين برهاني قياس المساوات و الاولوية! قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيالٍ سَوِيًّا (10).

«... أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزاً وَ اذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَ سَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِبْكارِ» (3: 41).

ترى و كيف يطلب آية و هو مطمئن ببشارة اللّه و قد طمأنه ثانيا وعد اللّه؟ .. انه لم يطلب آية لتدله على صدق الوعد! و ما هي الصلة بين آية خارقة و بين صدق الوعد؟ و نفس الوحي آية هي أقوى من كل آية! و سائر الآيات‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 265

ليست إلا لتدل المرسل إليهم الى آية الوحي المدعى للرسول!.

إنه يطلب آية لتدله على زمن تحقق البشارة حيث تتوق اليه نفسه و لا يعلمه بأصل البشارة. و النص‏ «اجْعَلْ لِي آيَةً قالَ آيَتُكَ» آية مرتبطة به لإعلامه الوقت، لا مرتبطة باللّه لكي يصدّق في البشارة، ام ليتأكد أن البشارة هي من اللّه و ليس من سواه! فان‏ «رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ» برهان لا مرد له على تأكده انها بشارة ربانية، فرواية هذه القيلة مطروحة «1» و الأنبياء معصومون في مثلث زاويته الأولى تلقي الوحي، إذ لا يشتبه عليهم غير الوحي بالوحي! و في إنجيل «لوقا 1: 21) و ها أنت تكون صامتا و لا تقدر أن تتكلم الى اليوم الذي يكون فيه هذا لأنك لم تصدق كلامي الذي سيتم في وقته (19) و كان الشعب منتظرين زكريا و معجبين من إبطائه في الهيكل (20) فلما خرج لم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في تفسير العياشي عن أبي بصير عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: ان زكريا لما دعا ربه ان يهب له ذكرا فنادته الملائكة بما نادته أحب ان يعلم ان ذلك الصوت من الله اوحي اليه ان آية ذلك ان يمسك لسانه عن الكلام ثلاثة ايام قال: لما امسك لسانه و لم يتكلم علم انه لا يقدر على ذلك الا الله.

و في الدر المنثور 4: 261 اخرج إسحاق بن بشير و ابن عساكر عن ابن عباس في الآية- الى قوله: فقال: رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَ كانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً» خاف انها لا تلد قال: كذلك قال ربك يا زكريا هو علي هين و قد خلقتك من قبل ان أهب لك يحيى و لم تك شيئا و كذلك اقدر ان اخلق من الكبير و العاقر و ذلك ان إبليس أتاه فقال:

يا زكريا دعاؤك كان خفيا فأجبت بصوت رفيع و بشرت بصوت عال ذلك الصوت من الشيطان ليس من جبريل و لا من ربك قال: رب اجعل لي آية حتى اعرف ان هذه البشرى منك. قال: آتيك .. أقول ماذا يدل على ان الإجابة كانت بصوت جلي، و هل هنالك آية معجزة أقوى من الوحي نفسه؟! فالحديثان مطروحان دون ريب لمخالفة القرآن.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 266

يستطع أن يكلمهم ففهموا أنه قد رأى رؤيا في الهيكل فكان يؤمي إليهم و بقي صامتا» (21).

و قد اقحم في هذه الآيات ما يمس من كرامة الرسالة فتعرض عرض الحائط و يصدق ما يصدقه القرآن و سائر البرهان.

و «ألا تكلم الناس- ثلاث ليال او ثلاثة ايام سويا إلا رمزا» آية تامة الهية تدله على ما يروم، فقد يكون ترك الكلام لعقدة في اللسان ام لأي مرض كان، و هو يقول «سويا»: حال أنك سليم و لو كان لمرض يمنع لم يقتسم بين ناس و سواهم و هو يقول‏ «أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ» فقد يكلم اللّه و يكلم ملائكة اللّه كما كان، لكنه يعجز في وقته المحدّد أن يكلّم الناس «إلا رمزا» و يومر أن يذكر ربه‏ «وَ اذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَ سَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِبْكارِ»!.

و ترى كيف الجمع بين ثلاث ليال، تجمع مع نهارين، و ثلاثة أنهار، و ثلاثة ايام أ ليست إلا ثلاثة انهار بلياليهن ام ليلتين؟ و لم يكن الحد الزمني لآيته إلا إحداهما!.

ثلاثة ايام نص في ثلاثة انهار ظاهر في ثلاث ليال. و ثلاث ليال نص- في لياليها الثلاث و ظاهر في ثلاثة انهار، و نتيجة الجمع بين النصين و الظاهرين هي ثلاثة ايام بمجموع أنهارها و لياليها، و استعمال ثلاث ليال في المجموع سنة مستمرة، و قد يعني الإتيان بالليالي إبرازا لأهميتها في هذا المجال ل «وَ اذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَ سَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِبْكارِ».

ثم «إلا رمزا» سماح له أو أمر لتوجيه الناس الى تسبيح اللّه:

فَخَرَجَ عَلى‏ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرابِ فَأَوْحى‏ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَ عَشِيًّا (11) ذلك- و ليعيشوا في جو النور الذي أمر أن يعيشه، تحضيرا للبشارة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 267

و شكرا على العدّة، و «بُكْرَةً وَ عَشِيًّا» تعني في مجموعة ثلاثة ايام صباح مساء، و قد يعني ذكرهما أنهما كانا أصلين لأوقات العبادة في شرعة التورات، أم هما أفضل الأوقات، لأنهما البداية و النهاية في اليقظة او الشغل، فليبكروا بتسبيح اللّه و ليعشوا به.

ثم‏ «فَأَوْحى‏ إِلَيْهِمْ» هو الرمز المسموح له في تكلم الناس أيا كان فهو «وحي الإشارة» كما يروى عن امير المؤمنين (عليه السلام) «1».

«يا يَحْيى‏ خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ وَ آتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا» (12).

هنا يطوى عن «متى ولد يحيى؟ و كيف ولد؟ و ماذا حصل بهذه الولادة؟» طيا لصفحة زكريا في صمته بتسبيحه، و سدلا لستار عليه و على الولادة، فتحا لصفحة جديدة و مختصرة غير محتصرة عن يحيى (عليه السلام) حيث ليس كتاب القصة إلا ما يقص منها للنبهة و التذكرة، إبرازا لاهم الحلقات وطيا لسائرها حيث لا تعني ما يعنيه القرآن من قصته.

يؤمر يحيى أن يأخذ الكتاب بقوة، حاكما به و داعيا إليه «صبيا» و هو قبل بلوغ الحلم، و

يروى عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) انه «أعطي الفهم و العبادة و هو ابن سبع سنين» «2»

و

«قال الغلمان ليحيى بن زكريا اذهب بنا نلعب فقال يحيى: ما للعب خلقنا اذهبوا نصلي فهو قول اللّه:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في تفسير النعماني باسناده عن الصادق (عليه السلام) قال قال امير المؤمنين (عليه السلام) حين سألوه عن معنى الوحي فقال: منه وحي النبوة و منه وحي الإلهام و منه وحي الاشارة فقوله‏ «فَخَرَجَ عَلى‏ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرابِ فَأَوْحى‏ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَ عَشِيًّا» اي أشار إليهم كقوله تعالى: أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزاً».

(2) الدر المنثور 4: 360- اخرج ابو نعيم و ابن مردوية و الديلمي عن ابن عباس عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في الآية قال: اعطي ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 268

«وَ آتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا» «1».

أ ترى ان ذلك الحكم- فقط- هو الفهم و العبادة من دون وحي و نبوة؟

و له نظائر من الصبيان علما و عملا! و هكذا حكم ليس لزامه أخذ الكتاب بقوة، حيث البالغ المؤمن العادل يأخذ كتاب الشرعة بقوة و دون قوة و يحيى كان نبيا دونما ريبة! أم إنه النبوة و قد عطفت بالكتاب في آيات عدة «2» تجمع بين الكتاب و الحكم و النبوة، مما يدل على أن الحكم ليس لزامه النبوة، 1 فقد يؤتى الكتاب دون حكم و لا وحي و لا نبوة، كالمرسل إليهم بكتاب الشرعة، 2 او يؤتى كتابا بوحي الرسالة بحكم الولاية الشرعية كسائر المرسلين 3 ام و حكم الملك كداود و سليمان (عليهما السلام) 4 او يضاف الى وحي الرسالة بحكميها أو أحدهما النبوة و هي الرفعة في الرسالة، 5 أو يؤتى حكم الولاية الشرعية دون وحي كسائر ولات الشرع، 6 او ولاية الملك فقط على غرار الشرعة دون وحي و لا ولاية شرعية كما لطالوت الملك! فالحكم- أيا كان- كائن في الخمسة الاخيرة فليس لزامه خصوص وحي الرسالة فضلا عن النبوة!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر (361) اخرج الحاكم في تاريخه من طريق سهل بن سعيد عن الضحاك عن ابن عباس قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): ...

(2) «ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ .. (3: 79) «أُولئِكَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ» (6: 89) «وَ لَقَدْ آتَيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ» (45: 16) «فَقَدْ آتَيْنا آلَ إِبْراهِيمَ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ آتَيْناهُمْ مُلْكاً عَظِيماً» (4: 54).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 269

فهل يعني حكم يحيى الذي أوتيه صبيا حكم الملك؟ و لم يكن ملكا و إنما ذبحه كما الحسين (عليه السلام) ملك ظالم! أم حكم ولاية الرسالة او النبوة؟ و لا دليل عليه حين كان صبيا مهما بلغ بعد صباه الى رسالة ام نبوة! ام حكم الولاية الشرعية و لما يبلغ أشده؟ او حكم العقل و الفهم بصورة خارقة للعادة و هو مادة الولاية الشرعية؟ و هو القدر المتيقن من حكمه، كخارقة إلهية لمن لم يبلغ أشده، مهما أبلغه اللّه شدا واحدا و هو العقل الرزين و الإدراك المتين‏ «1» فلا نبي فيمن نعرف أوتي حكما قبل ان يبلغ أشده و كما موسى: «وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ اسْتَوى‏ آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً» (28: 14) و في يوسف‏ «وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً» (12: 22). و لم يك عيسى نبيا في المهد مهما تكلم بوحي النبوة، ذودا عن أمه المعصومة، و تبشيرا برسالته‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 3: 325 ح 34 في كتاب الاحتجاج للطبرسي و

روي عن موسى بن جعفر (عليه السلام) عن أبيه عن آبائه عن الحسين بن علي (عليهم السلام) قال: ان يهوديا من يهود الشام و أحبارهم قال لأمير المؤمنين (عليه السلام) فهذا يحيى بن زكريا يقال: انه اوتي الحكم صبيا و الحلم و الفهم و انه كان يبكي من غير ذنب و كان يواصل الصوم؟ قال علي (عليه السلام): لقد كان كذلك و محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) اعطي أفضل من هذا ان يحيى بن زكريا كان في عصر لا أوثان فيه و لا جاهلية و محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) اوتي الحكم و الفهم صبيا بين عبدة الأوثان و حزب الشيطان فلم يرغب لهم في صنم قط و لم ينشط لأعيادهم و لم ير منه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) كذب قط و كان أمينا صدوقا حليما و كان يواصل صوم الأسبوع و الأقل و الأكثر فيقال له في ذلك فيقول: اني لست كأحدكم اني أظل عند ربي يطعمني و يسقين و كان يبكي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) حتى يبتل مصلاه خشية من اللّه عز و جل من غير جرم.

أقول: قياسه صبا محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) بصبا يحيى دليل على ان الحكم فيهما ليس النبوة و انما الحالة المتحضرة للنبوة الآتية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 270

كهلا «وَ يُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلًا وَ مِنَ الصَّالِحِينَ» (3: 46) فلم يكلم الناس كرسول بين مهده و كهله! هذا، و من أئمتنا المعصومين من بلغ الامامة و الولاية الكبرى الاسلامية قبل أشده إلا شدا في عقله كالإمام محمد بن الحسن المهدي عجل اللّه تعالى فرجه حيث تقلد إمامة الأمة في الخامسة من عمره الشريف، ثم جواد الائمة (عليهم السلام) في الثامنة او التاسعة من عمره‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر ح 32- الحسين بن محمد عن معلى بن محمد عن علي بن أسباط قال: رأيت أبا جعفر (عليه السلام) و قد خرج عليّ فأجدت النظر اليه و جعلت انظر الى رأسه و رجليه لأصف قامته لأصحابنا بمصر فبينا انا كذلك حتى قعد فقال يا علي: ان اللّه احتج في الامامة بمثل ما احتج به في النبوة فقال: و آتيناه الحكم صبيا و لما بلغ اشده و بلغ أربعين سنة» فقد يجوز ان يؤتى الحكمة و هو صبي و يجوز ان يؤتى الحكمة و هو ابن أربعين سنة»

أقول: الآية الثانية غير مرتبطة بالنبوة فان بدايتها «وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ إِحْساناً .. حَتَّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ ..» الى قوله: إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ» فانها ليست فيها اشارة الى النبوة اللهم الا الايمان الإسلام و هو أعم، ثم الآية الاولى ليس فيها الا الحكم و هو كما قسمناه لا يخص حكم النبوة، إذا فهذه الرواية مؤولة او مطروحة مردودة الى من نسبها الى الامام (عليه السلام).

و

فيه (35) عن المناقب محمد بن إسحاق بالإسناد جاء ابو سفيان الى علي (عليه السلام) فقال: يا أبا الحسن جئتك في حاجة قال: و فيم جئتني؟ قال: تمشي معي الى ابن عمك محمد فنسأله ان يعقد لنا عقدا و يكتب لنا كتابا فقال: يا أبا سفيان لقد عقد لك رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) عقدا لا يرجع عنه ابدا و كانت فاطمة (عليها السلام) من وراء الستر و الحسن يدرج بين يديها و هو طفل من أبناء اربعة عشر شهرا فقال لها: يا بنت محمد قولي لهذا الطفل يكلم لي جده فيسود بكلامه العرب و العجم فأقبل الحسن الى أبي سفيان و ضرب احدى يديه على انفه و الاخرى على لحيته ثم أنطقه اللّه عز و جل بأن قال: يا أبا سفيان قل: لا اله الا اللّه محمد رسول اللّه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 271

ثم و ما تعني‏ «خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ»؟ إنه أخذ التوراة بقوة العلم و العمل و الحكم بهما بين الناس بالولاية الشرعية لمّا يبلغ أشده‏ «1».

وَ حَناناً مِنْ لَدُنَّا وَ زَكاةً وَ كانَ تَقِيًّا (3) وَ بَرًّا بِوالِدَيْهِ وَ لَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيًّا (14) وَ سَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَ يَوْمَ يَمُوتُ وَ يَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (15).

«و» آتيناه حنانا من لدنا و برا بوالديه ..» إيتاءات و عطيات إلهية «و كان» قبلها و بعدها «تقيا» فلم تكن تلك الموهبات اللدنية دون شي‏ء. فانما «زكاة» من لدنه‏ «وَ كانَ تَقِيًّا» في زكاته، حيث الغايات اللدنية تنزل حسب القابليات و الفاعليات فقابلية «زكاة» كانت من لدنه، و فاعلية «وَ كانَ تَقِيًّا» منه (عليه السلام) نسخة طبق الأصل!.

هنالك حنان و زكاة و بر، و بينها تقى منذ ولد حتى الممات إذا فكله‏ «سَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَ يَوْمَ يَمُوتُ وَ يَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا»!.

و الحنان هو الإشفاق المتضمن للصوت الدال على الشفقة. و «من لدنا» تجعله خارقا للعادة المألوفة و في مربع من الحنّة 1 حنان من اللّه و عطف بما يحمله و حيه الحنون و رحمته الحنون‏

«كان إذا قال يا رب قال اللّه عز و جل:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(صلّى اللّه عليه و آله و سلم) حتى أكون شفيعا فقال: الحمد للّه الذي جعل من ذرية محمد المصطفى نظير يحيى بن زكريا «آتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا»

أقول: و لم يكن الحسن (عليه السلام) حينذاك اماما و انما اوتي حكما: عقلا و فهما.

(1).

نور الثقلين 3: 225 ح 21 في اصول الكافي باسناده عن أبي جعفر (عليه السلام) في حديث طويل يقول فيه: مات زكريا فورثه ابنه يحيى الكتاب و الحكمة و هو صبي صغير اما تسمع لقوله عز و جل: يا يَحْيى‏ خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ وَ آتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا» فلما بلغ عيسى (عليه السلام) سبع سنين تكلم بالنبوة و الرسالة حين اوحى اللّه اليه فكان عيسى الحجة على يحيى و على الناس أجمعين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 272

لبيك يا يحيى‏ «1»

، 2- و حنان له من لدنه جعله يحن اليه ليل نهار بحنين و أنينه و عبادته، 3- و حنان منه الى عباد اللّه، يد آب في دعوتهم إلى ربهم 4- و حنان من الناس إليه و كما في موسى‏ «وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي»! فهو إذا محبط الحنان و مصدره بين اللّه و خلقه، و رأس الزاوية من حنانه انجذابه الخاص الى ربه لحدّ لا يؤلف في سواه اللهم إلا الاخصين من الصالحين محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و عترته الطاهرين (عليهم السلام).

هنالك حنان يمازجه ضيق ببكاء دائب إشفاقا من ربه و اشتياقا إليه، صوت المشتاق المفتاق الى ربه مثلما كان لأستوانة الحنّانة حنين بفراق الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و لذلك سميت حنانة! «و زكاة»: آتيناه زكاة- طهارة عما يدنس ساحة الإنسانية و الإيمان الإسلام «و» الحال انه‏ «كانَ تَقِيًّا» «الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً» (47:) 17) فلما كان تقيا يتقي الموبقات، آتيناه زكاة عما يتقى من جهل و سوء خلق و فسوق و عصيان فأصبح زكيا دون عيب في نماء و ربوة روحية متعالية، متزكيا في نفسه مزكيا لغيره، زاكيا زكيا ذكيا في كل الحقول محلقا على كل العقول.

«و» آتيناه‏ «بَرًّا بِوالِدَيْهِ» و ترى إن بر الوالدين من ميزّات الرحمات اللدّنية الربانية؟ و لم يذكر في عدادها لسائر المرسلين! و لا من دونهم من أولياء اللّه المكرمين! فإنه من صفات المؤمنين قبل هذه الدرجات العليا! فكيف يذكر في سائر القرآن بين سائر المرسلين- فقط- ليحيى و عيسى عليهما السلام؟!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في الكافي باسناده عن أبي حمزة عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: قلت: فما عنى بقوله في يحيى: «وَ حَناناً مِنْ لَدُنَّا وَ زَكاةً»؟ قال: تحنن اللّه- قلت: فما بلغ من تحنن اللّه عليه؟ قال: كان إذا قال: يا رب ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 273

وَ بَرًّا بِوالِدَتِي وَ لَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا (14).

إن السيد المسيح كما يأتي قد افتري عليه بخلاف البرّ لوالدته و أنه كان جبارا عليها عصيا، فدافع عنه القرآن هنا، و لان يحيى الرسول كان مبشرا بالمسيح، و كانت مهمته الرسالية ذلك التبشير: «أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيى‏ مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَ سَيِّداً وَ حَصُوراً وَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ» (3: 39).

لذلك يذود عنه ايضا تلك الوصمة كإعداد لأصله المبشّر به، فإذا كان يحيى المبشر بالمسيح برا بوالديه فأحرى بالمسيح كونه برا بوالدته! «وَ لَمْ يَكُنْ جَبَّاراً»: مستعليا مستكبرا يحمل غيره على ما أراد و لا يتحمل عن غيره ما يراد «عصيا»: كثير العصيان.

هذه جوامع أحوال يحيى في نفسه و ما آتاه ربه، و أمام الخالق و المخلوق، زوايا ثلاث من حياته منذ ميلاده حتى موته: حاكما حكيما حنونا زكيا تقيا و برا بوالديه و لم يكن جبارا عصيا، فهو جملة و تفصيلا سلام في سلام الى سلام.

وَ سَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَ يَوْمَ يَمُوتُ وَ يَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (15) صحيح أن‏ «سَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ» (37: 181) جملة و سلام عليهم تفصيلا، إلّا أنّ يحيى و أحرى منه عيسى قيل فيهما أقاويل تمس من كرامة الرسالة ولادة و موتا و بعثا لذلك نجد مثلث السلام لهما في سائر القرآن بين سائر المرسلين، هذا ليحيى و من ثم المسيح (عليه السلام): «وَ السَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَ يَوْمَ أَمُوتُ وَ يَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا» (33).

«ان أوحش ما يكون في هذا الخلق في ثلاثة مواطن، يوم يولد و يخرج من بطن امه فيرى الدنيا، و يوم يموت فيعاين الآخرة و أهلها، و يوم يبعث فيرى أحكاما لم يرها في دار الدنيا و قد سلم اللّه عز و جل على يحيى في هذه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 274

الثلاثة مواطن و آمن روعته فقال‏ «وَ سَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَ يَوْمَ يَمُوتُ وَ يَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا» و قد سلّم عيسى بن مريم على نفسه فيها» «1»

فسلام الولادة و الموت سلام طول حياة التكليف، و سلام البعث حيا هو سلام الخلود في عطاء غير مجذوذ و يعني مثلث السلام للمسيح (عليه السلام) اكثر مما يعنيه في يحيى ذودا عن ساحته فيها لا مزيدا لسلامه فيها «2».

و «سلام» في إرساله يعم كلّ سلام من كل مسلّم: من اللّه في رحمتيه، و من الملائكة طلب الرحمة كما في سائر المرسلين و الصالحين، و منه نفسه كلّما يقدمه لكل سلام منذ الحكم حتى الموت، و من سائر الناس ان يعتقدوا فيه كل سلام. إذا فهو في مربع السلام تكوينا و تشريعا لا يجوز لأحد ان يقول فيه غير «سلام»! و هل يوجد بين الأتقياء أتقى من يحيى؟ علّه نعم فانه لم يكن من أولي العزم مهما بلغ من تقاه، ثم القرآن يصرح بان الرسول محمدا (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) اوّل العابدين! او علّه لا إلا محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) مهما سبق سائر اولي العزم في سائر عزمهم على يحيى، و لكنه اتقى منهم‏ «3» ام هم على سواء إلا خاتمهم (صلّى اللّه عليه و آله‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 3: 327 ح 38 عيون الاخبار باسناده الى ياسر الخادم قال: سمعت أبا الحسن الرضا (عليه السلام) يقول: ان أوحش.

(2) يأتي تفصيله في سلامات المسيح بعد قليل.

(3) و يتبع محمدا (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) اهل بيته المعصومون (عليه السلام) و قد تظافرت الرواية عن الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في فضل يحيى‏

ففي الدر المنثور 4: 262- اخرج ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه و ابن خزيمة و الدار قطني في الافراد و ابو نصر السنجري في الابانة و الطبراني عن ابن عباس قال‏ كنا حلقة في مسجد النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) نتذاكر فضائل الأنبياء، فذكرنا نوحا و طول عبادته و ذكرنا ابراهيم و موسى و عيسى و رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فخرج‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 275

و سلم)، فسلام عليه من عيسى‏ «وَ سَلامٌ عَلَيْهِ» من اللّه ليحيى قد يلمح لكونه اتقى من عيسى مهما كان المسيح أفضل منه في ولاية العزم اللهم إلا في تقاها «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

علينا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فقال: ما تذاكرون بينكم فذكرنا له فقال: اما انه لا ينبغي ان يكون احد خيرا من يحيى بن زكريا اما سمعتم اللّه كيف وصفه في القرآن‏ «يا يَحْيى‏ خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ- الى قوله- وَ كانَ تَقِيًّا- لم يعمل سيئة قط و لم يهم بها

أقول: لعله نعم الا محمدا (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) لقوله تعالى‏ «قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ» و لآية التطهير و أمثالهما من ادلة تفضيل محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و آله على العالمين أجمعين و

فيه اخرج ابن عساكر عن ابن شهاب‏ ان النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) خرج على أصحابه يوما و هم يتذاكرون- و ذكر مثله في معناه- فقال النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) اين الشهيد ابن الشهيد يلبس الوبر و يأكل الشجر مخالفة الذنب يحيى بن زكريا

و

فيه اخرج احمد و الحكيم الترمذي في نوادر الأصول و الحاكم و ابن مردويه عن ابن عباس ان النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قال: ما من احد من ولد آدم الا و قد اخطأ أو هم بخطيئة إلا يحيى بن زكريا لم يهم بخطيئة و لم يعملها

أقول يستثنى من عمل الخطيئة كافة المرسلين و ساير المعصومين، و من الهم بالخطيئة الرعيل الأعلى منهم و في إنجيل متى»: «عن السيد المسيح «الحق أقول لكم لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان ..» و هو اسم ثان ليحيى حسب الإنجيل.

(1). الدر المنثور 4: 262- اخرج عبد الرزاق و احمد في الزهد و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبي حاتم عن الحسن قال: ان عيسى و يحيى التقيا فقال عيسى ليحيى استغفر لي أنت خير مني فقال له عيسى بل أنت خير مني سلم اللّه عليك و سلمت انا على نفسي و

فيه اخرج احمد و ابو يعلى و ابن حيان و الطبراني و الحاكم و الضياء عن أبي سعيد قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) الحسن و الحسين سيدا شباب اهل الجنة الا ابني الخالة عيسى بن مريم و يحيى بن زكريا

أقول قد يعني بذلك من مات شابا فلا يشمل الامام المهدي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و اما الامام الجواد فقد يعني من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 276

و ترى لماذا «يَوْمَ يَمُوتُ» و هو ميت حال نزول آية السلام؟ لأنه ينقل «سلام» عن حال حياته، لا أنه «سلام» بعد استشهاده حال نزول آية السلام! و لماذا «حيا» بعد «يَوْمَ يُبْعَثُ» و البعث ليس إلا بعث الحياة؟ قد يعني أنه لا يموت عن حياة البرزخ الى حياة الآخرة، و إنما يزداد حياتها الى حياته، لأنه و المسيح ممن استثنى من الصعقة «وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى‏ فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ» (39: 68) فهما ممن شاء اللّه ألا تأخذهم الصعقة بموت أم غشوة، و إنما انتقالا من برزخ الحياة الى أخراها ببعث لبدن و الروح حيّ يزداد حياتا بهذا البعث! و قد تلمح «حيا» فيما تعني أنه حي في البرزخ بحياة الشهادة، حياتا في حياة لا تسلبان عنه إذ «يُبْعَثُ حَيًّا» و ما ألطفه جمعا بين الحياتين فيما تعنيه «حيا» «1» و هو- إذا- حال عن يحيى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الشباب غير اهل بيت الرسالة المحمدية فإنهم في الدرجة العليا من العصمة لا يدانيهم احد كما تدل آية التطهير و رواياته!.

(1).

الدر المنثور 4: 363 و اخرج ابن عساكر من طريق علي بن زيد بن جدعان عن علي بن الحسين (عليه السلام) عن الحسين بن علي (عليه السلام) قال: كان ملك مات و ترك امرأته و ابنته فورث ملكه اخوه فأراد ان يتزوج امرأة أخيه فاستشار يحيى بن زكريا في ذلك و كانت الملوك في ذلك الزمان يعملون بأمر الأنبياء فقال له: لا تتزوجها فانها بغي فبلغ المرأة ذلك فقالت ليقتلن يحيى او ليخرجن من ملكه فعمدت الى ابنتها فصيغتها ثم قالت: اذهبي الى عمك عند الملاء فانه إذا رآك سيدعوك و يجلسك في حجره و يقول:

سليني ما شئت فانك لن تسأليني شيئا الا أعطيتك فإذا قال لك قولي: لا اسألك شيئا الا رأس يحيى و كانت الملوك إذا تكلم أحدهم بشي‏ء على رءوس الملاء ثم لم يمض له‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 277

المضمر في «يبعث» «1».

«يَوْمَ يُبْعَثُ» للحياة الآخرة حالكونه «حيا» بالحياة البرزخية و حياة الشهادة، و لا نجد البعث حيا إلّا في يحيى و المسيح (عليهما السلام) مهما يبعث أضرابهما من أولياء اللّه الكرام أحياء، بحياة إن ماتوا أم حياتين ان استشهدوا، فغيرهم لا يبعثون أحياء، و إنما عن موت برزخي مهما كان الشهداء أحياء قبل البعث اكثر من سائر الاحياء!.

زكريا و يحيى في القرآن و العهدين:

يذكر زكريا سبعا و يحيى خمسا في سائر القرآن بكل تبجيل و تجليل، و من ميزات يحيى أنه ولد خارقة العادة و سماه اللّه يحيى و آتاه الحكم صبيا، و قد تشير «يحيى» إلى انه يحيى حياة طيبة، و أنه تستمر حياته البرزخية إلى بعثة:

«يَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا» دون موت في البرزخ! و مما يلمح في رسالة يحيى انها رسالة التبشير بالمسيح (عليه السلام) و «أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيى‏ مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَ سَيِّداً وَ حَصُوراً وَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ» (3:) 39) فرسالة التبشير هذه هي رأس الزاوية من رسالته المباركة.

و لأن شعب إسرائيل حسب البشارة في العهد العتيق كانوا ينتظرون المسيح، ظنوا يحيى و هو يوحنا المعمدان أنه المسيح (عليه السلام) فنفى لمرات عن نفسه أنه المسيح و كما في «لوقا الاصحاح الثالث»:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

نزع من ملكه ففعلت ذلك فجعل يأتيه الموت من قتل يحيى و جعل يأتيه الموت من خروجه من ملكه فاختار ملكه فقتله، فساخت بأمها الأرض ..».

(1). اجل حال لا مفعول فان البعث يتعدى لمفعول واحد و هو هنا نائب الفاعل في «يبعث» و حتى إذا عدي البعث الى مفعولين فلا يتعدى الى ثان هو «حيا» لأنه تحصيل لحياة حاصلة، اللهم إلّا مزيد الحياة المعنى ب «حيا» و هي حال ليحيى!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 278

«و إذا كان الشعب ينتظر و الجميع يفكرون فى قلوبهم عن يوحنا لعله المسيح (عليه السلام) 15 أجاب يوحنا الجميع قائلا: أنا أعمدكم بماء و لكن يأتي من هو أقوى مني الذي لست أهلا أن أحلّ سيور حذائه و هو سيعمدكم بالروح القدس و نار (16) الذي رفشه في يده و سينقي بيدره و يجمع القمح الى مخزنه (17) و في يوحنا 1: 19- 27: «و هذه شهادة يوحنا حين أرسل اليهود من أورشليم كهنة و لاويين ليسألوه من أنت؟ فاعترف و لم ينكر و أقرّ: إني لست أنا المسيح، فسألوه إذا ماذا؟ إيليا أنت؟ فقال: لست انا! النبي أنت؟

فأجاب: لا! فقالوا: من أنت لنعطي جوابا للذين أرسلونا ماذا تقول عن نفسك قال: أنا صوت صارخ في البرية- قوّموا طريق الرب كما قال اشعيا النبي- و كان المرسلون من الفريسيين، فسألوه و قالوا له ما بالك تعمّد؟ إن ان كنت لست المسيح و لا إيليا و لا النبي؟ أجابهم يوحنا قائلا: أنا أعمد بماء و لكن وسطكم قائم الذي لستم تعرفونه هو الذي يأتي بعدي الذي صار قدامي الذي لست بمستحق أن أحل سيور حذائه».

هذه الآيات ترسم الجوّ الإسرائيلي بانتظار ثلاثة اشخاص بعد يحيى:

«- المسيح- إيليا و النبي»! و قد صدقهم يحيى هكذا كما الفريسيون، و ليس «النبي» إلا الرسول محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) الذي بشرت به كتابات العهدين العتيق و الجديد، و قد كان معروفا لديهم لحد الغنى عن ذكر اسمه و كأنه- فقط- نبي لا سواه، و «إيليا» هو علي دون «إلياس النبي» لاختلاف الاسم و سبقه على يحيى بزمن، و قد أتى إيليا لعلي في بشارات اخرى‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع كتاب «رسول الإسلام في الكتب السماوية».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 279

[سورة مريم (19): الآيات 16 الى 40]

وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِها مَكاناً شَرْقِيًّا (16) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجاباً فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيًّا (17) قالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (18) قالَ إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيًّا (19) قالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَ لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَ لَمْ أَكُ بَغِيًّا (20)

قالَ كَذلِكِ قالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَ لِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَ رَحْمَةً مِنَّا وَ كانَ أَمْراً مَقْضِيًّا (21) فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكاناً قَصِيًّا (22) فَأَجاءَهَا الْمَخاضُ إِلى‏ جِذْعِ النَّخْلَةِ قالَتْ يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هذا وَ كُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا (23) فَناداها مِنْ تَحْتِها أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (24) وَ هُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا (25)

فَكُلِي وَ اشْرَبِي وَ قَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (26) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَها تَحْمِلُهُ قالُوا يا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا (27) يا أُخْتَ هارُونَ ما كانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَ ما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (28) فَأَشارَتْ إِلَيْهِ قالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (29) قالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتانِيَ الْكِتابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا (30)

وَ جَعَلَنِي مُبارَكاً أَيْنَ ما كُنْتُ وَ أَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَ الزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا (31) وَ بَرًّا بِوالِدَتِي وَ لَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا (32) وَ السَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَ يَوْمَ أَمُوتُ وَ يَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (33) ذلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (34) ما كانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحانَهُ إِذا قَضى‏ أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (35)

وَ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (36) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (37) أَسْمِعْ بِهِمْ وَ أَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنا لكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (38) وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ وَ هُمْ لا يُؤْمِنُونَ (39) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَ مَنْ عَلَيْها وَ إِلَيْنا يُرْجَعُونَ (40)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 281

عرض عريض لقصة الولادة و النبوة العجيبة لعيسى تلو يحيى لما بينهما من مشابهات فيهما. فقصته مختصرة عابرة للمبشر تتقدم لتقدمه في رسالة البشارة- ثم تتلوها قصة المسيح بداية من أمها في حملها و حملها و ولادتها، و هي أعجب من قصة يحيى، فإذا ولد من عاقر و شيخ قد اشتعل رأسه شيبا فهنا الولادة دون بعل من، طاهرة عذراء كأعجب ما يشهده تاريخ الإنسان إلا ما لم يشهده من خلق آدم مهما عرف بوحي القرآن.

ذلك و لكي تكون الولادة من غير أب دلالة على إمكانيتها دون أبوين،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 282

كما أن هذه دلالة على أوليتها دون أب ليهتدي أولاء و هؤلاء فلا يخيّل إليهم أصل الأنواع و لا البنوة الإلهية، و هذه الولادة بجنب ذلك خارقة لبيت إسرائيل الخارفة التي لا تحن إلى آية الهية خارقة، اللهم إلّا جديدة محيرة كهذه، رغم ان طائفة منهم اتخذوها فرية و اخرى بنوة إلهية دون أية حجة إلّا أهواء مضللة! يولد المسيح هكذا «وَ لِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ» مثالا للخلق الأوّل و خارقة للآخرين، تدليلا على حرية و طلاقة القدرة الإلهية دون احتباس في النواميس التي قررها «اللَّهُ غالِبٌ عَلى‏ أَمْرِهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» حادثة واحدة لن تتكرر حيث انقطعت النبوة بعد محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و لكي تبقى معلما بارزا أمام البشرية على حرية المشية الإلهية!.

وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِها مَكاناً شَرْقِيًّا (16).

«مريم» لغة سريانية تعني الغالبة المرتفعة، و علّها لأنها غلبت شهوتها و أحصنت فرجها رغم جمالها و كثرة الراغبين إليها، و غلبت على الولد الذي هوته أمها في قداستها و إنتاجها. و ارتفعت عما افتروا عليها، و عن أقرانها من نساء العالمين و قبل كل ذلك هي موهوبة الرب و قد «تقبلها رَبُّها بِقَبُولٍ حَسَنٍ» (3: 37) تقبلها مريم كما تسمت بما تعنيه من معانيها!.

و في حين تذكر مريم خمسا و ثلاثين مرة في القرآن بكل تبجيل و تجليل، لا تذكر في الإنجيل إلّا خمسا بكل مهانة و تخجيل‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و هي 1: قصة فانا الجليل (يوحنا 2: 3) 2: إذ أرادت ان تكلم ابنها و هو يعلم تلاميذه و (متى 12: 46) و مرقس 3: 31 و لوقا 8: 19 3: عند صلبه (يوحنا 19: 26) 4: و في الأيام الاولى بعد صعوده (يوحنا 141: 14) 5: عند ذكر ابنائها: يعقوب، يوشي، يهودا، شمعون وعدة من بناتها (متى 13: 55 و 27:

56 و مرقس 6: 3 و 15: 40 و 47.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 283

«وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ مَرْيَمَ» هنا يؤمر الرسول أن يذكر في الكتاب مريم و ما هو ذلك الكتاب؟ أهو القرآن و ذاكر مريم و سواها مما يذكر فيه ليس إلّا اللّه، فانه كلام اللّه و الرسول وسيط لنقله الى العالمين! إنه ذكرها في القرآن بالوحي، فالقرآن هو كلام اللّه في الأصل، و هو كلام الرسول كرسول‏ «إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ» (81: 20) «اذْكُرْ فِي الْكِتابِ مَرْيَمَ» ذكر بالوحي في بعدي اللفظ و المعنى كما في «ابراهيم و موسى و إسماعيل و إدريس» «2» و ذكري الخمسة كلها في هذه السورة! ..

او انه ذكرها في نفسه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) مما أوحي إليه ليلة القدر و هنا التفصيل، فالكتاب إذا هو القرآن المحكم، أو أنه يعنيهما جملة و تفصيلا.

و ذكر مريم في سورتها و سواها ذكر لواجب قصتها التي تتبنى طهارتها و طهارة المسيح عليهما السلام، لا سردها على طولها كما تقص في كتب القصص! ان مريم هي فتاة عذراء، قديسة حوراء، تستوهبها أمها من ربها فيهبها «فَتَقَبَّلَها رَبُّها بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَ أَنْبَتَها نَباتاً حَسَناً وَ كَفَّلَها زَكَرِيَّا كُلَّما دَخَلَ عَلَيْها زَكَرِيَّا الْمِحْرابَ وَجَدَ عِنْدَها رِزْقاً ..» (3: 37) ...

هذه الفتاة- و هي حليفة المحراب، تأخذها انتباذات و هزات تنبض لها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

أقول لم يكن لها ولد الا المسيح حسب القرآن و الحديث و يأتي توضيح موارد الاهانة بها في هذه الآيات.

(2) و هم على الترتيب في 19: 16- 41- 51- 54- 56.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 284

و لابنها المسيح بآية دائبة و حياة! و هي بعد ما اهتزت بالبشارة الملائكية من قبلها.

نبذة أولى: «إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِها مَكاناً شَرْقِيًّا ..» ثم هزة «فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيًّا. قالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا».

و هزة ثانية: «لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيًّا قالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ ..».

و هزة ثالثة: «فحملته» و هنا نبذة ثانية «فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكاناً قَصِيًّا».

و هزة رابعة: «فَأَجاءَهَا الْمَخاضُ إِلى‏ جِذْعِ النَّخْلَةِ قالَتْ يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هذا وَ كُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا» و هنا بشارة تخفف عنها هزاتها «فَناداها مِنْ تَحْتِها أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا».

ثم هزة خامسة: هي الاخيرة «يا أُخْتَ هارُونَ ما كانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ» و لكنها تسكن الى رياحة و رحمة: «قالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ...» «ذلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ»!.

«إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِها مَكاناً شَرْقِيًّا» و النبذ هو الطرح المضمّن معنى الرفض امتهانا أحيانا: «فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ» (28: 40) «فَنَبَذُوهُ وَراءَ ظُهُورِهِمْ» (3: 187) و امتحانا أخرى‏ «فَنَبَذْناهُ بِالْعَراءِ وَ هُوَ سَقِيمٌ» (37:) 145) فمنه مذموم‏ «لَوْ لا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَراءِ وَ هُوَ مَذْمُومٌ» (68: 49) و منه غير مذموم و ان ترائى انه مذموم، كالتكاليف النسائية الواجبة من غسل و أمثاله.

و انتباذ مريم و انطراحها مكانا شرقيا قبل تمثل الروح لها بشرا سويا و قبل حملها، علّه لحالة خاصة بالفتات تستحي فيها من أهلها كالغسل عن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 285

حيضها، حيث يقتضي الاحتجاب عنهم مكانا شرقيا تشرق عليها الشمس تخفيفا عن برودة الماء.

و لأنها كانت دائبة المقام في محرابها كما نذرت لذلك فلم تكن عند أهلها إلا أيام عذرها. فانتباذها إذا من أهلها مكانا شرقيا و اتخاذها من دونهم حجابا، ليس انعزالا في عبادتها و انما فيما يستحى منه و إلّا فلما ذا الانتباذ و الحجاب و المكان الشرقي؟!.

فها هي ذي في شأنها الخاص حيث توارث حتى عن أهلها و هي عارية عن ملابسها تفاجأ مفاجأة عنيفة تهز أركانها و تفز مذعورة منتفضة لأول مرة في حياتها:

فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجاباً فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيًّا (17).

ها هي محتجبة عن أهلها و حتى عن أمها، مشغولة بشأنها في غسلها.

مطمئنة الى انفرادها و هي عريانة بكامل جسدها، فإذا بشر سوي أمامها يفجأها في خلوتها و عراها رغم حجابها! فتداخلها رهبة تفجئها رغم أهبتها بما بشرت في الأولى، إذ ترى أمامها بشرا سويا و ليس هنالك سوي و لا غير سوي ليكون هو منهم، فانها «انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِها مَكاناً شَرْقِيًّا فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجاباً» فما لها و بشرا أمامها، إلا اختلاسا عليها إذ يحضر عندها و هي عارية في شأنها الخاص دون أهبة و لا استئذان. و كأنه من أقرب المحارم، بل هو زوج لا يكاد يستأذن زوجه! و ترى من هو «روحنا» المتمثل‏ «لَها بَشَراً سَوِيًّا»؟ و لماذا لم يظهر بصورته الأصلية حفاظا على اطمئنانها؟ هنا «روحنا» واهب لمريم غلاما زكيا بإذن اللّه نفخا فيها في فرجها، و في اخرى المنفوح في فرجها هو «من روحنا»:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 286

«الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيهِ مِنْ رُوحِنا» (66: 12) و هي تفسر «فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا» (21: 91) أن النفخ من روحنا فيها لم يكن إلّا في فرجها «1» و إضافة «نا» الإلهية فيهما لا تعني إلا تشريفا للنافخ و المنفوخ أنهما من الأرواح المشرفة التي خلقها، كما في آدم (عليه السلام) «فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي» (38: 72) ثم في بنيه: «... وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ، ثُمَّ سَوَّاهُ وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ» (32: 9) و هذه الأرواح الاربعة: «روحنا»- «من روحنا» «من روحي» «من روحه» كلها من أمر اللّه لا من ذاته‏ «وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي» (17: 85) فانها تفسر الأرواح كلها أنها من أمر اللّه، و ليس أمر اللّه ذاته او من ذاته، و إنما هو فعله المختلف عن ذاته بكل بينونة ذاتية و صفاتية، مهما كان مفضلا على سائر الأرواح أماذا؟.

«و روحنا» المرسل لذلك النفخ ليس إلا الروح الأمين النازل بالوحي‏ «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلى‏ قَلْبِكَ» (26: 193) و النازل بروح النبوة على رجالات الوحي: «يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ ..» (16: 2) فهو النازل بروح المسيح و جسمه‏ «وَ كَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى‏ مَرْيَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ» (4: 171) مهما كان النافخ في الحق هو اللّه‏ «فَنَفَخْنا فِيهِ مِنْ رُوحِنا» (66: 12).

و مهما كانت هذه الأرواح المضافة الى اللّه مفضلة على سائر الأرواح جملة، ففيها التفاضل بينها كما بينها و بين سائرها، ف «روحنا» يمتاز عن «روحي» كما «روحي» يمتاز عن «روحه» حضورا لجمعيته الصفات في أوّلها، و حضورا دونها في ثانيها، و غيابا مفردا في ثالثها، كما و أن روح المسيح‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع ج 28 الفرقان ص 451- 455- تجد كيف النفخ و الحمل؟.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 287

(عليه السلام) مفضّل على روح آدم، و هو مفضل على بنيه كمجموعة، اللهم إلا المفضلين عليه كبعض النبيين و أكابر المعصومين! و إنما تمثل لها بشرا، حيث التجلي بالصورة الملكية ليس إلّا أحيانا لرجالات الوحي دون الآخرين: «وَ لَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلًا وَ لَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ» (6: 9) .. و من ثم «سويا» فان غير السوي لا يناسب تمثل «روحنا» فإنه إزراء به، و لا المتمثل لها فانه إخافة لها و مهانة في الرسالة إليها، ثم و في بشر سوي هزة صادقة لها تهيئة لتحمّل حمل هو حمل لها في ظاهر حالها!.

هذه هزة اولى تأخذها، عضة على أركان طهارتها و هي الطاهرة الزكية البريئة.

قالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (18).

تحاول الهرب مستعيذة باللّه إذ تظنه معتديا أثيما، او فاجرا زنيما، و هي التقية المؤمنة، العفيفة الطاهرة، و تستعيذ بالرحمان خالقها منه إن كان تقيا يتقي بأس الرحمان، فغير التقي لا يستعاذ منه حيث لا يتقي على أية حال إلا بمعجزة ينجيها اللّه بها منه، و هي تستعيذ بالرحمن منه إن كان تقيا، استيقاظا لروح التقوى فيه و استجاشته لكيلا يقر بها مخافة الرحمن! ثم لماذا العوذة بخصوص «الرحمن» العام، دون «الرحيم» الخاص، و عوذة التقى تناسب الرحيم؟

هنالك عوذة خالصة باللّه من الشيطان و حزبه لا يخاطب فيها الشيطان و انما اللّه: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» و من ثم عوذة بالرحمن ممن يؤمن به و هي ذات بعدين، اصيل هي بالرحمن، و فرع هي بمن كان تقيا،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 288

«لقد علمت مريم ان التقي ذو نهية» «1» و التقي ينتفض وجدانه عند ذكر الرحمن و يرجع عن دفعة الشهوة و نزعة الشيطان و قد كانت ملامح التقى ظاهرة فالمؤمن ينظر بنور اللّه! ف «اللّه» يستعاذ- فقط- به عند الإياس عن كل دافع عن الشيطان، و «الرحيم» يستعاذ به فيما تكون للرحمة الخاصة موقع كأن يكون المستعاذ منه ذو رحمة خاصة تدفعه عما يخاف، و كما نعوذ باللّه منه «أعوذ بك منك»! بشفاعة رحمته الخاصة، ثم الرحمان يستعاذ به ممن غلبته الشهوة و هو تقي، و الشهوة الغالبة لا تعرف رحمة، و انما التقوى من الرحمن، تذكر بتلك الرحمة الشاملة التي تنفذ في كل شي‏ء، و أنا الطاهرة مريم شي‏ء، و أنت البشر السوي شي‏ء. و هنا ليس احد يدفع إلا الرحمن ف «إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا» .. و لكنه يعيد طمأنينتها و يسكن روعتها إذ:

قالَ إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيًّا (19).

انا فوق التقي الذي يتحول عند الشهوة الى شقي‏ «إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ» ينحصر كوني و كياني و تمثلي عندك برسالة ربك، رسالة تربوية معصومة من ربك الذي ربّاك حتى الآن و يربيك ما دمت حيا، أما تستقبلين رسول ربك حيث يحمل لك هبة ربانية منقطعة النظير، هو البشير النذير «لِأَهَبَ لَكِ» في هذه الرسالة بإذن ربك‏ «غُلاماً زَكِيًّا» بكل طهارة و سلام؟ و كل نضارة و وئام.

فلقد طمأنها في هذا اللقاء بأمرين: «أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ» بعيد عن الشهوة الجنسية فلا حاجة إلى عوذة! «لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيًّا» من دون وقاع مهما كان حلا فضلا عن الحرام، و انما احمل هبة ربانية هي خارقة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 267- اخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن أبي وائل في الآية: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 289

و لكن كيف تصدقه و قد تكون حيلة فاتك يستغل طيبتها، و كيف تهب لي غلاما زكيا و أنت رسول و أنا ما عرفت رجلا، و هي الآن في هذه الهزة الثانية تسأل في صراحة تغاضيا عن احتمال الحيلة، كأنها لا هي مصدقة برسالته فتطمئن الى هبة ربها، و لا مكذبة فتجانبه فورا، فرغم أنها اطمأنت بالأمان من ناحيته تغشيها سحابة الحزن من أخرى، و تطوف بها موجة من الاسى، إلّا ان هول الموقف ليس ليعقد لسانها، حيث تذكر هذه البشرى قبلئذ على إجمالها من ملاك ربها، و لكن هول البشرى- إذ هي على أشراف تحققها دون بعل، و قد تخلف تهم الجاهلين- إنه يبعثها لسؤالها حائرة ذعرة.

قالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَ لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَ لَمْ أَكُ بَغِيًّا (20).

هبة الغلام لها وسيلة تكوينية من نكاح أم سفاح و لا أعرف ثالثة، ف «أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ» اي زمن و أيان؟ «وَ لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ» بنكاح‏ «وَ لَمْ أَكُ بَغِيًّا» بسفاح؟

و ترى ألم تكن هناك في خلدها وسيلة مستقبلة لهذه الهبة الربانية بهذه البشارة؟ كلا! حيث «لأهب» تقاطع كل وسيلة مستقبلة، و تصرف مثلث زمن الهبة الى الحال، و بواسطة رسول الرب! فلا وسيلة لأصل الهبة حيث تتحقق الآن إلا ماضية من نكاح او سفاح و هي منتفية، فلا تعرف هي من «لأهب». تغاضيا عن مقاربته- معنى إلا البشارة بغلام زكي انعقد قبل البشارة و هي نافية لكل انعقاد ماض! و لمّا يخلد بخلدها أنها بشارة بخارقة ربانية دون اي لقاح من نكاح ام سفاح! اللهم الا ما بشرته الملائكة باجمال ... فيأتي الجواب الحاسم هنا كما أتاها من ذي قبل:

قالَ كَذلِكِ قالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَ لِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَ رَحْمَةً مِنَّا وَ كانَ أَمْراً مَقْضِيًّا (21).

«قال» أمرك في هذه الولادة العجيبة «كذلك» الذي قلت عن رسالة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 290

ربك‏ «قالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ» أن تلدي دون زوج، و لما ذا؟ لحكم شتى ..

«وَ لِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ» برهانا ساطعا قاطعا على القدرة الخارقة الإلهية، و على صدق الرسالة العيسوية، لهؤلاء الذين لا تكفيهم آيات مضت في الرسالة الموسوية «وَ رَحْمَةً مِنَّا» عليك خاصة و على الناس عامة، فهو إذا آية و رحمة، مهما كان عليك حملا و زحمة، فانه من الألطاف الخفية الالهية على صعوباته‏ «وَ كانَ أَمْراً مَقْضِيًّا» لا يتحول بإباء و لا دعاء! فأستعدّي لهذه الآية الرحمة مهما بلغت بك الصعوبة! هنالك تنتهي الحوار بينهما حيث استسلمت لحكم ربها في هذه الهبة الزكية، و نرى في آل عمران حوارا بينهما و بين اللّه و الملائكة، فما هو التلاحم بينهما؟:

«إِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ. وَ يُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلًا وَ مِنَ الصَّالِحِينَ. قالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَ لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قالَ كَذلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ ما يَشاءُ إِذا قَضى‏ أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» (3:) 47).

تستوحش من هذا البشارة الملائكية، و حق لها إذ لا ترى لنفسها ضجيعا، و لم تعرض بخلدها حتى الآن قصة الزواج، و هي عارفة أن البشارة محققة لمستقبل قريب لا تلائمة الولادة كالعادة: ان تتزوج و تلد من فوره! و هل «الملائكة» هم «روحنا» جمعا في واحد؟ و هي هنا تحاور ربها في استعجابها أن يكون لها ولد و هناك الحوار مع «روحنا»! إنها عرض لبشارتها بالملائكة قبل ان يتمثل لها «روحنا» بشرا سويا، تعبيدا لطريقها الى هذه المفاجات و الهزات، فأصبحت على خبرة إجمالية عن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 291

هذه الكلمة البشرى، سائلة ربها «أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ ..» فطويت الحوار هنا طيا و هي بانتظار كيف تتحقق البشرى، «فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا» لا للبشرى إذ تقدمت بالملائكة و انما لتحقيق البشرى: «لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيًّا» و لكنها ذعرت إذ فوجئت بما لم تحسب له حسابا أن البشارة تتحقق ببشر سوي، فحق لها ان تحتار مترددة هل إنه الذي يحقق البشرى، و ما طمأنت له حتى‏ «قالَ إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ ..» بما سبقت لك فيه البشرى، فاطمأنت لحدّمّا، و لكنها بعد متحيرة و لكي تطمئن‏ «قالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ ..» فلما سمعت نفس الصيغة الماضية من الملائكة في بشراها «قالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ...» انتهت الحوار و أصبحت كأنها في قرار! مستسلمة لتحقيق البشرى:

فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكاناً قَصِيًّا (22).

فقد حملت الغلام الزكي الموهوب بنفخ رباني و إلقاء: نفخ «روحنا» و إلقاء «كلمته». هنا «فحملته» و في اخرى‏ «وَ كَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى‏ مَرْيَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ» (4: 171) و في ثالثة «فَنَفَخْنا فِيهِ مِنْ رُوحِنا» (66: 12) فالحامل للغلام الزكي الموهوب هو «روحنا» و المحمول هنا هو الغلام، ثم المنفوخ هو «من روحنا» و الملقى‏ «كَلِمَتُهُ‏ .. وَ رُوحٌ مِنْهُ» و الحاملة هي مريم، و هل هنا فرق بين الغلام الزكي و روح منه و من روحنا و كلمته الملقاة الى مريم؟

تعبيرات اربع في سائر القرآن عن تكوين المسيح (عليه السلام).

و لأن ضمير الغائب في «حملته» راجع الى‏ «غُلاماً زَكِيًّا» فليكن هو المحمول بروحه و جسمه، و علّ جسمه هو الكلمة الملقاة و روحه هو المنفوح، فتحققت إذا ازدواجية ذلك الحمل المبارك، و في قرن «كلمته» ب «روح منه» تلميح بذلك القرن في حملها، و كلا النفخ و الإلقاء من فعل اللّه و ليس «روحنا» إلا وسيطا في تحميل هذه الهبة الربانية و علّها دون نفخ منه و لا إلقاء!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 292

فلقد كان حملا بإلقاء الكلمة في الفرج و هي النطفة الرجولية التي تشكل جسم المسيح، إلقاء بدفع في قعر الرحم لتتزاوج نطفة الأنثى لتكوّن الجنين، و بنفخ الروح تباعا في الجسم الكلمة و من ثم الولادة! و ترى إن مكوث الحمل كأصله كان خارقا للعادة؟ كأنه هو حيث «فحملته» تطوى زمن حلول الروح في الجسم طيا كأنهما مقارفتان ام مقارنتان بان البويضة في هذه الخارقة ما سارت بعد النفخة سيرها كسيرتها العادية، بل اختصرت مراحلها اختصارا، و أعقبهما تكوّن الجنين و نموّه و اكتماله في فترة وجيزة! «1».

ثم‏ «فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكاناً قَصِيًّا» دلالة ثانية على هذا الطي، حيث الفاء لتفريع القريب، فالانتباذ كان تلو الحمل، و لا داعي الى الانتباذ فور الحمل إلّا طيا لدور الحمل، فقد اقتلعت عن مكان الحمل الى مكان قصي لوضع الحمل.

ترى أ كان الحمل كاملا من ساعته أم تسع ساعات ام أية سويعات، او ستة أشهر «2»؟ لا ندري إلا ما تلمح لنا آية الحمل الانتباذ المخاض، قدر ما يحتاجه انتباذها الى مكان قصي!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

مجمع البيان و روي عن الباقر (عليه السلام) .. فكمل الولد في الرحم من ساعته .. فخرجت من المستحم و هي حامل فحج مثقل فنظرت إليها خالتها فأنكرتها و مضت مريم على وجهها مستحيية من خالتها و من زكريا ...

(2) هنا روايات ثلاث في مدة حملها من ساعة كما

رواه في المجمع عن الباقر (عليه السلام) انه تناول جيب مدرعتها فنفخ فيه نفخة فكمل الولد في الرحم من ساعته كما يكمل في أرحام النساء تسعة أشهر، و من تسع ساعات‏ يرويها عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) و من ستة أشهر رواها في العلل و الكافي عن أبي عبد اللّه و لفظها «و لم يولد- و لم يعش- لستة أشهر الا عيسى بن مريم و الحسين بن علي (عليهما السلام) و رواية رابعة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 293

و كيف انتبذت مكانا قصيا و اين ذلك المكان؟ لا ندري! و قد يكون انتباذها بنبذة الهية خارقة و لا سيما ان المنتبذ إليه مكان قصي، أو أنها لشدة هزتها بهذه الوشيكة المواجهة بها أهلها بالفضيحة، لذلك انتبذت مكانا قصيا بعيدا عنهم خلوا عمن يعرفها! و هذه الانتباذة تناسب بيت اللحم المعروف أنه مولد المسيح (عليه السلام) و تلك الخارقة تناسب الفرات كما وردت بها روايات‏ «1»! و مما يلمح بأقصر الحمل‏ «إِنَّ مَثَلَ عِيسى‏ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» (3: 59) و مطلق المماثلة يقتضي الولادة فور الحمل او بفصل قريب، و «ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» تؤيده الا تدرج في هذا الحل كما لم يكن في خلق آدم!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

في الكافي عن أبي الحسن موسى (عليه السلام) في حديثه مع نصراني ... و اما اليوم الذي حملت فيه مريم فهو يوم الجمعة للزوال ... و اما اليوم الذي ولدت فيه مريم فهو يوم الثلثاء لأربع ساعات و نصف من النهار ...

(1).

نور الثقلين 3: 326 ح 29 عن اصول الكافي عن أبي الحسن موسى (عليه السلام) في حديثه لنصراني ... و النهر الذي ولدت عليه مريم عيسى هل تعرفه؟

قال: لا قال: هو الفرات و عليه شجر النخل و الكرم و ليس يساوي بالفرات شي‏ء للكروم و النخل ...

و

في تهذيب الأحكام عن علي بن الحسين في الآية قال: خرجت من دمشق حتى أتت كربلا فوضعت في موضع قبر الحسين (عليه السلام) ثم رجعت من ليلتها و ح م د

في روضة الكافي عن سليمان بن داود المنقري عن حفص قال: رأيت أبا عبد اللّه (عليه السلام) يتخلل بساتين الكوفة فانتهى الى نخلة فتوضأ عندها ثم ركع و سجد فأحصيت في سجدة خمسمائة تسبيحة ثم استند الى النخلة فدعا بدعوات ثم قال: يا حفص انها و اللّه النخلة التي قال اللّه جل ذكره لمريم (عليها السلام) «وَ هُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 294

فَأَجاءَهَا الْمَخاضُ إِلى‏ جِذْعِ النَّخْلَةِ قالَتْ يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هذا وَ كُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا (23).

فاجأها المخاض فأجاءها- ان جاء بها- الى جذع النخلة لتجعله لبأسها سنادا و لظهرها عمادا. فانها وحيدة تعاني حيرة العذراء في اوّل مخاض، دون ان تعرف منه شيئا او يعينها احد في شي‏ء فلجئت الى جذع النخلة كقابلة تسندها.

معاناة المخاض من ناحية و غربتها من اخرى و هزتها من ولادة دون بعل من ثالثة تسقطها في يديها و تحيرها في أمرها و تشد حزنها و تغلي مرجل غيظها فتقول متأوهة حائرة: «يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هذا وَ كُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا»! ترى و كيف قالت قولتها هذه و هي عارفة بأن هذه الولادة هي من اللّه آية للناس و رحمة للعالمين؟ علّها لكربتها و غربتها و شدة وطئتها نسيت الآية الرحمة، و

«لأنها لم تر في قومها رشيدا ذا فراسة ينزهها عن السوء» «1»

مهما دافع عنها أهلها «مِتُّ قَبْلَ هذا» قد يعني قبل حملها، او يعني قبل وضعها ام يعنيهما حتى لا تقع في هذا المأزق المزلق، «وَ كُنْتُ نَسْياً» ما يحق ان ينسى لدناءته كخرقة حيض او علقته، ثم «منسيا» يعني نسيانا على نسيان! ألا يتذاكروني في شي‏ء و أنا منذ الآن علقة الألسن تتداولني في نقاض و نقاش!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 3: 220 ح 46 مجمع البيان في الآية انما تمنت (عليها السلام) الموت استحياء من الناس ان يظنوا بها سوء عن السدي و روي عن الصادق (عليه السلام): انها ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 295

أ ترى لماذا «إِلى‏ جِذْعِ النَّخْلَةِ» دون «النخلة»؟ عله للاشارة الى يبوستها أن بقي لها جذع خشبة تلتجئ به! حيث الجذع هو القطع فهو إذا مقطوع النخل منفصلا عنه ام قطعا عن حياته و ما أنسبه لجوء العذراء التي ليست لتلد دون بعل الى جذع النخلة اليابسة عن وليد الثمر، و ليتشابها حين أثمر! فَناداها مِنْ تَحْتِها أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (24).

لقد ولد المسيح (عليه السلام) هكذا إلى جذع النخلة و في حديث أنه كان يوم العاشور «1» أم ماذا «2» ما ندري إلّا أنه ولد فيا للّه! طفل هو حمل لفترة قصيرة و وليد اللحظة، ينادي أمه من تحتها، يطمئنها في حالها الغريبة المضطربة، و نفس نداءه تطمئنها دون ان تحمل هذه البشارات: «أَلَّا تَحْزَنِي» لكربتك على غربتك، لوحدتك حين وهدتك‏ «قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا» من الرّفعة، و هو المسيح الرفيع، او من السري: السريان: نهرا سريا خلق الساعة «3»، و وليدا سريا يسرى صيته و يجري صوته في مشارق الأرض‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 22 في تهذيب الأحكام عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) انه قال‏ و قد ذكر يوم عاشوراء- و هذا اليوم الذي ولد فيه عيسى بن مريم (عليه السلام) ...

(2)

المصدر في من لا يحضره الفقيه عن الرضا (عليه السلام) قال: ليلة خمس و عشرون من ذي القعدة ولد فيها ابراهيم (عليه السلام) و ولد فيها عيسى بن مريم (عليه السلام).

(3)

الدر المنثور 4: 268 و اخرج الطبراني و ابن مردوية و ابن النجار عن ابن عمر سمعت رسول اللّه (صلى الله عليه و آله و سلم) يقول: ان السري الذي قال اللّه لمريم‏ «قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا» نهر أخرجه اللّه لها لتشرب منه‏ و اخرج مثله الطبراني في الصغير و ابن مردويه عن البراء بن عازب عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم)

و

قد روي في المجمع عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام): ضرب جبرئيل برجله فظهر ماء عذب يجري.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 296

و مغاربها، ناداها المسيح فانه محور الكلام و حاصل المخاض فهو من تحتها، دون جبريل أم ملك سواه إذ ليس تحتها «1» و سريّها هو نهرها الساري تحتها و وليدها الخارج من تحتها فانه سرو رفيع و سار منيع، و يا للسريين هذين من رفعة و مناعة فإنهما صنيعا ربهما كما و صنع لها رطبا جنيا، مثلثا من خارق العادة رأس زاويته سري المسيح.

وَ هُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا (25) فلأنها اهتزت لما ولدت دون بعل، فلتهز جذع النخلة اليابسة فتهتز بالحياة دون سبب ظاهر فتحمل و تساقط عليها رطبا جنيا دون لقاح باهر و دون مكوث لفترة الإيراق و الإثمار و الإيناع و نحسبها علها اندهشت في حظوة و بهتت على أهبة كيف تمتد يدها الى جذع النخلة اليابسة لتساقط عليها رطبا جنيا فإذا بالنخلة المورقة المثمرة المونعة تساقط عليها ودقا من رطب جني طري!.

و يا لها من طاهرة عذراء تحمل دون بعل، فأجاءها المخاض الى جذع نخلة يابسة بتراء «2» فإذا هي تثمر دون وقتها- و لا لقاح- و بعد موتها، كما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المسيح هو آخر المراجع الصالحة لضمير الغائب في ناداها اضافة الى ما ذكر في المتن و انها ما كانت تطمئن الى هذه المقالة في حالتها المزرية الا مقالة المشاهد و هو المسيح.

(2)

نور الثقلين 3: 331 ح 55 عن كتاب المناقب عبد اللّه بن كثير قال: نزل ابو جعفر (عليه السلام) بواد فضرب خباءه فيه ثم خرج يمشي حتى انتهى الى نخلة يابسة فحمد اللّه عندها ثم تكلم بكلام لم اسمع بمثله ثم قال: أيتها النخلة أطعمينا ما جعل اللّه فيك فتساقطت رطبا احمر و اصفر فأكل و معه ابو امية الانصاري فقال: يا أبا امية هذه الآية فينا كالآية في مريم ان هزت إليها النخلة فتساقطت رطبا جنيا.

أقول و في بصائر الدرجات روى مثله عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: أيتها النخلة السامعة الطيبة المطيعة لربها أطعمينا مما جعل اللّه فيك فتساقط علينا رطبا مختلفا ألوانه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 297

أن العذراء تلد فور و هبة ربها دون وقتها و لا لقاح، و يجري في لحظتها ينبوع، طعام و شراب محضران بخارقة الرب كما هي و ابنها آية للعالمين:

فَكُلِي وَ اشْرَبِي وَ قَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (26).

كلي من رطب جني و اشربي من السري، و ما أحسنه و أسلمه اكلا للنفساء رطب جني‏

«أكرموا عمتكم النخلة فانها خلقت من الطين الذي خلق منه آدم (عليه السلام) و ليس من الشجر شجرة تلقح غيرها- أطعموا نساءكم الرطب فان لم يكن رطب فتمر فليس من الشجر شجرة أكرم من شجرة نزلت تحتها مريم بنت عمران» «1»

«و لو علم الله طعاما هو خير لها من التمر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

فأكلنا حتى تضلعنا فقال (عليه السلام): إليكم سنة كسنة مريم (عليها السلام)

و

فيه عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: خرج الحسن بن علي بن أبي طالب (عليه السلام) في بعض عمره و معه رجل من ولد الزبير كان يقول بإمامته قال: فنزلوا في منزل من تلك المنازل تحت نخل يابس قد يبس من العطش قال: ففرش للحسن تحت نخلة و للزبيري بحذاه تحت نخلة اخرى قال فقال الزبيري و رفع رأسه: لو كان في هذا النخل رطب لأكلنا منه فقال الحسن (عليه السلام) و انك لتشتهي الرطب؟ قال: نعم فرفع الحسن (عليه السلام) يده الى السماء و دعا بكلام لم يفهمه الزبيري فاخضرت النخلة ثم صارت الى حالها فأورقت و حملت رطبا قال فقال الجمال الذي اكتروا منه:

سحر و الله! فقال الحسن (عليه السلام): ويلك ليس بسحر و لكن دعوة ابن نبي مجابة! قال: فصعدوا الى النخلة حتى تصرموا ما كان فيها فأكفاهم.

(1). الدر المنثور 4: 269- اخرج ابو يعلى و ابن أبي حاتم و ابن السنى و ابو نعيم معا في الطب النبوي و العقيلي و ابن عدي و ابن مردويه و ابن عساكر عن علي (عليه السلام) قال قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) ... و

فيه اخرج ابن عساكر عن أبي سعيد الخدري قال‏ سألنا رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) مما ذا خلقت النخلة؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 298

لأطعمها إياه» «1».

هنا اطمأنت نفسها و عاد إليها ما عزب من لبها و استجمعت قوتها، و مع الدستور الصارم تخفيفا لوضعها العارم: «فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي ...» لا تكلمي بشرا يواجهك إلا قولة الإشارة: «إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً» للصمت لا عن الأكل و الشرب‏ «فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ» و اليوم فقط «إنسيا» مهما أكلم ربي و غير الانس من ملك امن ذا، و لأن الانسي هو الذي يعارضني في ولدي دون بعل، و اللّه بملائكته يؤنسني غير مليم! هذا طرف من قصة الولادة المباركة العجيبة للمسيح بن مريم (عليه السلام) و هنالك هرطقات إنجيلية تعارضها، مما يجعل الجمعية الرسولية

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

قال: خلقت النخلة و الرمان و العنب من فضل طينة آدم (عليه السلام).

(1).

اخرج ابن عساكر عن سلمة بن قيس قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): أطعموا نساءكم في نفاسهن التمر فانه من كان طعامها في نفاسها التمر خرج ولدا حليما فانه كان طعام مريم حيث ولدت عيسى و لو علم اللّه ..

و

في نور الثقلين 3: 330 ح 50 في كتاب الخصال فيما علم امير المؤمنين (عليه السلام) أصحابه من الأربعمأة باب مما يصلح للمسلم في دينه و دنياه ما تأكل الحامل من شي‏ء و لا تتداوى به أفضل من الرطب قال اللّه تعالى لمريم: «وَ هُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا ..

أقول: قول المسيح حينذاك وحيا هو من قول اللّه و

في (51) عن الكافي عنه (عليه السلام) قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) ليكن اوّل ما تأكل النفساء الرطب فان اللّه عز و جل ... قيل يا رسول اللّه فان لم يكن ابان الرطب؟ قال: سبع تمرات من تمر المدينة فان لم يكن فسبع تمرات من تمر أمصاركم فان اللّه عز و جل يقول:

و عزتي و جلالي و عظمتي و ارتفاع مكاني لا تأكل النفساء يوم تلد الرطب فيكون غلاما الا كان حليما و ان كانت جارية كانت حليمة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 299

الامريكية تعترض على جوانب من هذه القصة حسب القرآن قائلة: «1» «ان القرآن مشتبه في قصة مريم إذ ينسب إليها قصة هاجر أم إسماعيل، فانها هي التي كانت في البرية و هزت إليها بجذع النخلة و مريم كانت في بيت لحم اليهودية و المسيح لم يتكلم في المهد و هذه كلها مأخوذة من خرافات المسيحيين دون سناد عن كتابات الوحي‏ «2».

و عجب من هؤلاء كيف يخطئون في قصة هاجر و هي في برية لا ماء فيها و لا كلاء و لا نخلة أماذا؟ ثم أنى لهم أن المكان القصي الذي انتبذته مريم كانت برية قفرا فلا شجرة فيها و لا نخلة، فهل القصي في قاموسهم هو القصي عن الماء و الكلاء؟ و ليس إلا البعيد القاصي عن أهلها و عن ملاء الناس لكيلا يرونها تضع حملها فلا يسارعونها في الاتهام، و ليست النخلة إلا في المعمورة، فقصيهم- إذا- قصي عما يرام! فهل ان القصي الطري المعمور بالنخلة و رطبها الجني أحرى بهذه الولادة المباركة للعذراء الطاهرة أم الآخور معلف الحيوان كما ينقله الإنجيل؟

فان زعمت الجمعية الرسولية أن مكانها القصي خلو من النخل فإنجيل يوحنا يصرح: «ان الكثيرين في أورشليم أخذوا سعوف النخل و خرجوا للقاء المسيح» (13: 12- 13) و بيت اللحم من ضواحي أورشليم‏ «3».

و حين لا تسمح هذه الجمعية لمريم الطاهرة كرامة الرطب الجني تدنس‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع كتابنا «عقائدنا» ص 500- 503 و ما قبلها و بعدها ففيها تفصيل مقارن للقصة بين القرآن و الإنجيل.

(2) ج 2 ص 92- 93 من الهداية للجمعية الرسولية الامريكية نقلا بالمعنى.

(3) سبق ان من المحتمل في المكان القصي بعد بيت اللحم هو الكوفة و كلاهما من منابت النخل كما

في روضة الكافي باسناده الى حفص قال: رأيت أبا عبد اللّه يتخلل بساتين الكوفة فانتهى الى نخلة فتوضأ عندها ثم ركع و سجد فأحصيت في سجدة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 300

ساحتها و تصدق الخرافة الهاتكة الانجيلية «انها جاعت فانفتحت السماء و نزل عليها إناء فيه كل دواب الأرض و الزحافات و الطيور و قيل لها: إذ بحي و كلي فقالت: يا رب! اني لم آكل قط شيئا نجسا؟ فقيل لها: ما ظهره الله فلا تدنيسه» (يوحنا: 110- 16) فهل إن اللّه ينزل على مريم شيئا نجسا و يأمرها بأكله أن طهره أمره، ام كيف تعارض الطاهرة المتعبدة أمر ربها، أ تريد ابطال حكم إلهي تعبيدا لطريقة المسيح الذي يفتدي البشرية عن لعنة الناموس ابطالا لشريعة التوراة؟

و حين تحيل الجمعية الرسولية اخضرار النخلة و اثمرارها من ساعتها بأمر اللّه، فلتحل مثل ذلك في عصى موسى حيث «وضعها في خيمة الشهادة و في الغد وجدها قد أفرخت فروخا، و أزهرت زهرا و أنضجت لوزا» (عد 17: 7- 11 وعب 9: 4)! «... فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً» رؤية حتمية لبشر «ترين» إذا حصلت «إمّا»- «أحدا» جنس البشر واحدا او اكثر «فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ ..» و كيف تقول مقالتها و هي حسبها صائمة عن أية قوله لبشر؟-.

هنا تقول الجمعية الرسولية: (2: 52) إله القرآن يأمر مريمه تقول كذبا: إنها نذرت للرحمن صوما فلن تكلم اليوم إنسيا، و هي لم تكن صائمة بدليل أمره إياها ان تهز إليها بجذع النخلة ..» فَكُلِي وَ اشْرَبِي وَ قَرِّي عَيْناً ..» .. ثم أمره إياها أن تقول إنها صائمة لا تتكلم متناقض حيث‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

خمسمائة تسبيحة ثم استند الى النخلة فدعا بدعوات ثم قال: يا حفص! إنها و اللّه النخلة التي قال اللّه جل ذكره لمريم (عليها السلام). «وَ هُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 301

أمرت ان تقول: إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً ..».

و عجب من هؤلاء الاغفال كيف جمعوا بين صوم الصمت و الطعام، و «فَلَنْ أُكَلِّمَ ..» دليل انه صوم الصمت! ثم «قولي» لا يختص بقول الكلام، حيث الإشارة المفهمة قول كما الكلام: «فَأَشارَتْ إِلَيْهِ قالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا» و لم يقل «قالت» و حتى لو قالت‏ «إِنِّي نَذَرْتُ ...» لا يحدد بداية الصوم و لعلها بعد هذه القولة إن كانت لفظة و لم تكن.!.

و يا لها من كرامة للعذراء تعتذر بعذر شرعي شرعه لها ربها حتى لا تواجه بشرا بشرط كلمة قبل ان يذاد عنها بخارقة الهية «إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً»، و علّه فقط صوم الصمت‏ «1» ام صوم يعم الصمت و لم يكن أكلها و شربها إلا قبل ان تواجه بشرا فلم يشمله صومها ان عمّ الطعام كما الكلام، و لكنه الصمت فقط حيث النفاس من حالات منعة سائر الصيام، و تفريعها على صومها: «فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا»! و صوم الصمت شرعة توراتية انقطعت بالشرعة القرآنية، فآيات الصوم تمنع فيما تمنع عن ما سوى الصمت، اللهم إلّا صمتا عن الكذب على اللّه و رسوله حيث يبطل الصوم، ام مطلق الكذب حيث ينتقصه، و كما ثبت بالسنة الثابتة «2» و اما الصمت المطلق فلا صوم فيه إسلاميا!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر ح 60 في كتاب المناقب لابن شهر آشوب في مناقب أبي جعفر الباقر (عليه السلام) و سأل طاووس اليماني أبا جعفر (عليه السلام) عن صوم لا يحجز عن أكل و شرب؟ فقال: الصوم من قوله تعالى: اني نذرت للرحمن صوما.

(2)

نور الثقلين 3: 332 ح 58 في الكافي باسناده عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: ان الصيام ليس من الطعام و الشراب وحده ثم قال: قالت مريم: اني نذرت‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 302

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَها تَحْمِلُهُ قالُوا يا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا (27) يا أُخْتَ هارُونَ ما كانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَ ما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (28) فَأَشارَتْ إِلَيْهِ قالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (29).

«فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَها»- ان مكانها القصي لم يكن بذلك البعيد كالكوفة «فَأَتَتْ‏ .. تَحْمِلُهُ» دون ان تتركه مخافة العار حيث اطمأنت أنه عطية ربانية فهو ذائد عنها ما يمس كرامتها «قالُوا يا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا»: موضعا لفرية بالغة المدى ام عظيما بديعا ف «لقد» تأكيد ان و «فريا» كمبالغة الفرية تشكل عليها ثالوث الفرية و من ثم التأنيب كأنها ثابتة لا حول عنها: «يا أُخْتَ هارُونَ ما كانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ ...»!

و هنالك مندوحة للعذراء الوالدة- مع الغض عن احتمال معجزة الهية-:

علها اجتذبت نطفة الرجولة دون لقاح ان جلست مكانا فيه النطفة، و حالة المؤمن و فعله محمولة على الصحة، أ فلم يلمس قومها ايمانها و هي عائشة المحراب، صالحة الذهاب و الإياب، فالحة في حراب الشهوات؟!.

ثم و لماذا «يا أُخْتَ هارُونَ» و هو أخو موسى و بينهما قرون خلت؟ كما اعترضته الجمعية الرسولية الامريكان (3: 31): «خلط هارون أخا موسى باخي مريم!» و كأنهم يخصون اسم هارون باخي موسى ثم لا يحق لمن بعده ان يتسمى بهارون!

«ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمعون بالأنبياء و الصالحين قبلهم» «1»؟!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

للرحمن صوما- أي صوما صمتا- صمتا- فإذا صمتم فاحفظوا ألسنتكم و غضوا ابصاركم و لا تنازعوا و لا تحاسدوا.

(1).

الدر المنثور 4: 270- اخرج ابن أبي شيبة و احمد و عبد بن حميد و مسلم و الترمذي و النسائي و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن حبان و الطبراني و ابن مردويه و البيهقي في الدلائل عن المغيرة بن شعبة قال‏ بعثني رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) الى اهل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 303

و لماذا يتقدم هارون أخوها على أبيها و من ثم أمها؟ علّه لأن هارون كان اقدس أنسبائها و أشهر في قدسيته من أبيها لحد يتعالى حتى عن أن ينفى عنه السوء، ثم أبوها ما كان امرء سوء، ثم أمها ما كانت بغيا! و مثلث النسبة هذه و الرعاية العالية الطاهرة في ظله يجعل من البنت طاهرة بعيدة عن هذه الفعلة العاهرة، فيا للمفارقة بين هذه النسبة المباركة و تلك المقارفة النكدة الدنيئة التي لا تأتيها إلا بنات بغايا و الآباء السوء!.

و القول إن هارون هذا لم يكن أخاها و إنما مثيلها في التقوى مشهورا بها، غير فصيح و لا صحيح، حيث الحقيقة لا تصرف الى مجاز إلا بقرينة، و أنهم كانوا في تقريعها و تأنيبها سابق الجملة: «لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا» و لا حقها:

«ما كانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ ..» و الاخوة المثيلة بهارون، لها مدحة بالغة! «1».

أشارت إليه إشارة قائلة «إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً» و اسألوه فانه المجيب عما تسألون! أم قالت لهم نذرها قبل بدايته و قبل أن يكلموها، ثم أشارت إليه إجابة عما افتروا عليها، هنا يبهرهم العجاب على الغيظ الذي ساورهم، كيف تتبجح فتسخر من متسائليها، صامتة مشيرة الى‏ «مَنْ كانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا» قالوا جوابا عن إشارتها الهازئة الفالتة في حسبانهم‏ «كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا»؟!.

و ترى ما هي مكانة «كان» هنا و كل أحد كان في المهد صبيا مهما كان‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

نجران فقالوا أ رأيت ما تقرؤون‏ «يا أُخْتَ هارُونَ» و موسى قبل عيسى بكذا و كذا فرجعت فذكرت ذلك لرسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فقال: ألا أخبرتهم ..

(1). مجمع البيان: يا اخت هارون فيه اقوال: أحدها

ان هارون هذا كان رجلا صالحا في بني إسرائيل ينسب اليه كل من عرف بالصلاح‏ عن ابن عباس و قتادة و كعب و ابن زيد و المغيرة بن شعبة يرفعه الى النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم)

أقول و هذا المرفوع اليه مرفوع عنه في المعنى لما قلنا و مضى عنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم). و الراوي عنه في هذين المتعارضين واحد و فصاحة القرآن تنافي الثانية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 304

الآن ايضا صبيا ام شابا او شائبا هرما؟

علّ «كان» هنا تامة و صبيا حال، كيف نكلم طفل المهد حال صباه و ليس يأهل لكلام او حوار ما كان في المهد، إذا ف «كان» تركز صباه انه بعد طفل المهد و لما يخرج منه حتى يؤهل لكلام، و «كان» هذا كاضرابها في سائر القرآن تدليلا على تمكّن مدلولها في حال ام ماذا «1».

و القول ان «كان» هنا زائد زائد من القول إذ لا يليق بفصيح الكلام كسائر القول هنا إلا ما نبهنا عليه و اللّه اعلم بما «كان»!.

قالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتانِيَ الْكِتابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا (30) وَ جَعَلَنِي مُبارَكاً أَيْنَ ما كُنْتُ وَ أَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَ الزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا (31) وَ بَرًّا بِوالِدَتِي وَ لَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا (32) وَ السَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَ يَوْمَ أَمُوتُ وَ يَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (33) ذلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (34).

تنزيهات سبع تخصه، تغلق عليه السبع أبواب جحيم الافترائات الموجهة اليه، المفتحة عليه، و ثامنة هي تقديسة تامة هامة تكرس حياته الطاهرة و حياة امه الزاهرة العذراء: «وَ السَّلامُ عَلَيَّ»! و الحق أقول إنه بيان صارم على اختصاره يجرف عنها كل هرطقة عارمة تهرف او كلمة تحرف في كتابات مزورة!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مثل قوله تعالى: «قُلْ سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولًا» (17: 93) ان البشرية و الرسالة تمكنتا في فلا املك ما يملكه ربي- و قوله تعالى: «وَ مَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً» (17: 36) حيث النصرة لزام الولي المقتول .. و كذلك‏ «مَنْ كانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا» حيث الصبا بعد لزامه و لما يخرج من صباه!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 305

1 قالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ..؟

إن كلامه و هو في المهد صبي رضيع، و بهذه البداية المباركة يذود عنه تفريط المفرطين: انه ولد زنا. و إفراط المفرطين انه اللّه او ابن اللّه، فكيف ينطق ولد زنا بخارقة الهية اللهم إلّا من اصطفاه اللّه، و كيف يعترف اللّه او ابن اللّه ام اقنوم الالوهية انه عبد اللّه؟!.

ففي حين أنه لم يصرح هنا بالطهارة عن الزنا استلزم كلامه في بعدية أنه الطاهر المصطفى آية للّه: «وَ جَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ آيَةً» (23: 50) و هنا يتهدم صرح كل مفرط و مفرّط بحق المسيح و أمه (عليهما السلام)، حيث الأقاويل فيهما و لا سيما فيه متشابكة متشاكسة لا يكاد تخمد نيرانها إلا بصراح القول من المسيح نفسه و هو في المهد صبي! نجد قرابة ثمانين موضعا في الأناجيل أن المسيح يعترف بعبوديته للّه و أنه ابن الإنسان‏ «1» و رغم تحرّفها لا نجد فيها و لا تصريحة واحدة من وحي الإنجيل أنه اللّه إلا «الآب و الابن و روح القدس» و الآب باللغة اليونانية تعني الخالق، فالابن ليس إلا مخلوقا للخالق و هو ابن الإنسان، و روح القدس هو الوسيط بين الخالق و الابن. و لكنهم رغم الحفاظ على الصيغة اليونانية يفسرونها بالأب كأنها عربية مع الغض عن مدّها، تحريفا خارفا مجازفا جارفا لم يتنبه له إلّا القليل ممن و في لرعاية الحق من العارفين.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما في إنجيل يوحنا 1: 51 و 4: 6 و 3: 26 و 24 و 4: 34 و 19 و 44 و 5: 19 و 24، و 30 و 44 و 6: 14 و 28 و 29 و 44 و 7: 16 و 18 و 28 و 33 و 40 و 8 و 26 و 28 و 11: 41 و 12: 27 هو عبد اللّه.

و في متى 8: 20 و 9: 6 و 16: 13 و 27 و 17: 9 و 12 و 22 و 18: 11 و 19: 28 و 20: 18 و 20- انه ابن الإنسان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 306

«إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ» حاله و مقاله و سمة أفعاله طول حياته، مهما اختلق عليه مقالات اخرى‏ «1» فهو لا يعرف لنفسه صلاحا بجنب ربه فكيف يجعل نفسه عدلا لربه؟: «و إذا واحد تقدم و قال له: أيها المعلم الصالح .. فقال له:

لماذا تدعوني صالحا؟ ليس أحد صالحا إلا واحد و هو الله» (متى 19: 16- 19)- (مرقس 10: 18) (لوقا 18: 19) و يندد ببطرس المتطرف، المتطرق له لقب الرب: «حاشاك يا رب! فالتفت و قال لبطرس: اذهب عني يا شيطان! أنت معثرة لي لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس» (متى 16: 22- 23).

و يندد بمن اختاله معادلا لربه: آبي يعمل و أنا أعمل فمن أجل هذا قالوا: إنه كسر السبت و جعل نفسه معادلا للّه» (يوحنا ف 17) «2».

2 آتانِيَ الْكِتابَ ..

فرية أخرى على المسيح (عليه السلام) ان ليس له كتاب شرعة، و إنما الحواريون و من اتباعهم هم الكاتبون سيرته و سموها الإنجيل، لذلك لا نرى عندهم إنجيلا ينسب الى المسيح إلا ما تطرق له التاريخ و أصبح منسيا مع الزمن.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كالقائلة انه ابن اللّه: (متى 3: 17) و أول مواليده (عب 1: 9) و ابن اللّه المبارك (مرقس 14: 61) و القائلة انه هو اللّه و الكلمة: (يوحنا 1: 1) الازلي (عب 9: 14) و الرب و قد كرر في الأناجيل و انه عمانوئيل: اللّه معنا (متى 1: 23) و يعارضها التصريحات الثمانون في الرقم (1) و مثل: يهوه- اللّه: يرسل أنبياء و حكماء و كتبة (متى 23: 34) و (لوقا 11: 49) و يهوه هو رب الشريعة فبقدرته الشخصية يتم ناموس موسى و يعدله (متى 5: 21) و يهوه يعقد عهدا مع البشر (متى 26: 28 و مرقس 14: 24 و لوقا 22: 20).

(2) راجع كتابنا: عقائدنا ص 65- 145- تجد فيه تفصيلا واسعا عن خرافة الالوهية و النبوة للمسيح و تزييفها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 307

إن القرآن يثبت له إنجيلا: «وَ آتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَ نُورٌ» (5:) 46)! و جماعة من المسيحيين ينكرون هذه الحقيقة الناصعة، ك: القس و.

ت. جردنر الإنجليزي‏ «1» و: او ميم ميلر «2» رغم اعتراف جماعة آخرين منهم بإنجيل المسيح و كما في الإنجيل الحالي نفسه: «بعد ما أسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز- يبشر- بإنجيل ملكوت الله و يقول: قد كمل الزمان‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في كتابه: محاورة الوحي باعتبار التوراة و الإنجيل و القرآن، صدر من الجمعية الاسقفية ببولاق مصر- طبع بمطبعة النيل المسيحية بشارع المناخ نمرة 37- يقول فيه:

«في القرون التي مضت بين المسيح و محمد (صلى الله عليه و آله و سلم) لم يعترف المسيحيون بإنجيل غير الإنجيل الحالي اي: العهد الجديد- و ليس هناك اقل بينة تدل على انه كان لدى المسيحيين كتاب آخر غير الكتاب الحالي او الإنجيل الحقيقي او ان الحقيقي فقد بعد زمن الهجرة .. ان الإنجيل الحالي هو إذا الإنجيل الحقيقي، و ان زعم وجود كتاب آخر انزل على عيسى هو و هم و خطأ، فيكفي ان نقول فقط: ان كاتبي اسفار الإنجيل ألهموا ان يدونوها بطرق مختلفة و وسائل متنوعة و لذلك يعتبر جوهر ما دونوه موحى به».

(2) هو العالم الشهير الانجيلي في كتابه: التمدن القديم في باب تعاليم المسيح، يقول فيه: «ان ربنا عيسى المسيح لم تكن له شريعة كموسى، انما قرر شريعة التوراة، انه كلمة اللّه الطاهرة و كان عنده خزائن علم اللّه و حكمته فلم يكن من اللازم ان ينزل عليه كتاب، و المؤمنون الأولون انما كانوا يستفيضون من كلماته النيرة، فأين لزوم كتاب ينزل عليه؟ فان اعماله و كلماته كانت مكتوبة على صحائف قلوب الحواريين، فلم يكونوا إذا بحاجة الى كتاب شريعة إذ كانت تكفيهم شريعة التوراة، و لا كتاب سنة عملية أخلاقية لأن المسيح كان ذلك الكتاب بأعماله و أقواله- و لكن المسيحيين لما لم يروا المسيح في الجسم على الأكثر، فهم بحاجة الى كتابات تذكرهم بمعجزات المسيح و حياته لكي يغنيهم البيان عن العيان، لذلك رأى مؤلفوا الأناجيل الذين كانوا يعرفون حياة المسيح بعيان و بصيرة- رأوا من المفروض عليهم تأليف هذه الأناجيل و يشرحوا فيها أحواله و أقواله و معجزاته و هذه الكتب هي المراجع الدينية الثانوية بعد المسيح و تلاميذه».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 308

و اقترب ملكوت اللّه فتوبوا و آمنوا بالإنجيل» (مرقس 1: 15) «1» «و كان يسوع يطوف كل الجليل يعلم في مجامعهم و يكرز بإنجيل الملكوت» (متى 4:

23 و 9: 35) و يعرف به بولس قائلا: «أولا أشكر الهي يسوع المسيح من جهة جميعكم أن ايمانكم ينادي به في كل العالم فإن الله الذي أعبده بروحي في إنجيل ابنه شاهد لي كيف بلا انقطاع اذكرهم» (روم: 1) و في: برنابا: «و لقد قال لي صدق يا برنابا اني اعرف كل نبي و كل نبوة و كل ما أقوله إنما جاء من ذلك الكتاب» «2» «و أنتم شهداء على هذا كيف أنكر على هؤلاء الأشرار الذين بعد انصرافي عن العالم سيبطلون حق إنجيلي بعمل الشيطان، و لكنني سأعود قبل النهاية» (برنابا 52: 14- 15) «... مع أنني الآن أبكي شفقة على الجنس البشري لأطيلن في ذلك اليوم عدلا بدون رحمة لهؤلاء الذين يحتقرون كلامي و لا سيما أولئك الذين ينجسون إنجيلي» (برنابا 58: 21- 22) و كما يشهد بولس بهذه الخيانة الفاضحة إذ يندد بهم: «إني أتعجب أنكم تنتقلون هكذا سريعا من الذي دعاكم بنعمة المسيح إلى إنجيل آخر.

ليس هو آخر. غير أنه يوجد قوم يزعجونكم و يريدون ان يحولوا إنجيل المسيح» (اغلا: 6- 7)!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هذه الآية تلمح كأنهم ما كانوا ليصدقوا إنجيله إذ كان عبئا و حملا عليهم، حتى يفسح لهم مجال اختلاق اناجيل اخرى.

(2) حينئذ قال التلاميذ: حقا ان اللّه تكلم على لسانك لأنه لم يتكلم انسان قط كما تتكلم؟ أجاب يسوع: صدقوني: انه لما اختارني اللّه ليرسلني الى بيت إسرائيل أعطاني كتابا يشبه مرآة نقية نزلت الى قلبي حتى ان كل ما أقول يصدر عن هذا الكتاب و متى انتهى صدور ذلك الكتاب من فمي اصعد عن العالم، أجاب بطرس: يا معلم! هل ما تتكلم الآن به مكتوب في ذلك الكتاب؟ أجاب يسوع: ان كل ما أقوله لمعرفة اللّه و لخدمة اللّه و لمعرفة الإنسان و لخلاص الجنس البشري انما هو جميعه صادر من ذلك الكتاب الذي هو انجيلي (برنابا 168: 1- 5).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 309

و هنالك في الأناجيل اللاحقة لهذه الأصول الانجيلية عندهم تصريحات تتجاوب معها، ك «إنجيل السلام للمسيح» (1 ف 6: 15) و إنجيل الخلاص» (1 ف 1: 13) و إنجيل الرب (أول تسلو 2: 9).

و كذلك تصريحات اخرى من علماء المسيحية و مؤلفيهم، ك «نارتن» حيث ينقل عن «اكهارن» و تذكر دائرة المعارف الإنجليزية إنجيل المسيح (عليه السلام) في عداد خمسة و عشرين إنجيلا «1» و يؤيده كتاب اكسهوموا «2» و «اكهارن» و كثير من متأخري علماء النمسا، و مال إليه المحققون- «ليكلرك- كوب- ميكايلس- ليسنك- نيمير و مارش» «3».

3- «وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا ..»

ترى كيف تأخرت النبوة عن إتيان الكتاب الذي يضم النبوءة و الرسالة كلتيهما؟ لأن النبوّة للرسول هي الرفعة في رسالته. فهناك نبوءة ثم رسالة ثم نبوّة، فمن نبي‏ء ليس برسول و من رسول ليس بنبيّ، و كما تتأخر النبوة الجامعة مع الرسالة عنها في سائر القرآن، تدليلا على أنها أخص من الرسالة: «وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ مُوسى‏ إِنَّهُ كانَ مُخْلَصاً وَ كانَ رَسُولًا نَبِيًّا» (19:) 51) «وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِسْماعِيلَ إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ وَ كانَ رَسُولًا نَبِيًّا» (19: 54) «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ» (7: 157) «فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ ..»

(7: 158) «وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لا نَبِيٍّ ..» (22: 52) فهذه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في المطبوعة 13 ص 179- 180 تحت عنوان: ابو كريفل لتريچر: خرافات الادبيات.

(2) ألفه حكيم بروتستاني يذكره في الباب 5 من كتابه المطبوع 1813 م في لندن.

(3) راجع كتابنا «المقارنات العلمية و الكتابية بين الكتب السماوية» ص 9- 60 تجد فيه تفاصيل الأناجيل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 310

النبوة السامية كسائر النبوات متدرجة من العبودية «إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ» الى نبوءة وحي ثم رسالة: «آتانِيَ الْكِتابَ» ثم نبوّة «وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا» فبين النبوة و النبوة متوسط الرسالة، و كل من هذه الرحلات درجات حسب درجات النبوات.

ثم‏ «وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا» تحصر كيانه ككل في النبوة رفضا لما سواها من الوهية او بنوة حقيقية او تشريفية اماهيه مما يهرفه الخارفون حول السيد المسيح (عليه السلام) من وراثة الالوهية او النبوة! وَ جَعَلَنِي مُبارَكاً أَيْنَ ما كُنْتُ‏ بركة شاملة تكرس كيانه ككل، تسلب عن ساحته كل المثالب و المآلب التي اختلقته أيدي الدس و التجديف، «أَيْنَ ما كُنْتُ» تضرب إلى أعماق الماضي في أصلاب شامخة و أرحام مطهرة حيث تنقل من كل الى اخرى و الى امه الطاهرة العذراء، ما يطهر ساحته في ماضيه و بأحرى حاله و مستقبله كما يشملها مثلث السلام، فلم تكن في هذا البين مقاربة محرمة على أية حال، و لا مقارفة لها في كل حلّ و ترحال و من مستقبله المجيد.

إنه لم يخلد بخلد مريم الطاهرة إلا رجاء الذود عن ساحة هذه الولادة، فإذا هي تجد وليدها:

«جعلني نفاعا للناس أين اتجهت» «1»

و

معلما و مؤدبا «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 4: 270- اخرج الاسماعيلي في معجمه و ابو نعيم في الحلية و ابن لال في مكارم الأخلاق و ابن مردويه و ابن النجار في تاريخه عن أبي هريرة قال قال النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قول عيسى (عليه السلام) و جعلني مباركا أينما كنت قال: جعلني .. و روى مثله في معاني الاخبار باسناده الى عبد اللّه بن جبلة عن رجل عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: نفاعا، و هذا تفسير بالمصداق الجلي.

(2) المصدر اخرج ابن عدي و ابن عساكر عن ابن مسعود عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في الآية ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 311

في بركة كاملة كافلة لكافة الأصلاب و الأرحام التي تنقلا بينها.

و ذلك تعريض عريض على كل التقولات الكتابية في عهدي القديم و الجديد، مما تدنّس هذه الساحة المباركة بمن قبلها من ساحات النبوات و سواها من أصلاب و أرحام! صحة الأناجيل خطر على قدسية المسيح عليه السلام.

العهدان يتناصران في تبعيد المسيح (عليه السلام) عن حزب اللّه و لا يسمحان له الدخول في جمعية الرب إذ يفتريان عليه أنه من جدود أربعة هم من أولاد زنا- و عوذا باللّه! موآب- فارص- بن عمي- سليمان:

هؤلاء الأربعة من أجداد المسيح حسب الإنجيل، تجد كلهم من أولاد الزنا حسب الكتابات المقدسة!:

«موآب»: عوبيد جد داود النبي أمه روث» (متى 1: 5- 6) و هي من نسل موآب، و المسيح من نسل داود من سليمان (متى 1: 1) فموآب أحد أجداد المسيح و داود و سليمان.

«بن عمي»: رحبعام بن سليمان من أجداد المسيح (متى 1: 7) امه من نسل بن عمي (املوك 14: 21).

«فارص»: و هو ايضا في سلسلة أجداد المسيح (متى 1: 1- 4) و نحن نجد هؤلاء الثلاثة و سليمان في التوراة من ولد الزنا! فموآب و بن عمي هما ابنا لوط حيث زنى ببنتيه سكرانا فولد من الكبرى موآب، و من الصغرى بن عمي، و هما يرأسان سلسلتي موآب و بن عمي (تكوين 19:

30: 38)-.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 312

و فارص او برص ولد من زنا من «تامار» حليلة ابن يهودا حيث زنى بها فولدت فارص و زارح توامين (تكوين 38: 6- 30) و سليمان من ولد «بت شبع» امرأة او ريّا حيث زنى بها داود النبي (متى 1: 6) و حاشاه.

فداود و سليمان و المسيح هم أولاد زنا- و عوذا باللّه- من المحارم، نتيجة تجاوب العهدين في عرض نسبهم، ثم التورات تأتي بتصريحات تخرج المسيح و هؤلاء من حزب اللّه و لا تأذن لهم الدخول في جمعية الرب!.

... «لا يدخل ابن زنى في جماعة الرب، حتى الجليل العاشر لا يدخل منه أحد في جماعة الرب. لا يدخل عموني و لا موآبي في جماعة الرب حتى الجيل العاشر. لا يدخل منهم أحد في جماعة الرب الى الأبد ... لا تلتمس سلامهم و لا خيرهم كل أيامك إلى الأبد» (تثنية 23: 2- 3 و 6)! إذا فلا خير في مسيح الإنجيل و لا يدخل في جماعة الرب فضلا عن ابن يرأسهم- لا يدخل: نهيا او إخبارا- هو و كل ولد زنى و لا سيما الموآبين و بن عمين و هو منهما! فكيف يعتبر نبيا عظيما من اولي العزم أو ابنا للّه ام إلها متجسدا في الناسوت، هذا الافك و البهت الزور في العهدين تجتثه مقالة مسيح القرآن. «وَ جَعَلَنِي مُبارَكاً أَيْنَ ما كُنْتُ»-.

وَ أَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَ الزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا (31).

تلك هي وصية خاصة رابية على أمته، بالصلاة: أداء لها بنفسه و إقامة في أمته و كما في موسى: «إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَ أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي» (20: 14) و ابراهيم: «رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي» (14: 40) و إسماعيل‏ «وَ كانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَ الزَّكاةِ» (19: 55) و هذا النبي و الذين معه: «وَ أْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَ اصْطَبِرْ عَلَيْها» (20: 132) «اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ وَ أَقِمِ الصَّلاةَ» (29: 45) كما و أوحي الى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 313

المرسلين أجمع: «وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وَ إِقامَ الصَّلاةِ وَ إِيتاءَ الزَّكاةِ ..» (21: 73).

و قد تدل «و اوصاني» في المسيح (عليه السلام) إضافة إلى ما يعم المرسلين انه ما كان إلا عبد اللّه، لا إلها او ابنه و إلّا فلمن كان يصلي؟! 6 وَ بَرًّا بِوالِدَتِي ..

جعلني برا بوالدتي و يا للعجاب أن يصبح البر بالوالدة من الميزات الرسالية و هو من النواميس العامة، و الرسالة تتخطى برا بوالدتي أما ذا من قبيله، و تختص بالميزة القمة التي لا تشارك فيها الأمة أم أدنى من القمة كإقام الصلاة و إيتاء الزكاة، دون البر بالوالدة، و لا نجد في سائر القرآن، يعتبره ميزة رسالية اللهم إلا بر الرحمة الالهية: «إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ» (52: 28) و في يحيى‏ «وَ بَرًّا بِوالِدَيْهِ وَ لَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيًّا» (19: 14) ثم و آيات الإحسان بالوالدين تعم الأمم! و لكن‏ «بَرًّا بِوالِدَتِي» في المسيح تعني ايجابية البر بها التي لا اثر عنها في الكتابات الإنجيلية، و كما أن:

7 وَ لَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا (32).

تعني الذود عن ساحته ما مست منه هذه الكتابات إنه كان بها جبارا شقيا!.

المسيح و أمه حسب الإنجيل:

نبدأ هنا بقصة قانا الجليل ما أسوءها لمريم و عيساها إذ تنسب الى المسيح معجزة صناعة الخمر كاولى معجزاته التي دعت تلاميذه إلى الايمان به، و ذلك باستدعاء مريم و هو يهتكها في استدعائها رغم أنه يطبّقها: «و لما فرغت الخمر قالت ام يسوع: ليس لهم خمر. قال لها يسوع مالي و لك يا امرءة لم تأت‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 314

ساعتي بعد- و من فوره يأتي ساعته قائلا: املأ و الاجران ماء .. فلما ذاق رئيس المتكأ الماء المتحول خمرا ...».

هذه بداية الآيات فعلها يسوع في قانا الجليل و أظهر مجده فآمن به تلاميذه»! (يوحنا: 2- 1: 11) .. فمسيح القصة يهتك أمه في كلمة لاذعة «ما لي و لك يا امرأة» رغم إجابتها من فورها لمأمورها كمعجزة أولى!.

هذا- و فتك ثان بها في قصة ثانية يتهمها فيها بعدم الإيمان: «إذ كان يكلم تلاميذه فجاءت حينئذ إخوته و أمه و وقفوا خارجا و أرسلوا إليه يدعونه و كان الجمع جالسا حوله فقالوا: هوذا أمك و إخوتك خارجا يطلبونك.

فأجابهم قائلا: من امي و إخوتي؟ ثم نظر حوله الى الجالسين و قال: ها أمي و إخوتي لأن من يصنع مشيئة اللّه هو أخي و أختي و أمي (مرقس 3: 31) «امي و اخوتي هم الذين يسمعون كلام الله و يعملون بها» (لوقا 8: 19- 21) (متى 12: 46- 50).

فيا لها من نسبة فاسقة كافرة الى مريم و اخوته تمنعا عن مكالمتها فرية عليها أنها تاركة للصالحات، و في حين أنه يؤكد بالغ التوكيد باحترام الأمهات و انه من النواميس العشرة التوراتية دون شرط الإيمان و هي الطاهرة المعصومة (متى 19: 19) (مرقس 10: 19) (لوقا 18: 10) أ فنقضا للنواميس و تناقضا بين القول و العمل بهذه المثابة. و تذليل الأبوين يخلّف لعنة إلهية بتأمين شعب اللّه: «ملعون من يستخف بأبيه أو أمه و يقول جميع الشعب آمين» (تثنية 27: 16).

ثم هو في قصة ثالثة و هي عند صلبه! ينعزل عن بنوّته لها و يهبها لمن يحبه من تلاميذه: (يوحنا) لتكون له اما: و كانت واقفات عند صليب يسوع أمه و اخت مريم زوجه «كلوبا» و «مريم المجدلية». فلما رأى يسوع أمه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 315

و التلميذ الذي كان يحبه واقفا قال لأمه: يا امرأة! هوذا ابنك. ثم قال للتلميذ: هوذا أمك. و من تلك الساعة أخذها التلميذ إلى خاصته» (يوحنا 19: 25- 27)!.

هذا- ثم المختصر في علم اللاهوت العقائدي يحاول انجبار حالة مسيح الإنجيل الجبار العصبي‏ «1»!.

هذه مريم (عليها السلام) و مسيح الجبار العصي تجاهها حسب الإنجيل، ثم نجده و امه حسب القرآن في ارفع مقامات العصمة و الطهارة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تأليف لوديغ اوث ج 2 ص 112- 118- يقول فيه» .. و مريم قد اكتسبت استحقاقات وافرة لا بكفاحها ضد الرغبات الحسية بل بمحبتها للّه و بفضائلها الاخرى:

الايمان- التواضع- الطاعة: (انظر القديس توما 3/ 27: 3 على الثاني) .. فعند تقديس مريم في أحشاء أمها قيدت الشهوات بحيث انتفت كل حركة حسية منحرفة، أما لدن الحمل بالمسيح فقد أخمدت الشهوات إخمادا بحيث ان القوى الحسية صارت خاضعة كل الخضوع لقيادة العقل: (انظر القديس توماس 3/ 27: 3) ... أعلن المجلس التريدنيتني: «ما من بار يستطيع مدة حياته كلها ان يتحاشى كل الخطايا حتى العرضية الا بامتياز خاص من اللّه كما تعتقد الكنيسة انه الحال في الطوباوية العذراء.

(D 338( و قد قال البابابيوس الثاني عشر في رسالته‏siroprocicitsyM عن العذراء ام اللّه: «بأنها كانت في عصمة من كل خطيئة شخصية او وراثية (D 1922( هذه العصمة هي متضمنة في نص لوقا (1: 28) «السلام عليك يا ممتلئة نعمة ...»- كان الآباء اللاتين يجزمون بعصمة مريم من الخطيئة فيعلّم القديس او غسطينوس: ان كل خطيئة شخصية يجب ان تنتفي من العذراء مريم- و القديس افرام يضع مريم البريئة من الدنس في مقام المسيح (انظر: 3).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 316

مريم في القرآن.:

«إِذْ قالَتِ امْرَأَتُ عِمْرانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ ما فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. فَلَمَّا وَضَعَتْها قالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُها أُنْثى‏ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما وَضَعَتْ وَ لَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثى‏ وَ إِنِّي سَمَّيْتُها مَرْيَمَ وَ إِنِّي أُعِيذُها بِكَ وَ ذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ. فَتَقَبَّلَها رَبُّها بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَ أَنْبَتَها نَباتاً حَسَناً وَ كَفَّلَها زَكَرِيَّا كُلَّما دَخَلَ عَلَيْها زَكَرِيَّا الْمِحْرابَ وَجَدَ عِنْدَها رِزْقاً قالَ يا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هذا قالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ» (3: 35- 37).

- «وَ إِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفاكِ وَ طَهَّرَكِ وَ اصْطَفاكِ عَلى‏ نِساءِ الْعالَمِينَ يا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَ اسْجُدِي وَ ارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ» (3: 43) «وَ مَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيهِ مِنْ رُوحِنا وَ صَدَّقَتْ بِكَلِماتِ رَبِّها وَ كُتُبِهِ وَ كانَتْ مِنَ الْقانِتِينَ» (66: 12) و هكذا الى: 35 مرة تذكر في سائر القرآن!.

المسيح في القرآن:

إنه عبد اللّه و نبيه- جعله مباركا أينما كان عبر الأصلاب و الأرحام و عبر حياته النيرة (19: 30- 32) و «لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ» (4: 172) و انما مقالته و حالته طول حياته‏ «إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ» (3: 51) و «إِنَّ مَثَلَ عِيسى‏ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» (3: 59) «إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ وَ جَعَلْناهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرائِيلَ» (43: 59) «وَ إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قالَ سُبْحانَكَ ما يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ ما لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي وَ لا أَعْلَمُ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 317

ما فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ. ما قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا ما أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ» (5: 116- 117).

و هو واحد من اولي العزم الخمس: «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَ ما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى‏ وَ عِيسى‏ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ..» (42: 12) و كتابه الإنجيل: (3: 3 و 48 و 5: 46) و قد سماه اللّه بالمسيح‏ «وَ كَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى‏ مَرْيَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ» (4: 171) و هو من شهداء الأعمال يوم القيامة» (4: 159) و (5: 187) «وَجِيهاً فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ» (3: 45) و من المصطفين المجتبين الصالحين» (3:

33 و 6: 86- 87) و قد علمه الله الكتاب و الحكمة و التوراة و الإنجيل» (3: 48) و كان مبشرا برسول يأتي من بعده اسمه أحمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) (3: 48) «وَ ما قَتَلُوهُ وَ ما صَلَبُوهُ وَ لكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَ إِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّباعَ الظَّنِّ وَ ما قَتَلُوهُ يَقِيناً. بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ..» (4: 157- 158) و سيؤمن به أهل الكتاب قاطبة قبل موته:

«وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ..» (4: 159) و الى (11) مرة عيسى و (25) مرة المسيح المذكورة في سائر القرآن، و تربوا مرة واحدة على امه الطاهرة مريم (عليها السلام)!.

8 وَ السَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَ يَوْمَ أَمُوتُ وَ يَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (33).

هنا في مثلث الولادة و الموت و بعثه حيا بعد الموت دلالة شاملة على كيانه الإنساني فالرب لا يولد و لا يموت حتى يبعث حيا، و في‏ «يَوْمَ أَمُوتُ» دلالة على نكران صلبه فإنه قتل و ليس موتا، و دلالة ثانية أنه يموت و لا يبقى حيا كما اللّه خلاف ما يهرفونه!.

ثم و مثلث الزمان هذا هي أهم دورات الحياة: سلام في الولادة عن رحم يولده من زنا، و عن أصلاب و أرحام الآباء القدامى و الأمهات حتى آدم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 318

و زوجته، و سلام يوم يموت عن أية و صمة او لعنة، خلاف ما اختلقه عليه جماعات من المسيحيين: أنه صلب و بصلبه لعن تحملا عن لعنة سريعة الناموس، ما يتقولونه عليه أنه أبطل شريعة العمل و حصر الشريعة في عدة عقائد خرافية، و ما لعنة الصليب عندهم إلا فداء عما اقترفه المذنبون من أمته هتكا لشريعة الناموس! .. و سلام‏ «يَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا» عن كل و صمة إلا سمة العصمة و الطهارة القمة! «أُبْعَثُ حَيًّا» في عيسى (عليه السلام) ك «يُبْعَثُ حَيًّا» في يحيى يدل على أنه ممن شاء اللّه ألا تأخذه الصعقة الموت حين البعث كما قدمناه في يحيى (عليه السلام).

و من قبل كان مثلث السلام على يحيى المبشر بالمسيح (عليه السلام) كما «و برا بوالدي» كتقدمه للمسيح أن ليس هو المسيح فقط برا بوالدته بل و المبشر به بر بوالديه!.

و ترى إن «سلام» في ذلك المثلث من المسيح على نفسه، فيتفضل يحيى عليه إذ اللّه هو المسلم عليه؟ كلا! حيث المسيح و هو في المهد صبي ليس كلامه الخارق إلا وحيا من ربه ف «سلام علي» يعني سلام اللّه علي و كما اوحى اللّه الي، ان اللّه سلمني و يسلمني في مثلث الزمان من كل ما لا يناسب ساحة رسالة سامية. ف «سلام» من «السلام» على المسيح «السلام» (عليه السلام) دونما قيد او شرط إلّا: «إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتانِيَ الْكِتابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا وَ جَعَلَنِي مُبارَكاً أَيْنَ ما كُنْتُ وَ أَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَ الزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا وَ بَرًّا بِوالِدَتِي وَ لَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا»!.

ذلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (34).

«ذلك» البعيد المحتد عما مسوا من كرامته في هذه الثمانية «عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ» لا الذي تتحدث عنه هذه الكتابات المحرفة الزور و الغرور- «ذلك»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 319

اعني‏ «قَوْلَ الْحَقِّ» فيه لا نفسه‏ «الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ» لا ذاك، فرغم أن المسيح واحد كونا، هو متناقض كيانا حسب القرآن و العهدين و اين مسيح من مسيح!.

ما كانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحانَهُ إِذا قَضى‏ أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (35) وَ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (36).

«ذلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ..» و «ما كانَ لِلَّهِ ..» جملتان معترضتان تبعد كيان المسيح عما تقولوا عليه ثم‏ «وَ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي ..» هو البند التاسع من كلام المسيح (عليه السلام) في المهد صبيا.

نجده‏ «فَما كانَ لَهُ» في سائر القرآن نفي يضرب إلى اعماق الماضي تكوينا او تشريعا كإحالة لمدخولها، و لماذا اللّه يتخذ من ولد لنفسه حتى و لو أمكن و هو محال؟ «سبحانه» في ذاته و صفاته و أفعاله‏ «أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ» ولادة ذاتية ام تشريفية اماهيه، ف «من» جنس و «ما كان» ينفي ذلك الجنس أيا كان و لماذا؟ حيث‏ «إِذا قَضى‏ أَمْراً» عاديا ام خارقا العادة «فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» و قوله هنا فعله بإرادته، و المخاطب تكوينا قد يكون شيئا يتحول الى شي‏ء أخر عاديا كسائر الولادات، ام خارق العادة كما في آدم و المسيح، ام لا يكون شيئا فعليا كالمادة الأولية و أول ما خلق اللّه فهنا المخاطب غيره هناك، حيث التكوين هنا إيجاد لا من شي‏ء، لا من لا شي‏ء، كما أنه هناك ايحاد من شي‏ء، و الأشياء بجنب الإرادة التكوينية ثلاثة:

1- لا شي‏ء بالفعل، و بالإمكان أن يوجد شيئا، فبعلاقة الأول يسمى قبل شيئه شيئا.

2- لا شي‏ء و لا يمكن في المصلحة الإلهية ان يوجد شيئا، فبعلاقة الإمكان يسمى شيئا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 320

3- شي‏ء يجوز تحويله الى غير شيئه عاديا ام خارق العادة و هو الشي‏ء حقيقة، و أما المستحيل ذاتيا فليس يسمى شيئا حتى تتعلق به القدرة و «إِنَّ اللَّهَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ» من تلكم الثلاث «قدير» لا على اللاشي‏ء الذي لا يستحق الشيئية و لا تمكن فيه ذاتيا! «1».

فكلما أن اللّه تعالى قضى خلق آدم من تراب دون أب و أم، كذلك قضى خلق المسيح دون أب مع ام و هو أهون عليه و «إِنَّ مَثَلَ عِيسى‏ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» (3: 59).

إن الحاجة الى الولد تنسيلا من الوالد مستحيلة على اللّه إذ لا أجزاء له، و إلى اتخاذ الولد خروجا عن الوحدة، و سندا في الوحشة مستحيلة لعدم الحاجة، فلما ذا يتخذ ولدا سبحانه و هو مستحيل على ساحته ذاتيا و في صفاته و فعاله؟ «إِذا قَضى‏ أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»!.

«وَ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ ..» تشبه الآية الإنجيلية «اني ذاهب الى آبي و أبيكم ..»: خالقي و خالقكم، و لكنهم تغامضوا عن مد الآب حيث يعني الخالق في لغته اليونانية و فسروه بالأب، و قد جيئت بنصها في آل عمران و الزخرف!. إذا فهي معطوفة على‏ «إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ..» و الايتان قبلها معترضتان، و أصبحت البنود التسعة من كلامه اعترافا بعبوديته بداية «إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ..» و نهاية «وَ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ» خير بداية و خير ختام «متى أرسل بالإنجيل و صار نبيا؟» أ ترى بعد ذلك كله ان المسيح (عليه السلام) آتاه اللّه الإنجيل و جعله نبيا و هو في المهد صبيا؟ و لم تنقل عنه و لا شطر كلمة رسالية حين صباه الى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع ج 29 من الفرقان- كلام في القدرة من اوّل سورة الملك.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 321

كهولته إلا هذه المعرفة لكيانه الرسالي و الذائدة عن امه الطاهرة؟ ان تكليمه الرسالي بداية و هو في المهد- و من ثم منذ الكهولة حتى صعوده‏ «وَ يُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلًا وَ مِنَ الصَّالِحِينَ» (3: 46) «إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلًا ..» (5: 110).

فقد كان مؤيدا بروح القدس إذ يكلم الناس في المهد و كهلا، و لم يقل من المهد الى الكهولة، و انما «فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلًا ..» مما يختص تكليمه في الحالين دون ما بينهما، فتكليمه في المهد يكرس أنباء رسالته كهلا و يذود عن امه و

قد سئل الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) «فما شأنك لم تتكلم بالحكمة حين خرجت من بطن أمك كما تكلم عيسى بن مريم على زعمك و قد كنت نبيا قبل ذلك؟ فقال النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): إنه ليس أمري كأمر عيسى بن مريم ان عيسى بن مريم خلقه اللّه عز و جل من أم ليس له أب كما خلق آدم من غير أب و لا أم و لو ان عيسى حين خرج من امه لم ينطق بالحكمة لم يكن لامه عذر عند الناس و قد أتت به من غير أب و كانوا يأخذونها كما يؤخذ مثلها من المحصنات فجعل اللّه عز و جل منطقه عذرا لأمه» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 336 ح 76 في كتاب علل الشرايع عن وهب اليماني قال: ان يهوديا سأل النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فقال: يا محمد! كنت في ام الكتاب نبيا قبل ان يخلق آدم (عليه السلام)؟ قال: نعم- قال: و هؤلاء أصحابك المؤمنون مثبتون معك قبل ان يخلقوا؟ قال: نعم- قال: فما شأنك ..»

أقول يعني به ثبوت النبوة في علم اللّه و في الايمان به من النبيين اجمع قبل ان يخلق و يبعث، فعلى هذه السابقة الشريفة المنقطعة النظير فما شأنك .. و قد بحثنا عن نبوءته قبل رسالته في «الضحى» نبوءة و نبوة غير ظاهرة الرسالة، لم يؤمر بها قبل الأربعين كما لم يوح اليه القرآن قبله.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 322

فقد

«كان يومئذ نبيا حجة لله غير مرسل» «1»

حيث تنبأ بنبإ الوحي و لما أرسل بكتاب، و ما كلامه عن كتابه و وصيته بالصلاة و الزكاة ما دام حيا و برا بوالديه، إلا انباء لمستقبل أمره، فكتابه الرسالي هو منذ كهولته، و صلاته و زكاته و بره منذ بلوغه او غلمته و اما عبوديته للّه فمنذ ولادته.

و لو كان رسولا حجة على الخلق أجمعين منذ تكلّمه في المهد لكان حجة على زكريا و يحيى، و إنما

«كان في تلك الحال آية لله و رحمة من الله لمريم حين يكلم فعبر عنها و كان نبيا حجة على من سمع كلامه في تلك الحال» «2»

دون الخلق أجمعين فضلا عن زكريا و يحيى! و هذه الكرامة الالهية للمسيح تفسح مجالا لتصديق كرامات اخرى لآخرين من أولياءه الصالحين كما للبعض من أئمتنا المعصومين في مظاهر أمرهم‏ «3» و ان كان كلهم اصحاب هذه الكرامات منذ ولادتهم!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1- 2)

المصدر 333 ح 66 في اصول الكافي باسناده الى أبي جعفر الكناسي قال: سألت أبا جعفر (عليه السلام) أ كان عيسى بن مريم حين يكلم في المهد حجة اللّه على اهل زمانه؟ فقال: كان يومئذ نبيا حجة للّه غير مرسل اما تسمع لقوله حين قال: اني عبد اللّه آتاني الكتاب و جعلني نبيا و جعلني مباركا أينما كنت و اوصاني بالصلاة و الزكاة ما دمت حيا» قلت: فكان يومئذ حجة اللّه على زكريا في تلك الحال و هو في المهد؟ فقال: كان عيسى في تلك الحال آية للّه و رحمة من اللّه لمريم حين يكلم فعبر عنها و كان نبيا حجة على من سمع كلامه في تلك الحال، ثم صمت فلم يتكلم حتى مضت له سنتان و كان زكريا الحجة للّه عز و جل بعد صمت عيسى بسنتين ثم مات زكريا فورثه ابنه يحيى الكتاب و الحكمة و هو صبي صغير اما تسمع لقوله عز و جل‏ «يا يَحْيى‏ خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ وَ آتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا» فلما بلغ سبع سنين تكلم بالنبوة و الرسالة حين اوحى اللّه اليه فكان عيسى الحجة على يحيى و على الناس أجمعين و ليس تبقى الأرض يا أبا خالد يوما واحدا بغير حجة للّه على الناس منذ يوم خلق اللّه آدم (عليه السلام) و اسكنه الأرض».

(3)

نور الثقلين 3: 334 ح 67- عن اصول الكافي عن صفوان بن يحيى قال‏ قلت‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 323

فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (37).

اختلفوا في كل من هذه البنود الثمانية، في- 1- عبوديته- 2- و كتابه- 3- و نبوته- 4- و بركته- 5- و صلاته و زكاته- 6- و بره بوالدته 7- و ان لم يكن جبارا شقيا!- 8- و السلام عليه.

ففي كونه عبدا و هو أهم كونه اختلفوا من بينهم بين مثلثين‏ «1» و مريميين ثنوية «2» او مثلثين‏ «3» و مؤلهي المسيح كإله واحد «4»، غضا عن الوهية اللّه و موحدين حقيقيين و قليل ما هم‏ «5» و كما اختلفوا في ولادته و حياته و موته، و في كتابه و شريعته أما ذا من كيانه و امه!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

للرضا (عليه السلام) قد كنا نسألك قبل ان يهب اللّه لك أبا جعفر فكنت تقول:

يهب اللّه لي غلاما، فقد وهب اللّه لك فقر عيوننا فلا أرانا اللّه يومك فان كان كون فالى متى؟ فاشار بيده الى أبي جعفر (عليه السلام) و هو قائم بين يديه فقلت: جعلت فداك هذا ابن ثلاث سنين! قال: و ما يضره من ذلك شي‏ء قد قام عيسى (عليه السلام) بالحجة و هو ابن ثلاث سنين‏

و

في نقل آخر عنه (عليه السلام): ان اللّه تبارك و تعالى بعث عيسى ابن مريم رسولا نبيا صاحب شريعة مبتدأة في أصغر من السن الذي فيه ابو جعفر (عليه السلام).

أقول: الرسالة الفعلية للمسيح (عليه السلام) منذ ثلاث من عمره لا يصدقها تاريخ رسالته و لا القرآن، بل و «كهلا» في آيتيه لعله يعارضها، اضافة الى الحديث السابق حيث بدء رسالته من السبع، فلا يصدق من هذه الروايات الا ما يصدقه القرآن او لا يكذبه و اللّه اعلم.

(1). «إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَ كَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى‏ مَرْيَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ لا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلهٌ واحِدٌ سُبْحانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ كَفى‏ بِاللَّهِ وَكِيلًا» (4: 171).

(2) «وَ إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ...» (5: 116).

(3) في اللاهوت العقائدي ج 2 ص 108 لمؤلفه لوديغ اوث «ان مريم هي حقا ام اللّه تقول الكنيسة في قانون الرسل بان ابن اللّه ولد من مريم العذراء فهي ام اللّه من حيث هي ام ابن اللّه.

(4) «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ..» (5: 72) «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ» (5: 73).

(5) هم الثلثان من أعضاء نيقية الموحدون حيث اضطهدوا بالثلث غير الموحدين و يأتي تفصيله بطيات آياته.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 324

«فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا» عن القول الحق في المسيح (عليه السلام) «مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ» اوّله يوم الرجعة حيث ينزل المسيح (عليه السلام) و ثانيه يوم الموت، و ثالثه يوم القيامة و هي ايام اللّه و ان كان الأخير أعظمها!-:

أَسْمِعْ بِهِمْ وَ أَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنا لكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (38).

«يَوْمَ يَأْتُونَنا» فرادى و «يَوْمَ يَأْتُونَنا» جماعات يومي الموت و القيامة الكبرى‏ «أَسْمِعْ بِهِمْ وَ أَبْصِرْ»: ما أسمعهم و أبصرهم بالحق فيهما بعد ما عاشوا صما و بكما في الظلمات يوم الدنيا، فلا ينفعهم ما يسمعون من الحق و ما يبصرون إذ قضى الأمر و لات حين مناص، فليقولوا حاسرين‏ «رَبَّنا أَبْصَرْنا وَ سَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ» (32: 12) «لكِنِ الظَّالِمُونَ» إذ ظلموا في صممهم و عما هم عامدين‏ «الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ» في ضلال هناك نتيجة ضلالهم هنا، عن رحمة اللّه، فقد تناسوا في اليوم الأول غده ثم ليس لليوم الآخر غد يقدمون له!.

ثم الحق الذي يسمعونه و يبصرون هو كل الحق، ما تركوه و كذبوا به، و ما خلّفه تكذيبهم، حيث السمع و البصر هنالك حديد: «لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» (50: 32).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 325

و قد يشمل‏ «أَسْمِعْ بِهِمْ وَ أَبْصِرْ» امر الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) كشهيد الشهداء أن يجعل سائر أهل الحشر يسمعون و يبصرون‏ «1» حالة هؤلاء الظالمين النكدة، إذا ف «اسمع» جامعة هنا بين الأمر و أفعل التعجب، و لا يعني العجاب هنا إلا أنه موضعه لمن يعجب دون اللّه سبحانه فانه ليس ليعجب!.

وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ وَ هُمْ لا يُؤْمِنُونَ (39).

«يَوْمَ الْحَسْرَةِ» هو يوما الموت و القيامة الكبرى حسرة على الظالمين: «أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتى‏ عَلى‏ ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ» (39: 56) «كَذلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ حَسَراتٍ عَلَيْهِمْ وَ ما هُمْ بِخارِجِينَ مِنَ النَّارِ» (2: 167) «حَتَّى إِذا جاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قالُوا يا حَسْرَتَنا عَلى‏ ما فَرَّطْنا فِيها» (6: 31) لذلك فهو لهم‏ «يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ» أمر التكليف و مجال التوبة عما أترفوا فيه، فلا حسرة عما مضى إن كان هنالك انجبار يصلح ما يأتي.

و قد يعني يوم الحسرة هنا فقط يوم الموت‏ «وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ وَ هُمْ لا يُؤْمِنُونَ» حيث البرزخ ليس يوم الغفلة و لا يوم الايمان حتى يندّدوا بعدم الايمان، اللهم الا لمن يجمع يوميه ظالما و هو الذي يموت بالنفخة الاولى و يحيى بالثانية و هم قلة قليلة امام جمع الظالمين المحشورين، فمهما كان يوم القيامة الكبرى هو يوم الحسرة الكبرى و لكن‏ «وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ وَ هُمْ لا يُؤْمِنُونَ» يختصه هنا بالقيامة الصغرى، اللهم إلّا ان يعتبر اليومان واحدا هما «يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ» «هُمْ فِي غَفْلَةٍ وَ هُمْ لا يُؤْمِنُونَ» يعني بداية يوم الحسرة و هو القيامة الصغرى، و قد يعني‏ «إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ»- فيما يعني- قضاء امر الموت‏ «2»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و «بهم» اعتبارا بافعل التعجب دون الأمر فانه متعد بنفسه.

(2)

الدر المنثور 4: 371- اخرج سعيد بن منصور و احمد و عبد بن حميد و البخاري‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 326

لأهل الجنة تماما، و لأهل النار ما داموا هم في النار.

إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَ مَنْ عَلَيْها وَ إِلَيْنا يُرْجَعُونَ (40).

تأكيدات اربع «ان- نا- نحن- نرث» تدليلا صارما على وراثة الأرض و من عليها للّه الواحد القهار، و من ثم‏ «وَ إِلَيْنا يُرْجَعُونَ».

انه لا وارث للّه من ولد يتخذه مسيحا ام سواه، بل هو الوارث للأرض‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و مسلم و الترمذي و النسائي و ابو يعلى و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن حيان و ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): إذا دخل اهل الجنة الجنة و اهل النار النار يجاء بالموت كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة و النار فيقال:

يا اهل الجنة! هل تعرفون هذا؟ فيشرفون و ينظرون و يقولون: نعم هذا الموت و كلهم قد رآه ثم يقال يا اهل النار هل تعرفون هذا فيشرفون و ينظرون و يقولون نعم هذا الموت و كلهم قد رآه فيؤمر به فيذبح فيقال يا اهل الجنة خلود فلا موت و يا اهل النار خلود فلا موت ثم قرأ رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) «وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ» و أشار بيده و قال: اهل الدنيا في غفلة»

و

في تفسير القمي ابو ولاد الحناط عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: سئل عن قوله‏ «وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ» قال:- و ذكر مثله الى قوله: ثم يقال: يا اهل الجنة خلود فلا موت ابدا و يا اهل النار خلود فلا موت ابدا و هو قوله عز و جل: «وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ» اي: قضي على اهل الجنة بالخلود فيها و قضي على اهل النار بالخلود فيها.

أقول: يختلف الخلودان و الأبدان في الخلودين في الحديثين، فالخالدون في الجنة لا يموتون ابدا فانها «عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ» و الخالدون في النار منهم من يخرج الى الجنة فلا يموت كسائر اهل الجنة، و منهم من يظل في النار ما دامت النار فلا موت إذا في النار، و اما الفناء بفناء النار فلا ينافي الخلود و لا أبده في النار، فأبد الخلود في النار يقدر بقدر ابد النار كما الجنة بالجنة- راجع ج 30 تفسير قوله تعالى‏ «لابِثِينَ فِيها أَحْقاباً» و سورة الاسراء من هذا التفسير ففيه بحث فصل حول الخالدين في النار.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 327

و من عليها مسيحا و سواه. لقد ملكنا ربنا أنفسنا و الأرض محنة التكامل بالاختيار و مهنته بما هبانا من وسائل و اسباب، ملكا عرضيا مؤقتا لذلك الهدف الاسمى، دون ملك حقيقي فانه لزام ربوبيته دون انتقال، ثم اللّه ينشئ النشأة الاخرى حيث تزول هذه الملكية العرضية فهو الوارث لما ملكه من‏ «الْأَرْضَ وَ مَنْ عَلَيْها» فإنهم‏ «إِلَيْنا يُرْجَعُونَ» فلا يملكون لأنفسهم نفعا و لا ضرا إلّا ما قدموه يوم الدنيا «لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ» (40:) 16) فهم منذ موتهم حتى الأبد معزولون عما ملكوا يوم الدنيا «وَ إِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَ نُمِيتُ وَ نَحْنُ الْوارِثُونَ» (15: 23) «وَ لِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ» (3: 180)!

[سورة مريم (19): الآيات 41 الى 50]

وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِبْراهِيمَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا (41) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ وَ لا يُبْصِرُ وَ لا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً (42) يا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ ما لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِراطاً سَوِيًّا (43) يا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيًّا (44) يا أَبَتِ إِنِّي أَخافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحْمنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطانِ وَلِيًّا (45)

قالَ أَ راغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يا إِبْراهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَ اهْجُرْنِي مَلِيًّا (46) قالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا (47) وَ أَعْتَزِلُكُمْ وَ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ أَدْعُوا رَبِّي عَسى‏ أَلاَّ أَكُونَ بِدُعاءِ رَبِّي شَقِيًّا (48) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَ ما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ كُلاًّ جَعَلْنا نَبِيًّا (49) وَ وَهَبْنا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنا وَ جَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (50)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 328

وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِبْراهِيمَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا.

نجد «ابراهيم» عليه السلام 69 مرة في الذكر الحكيم، و أصله العبراني آبراهام- او- أب رام، يعني: أبا جماعة كثيرة، و كما في التوراة: التكوين 17: 20 «و ليشمعيل شمعتيخا هينه برختي اوتو و هيفرتي اوتو و هيربتي اوتو بمئدمئد شنيم عاسار نسيئيم يولد و نتتيو لغوي غادل».

«و لإسماعيل سمعته (ابراهيم) ها انا أباركه كثيرا و أنميه و أثمره كثيرا و ارفع مقامه كثيرا بمحمد و اثنى عشر إماما يلدهم إسماعيل و اجعله امة كبيرة «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع كتابنا رسول الإسلام في الكتب السماوية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 329

«إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً»: كثير الصدق و مبالغه في تطابق حاله و أقواله و أفعاله في حلّه و ترحاله «نبيا»: رفيع المنزلة بين الصديقين فإنهم بين‏ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ أُولئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَ الشُّهَداءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ ...» (57: 19) ثم معصوم لا رسول و لا خليفة رسول كمريم (عليها السلام): «وَ أُمُّهُ صِدِّيقَةٌ» (5: 75) ثم خلفاء الرسول المعصومين‏ «وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَداءِ وَ الصَّالِحِينَ» (4: 69) ثم الرسل‏ «وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا» (19: 56) و «يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ ..» (12: 46) فإبراهيم نبي:

رفيع المنزلة بين الصديقين الرسل فضلا عمن سواهم، و قد يكفي «نبيا» تدليلا على رفعته بين الرسل، إلّا ان صديقا يضيف اليه نبوة بين الصديقين الرسل فضلا عمن سواهم، و من نبوته الصدّيق حواره الصارم مع أبيه حيث لم يجرفه جوّ الربوة و التربية الشركية، فلم يزلزله عن موقفه الصارم في التوحيد و دعوته.

إِذْ قالَ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ وَ لا يُبْصِرُ وَ لا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً (42).

أبوه هذا ليس الأب الوالد، بل هو عمّه أم جد لأمه، فكان يربيه كأب منذ طفوليته إذ مات والده، و هنا يوبخه باحترام و دونما اخترام: «يا أبت» «1»! سائلا عنه السبب لعبادته الأوثان من دون اللّه، و أقله أن تسمع او تبصر، و من ثم تغني و تكفي عنه شيئا، و أكثره أن يكون الخالق الكامل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 4: 272- اخرج ابو نعيم و الديلمي عن انس قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): حق الوالد على ولده ألا يسميه الا بما سمى ابراهيم أباه: يا أبت- و لا يسميه باسمه-

أقول هذا لا يدل على ان أباه كان والده حيث الاحترام للوالد و من هو بمنزلته كالعم و الجد.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 330

الكافل لكل ما يحتاجه عبده، و لا تملك الأوثان كثيرا و لا قليلا مما يسبب عبودتها، و الرب يكون مع عبده يراعيه: «إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَ أَرى‏» «إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ».

يا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ ما لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِراطاً سَوِيًّا (43).

إنه لا بد للجاهل متابعة العالم و لا سيما الذي جاءه من العلم ما جاء ابراهيم من علم الملكوت وحيا إضافة الى علمه الفطري الناضج و آزر يحرم العلمين قصورا عامدا و تقصيرا!.

و ليست الهداية الى صراط سوي دونما عرج و لا حرج و لا عوج إلا على ضوء علم يأتي الإنسان من اللّه‏ «جاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ ما لَمْ يَأْتِكَ» حيث العلم الداخل من فطرة و عقل، او مكتسب كما الداخل من غير اللّه، هذا العلم ليس معصوما عن خطأ مهما أصاب، فلا يصيب الصراط السوي الا على ضوء العلم الخارج وحيا!.

يا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيًّا (44) يا أَبَتِ إِنِّي أَخافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحْمنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطانِ وَلِيًّا (45).

أ ترى بعد ما يندد به لأنه يعبد ما لا يسمع و لا يبصر، كيف ينهاه هنا عن عبادة الشيطان و اسمع به و ابصر؟! و ان كان لا يغني عنه شيئا؟ علّه لا يعني من عبادة الشيطان اتخاذه معبودا كما اللّه، و إنما طاعته المطلقة كأنه معبود «أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ» (36: 60).

فما لم تكن هنا طاعة مطلقة للشيطان فكيف يتبع فيما ليس له من سلطان ان تعبد من دون اللّه أوثان لا تسمع و لا تبصر و لا تعني شيئا؟ فلو ان‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 331

الشيطان كان مطيعا للرحمان لم تحق له العبادة و مطلق الطاعة، كيف و قد «كانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيًّا» فالرحمن الذي منه الرحمة العامة لكل كائن كيف يترك إلى الشيطان و هو عصيّ الرحمان، يبدل رحمته نقمة و هداه ضلالا.

و ترى إذ كان أبوه يعبد الشيطان فكيف يخاف عليه أن يمسه عذاب من الرحمن فيكون وليا للشيطان، و مس العذاب و ولاية الشيطان لزامان لمن يعبد الشيطان؟ و الخوف يلمح بتردد راجح!.

في‏ «إِنِّي أَخافُ» لمحة أن ابراهيم (عليه السلام) لمّا يعرف حتى الآن أن أباه عدو للرحمن، فكأنه مستضعف جاهل او يحتمله، كما و أن‏ «فَتَكُونَ لِلشَّيْطانِ وَلِيًّا» لمحة اخرى تؤيدها أنه لم يكن يعلم آنذاك ولايته المعمدة المعاندة الحق للشيطان، و من ثم‏ «وَ اهْجُرْنِي مَلِيًّا» أيدت تلك اللمحة فأعذرت ابراهيم في وعد الاستغفار و تحقيقه!.

ثم الإنسان ولي لمن والاه في الاخرى كما الاولى و للّه الآخرة و الاولى.

و هذه الدعوة اللطيفة الخفيفة بقاطع البرهان و أرق الألفاظ و أدقها لم تكن لتصل الى قلب خاو هاو فإذا بآزر في عربدة نكراء و طنطنة غوغاء.

قالَ أَ راغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يا إِبْراهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَ اهْجُرْنِي مَلِيًّا (46).

فلم يكن لولي الشيطان جواب إلا سؤال التنديد الشديد: «أَ راغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يا إِبْراهِيمُ»؟ رغبة عما أعبده و أنا أبوك و هي آلهتي‏ «لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ» عن هذه الرغبة المعارضة «لأرجمنك» إذ كان الرجم شر عذاب:

«وَ لَوْ لا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ» (11: 91) «لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَ لَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ» (36: 18) «وَ اهْجُرْنِي مَلِيًّا» فاعزب عن محاورتي و اغرب عن مواجهتي طويلا! فالتملي بشي‏ء هو التمتع به بملاوة من دهر، و هناك‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 332

شعّ له الرجاء بعد الخوف و العناء كأن أباه يتمهل بالهجر الملي ان يفكر مليّا علّه يخرج عن غيّه، و ذلك تمهّل و شك مقدس ام الى قداسة و لذلك يسلم عليه إبراهيم و يعده الاستغفار إذ:

قالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا (47).

هناك يسلم عليه و يعده الاستغفار و لما، و لماذا السلام على المشرك و وعد الاستغفار؟ و «ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَ لَوْ كانُوا أُولِي قُرْبى‏ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ»!.

الجواب- «وَ ما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ..» (9: 113) «فَلَمَّا تَبَيَّنَ» هنا تبين أنه استغفر له قبل التبين‏ «عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ» لا تعني إلا موعدة آزر لإبراهيم حيث ترجى فيها هداه، فلم يتبيّن له أنه عدو للّه رغم ما تقدم من عداه، و لا مجال لتفهم هذه الموعدة في القرآن إلا «وَ اهْجُرْنِي مَلِيًّا» فلو انه كان مصرا في عداه لكان يرجمه او يلزمه. كيلا ينشر دعوته ضد الآلهة، إذا «وَ اهْجُرْنِي مَلِيًّا» تمتعا بملاوة من الدهر، يرجيه بموعدة التفكير مليا علّه يهتدي، ام يقول كلمته الاخيرة بعد مليّ التفكير، لذلك يسلم عليه إخبارا أنه سوف لا يرى منه سوء، و دعاء ان اللّه يوفقه في هجرة الملي لهداه، ثم يعده الاستغفار موعدة عن موعدة فاستغفر له بعد ملي لم ير منه ما كان يسمعه و يراه من عداه: «وَ اغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كانَ مِنَ الضَّالِّينَ» (26: 86) ف «كان» هنا تضرب الى ماضي حاله، و أما حاله و منذ موعدته‏ «وَ اهْجُرْنِي مَلِيًّا» فلم تتبين له أنها استمرارية ضلاله، و لذلك يستغفر له‏ «فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ» فلم يعد يستغفر لأبيه و إن استغفر لوالديه في نهاية أمره و خاتمة عمره عند بناء البيت، «رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَ لِوالِدَيَّ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ» (14:) 41) فلو أن والده أبوه لأصبح كلام اللّه‏ «تَبَرَّأَ مِنْهُ» كذبا، و أصبح ابراهيم رسول اللّه عاصيا إذ «لم يتبرأ منه»!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 333

إذا فأبوه- هنا- لم يكن والده، و لم يستغفر لأبيه إلا عن موعدة لم يتبين فيها أنه عدو للّه فساحته إذا براء عن الاستغفار للمشترك على تبين عداه، فانما لا يجوز الاستغفار لمن تبين انه عدو للّه فهو من اصحاب الجحيم، دون المشكوك هداه و عداه.

إذا فالاستغفار جائز لمن يجوز له ان يغفر و ان كانت حالته الحاضرة كافرة لا تغفر إذ يجوز تحوله في مستقبل قبل ان يأخذه الأجل فيجوز له ان يغفر.

و اما الذي تبين أنه من اصحاب الجحيم، إذ مات مشركا فلا يستغفر له، لأنه تحميل على اللّه ما ليس ليقبله او هزء به! «سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي» إذ وعدتني في هجري الملي خيرا و ل «إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا»: برا لطيفا، فالحفاوة الربانية تقتضي غفرك بما أستغفر لك، و هي لا تقتضي غفرا لأصحاب الجيم ..

فقد كان ابراهيم معذورا في استغفاره لأبيه خطأ في موضوعه لا في حكمه و موضعه، فلم تكن الأسوة الحسنة فيه تشمل خطأه: «قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْراهِيمَ وَ الَّذِينَ مَعَهُ‏ ... إِلَّا قَوْلَ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ..»

(60: 4).

و ترى السلام على المشترك هل يجوز حال شركه مهما جاز الاستغفار له قبل أن يتبين كونه من اصحاب الجحيم؟.

«سَلامٌ عَلَيْكَ» قد يعني الاخبار أن لا يصلك مني إلا سلام عدل ام فضل دونما ظلم و لا نقير، و هكذا سلام واجب كل مؤمن و جاه الآخرين أيا كانوا، مقالا و حالا و أفعالا.

و قد يعني الدعاء ان يسلمك اللّه و ينزل عليك رحمته السلام، و هذا لا يحق إلا لمن يستحق سلاما من اللّه من مسلم للّه أمّن هو في سبيل الإسلام او

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 334

مشكوكة حاله‏ «وَ السَّلامُ عَلى‏ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى‏» (20: 47) و اما المقطوع انقطاعه عن اللّه، الشريد عن اللّه، و الطريد عن رحمه اللّه، فلا يستحق سلاما كما الاستغفار.

و كما جاز وعد الاستغفار لأبيه إذ لم يتبين له أنه عدو للّه، كذلك السلام و لا سيما في مواجهة الدعوة الى اللّه، حيث تجلب المدعو بحنانه الى اللّه، و حتى إذا تبين أنه عدو للّه، فسلام عليك بمعنى الاخبار لا محظور فيه! «وَ قِيلِهِ يا رَبِّ إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ. فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَ قُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» (43: 89) «سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ» (28: 55) «وَ إِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً» (25: 63).

إذا فسلام الاخبار عام لا محظور فيه، و سلام الدعاء يخص غير من تبين انه من أصحاب الجحيم، كدعاء الهداية و الاستغفار، مهما كان في حاضره من الكفار.

و القول ان جواز السلام على الكفار لعله شرعة ابراهيمية ليست في الإسلام كما و عديد من الأحاديث تمنعه، جوابه انه لم ينسخه القرآن. بل و أيده: «و قل سلام- سلام عليكم- قالوا سلاما» و هذه الأحاديث مطروحة بمخالفة القرآن، او مؤولة الى سلام الدعاء، المحظور على من تبين انه من اصحاب، الجحيم، دون سلام الإخبار، و السلام!.

وَ أَعْتَزِلُكُمْ وَ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ أَدْعُوا رَبِّي عَسى‏ أَلَّا أَكُونَ بِدُعاءِ رَبِّي شَقِيًّا (48).

و ترى كيف يعتزل صاحب الدعوة الرسالية مرسلا إليهم و يدعو ربه بعيدا عنهم؟ إنه اعتزال عنهم و ما يدعون من دون اللّه! فإذ يهدده المرسل اليه «لأرجمنك» و في إمكانيته رجمه، ثم يطلب اليه هجره مليا في لمحة إمهاله علّه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 335

يفكر و يرجع عن غيه، و إلّا فليعش في جوّ الإشراك باللّه دونما فائدة إلا ظلامة القرب من الأوثان، فالاعتزال إذا واجب أو راجح ذو أبعاد ثلاثة، و فيه‏ «أَدْعُوا رَبِّي» و عله يخفف عن وطأة الشرك في أبيه أو يهديه‏ «عَسى‏ أَلَّا أَكُونَ بِدُعاءِ رَبِّي شَقِيًّا» هجر ملي و دعاء غير شقي و رب حفي و هنالك تتم و هبة الرحمة الربانية بلسان صدق علي‏

«رحم الله عبدا طلب من الله عز و جل حاجة فألح في الدعاء استجيب له او لم يستجب ..» «1».

فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَ ما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ كُلًّا جَعَلْنا نَبِيًّا (49) وَ وَهَبْنا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنا وَ جَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (50).

أ ترى ان إسحاق هو بكر مواليد إبراهيم فيفرد بذكره هنا؟ ام هو إسماعيل كما يتقدم عليه فيما يذكران‏ «2»؟ بكره هو إسماعيل لتقدمه حيث يذكران، و قد يفرد بذكر إسحاق حيث المقام مقامه و الأنبياء الإسرائيليين‏ «3» و هنا كامثاله يقتصر على ذكره حيث الهدف ذكر توالي النبوة في الشجرة الإسرائيلية و لذلك يعقبه بيعقوب ابنه دون إسماعيل أخيه، كما قد يذكر إسماعيل وحده دون إسحاق (عليه السلام) «4» حيث المقام يخصه دونه، و حين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 3: 339 ح 86 في اصول الكافي عن ابن قداح عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): ... و تلا هذه الآية.

(2) «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ» (14: 39) «أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطَ كانُوا هُوداً أَوْ نَصارى‏» (2:) 14) و 3: 84 و 4: 163 و 2: 133 و 136.

(3) «كَما أَتَمَّها عَلى‏ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْراهِيمَ وَ إِسْحاقَ» (12: 6) «وَ اتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائِي إِبْراهِيمَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ» (12: 38) و لا مجال هنا لذكر إسماعيل إذ ليس أبا يوسف و انما عمه.

(4) «وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَ إِسْماعِيلُ» (2: 127)-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 336

يجتمعان يتقدمه إسماعيل دونما استثناء! و في التوراة تصديق ان إسماعيل بكر ولده‏ «1».

«و كلا» من إسحاق و يعقوب‏ «جَعَلْنا نَبِيًّا» رسولا رفيع المنزلة بين الرسل‏ «وَ وَهَبْنا لَهُمْ» ابراهيم و إسحاق و يعقوب‏ «مِنْ رَحْمَتِنا» من طيبة الولادة و العلم و العمل الصالح، رحمات متصلة بهم و منفصلة عنهم، و من الثانية «وَ جَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا» و هو إجابة لدعوته: «وَ اجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ» (26: 84) و ما الآخرون في البيئة الرسالية الصادقة إلا محمد و عترته المعصومون (عليهم السلام) فهم إذا لسان صدقه العلي! هنا و ان لم يذكر إسماعيل (عليه السلام) إذ لم يكن المقام محله، فقد ذكر عاليا في لمحة «وَ جَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا» حيث الآخرون هم من نسل إسماعيل و هم لسان صدق لهم عليّ ينطق بالرسالة الصادقة و الولاية الفائقة ما لم يسبق له مثيل.

و لسان صدق من اضافة اللسان الى أفضل حالاته و أشرف متصرفاته، و علّ اللسان و هنا لسانان: لسانهم الرسالي لأممهم، المبشر بلسان صدق في الآخرين كما بشروا في كتاباتهم بالرسول محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم)- و لسان آخر منفصل عنهم يصدقهم فيما أرسلوا و بشروا و هو محمد خاتم النبيين، لو لا لسانه الصدق عنهم، المصدّق لهم لما صدقنا رسالاتهم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

«وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِسْماعِيلَ إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ» (19: 54) «وَ اذْكُرْ إِسْماعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ ذَا الْكِفْلِ وَ كُلٌّ مِنَ الْأَخْيارِ» (38: 48) «وَ إِسْماعِيلَ وَ إِدْرِيسَ وَ ذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ» (21: 85)

(1). تكوين المخلوقات الاصحاح 16- الآيات 1- 6 و منها قول سارة زوجته «ادخل على جاريتي لعلي ارزق منها بنين (2).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 337

«ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ وَ لكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَ خاتَمَ النَّبِيِّينَ» (33: 40) و الخاتم هو المصدق آخر الكتاب، و محمد يختم كتاب الرسالات ختاما و تصديقا «وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَ حِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ ..» (3: 81).

فهم- ابراهيم- إسحاق- يعقوب- لسان صدق علي، و لهم في الآخرين لسان صدق علي محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و علي و عترتهما المعصومون و هم أعلى! فأين نبيّ من نبي و ولي من ولي و علي من علي؟.

و قد يعني‏ «وَ وَهَبْنا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنا»- في أهم ما يعنيه- أهل بيت الرسالة المحمدية، كما و أنهم لسان صدق علي‏ «1»

«و لسان الصدق للمرء يجعله الله في الناس خير من المال يأكله و يورثه» «2»

او

«يورثه من لا يحمده» «3»!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 339 في تفسير القمي‏ «وَ وَهَبْنا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنا» يعني لإبراهيم و إسحاق و يعقوب‏ «مِنْ رَحْمَتِنا»: رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) «وَ جَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا» يعني امير المؤمنين حدثني بذلك أبي عن الحسن بن علي العسكري (عليه السلام).

أقول: يعني امير المؤمنين تفسير بمصداق مختلف فيه ليلحق بالمصداق المتفق عليه و هو الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم).

(2) المصدر ح 88 في اصول الكافي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال قال امير المؤمنين (عليه السلام).

(3)

في نهج البلاغة قال (عليه السلام): ان اللسان الصالح يجعله اللّه للمرء في الناس خير له من المال يورثه من لا يحمده.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 338

[سورة مريم (19): الآيات 51 الى 57]

وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ مُوسى‏ إِنَّهُ كانَ مُخْلَصاً وَ كانَ رَسُولاً نَبِيًّا (51) وَ نادَيْناهُ مِنْ جانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَ قَرَّبْناهُ نَجِيًّا (52) وَ وَهَبْنا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنا أَخاهُ هارُونَ نَبِيًّا (53) وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِسْماعِيلَ إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ وَ كانَ رَسُولاً نَبِيًّا (54) وَ كانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَ الزَّكاةِ وَ كانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (55)

وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا (56) وَ رَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيًّا (57)

وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ مُوسى‏ إِنَّهُ كانَ مُخْلَصاً وَ كانَ رَسُولًا نَبِيًّا (51) المخلص- فتحا- هو الذي أخلصه اللّه بعد ما أخلص هو نفسه فأصبح مخلصا للّه، عصمة إلهية تجعل العصمة البشرية بالغة المدى لحد ينتجب لرسالة، و نبوة إلهية، و «رَسُولًا نَبِيًّا» مر بيانه و سطع برهانه.

«وَ نادَيْناهُ مِنْ جانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَ قَرَّبْناهُ نَجِيًّا» (52) «الأيمن» هنا كما في‏ «واعَدْناكُمْ جانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ» (20: 80) صفة تفضيل لجانب، يعني الجانب الأيمن من الطور لا اليسار و لا اليمين، و ليس صفة للطور حيث الأيمن في طه منصوب لا يناسب صفة للطور، و انه لم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 339

يوصف في ثمان اخرى‏ «1» بالأيمن! و لان الوحي يمن و يمين فمناداته جانب الأيمن مكانا كما هو الأيمن مكانة! أفضل اليمن و اليمين.

ثم و «من» تقرر منفذ الوحي اليه في كلام يسمع فليكن في مكان كما الموحى اليه في مكان، مهما لم يكن للموحي المنادي مكان و لا زمان، حيث يخلق الكلام كما يخلق سائر الخلق، و لكنه كلام خارق سنة الكلام في لفظه و معناه حيث هما من اللّه دون مكلّم بشري أو ملائكي أمن ذا؟

فكما اللّه خلق المسيح دون أب، و خلق آدم دون أبوين، كذلك الكلام الذي كلّم به كليمه خلقه دون لسان و شفه و مخرج صوت.

وَ قَرَّبْناهُ نَجِيًّا ..

«نجيا» حال من المقرّب و حال من المتقرب و على أية حال يعني النجوى كما يعني النجاة: «فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا» (12: 80) اللهم إلّا نجاة اللّه إذ لا يخاف حتى ينجو، فقد قربه «نجيا» هو عمن يبعّده او يشغله من اهله، و عمن يتربص به دائرة السوء كآل فرعون، و من ثم «نجيا» في نجواه إليه وحيا، و نجوى موسى الى ربه و قد يجمعهما «وَ ما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسى‏. قالَ هِيَ عَصايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْها وَ أَهُشُّ بِها عَلى‏ غَنَمِي وَ لِيَ فِيها مَآرِبُ أُخْرى‏» (30: 18).

ف «نجيا» هذا يجمع بين شرطي ذلك القرب، سلبا في نجيّ النجاة عمن سوى اللّه، و إيجابا في نجي النجوى مع اللّه، و قد يشير الى نجاته‏ «فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً»- و الى نجواه: «وَ أَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِما يُوحى‏» (20: 12)!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هي 2: 62 و 93 و 4: 154 و 28: 29 و 46 و 52: 1، و قد وصف مرة بسيناء 23: 20 و اخرى بسينين 95: 2.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 340

و هل هناك نجي النجوى دون من اليه يوحى؟ أجل و قد يكون اجل و اجلى من بعض الرسل كأئمة الهدى‏ «1» حيث النجوى تعم الوحي و الإلهام بمراتبهما، فوحي النبوة يخص الأنبياء، و إذا ختم الوحي بختم النبوة فإلهام قد يكون أرقى من بعض الوحي كما كان يلهم الى أئمة الهدى!.

وَ وَهَبْنا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنا أَخاهُ هارُونَ نَبِيًّا (53).

هارون! يا له من وهبة رحيمية ربانية لبلاغ الرسالة الموسوية «نبيا»:

رسولا رفيع المنزلة هبة باستدعائه و استعداده‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 340 ج 92 في بصائر الدرجات عن محمد بن مسلم قال‏ قلت لابي عبد الله (عليه السلام) ان سلمة بن كهيل يروي في علي أشياء قال: ما هي؟

قلت: حدثني ان رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) كان محاضر أهل الطائف و انه خلى بعلي يوما فقال رجل من أصحابه: عجبا لما نحن فيه من الشدة و انه يناجي هذا الغلام مثل اليوم؟ فقال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم): ما انا بمناج له انما يناجي ربه فقال ابو عبد الله (عليه السلام): هذه أشياء يعرف بعضها من بعض‏

أقول: يعني (عليه السلام) ان هذه النجوى تعم أئمة الهدى (عليهم السلام) و

فيه ح 94 باسناده الى أبي رافع قال: لما دعا رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) عليا (عليه السلام) يوم خيبر فتفل في عينيه ثم قال له: إذا أنت فتحتها فقف بين الناس فان الله امرني بذلك قال ابو رافع فمضى علي (عليه السلام) و انا معه فلما أصبح بخيبر وقف بين الناس و أطال الوقوف فقال الناس: ان عليا يناجي ربه، فلما مكث امر بانتهاب المدينة التي افتتحها قال ابو رافع فأتيت رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) فقلت: ان عليا وقف بين الناس كما امرته فقال قوم: الله ناجاه؟ فقال: نعم يا أبا رافع، ان الله ناجاه يوم الطائف و يوم عقبة تبوك و يوم خيبر.

و

في روآية علي بن أعين عنه (صلى الله عليه و آله و سلم) في قصة الطائف .. فسمعنا صرير الرحا فقيل ما هذا يا رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم)! قال: ان الله يناجي عليا

أقول و إذا يناجيه في حياة الرسول فباحرى ان يناجيه بعد وفاته و هو وحده الرابط بينه و بين خلقه بالهامات متواصلة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 341

«وَ اجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي. هارُونَ أَخِي‏ ... قالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى‏» (20: 36)!.

وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِسْماعِيلَ إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ وَ كانَ رَسُولًا نَبِيًّا (54).

لم يذكر إسماعيل في (12) موضعا يذكر في القرآن، بمشروح أحواله إلا هنا، إلا شذرا أنه «من الصابرين» (21: 85) «الأخيار» (38: 48) «وَ كلًّا فَضَّلْنا عَلَى الْعالَمِينَ» (6: 86).

فمن صبره و خيره‏ «قالَ يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ» (37: 102) كما و هو من صدق وعده ربه و من ثم مع الخلق‏ «1» و حقيق له صدقه في صبره، و صبره في صدقه‏ «وَ كانَ رَسُولًا نَبِيًّا» «2» فإسماعيل هذا هو ابن ابراهيم (عليه السلام) جد الرسول محمد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 342 ح 99- اصول الكافي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: انما سمي إسماعيل صادق الوعد لأنه وعد رجلا في مكان فانتظره سنة فسماه اللّه عز و جل صادق الوعد ثم ان الرجل أتاه بعد ذلك فقال له إسماعيل: ما زلت منتظرا لك! و رواه مثله في العيون عن أبي الحسن الرضا (عليه السلام).

أقول: هذا الحديث في ان إسماعيل هو ابن ابراهيم ظاهره كظاهر القرآن، و اما انتظاره سنة فبعيد عن كافة الموازين حيث الوعد لا يتجاوز ساعات او يوما بكامله، و زائد الانتظار زائد في كل الموازين، و لا سيما لرسول نبي يترك دعوة الرسالة فيثبت في مكان الوعد سنة دونما جدوى حتى لمن لا شغل له.

(2)

الدر المنثور 4: 273- اخرج مسلم عن وائلة ان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قال: ان اللّه اصطفى من ولد ابراهيم إسماعيل و اصطفى من ولد إسماعيل كنانة-

أقول: كنانة من أجداد النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 342

(صلّى اللّه عليه و آله و سلم) لا سواه و كما في سائر الاثني عشر موضعا، فلو كان غيره لم يتفضل عليه بهذه الفضيلة و لقرنت به قرينة تميزه عن إسماعيل في سائر القرآن‏ «1»! وَ كانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَ الزَّكاةِ وَ كانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (55).

في مواصفات إسماعيل رسالة النبوة هي في القمة، و صدق الوعد و الأمر باقام الصلاة و إيتاء الزكاة هي من أهم فروعها الرسالية، «وَ كانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا» تكريس لحالاته كلها، في نفسه و أهله و من أرسل إليهم و الناس أجمعين، كان في هذه كلها عند ربه مرضيا، و هي قمة المقامات عند اللّه مهما كانت لها درجات.

وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا (56) وَ رَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيًّا (57).

لم يذكر إدريس في سائر القرآن الا هنا و في الأنبياء: «وَ إِسْماعِيلَ وَ إِدْرِيسَ وَ ذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ» (85) فله مواصفات اربع: صديق نبي من الصابرين و مرفوع الى مكان علي.

تعرفنا من ذي قبل الى «صديق نبي» لإبراهيم، و ان كان بينه و بين إدريس بون حيث الصديق النبي درجات، و لكنه قبل نوح يحتل المكانة العليا بين المرسلين‏ «2» فلم يذكر بالنبوة أحد بين آدم و نوح و حتى آدم نفسه، إذا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 342 ح 101 في كتاب علل الشرايع في باب العلة التي من أجلها سمى إسماعيل بن حزقيل صادق الوعد عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: ان إسماعيل الذي قال اللّه عز و جل في كتابه‏ «وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِسْماعِيلَ ..» لم يكن إسماعيل بن ابراهيم بل كان نبيا من الأنبياء بعثه اللّه عز و جل الى قومه فأخذوه فسلخوا فروة رأسه و وجهه ..»

أقول و هو لا يناسب ظاهر القرآن ..

(2)

الدر المنثور 4: 274- اخرج ابن المنذر عن عمر مولى غفرة يرفع الحديث الى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 343

فإدريس أفضل من آدم و من بعده الى نوح.

ثم‏ «وَ رَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيًّا» دليل معراجه (عليه السلام) لمكان «مكانا» دون مكانة، و قد عرفت مكانته ب «صِدِّيقاً نَبِيًّا» و

قد يروى عن الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) انه السماء الرابعة «1»

رفع إليها كما رفع عيسى (عليه السلام) و يروى أنه كان خياطا «2».

و إذ يرفع إدريس مكانا عليا فقد رفع محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) مكانا أعلى الى سدرة المنتهى، و مكانة أغلى‏ «ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قال: ان إدريس كان نبيا تقيا زكيا و كان يقسم دهره على نصفين: ثلاثة ايام يعلم الناس الخير و اربعة ايام يسيح في الأرض و يعبد اللّه مجتهدا و كان يصعد من عمله وحده الى السماء من الخير مثل ما يصعد من جميع اعمال بني آدم ...»

و تتمة الحديث طويلة و كما هنا أحاديث اخرى فيها ما لا يناسب ساحة النبوة الصديقة.

(1).

المصدر اخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و رفعناه مكانا عليا قال: في السماء الرابعة و عن انس بن مالك عنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) مثله و في نور الثقلين 3: 349 ح 108 عن علل الشرايع باسناده الى عبد اللّه بن يزيد بن سلام‏ انه قال لرسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و قد سأله عن الأيام: فالخميس؟ قال: هو يوم خامس من الدنيا و هو يوم أنيس لعن فيه إبليس‏ و رفع فيه إدريس، و فيه عن تفسير القمي عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في معراجه: ثم صعدنا الى السماء الرابعة و إذا فيها رجل فقلت من هذا يا جبرئيل؟

فقال: إدريس رفعه اللّه مكانا عليا فسلمت عليه و سلم عليّ و استغفرت له و استغفر لي.

(2)

نور الثقلين ح 110 عن الكافي عن عبد اللّه بن ابان عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال في حديث طويل يذكر فيه مسجد السهلة: اما علمت انه موضع بيت إدريس النبي (عليه السلام) الذي كان يخيط فيه؟.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 344

فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى‏» و كما رفع ذكره في الملاء الأعلى: «وَ رَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ» و كما يذكر إدريس الصديق في كتابه بلغته السريانية هذه المكانة العليا لأهل بيت الرسالة المحمدية (صلّى اللّه عليه و آله و سلم):

يقول بعد عرض عريض في حوار بين آدم و بنيه حول «من هو أفضل الخليقة» فإذا انا «آدم» بأشباح خمسة باهرة في العرش في غاية العظمة و الجلال و الحسن و الضياء و البهاء و الجمال و الكمال حيث حيرتني أنوارهم فقلت رب! من هؤلاء؟ فأوحى الي أنهم أشرف خلقي و الوسطاء بيني و بينهم:.

إني لهو يوه أنا لبرين و ارخ لا الشماى و لا أل ارعا و لا الپردس و لا الكيهن و لا الشمس و لا السعر:

«لولاهم لما خلقتك» يا آدم «و لا السماء و لا الأرض و لا الجنة و لا النار و لا الشمس و لا القمر» قلت «آدم»: ما هي اسماء هؤلاء الأكارم؟ قال: انظر الى العرش ترى:- «پارقليطا» (محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) «إيليا»: علي (عليه السلام) «طيطه»: فاطمة (عليها السلام) «شپرّ»: حسن «شپير»:

حسين.

هليلوه لت اله شوق منّي محمّد انّوي داله»-: «هلّلوني فانه لا إله إلا أنا و محمد رسولي» «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). طبع كتاب إدريس (عليه السلام) باللغة السريانية في لندن 1895 و هذه البشارة في ص 514- 515 منه ينقله المغفور له ملا محمد صادق جديد الإسلام في كتابه أنيس الاعلام- و قد فصلناه في كتابنا «رسول الإسلام في الكتب السماوية ص 131 (عربية) و في كتابنا «بشارات عهدين» باللغة الفارسية ص 229.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 345

[سورة مريم (19): الآيات 58 الى 72]

أُولئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَ مِمَّنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ وَ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْراهِيمَ وَ إِسْرائِيلَ وَ مِمَّنْ هَدَيْنا وَ اجْتَبَيْنا إِذا تُتْلى‏ عَلَيْهِمْ آياتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّداً وَ بُكِيًّا (58) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضاعُوا الصَّلاةَ وَ اتَّبَعُوا الشَّهَواتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (59) إِلاَّ مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَ لا يُظْلَمُونَ شَيْئاً (60) جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمنُ عِبادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (61) لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً إِلاَّ سَلاماً وَ لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَ عَشِيًّا (62)

تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبادِنا مَنْ كانَ تَقِيًّا (63) وَ ما نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا وَ ما خَلْفَنا وَ ما بَيْنَ ذلِكَ وَ ما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (64) رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما فَاعْبُدْهُ وَ اصْطَبِرْ لِعِبادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (65) وَ يَقُولُ الْإِنْسانُ أَ إِذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (66) أَ وَ لا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ يَكُ شَيْئاً (67)

فَوَ رَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَ الشَّياطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (68) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيًّا (69) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلى‏ بِها صِلِيًّا (70) وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وارِدُها كانَ عَلى‏ رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا (71) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا (72)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 346

أُولئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَ مِمَّنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ وَ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْراهِيمَ وَ إِسْرائِيلَ وَ مِمَّنْ هَدَيْنا وَ اجْتَبَيْنا إِذا تُتْلى‏ عَلَيْهِمْ آياتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّداً وَ بُكِيًّا (58).

كما النعمة الربانية درجات كذلك المنعم بها عليهم درجات أفضلهم النبيون ثم الصديقون ثم الشهداء ثم الصالحون: «وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 347

فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَداءِ وَ الصَّالِحِينَ وَ حَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً» (4: 69).

و قد تلمح‏ «مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ» دون «آدم و من ذريته» إلى أنه ما كان من النبيين مهما كان من المرسلين أمن ذا؟ .. و الذين أنعم اللّه عليهم- على درجاتهم- هم الذين نستهدي في صلواتنا صراطهم‏ «اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ. صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ» و نحن أيضا درجات كما هم درجات، فلا تستهدي كل درجة إلّا صراط من فوقها دون من يساويها او أدنى، و كما الرسول محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و هو على قمة الصراط لا يستهدي في صلاته إلّا أفضل من المنعم عليهم أجمع فانه إمامهم أجمع! و النبيون المذكورون هنا هم: زكريا و يحيى و عيسى و ابراهيم، و إسحاق و يعقوب و موسى و هارون و إسماعيل و إدريس، عشرة من المذكورين في سائر القرآن و سواهم، و مريم المذكورة معهم من الصديقين و «أُمُّهُ صِدِّيقَةٌ» (5: 75) و قد تشملها «مِمَّنْ هَدَيْنا وَ اجْتَبَيْنا». «1»

و ترى من‏ «النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ» اما كانت تشمل كافة صفحات النبوة في تاريخ البشرية؟ فما هي الحاجة الى «و ممن- و من- و ممن ..»؟.

قد تعني هذه الثلاث الثلاثة الباقية من المنعم عليهم و سائر النبيين ف «مِمَّنْ هَدَيْنا وَ اجْتَبَيْنا» تعم الصديقين و النبيين غير المذكورين هنا، و أئمتنا المعصومون (عليهم السلام) كما فاطمة صديقة و مريم صديقة. ف

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 351 ح 114 في كتاب المناقب في مناقب زين العابدين (عليه السلام) قال (عليه السلام): في قوله تعالى: «وَ مِمَّنْ هَدَيْنا وَ اجْتَبَيْنا» نحن عنينا بها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 348

«مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ» و «مِمَّنْ هَدَيْنا وَ اجْتَبَيْنا» تعمان كل نبي و كل صديق في تاريخ الرسالات الإلهية ثم‏ «وَ مِمَّنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ وَ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْراهِيمَ وَ إِسْرائِيلَ» تشمل كل شهيد و صالح.

إذ ليس‏ «مِمَّنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ» نبي أم و لا صديق إلا في ذريته و ذريتهم، و النص‏ «مِمَّنْ حَمَلْنا» لا «من ذرية من حملنا» حتى تعني النبيين من هذه الذرية، ثم و لا تختص النبوة بذرية إبراهيم و إسرائيل حتى تعني النبيين من هذه الذرية.

إذا ف «من» الأولى بيانية و سائر الأربع تبعيضية، تحمل الخمس المنعم عليهم الاربعة «مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَداءِ وَ الصَّالِحِينَ».

و في تقسيم أبعاض الآية الى المذكورين تكلف ظاهر: أن‏ «مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ» هو إدريس و حقه إذا «من نبي من ذرية آدم»! ثم‏ «وَ مِمَّنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ» إنه إبراهيم إذ هو من ذرية من حمل مع نوح، و حقه إذا «و من ذرية نوح او من ذرية من حملنا مع نوح»! ثم‏ «وَ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْراهِيمَ وَ إِسْرائِيلَ» ان «من ابراهيم»: «إسماعيل و إسحاق» و من إسرائيل «زكريا و يحيى و عيسى و موسى و هارون! و حقه إذا «مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْراهِيمَ» حيث تعم كافة النبيين من فرعيه: إسماعيل و إسرائيل دون اختصاص بالمذكورين.

و قد يكون في «من‏ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ» صديق كما فيهم صالح و شهيد، و لكنما «وَ مِمَّنْ هَدَيْنا وَ اجْتَبَيْنا» يعم مع النبيين غير المذكورين هنا كل صديق و صالح و شهيد، كما «مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ» تعم كافة النبيين في صفحات النبوات!.

و مواصفة لهم ثانية شاملة للأربع: «إِذا تُتْلى‏ عَلَيْهِمْ آياتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّداً وَ بُكِيًّا» فإنهم المنعم عليه بنعمة الهداية و العبادة القمة، لا تخالجهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 349

غواية في أية حلّة و ترحالة، سجّدا للرحمن و بكيا في كل حالة و مقالة و فعالة، فعّل الخرور سجدا و بكيّا هو كمال الخضوع و الخشوع أمام آيات الرحمن حين تتلى عليهم، من وحي آيات الوحي المتلوة عليهم بشؤون الربوبية و العبودية و الرسالة و النبوة، سواء أ كان التالي هو الرحمن ام وسيط في الوحي وحيا إمّا ذا من تلاوة حسب درجات المنعم عليهم، من النبيين الى الصالحين، حيث الآيات تأخذ بازمة قلوبهم فيخرون بكيا و من ثم بقوالبهم فيخرون سجدا.

و إذا كانت السجدة و البكاء للرحمن فلما ذا هي‏ «إِذا تُتْلى‏ عَلَيْهِمْ آياتُ الرَّحْمنِ» و لا يختص مقام الرحمن بما تتلى؟ إنه مزيد الايمان و الانجذاب إلى الرحمن حين يكلم المنعم عليهم‏ «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ إِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً وَ عَلى‏ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» (8: 2) و «لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى‏ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَ تِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» (59: 21).

ثم للسجود و البكاء حين تتلى آيات الرحمن درجات أدناها الاستماع إليها و الإنصات لها «وَ إِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» (7: 204) فإنهما من السجود الخضوع دون تمامه، و هما لزام لأصل الايمان و أدناه: «فَما لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ، وَ إِذا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ» (84: 21) مهما كان كمال السجود و البكاء لزام كمال الايمان و أعلاه‏ «إِذا تُتْلى‏ ... خَرُّوا سُجَّداً وَ بُكِيًّا» فكما يجب ان يكون المؤمن باللّه ساجدا للّه خاضعا له في أحواله كلها، كذلك السجود لآيات اللّه و لا سيما حين تتلى، فترك الاستماع إليها و الإصغاء لها نابع من عدم الايمان! و لماذا «آياتُ الرَّحْمنِ» دون «اللّه» او «الرحيم» لان العناية المناسبة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 350

لمطلق السجود و البكاء تقتضي الرحمة العامة بما فيها بشارة الثواب و نذارة العقاب، فالسجود نتيجة البشارة و البكاء نتيجة النذارة مهما عمهما السجود و البكاء في توسّع يليق بالمنعم عليهم.

و كما السجود في وجه عام يشمل أدناه إلى أعلاه كذلك البكاء تشمل التباكي و حالة البكاء كما تشمل أعلى البكاء، درجات حسب الدرجات.

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضاعُوا الصَّلاةَ وَ اتَّبَعُوا الشَّهَواتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (59).

«فخلف» هؤلاء المنعم عليهم «خلف» «1» خالفوهم فيما هم و تخلفوا عما هم حيث‏ «أَضاعُوا الصَّلاةَ وَ اتَّبَعُوا الشَّهَواتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا» كما خلف من بعدهم خلف أقاموا الصلاة و تركوا الشهوات فسوف يلقون ريا.

لكل صاحب دعوة إلهية خلف و خلف، و طبيعة الدعوة و صنيعتها تقتضي الخلف دون الخلف، و خلف الدعوة الصارمة و التخلف عنها لزامه مضاعفة الغي و العذاب، كما ان خلفها و الاستمرار فيها لزامه مضاعفة الري و الثواب! فلان آيات الرحمن منها مبشرة لمن يعبد الرحمن و قمتها الصلاة، و أخرى منذرة لمن يتركها اتباعا للشهوات، فهؤلاء الخلف طول الرسالات و الدعوات الإلهية أضاعوا الصلاة و اتبعوا الشهوات، نقطة مضادة لأسلافهم المنعم عليهم‏ «إِذا تُتْلى‏ عَلَيْهِمْ آياتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّداً وَ بُكِيًّا»!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الخلف بالسكون البدل السي‏ء و بالفتح ضده و قد يعكس على ندرة و الأصل هو الاول.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 351

و اضاعة الصلاة لا تعني فقط فيما تعني ترك الصلاة «1» فان إضاعة شي‏ء ليست إلّا بعد تكوّن هذا الشي‏ء، فالذي يعزل فلا يولد له ليس مضيعا للولد، إنما هو الذي انعقدت نطفته فأضاعها منذ انعقادها الى الولادة إلى الموت عن المصالح المتوجهة إليه لولده.

فإضاعة الصلاة هي إتيانها دون إقامة لها على وجهها الواجب و اللائق، في أوقاتها و شروطها و اجزائها و نياتها، و على الجملة في قلبها و قالبها فهم ليسوا بمقيمي الصلاة، و إنما يأتونها: «وَ لا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلَّا وَ هُمْ كُسالى‏» (9: 54)، او يقومون إليها: «وَ إِذا قامُوا إِلَى الصَّلاةِ قامُوا كُسالى‏ يُراؤُنَ النَّاسَ وَ لا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا» (4: 132) ام هم سكارى: «لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَ أَنْتُمْ سُكارى‏ حَتَّى تَعْلَمُوا ما تَقُولُونَ» (4:) 43) ام ساهون عنها متساهلين فيها فهم بين تاركيها و فاعليها: «فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ. الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ» (107: 5) غير معتنين بشأنها، فلا يقيمونها كما يجب مهما أتوها و قاموا إليها!.

و قد تربوا إضاعة الصلاة- غيا- عن تركها، كما يربوا الشرك باللّه- أحيانا- على الإلحاد في اللّه، فتارك الصلاة قد يتركها جهلا باللّه ام جهالة في اللّه، و لكن الذي يصلي اضاعة لها، هو هازئ متهتك باللّه رغم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 351 ح 116 عن المجمع عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) أضاعوها بتأخيرها عن مواقيتها من غير ان تركوها أصلا.

أقول: يعني لم يتركوا أصلها و

فيه 115 عن الكافي عن داود بن فرقد قال‏ قلت لابي عبد اللّه (عليه السلام) قوله تعالى: إِنَّ الصَّلاةَ كانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتاباً مَوْقُوتاً» قال: كتابا ثابتا و ليس ان عجلت قليلا او أخرت قليلا بالذي يضرك ما لم تضيع تلك الاضاعة فان اللّه عز و جل يقول لقوم: «أَضاعُوا الصَّلاةَ وَ اتَّبَعُوا الشَّهَواتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 352

تصديقه، لذلك‏ «فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ...» لا «التاركين لها»! و ان كان تركها قد يربوا اضاعتها كفرا و عصيانا!.

و كما أن لاقامة الصلاة درجات أعلاها صلاة المقربين، كذلك لتضييعها دركات أسفلها صلوة المبعدين الأسفلين و بينهما متوسطات، فهناك صلاة هي في أحسن تقويم، و أخرى في أسفل سافلين، ثم متوسطات لحد الواجب ام دونه ام فوقه، فما دون الواجب فيها تضييع لها و ما فوقه اقامة للراجح فيها.

وَ اتَّبَعُوا الشَّهَواتِ‏ الشهوات قد تتبع إنسان العقل الوحي فتصبح رحمات و كما

يروى عن الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) «شيطاني أسلم بيدي»

و قد يتبعها الإنسان خلاف العقل و الوحي فتصبح حيونات و نقمات، و

يقول اللّه:

«ان القلوب المعلقة بالشهوات عين محجوبة» «1»

و قد يشير الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) الى أخلاف من بعده و تلا هذه الآية «فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ» من بعد ستين سنة «أَضاعُوا الصَّلاةَ وَ اتَّبَعُوا الشَّهَواتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا» ثم يكون خلف يقرءون القرآن لا يعدو تراقيهم و يقرء القرآن ثلاثة مؤمن و منافق و فاجر» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 272- اخرج ابن أبي حاتم عن ابن الأشعث قال: اوحى اللّه الى داود (عليه السلام): ان القلوب ...

(2) المصدر اخرج احمد و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن حبان و الحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقي في شعب الايمان عن أبي سعيد الخدري سمعت رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و تلا هذه الآية ..

أقول و لعله يعني ستين سنة من الهجرة حيث أعلن الفسق زمن يزيد بن معاوية و قتل الحسين (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 353

و ممن اتبع الشهوات‏

«من بنى الشديد و ركب المنظور و لبس المشهور» «1»

و يجمعه‏

«الدخول في الدنيا و اتباع الهوى و شهوة البطن و شهوة الفرج» «2»

و فوق الكلّ شهوة الرئاسة و العلو: «تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَ لا فَساداً» (28: 83).

فالشهوات هنا تعمها كلها و امّها شهوة الرئاسة التي تضم سائر الشهوات و تجعل الديار بلاقع.

و ذلك النفي و الإثبات في اضاعة الصلوة و اتباع الشهوات يلقي غيا و عيا»: «فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا»: في الحياة الدنيا عما خلقت له و هيأت، و في البرزخ و القيامة عما قدره اللّه و قرره لعباده الصالحين، غيّا في الحياة الدنيا يتمثل في نشآت ثلاث و لا سيما منذ الموت، حيث العمل السي‏ء هو الجزاء بملكوته يوم يكشف عن ساق و تبلى السرائر: «لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» و «هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» لقد عملتم غيا فسوف تلقون غيا، جزاء في نفسه عذابا وفاقا! «وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثاماً» (25: 68):

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و

فيه اخرج احمد و الحاكم و صححه عن عقبة بن عامر سمعت رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يقول: سيهلك من امتي اهل الكتاب و اهل الدين قلت يا رسول اللّه ما اهل الكتاب؟ قال: قوم يتعلمون الكتاب يجادلون به الذين آمنوا فقلت ما اهل الدين؟ قال: قوم يتبعون الشهوات و يضيعون الصلوات.

(1). نور الثقلين 3: 351 ح 117 في جوامع الجامع‏ «وَ اتَّبَعُوا الشَّهَواتِ» رووا عن علي (عليه السلام) من بنى.

(2)

المصدر في كتاب الخصال عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): من سلم من امتي من اربع خصال فله الجنة:

الدخول ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 354

إِلَّا مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَ لا يُظْلَمُونَ شَيْئاً (60).

«إِلَّا مَنْ تابَ» عن إضاعة الصلاة و اتباع الشهوات- الى اللّه «و آمن» باللّه بعد ما كفر عمليا كالمؤمن المضيع، ام و عقيديا كالمضيع الناكر «وَ عَمِلَ صالِحاً» يجبر ما ضيع، فلا تكفي التوبة دون ايمان و لا ايمان الّا بصالح العمل فيصبح مؤمنا صالحا «فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَ لا يُظْلَمُونَ شَيْئاً» إذ توفى هناك أجورهم، دون ان ينقص منها شي‏ء لماضي تضييعهم، فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمنُ عِبادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (61).

«عدن» هو الاستقرار «جَنَّاتِ عَدْنٍ» هي جنات الآخرة حيث لا خروج عنها و انما خلود استقرار، و تقابلها الجنات البرزخية غير المستقرة حيث تفنى بفناء الدنيا فيخرج الداخل فيها الى المحشر ثم الى جنات عدن، فهذه تبتدء بفناء السموات و الأرض، و تلك تنتهي بفنائهما «وَ أَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ» (11: 108) و الفترة بين الجنتين لا تعتبر جذّا لعطاء فانها قلة لا يحسب لها حساب، فانتقاله الى عطاء اوفى! «وَعَدَ الرَّحْمنُ عِبادَهُ بِالْغَيْبِ» وعدهم و هو بالغيب كما و هي بالغيب، و الوعد كذلك بغيب الوحي، مثلث الغيب في وعد الرحمن‏ «إِنَّهُ كانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا» في الغيب، و فيها ما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر! ... و ترى ما هو مكانة «كان» و إتيان وعده سوف يكون؟

«إنه كان» في موضع تعليل، فل «انه كان» منذ كان كائن و وعد من اللّه لايّ كان‏ «كانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا» دون تخلف في أعماق الماضي فليكن مأتيا في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 355

المستقبل و هو أهون عليه.

لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً إِلَّا سَلاماً وَ لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَ عَشِيًّا (62).

ليس فيها لغو حتى يسمعونه، إلّا سلاما، استثناء منقطع يجتث اي لغو فيها و يقطعه و يخص مسموعها ب «سلاما» «وَ يُلَقَّوْنَ فِيها تَحِيَّةً وَ سَلاماً» (25: 75) «لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَ لا تَأْثِيماً. إِلَّا قِيلًا سَلاماً سَلاماً» (56: 26) و لأن‏ «تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ» (33: 44) ف «تحية» هنا سلام و ليكن سلاما» غير التحية من قول سلام، ان المسموع فيها كله سلام إخبارا و دعاء أما ذا، لا ألّا كلام فيها إلا سلام، فهم إذا خرس عن أي كلام إلّا السلام! و انما كلامهم لا يعد و كلاما سلاما من تحية أم اي سلام! «وَ لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَ عَشِيًّا» و هل في جنات عدن بكرة و عشي؟

و لزامهما شمس طالعة و غاربة! و الشمس مكوّرة عند قيام الساعة! هذه الشمس تكور ثم تخلق شمس اخرى يستظل اهل الجنة بظلالها عنها: «أُكُلُها دائِمٌ وَ ظِلُّها» (13: 35) و لا ظل إلّا عن ضوء و «لا يَرَوْنَ فِيها شَمْساً وَ لا زَمْهَرِيراً» (76: 13) فلتكن في الآخرة شمس و زمهرير لا يرونهما، كميّزة لأهل الجنة عن أهل النار، فلو لم تكن هناك شمس و لا زمهرير فأهل الجنة و النار على سواء في «لا يرون»! و إذا كانت هناك شمس فلتكن طالعة و غاربة و أهل الجنة لا يرونها فان «ظلها دائم» «وَ لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَ عَشِيًّا» كأصول الأوقات الصالحة للأكل و ان كان فيها ما تشتهيه الأنفس و تلذ الأعين و «أُكُلُها دائِمٌ» يأكلون متى شاءوا و لا سيما بكرة و عشيا، او قد يعني: دوام الأكل كما يقال: أكل الجنة صباح مساء، يعني انها مستمرة في الأوقات كلها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 356

و دلالة آية الغدو و العشى و آية المقيل بقرينة قاطعة فيها على البرزخ‏ «1» لا تقتضي دلالة آية البكرة و العشي على ما دلتا، و هي محفوفة بقرينة من قبل «عدن» و من بعد «نورث» تدل على القيامة.

جنة البرزخ مؤقتة ما دامت الدنيا فليست عدنا و لا سيما للداخلين فيها قبيل الساعة، و وراثة جنة عدن تعني البقاء فيها من بعدين، إذا فهي جنة الآخرة، و «لا يَرَوْنَ فِيها شَمْساً» دليل وجود الشمس فيها مستورة، «بُكْرَةً وَ عَشِيًّا» دليل كونها طالعة غاربة، اللهم إلّا أن يدل‏ «أُكُلُها دائِمٌ وَ ظِلُّها» على دوام النهار فليس فيها- إذا- بكرة و عشي، و لكنهما نص على شمس طالعة و غاربة، فليقيد دوام ظلها بأوقات النهار «2» فالرواية المنسوبة الى الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) «3» تؤوّل! أو يقال يكفي في كونها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كقوله تعالى‏ «وَ حاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَ عَشِيًّا وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ» (40: 46) و قوله تعالى‏ «أَصْحابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَ أَحْسَنُ مَقِيلًا. وَ يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ وَ نُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلًا» (25: 28).

(2) فكما ان دوام الأكل لا يعني دوام الآكل و انما تهيئ الأكل، للأكل، كذلك دوام الظل لا يعني الا الأشجار الملتفة التي تمنع من اصابة الشمس، فقد يكون ظل غير دائم كالاظلال المؤقتة المتحركة كالشمسيات او السحاب او السقف الثابتة و لكنها ظل ما دمت تحتها، و لكنما الأشجار الملتفة هي دائمة الظل.

(3)

الدر المنثور 4: 278- اخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول من طريق أبان عن الحسن و أبي قلابة قالا قال رجل يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم)!. هل في الجنة من ليل؟ قال (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): و ما هيجك على هذا؟ قال:

سمعت اللّه يذكر في الكتاب‏ «وَ لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَ عَشِيًّا» فقلت: الليل من البكرة و العشي! فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): ليس هناك ليل و انما هو ضوء و نور يرد الغدو على الرواح و الرماح على الغد و تأتيهم طرف الهدايا من اللّه لمواقيت‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 357

عدنا مواصلة الجنتين لحد يعبر عنها بعطاء غير مجذوذ في الجنة البرزخ‏ «وَ أَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ» (11: 108) ثم الغدو و العشي علهما يختصان بالجنة البرزخية، ثم لا غدو و عشيا في جنة الآخرة، و انما شمس طالعة دون غروب «ظلها دائم» في دوام الطلوع! ثم و رزق البكرة و العشي خير الرزق‏

«تغد و تعش و لا تأكل بينهما شيئا فان فيه فساد البدن» «1».

تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبادِنا مَنْ كانَ تَقِيًّا (63) هل هي ميراث من اللّه لأهل اللّه؟ «وَ لِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ»! و لا يموت أو ينعزل عن ملكه حتى يورث! أم هي ميراث ممن أدخل النار إضافة الى ما يملكه أهل الجنة؟ و لم يكن لأهل النار نصيب من الجنة!.

إنه‏

«ما من أحد إلا و له منزل في الجنة و منزل في النار فالكافر يرث المؤمن منزلة في النار و المؤمن يرث الكافر منزله في الجنة» «2»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الصلوات التي كانوا يصلون فيها في الدنيا و تسلم عليهم الملائكة

و

اخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قال: ما من غداة من غدوات الجنة و كل الجنة غدوات الا انه يزف الى ولي اللّه تعالى فيها زوجه من الحور العين أدناهن التي خلقت من زعفران.

(1).

نور الثقلين 3: 351 ح 120 في محاسن البرقي عن ابن اخي شهاب بن عبد ربه قال: شكوت الى أبي عبد اللّه (عليه السلام) ما القى من الأوجاع و التخم فقال:

تغد .. اما سمعت قول اللّه عز و جل يقول: «لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَ عَشِيًّا» و رواه في كتاب طب الائمة عن محمد بن عبد اللّه العسقلاني عنه (عليه السلام).

(2) الدر المنثور 6: 23- اخرج ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن أبي هريرة ان رسول‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 358

«وَ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (43: 72).

فقد كان منها منازل للذين أضاعوا الصلاة و اتبعوا الشهوات ثم لم يتوبوا فأورثها اللّه من كان تقيا، فليست الجنة- إذا- وراثة النسب إذ تنقطع هنالك الأنساب و تتقطع الأسباب، اللهم إلّا سبب التقوى حيث يورث أهلها منازل اهل الطغوى الذين أضاعوا الصلاة و اتبعوا الشهوات! وَ ما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا وَ ما خَلْفَنا وَ ما بَيْنَ ذلِكَ وَ ما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (64) رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما فَاعْبُدْهُ وَ اصْطَبِرْ لِعِبادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (65).

هاتان الآيتان تلمحان أنهما معترضتان بين آي السورة، ترى انهما من كلام اللّه؟ و هو لا يتنزل! و ليس له رب! و لا له ما بين أيدينا و ما خلفنا و ما بين ذلك! ام من كلام أهل الجنة و ليس دخلوها تنزلا إليها فانه تصاعد و تعال، و لا يخرجون تنزلا عنها، ثم و لا يناسبهم بقية القول إذا فهما من كلام ملائكة الوحي ام أولاهما، كأن هناك سؤالا، لماذا ذلك التباطؤ في التنزل بالوحي ام قلّته‏ «1» و الجواب‏ «وَ ما نَتَنَزَّلُ ..» و الواو فيها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قال: ..- ثم قال-: و ذلك قوله: «وَ تِلْكَ الْجَنَّةُ».

(1). و

فيه اخرج ابن مردويه عن انس قال‏ سئل النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) اي البقاع أحب الى اللّه و ايها ابغض الى اللّه؟ قال: ما ادري حتى اسأل جبرئيل و كان قد ابطأ عليه فقال: لقد ابطأت عليّ حتى ظننت ان بربي علي موجدة فقال: و ما نتنزل ..

و

اخرج عبد بن حميد و ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: ابطأ جبرئيل على النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) أربعين يوما ثم نزل فقال النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) ما نزلت حتى اشتقت إليك فقال له جبرئيل انا كنت إليك أشوق و لكني مأمور فأوحى اللّه الى جبرئيل ان قل له: و ما نتنزل الا بأمر بك ..

و

اخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: احتبس جبرئيل عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) بمكة حتى حزن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 359

لمحة إلى معطوف عليه محذوف ك «ما تباطئنا من أنفسنا أم تقللنا و لا قليناك او نسيناك .. بل .. و ما نتنزل إلا بأمر ربك ..» ليس تنزّلنا بالوحي إلّا لتربيتك، فأنت الأصل الرسولي و نحن الفروع الرسالي، و هو يعلم كيف و متى و بماذا ينزّلنا، ف «ربك» لا «ربنا» و لا «رَبِّ الْعالَمِينَ» يوصل ذلك الوحي إليه من اللّه حيث يربيه التربية القمة بذلك الوحي المجيد.

«وَ ما نَتَنَزَّلُ» بالوحي أماذا «إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ» ليس لنا من الأمر شي‏ء كما «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْ‏ءٌ» و كياننا نحن و أنت وجاه ربك: «لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا وَ ما خَلْفَنا وَ ما بَيْنَ ذلِكَ» و هو يشمل الكون أجمع أيا كان و أيان!-: «ما بَيْنَ أَيْدِينا» ما نستقبله من زمان و مكان او كائن فيهما أيا كان‏ «وَ ما خَلْفَنا» ما نستدبره كذلك- «وَ ما بَيْنَ ذلِكَ» من أنفسنا و إياك و ما نحمله من وحي من أو إلى- كل ذلك له لا لنا و لا لك و لا لسوانا، و مما بين أيدينا و ما خلفنا و ما بين ذلك ما نتنزل به من وحي، فليس استنزاله لك و لا التنزل به لنا «إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ» كما و ان القول‏ «وَ ما نَتَنَزَّلُ ..» ايضا ليس‏ «إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ» فلسنا نحن إذا مقصرين في تباطؤ الوحي عليك و احتباسه عنك.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

اشتد عليه فشكى ذلك الى خديجة فقالت خديجة لعل ربك و دعاك و قلاك فنزل جبرئيل بهذه الآية «ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَ ما قَلى‏» قال يا جبرئيل احتبست عني حتى ساء ظني فقال جبرئيل: و ما نتنزل الا بأمر ربك ..

و

اخرج ابن جرير عن مجاهد قال‏ لبث جبرئيل عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) اثنتي عشرة ليلة فلما جاءه قال: لقد رثت حتى ظن المشركون كل ظن فنزلت الآية ..

و

فيه اخرج احمد و البخاري و مسلم و عبد بن حميد و الترمذي و النسائي و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردوية و الحاكم و البيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) لجبرئيل (عليه السلام): ما يمنعك ان تزورنا اكثر مما تزورنا؟ فنزلت الآية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 360

و اما ربك فلا ينزّلنا بالوحي لا بحكمة الربوبية «وَ ما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا» يودّعك نسيا او يقلاك تناسيا: «وَ الضُّحى‏، وَ اللَّيْلِ إِذا سَجى‏. ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَ ما قَلى‏»! «ما نَتَنَزَّلُ» نفى عنهم التقصير «وَ ما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا» نفاه عن الرب و عن الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فلا بد من حكمة خفية في البين، فلا هو نسيّ ينسى مقصرا، و لا أنه نسيّ يتناساك غضبا، و يتمثل‏ «ما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا» في‏ «ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَ ما قَلى‏» حيث التوديع نسيان، و القلى تناس غضبا، و لقد كان حقا للرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) ان يستوحش من إبطاء الوحي لاشتياق نفسه للاتصال الحبيب بوحي الحبيب.

ثم و «رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما» عبارة أخرى عن‏ «لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا وَ ما خَلْفَنا وَ ما بَيْنَ ذلِكَ» و علّه من كلام اللّه «فاعبده» تفريع لتوحيد العبودية على توحيد الربوبية «وَ اصْطَبِرْ لِعِبادَتِهِ» أمر باستقامة العبادة و منها تنزل الوحي عليه رسوليا و رساليا، فعليه الاصطبار مهما احتبس عنه لفترة قصيرة أم طويلة «هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا» من الاسم ل «الرب» او «اللّه» «1» فهل تعلم له ربا سواه يشاركه في ربوبيته، و من السمّو، هل تعلم له مشاركا في سمّوه ربا لكل شي‏ء، ليس له شريك في اسم الرب فضلا عن حقيقته و سمته، و الربوبية المطلقة الوحيدة لساحته المقدسة تقتضي عبادته وحده، و الاصطبار لعبادته وحده!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 352 ح 125 في كتاب التوحيد عن امير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل يقول فيه‏ لرجل سأله عما اشتبه عليه من آيات الكتاب و اما قوله: وَ ما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا- فان ربنا تبارك و تعالى علوا كبيرا ليس بالذي ينسى و لا يغفل بل هو الحفيظ العليم ... و اما قوله: هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا فان تأويله: هل يعلم احد اسمه اللّه غير اللّه تبارك و تعالى ..».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 361

هنالك للمثول الدائب بين يدي المعبود بوحيه الحبيب و تلقي رسالته، عبادة دائبة و اصطبار لها، فاعبده و احشد نفسك في سبيلها لتحّمل أعباء و عناء، تجردا عن كل شاغل، و تمردا عن كل حائل، و تحفزا بكل جارحة و خالجة .. و ليكن كلّك عبادة لربك، بحالك و مقالك و افعالك، بحلّك و ترحالك، و العبادة في حواجز الشيطنات و عوائق بوائق تحول دونك و عبادة ربك، انها بحاجة الى اصطبار باستمرار، و لتصل الى ساحة القرب فلا تحس بغربة و كربة حين انقطاع الوحي! «هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا» تسميّه او يتسمى باسمه أو تسمو إليه؟!.

وَ يَقُولُ الْإِنْسانُ أَ إِذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (66) أَ وَ لا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ يَكُ شَيْئاً (67).

«الإنسان» هنا نوعه بطبعه و عقله المكسوف بطوع الهوى، كما الإنسان في‏ «إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ» و قد يصح تسميته إنسانا لأن اللّه تعالى عهد اليه فنسي‏ «1» ان أصله إنسيان: افعلان من النسيان‏ «2»، و قد يؤيده هنا «أَ وَ لا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ» و كما في سائر القرآن‏ «3» فالإنسان بنسيانه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). لسان العرب ج 1 ص 112- رواه عن ابن عباس.

(2) المصدر قاله ابو منصور و هو مثل كيل اضحيان من ضحي يضحى و قد حذفت الياء فقيل انسان.

(3) كقوله تعالى‏ «وَ إِذا مَسَّ الْإِنْسانَ الضُّرُّ دَعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إِلى‏ ضُرٍّ مَسَّهُ» (10: 12) فحين يمسه الضر يذكر ما تخبأ في فطرته فلما كشفت عنه ضره ينسى‏ «فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَ كانَ الْإِنْسانُ كَفُوراً (17: 67) «فَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعانا» (39: 49) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ ما سَعى‏» (79: 35) «يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ وَ أَنَّى لَهُ الذِّكْرى‏» (89: 23) و هكذا نرى في الكثير من (65) مرة يذكر الإنسان في ساير القرآن يقرن بنسيان الفطرة و سواها مما يجب عليه ان يتذكرها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 362

فطرته و فكرته، أنه خلق من قبل و لم يك شيئا، يبتلى بهذا السؤال الاستبعاد الاستنكار.

«و يقول» دون «و قال» لمحة الى استمرارية هذه المقالة للإنسان أيا كان و أيان إلّا من تذكر ..

«أَ وَ لا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ» النسيان مهما نسي سائر الأدلة الآفاقية و الأنفسية على أنه سوف يخرج حيا «أَ وَ لا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ يَكُ شَيْئاً»؟ و الواو هنا عطف على ما لم يذكر مما يجب ان يتذكر من دليل، و قد ذكر الأعم ذكرا و الأقرب تذكرا، الذي يصدقه كل عاقل و مجنون: أنه خلق من قبل و لم يك شيئا، فهل إن بدء الخلق أهون أم إعادته‏ «وَ هُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ» (30: 27) أهون عليه في حسابنا، و اما في حساب اللّه فكله هين لا صعوبة فيه: «وَ لَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ ما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ» (50: 38).

أ ترى ماذا يعني‏ «خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ يَكُ شَيْئاً»؟ هل إنه خلق الإنسان كسائر الخلق لا من شي‏ء كان فخلقه للمادة الأولية في أصلابهم، حمل لنا و «إِنَّا لَمَّا طَغَى الْماءُ حَمَلْناكُمْ فِي الْجارِيَةِ» (69: 11) «وَ آيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ» (36: 41) فالذي خلق الأشياء- كمادة اوّلية- لا من شي‏ء «وَ لَمْ يَكُ شَيْئاً»: «في كتاب و لا علم» «1» هو قادر على أن يخلق الإنسان مرة ثانية و هو شي‏ء بروحه الحي و جسمه التراب إمّا ذا؟.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

محاسن البرقي عن حمران قال‏ سألت أبا عبد اللّه (عليه السلام) عن الآية فقال (عليه السلام): لم يكن شيئا في علم و لا كتاب».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 363

أم إنه خلق الإنسان الاوّل من تراب و لم يك شيئا إنسانيا

«لا مقدرا و لا مكونا» «1»

و إنما هو تراب، فخلقه و هو روح و تراب أهون عليه.

ام إنه خلق كل انسان- بعد الاوّل من نطفة ثم ... و لم يك شيئا مذكورا «هَلْ أَتى‏ عَلَى الْإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً. إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْناهُ سَمِيعاً بَصِيراً» (76: 2)؟

كل ذلك خلق للإنسان من قبل، ففي الاول- حيث المادة الاولية- لم يك شيئا في كتاب التكوين حيث الشيئية كانت للمادة الاوّلية، و لا في العلم في علم غير اللّه، إذ كان اللّه و لم يكن معه شي‏ء و قد كان في اللوح المحفوظ حيث لا يعزب عنه شي‏ء! و في الثاني كان في كتاب التكوين و العلم المفصول و لم يك مقدرا إنسانيا كسيرة الخلقة، و لا مكوّنا إنسانيا و إن كان كنطفة.

و في الثالث «النطفة» لم يك شيئا مذكورا يحق ذكره كإنسان، أو يليق بالذكر لمكان قذارة النطفة، مهما كان مقدرا في طريقه إلى التكامل، و مكونا كخطوة أولى من كينونته فقد

«كان شيئا و لم يكن مذكورا» «2»

«كان مذكورا في العلم و لم يكن مذكورا في الخلق» «3» «4»

او «كان شيئا مقدرا لمّا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في اصول الكافي عن مالك الجهني قال‏ سألت أبا عبد اللّه (عليه السلام) عن الآية فقال: «مقدرا و لا مكونا».

(2) تفسير العياشي عن زرارة سأل الباقر (عليه السلام) عن الآية فقال: .. و فيه عن عبد الأعلى مولى آل سام عن الصادق (عليه السلام) مثله.

(3) عن سعيد الحذاء عن الباقر (عليه السلام): ...

(4)

الكافي باسناده عن عبد العظيم بن عبد اللّه الحسني باسناده عن الامام الصادق (عليه السلام) سئل عن قوله تعالى: «ا و لم ير الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ يَكُ شَيْئاً» فقال لا مقدارا و لا مكونا» و سئل عن قوله تعالى‏ «هَلْ أَتى‏ عَلَى الْإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ ..» قال: كان مقدرا غير مذكور.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 364

قدّر من نطفة أمشاج و لمّا يكون إنسانا! و قد تعني الآية كل هذه الثلاث، على اختلاف دلالاتها، على أن الخلق المعاد أهون عليه، «أَ وَ لا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ» إذ خلقنا اوّل خلق- و إذ خلقنا الإنسان الاول- و إذ خلقنا النطفة «وَ لَمْ يَكُ شَيْئاً»- ام شيئا مقدرا لخلق الإنسان كسيرة مستمرة مثل النطفة- ام شيئا مذكورا مهما كان نطفة!، و ان كان «شيئا» في سياق النفي تستأصل كلّ شيئية كما في الخلق الاوّل، و لكنها تتحمل نفي الشي‏ء الإنساني كالاخيرين، ضمن أصل الشي‏ء كالأول، و قد تؤيده‏ «قالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَ قَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ تَكُ شَيْئاً» (19: 9) و برهان المماثلة الاولوية يثبت إمكانية المعاد، و برهان العقل العدل و النقل يثبتان معه ضرورته! فَوَ رَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَ الشَّياطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (68) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيًّا (69) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلى‏ بِها صِلِيًّا (70) «فو ربك» تحمل برهاني العدل و النقل، فربوبيته تعالى و لا سيما الرسالية المحمدية تقتضي الحشر و الجزاء، فلو لا الحشر لبطلت الربوبية الحكيمة العادلة و بطلت الرسالة المحمدية و ما دونها، فليس القسم هنا إلّا بادلّ دليل على ضرورة المعاد، و قد تمت البراهين الأربع: إمكانية بالاولوية، و ضرورة بأصل الربوبية العدالة- ضرورة اخرى بالربوبية الرسالية المحمدية فلو لا الحشر لبطلت- و الرابع هو النقل الحامل لهذه الثلاث! ترى و من هم الشياطين المحشورون معهم؟ إنهم شياطين الإنس و الجن» (6: 112) و هم‏ «أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ» (7: 47) «وَ مَنْ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 365

يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ» (43: 39) هم دركات كما الشياطين دركات و قد تربو شيطناتهم على شياطينهم أو هم على سواء أم دون ذالك طرائق قددا، و اللّه يحشرهم و إياهم من أجداثهم:

«ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا»: بروكا على ركبهم ذلا و انكسارا، و اجماعا حولها كالتراب و الحجارة ترذلا و انحسارا «1» و الثاني يعني الأوّل تضمنا، فهم إذا حول جهنم ناظرين حكم أحكم الحاكمين، فإذا ادّاركوا حولها جميعا ركاما بعضهم على بعض ننزع منهم صلاء الجحيم و وقودها، التي يتّقد بها و يحرق سائر اهل الجحيم:

«ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيًّا»:: هنالك أئمة الضلالة و أشياعهم، و لا يختص وقود النار بالأصلاء بل و من الفروع‏ «مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ» لننزعن للوقود «أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيًّا» تمردا و عصيانا، لنجعل وقودا على وقود فنركمه جميعا، «ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلى‏ بِها صِلِيًّا» و الصلى مصدر صلى: الوقود، فمن الوقود ما هو في أصول الجحيم، و هو اولى بها صليا، و منه ما هو في سائر الجحيم و هو دون ذلك صليا: «وَ أُولئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ» (3: 10) ثم لا وقود إلّا من يتقد من فروع الضلالة:

صحيح انها «لا يَصْلاها إِلَّا الْأَشْقَى، الَّذِي كَذَّبَ وَ تَوَلَّى» (92:) 15) و لكنما الوقود ان هما الأشقى بالنسبة لسائر الأشقياء مهما كان الأولون هم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الاول أصله فعول جمع جاثي و هو البارك على ركبتيه- و الثاني عن ابن عباس انه جمع جثوة و هو المجتمع من التراب و الحجارة. و قد يناسبه ما

أخرجه عبد الدين احمد في زوائد الزهد و البيهقي في البعث عن عبد اللّه بن باباه قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): كأني أراكم بالكوم دون جهنم جاثين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 366

اولى بها صليا، فنزع الأشد على الرحمن عتيا ليس لأصل الدخول في الجحيم حيث هي مكان العاتين أجمعين، فليس النزع إلّا لصلاء الجحيم، و لكن ليسوا في صلائهم سواء «ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلى‏ بِها صِلِيًّا»! فهناك وليّ للصليّ و هنالك أولى لها! و آيات الصلي كلّها شاهدة على أنها لا تعني مجرد الدخول في النار و لا سيما آية الأشقى فانها تحصر صليها بالأشقى، فلو أنه الدخول فغير الأشقى إذا- لا يدخلها! وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها كانَ عَلى‏ رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا (71) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا (72):

«وَ إِنْ مِنْكُمْ» خطاب صارم لكافة المكلفين من الجنة و الناس أجمعين، فلا يختص بأصحاب الجحيم إذ ليس منهم المتقون الناجون من الواردين‏ «1» «وَ إِنْ مِنْكُمْ» احد «إِلَّا وارِدُها» دخولا فانه نص فيه، لا مرورا ام قربا مهما عنيا من الورود بقرينة و كما يروى عن الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم)

«لا يبقى بر و لا فاجر إلّا دخلها فتكون على المؤمن بردا و سلاما كما كانت لإبراهيم (عليه السلام) حتى أن للنار ضجيجا من بردهم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 4: 282 اخرج ابن سعد و احمد و هناد و ابن ماجة و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن الانباري و الطبراني و ابن مردويه عن ام مبشر قالت: قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) لا يدخل النار احد شهد بدرا و الحديبية قالت حفصة: أ ليس اللّه يقول: «وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها»؟ قال (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): الم تسمعيه يقول: «ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا»؟

و

فيه عنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قال: من حرس من وراء المسلمين في سبيل اللّه متطوعا لا يأخذه سلطان لم ير النار بعينه الا تحلة القسم فأن اللّه يقول‏ «وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 367

ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا» «1»:

انهم يرونها على سواء

«ثم يصدرون عنها بأعمالهم فأولهم كلمح البرق ثم كالريح ثم كحضر الفرس ثم كالراكب ثم في رحله كشد الرجل ثم كمشيه» «2»

و أحاديث المرور تطرح ام تأوّل لمخالفتها القرآن و السنة «3»:

ف «واردها» و «ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا» و «نَذَرُ الظَّالِمِينَ» شهود صدق على الدخول مهما كان عذابا أو رحمة، فلا عذاب في مرورها، و لا يذر الظالمين مارين عليها، و انما هو الورود للجنة و الناس أجمعين: «:: وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ» (11: 19) و (32: 13) ملي‏ء دون استثناء، و إنما يستثنى، المتقون عن عذابها دون ورودها و ملئها!:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 4: 280 اخرج احمد و عبد بن حميد و الحكيم و الترمذي و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و الحاكم و صححه و ابن مردوية و البيهقي في البعث عن أبي سمية قال: اختلفنا في الورود فقال بعضنا لا يدخلها مؤمن و قال بعضهم يدخلونها جميعا ثم ينجي اللّه الذين اتقوا فلقيت جابر بن عبد اللّه فذكرت له فقال: و أهوى بإصبعيه الى أذنيه- صمتا ان لم أكن سمعت رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يقول: لا يبقى ...

(2)

المصدر اخرج احمد و ابن أبي حاتم و ابن الانباري و الترمذي و الحاكم و صححه و البيهقي في البعث و ابن مردوية عن ابن مسعود في الآية قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): يرد الناس كلهم النار ثم يصدرون ...

(3) مثل ما

في الدر المنثور- اخرج ابن مردوية عن أبي هريرة قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): «وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها» يقول: مجتاز فيها.

أقول لم يقل مجتاز بها- بل- فيها، مما يدل على الورود، فبعض يردها ورود الاجتياز كالمقربين و آخرون يصدرون عنها بأعمالهم‏ «وَ نَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 368

.. و قد تلمح «واردها» دون «يردها» إضافة الى حتمية الورود باسم الفاعل، إلى انسلاخ ذلك الورود عن الزمان فقد يشمل مثلث الزمان يوم الدنيا و البرزخ و القيامة، «إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها» مثلث الجحيم فالدنيا بشهواتها و لهواتها جحيم كما البرزخ و القيامة نتيجة لها، و لكنما الذين اتقوا منّجون عنها، عن بواعثها يوم الدنيا حيث يتقون موجبات النار، و عن كوارثها في برزخها يوم البرزخ و عن نار الخلود يوم الخلود، إذا فهنالك مثلث للورود، مهما كان فيما سوى الأخير ورود الاجتياز لفترة قصرت كما الدنيا أم طالت كما البرزخ، و من ثم ورود في مختلف درجاته او دركاته بمختلف الاستحقاقات و التخلفات! «كانَ عَلى‏ رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا» ف «ربك» و هو في أعلى درجات الربوبية يورد كلا في الجحيم الأخرى كما أوردهم في الاولى، ثم ينجى كلا هناك كما نجي «بالتقوى» هنا، و لكي يرى المتقون سجن المتمردين فتكون لهم حظوة، و يرى المتمردون المتقين فتكون عليهم حسرة، و هذه قضية الربوبية القمة «كانَ عَلى‏ رَبِّكَ» المحتومة بما حلف: «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ»! فقد كتب على نفسه عموم الورود في الجحيم بربوبيته كما «كَتَبَ عَلى‏ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ::» (16: 12) و من الجمع الرحمة قضية الربوبية الجمع في الجحيم! «ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا» و الفترة المستفادة من «ثم» درجات حسب درجات التقوى كما سبق عن الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) «فأولهم» كلمح البرق- و هو منهم- و آخرهم كمشية، و هم أخر من ينجّى مهما بقي ردحا فيها، و إن كثيرا كالخالدين غير الآبدين فيها، ف «ثم» تعم اللّمحة الى الخلود غير الدائب! و لكن:

«وَ نَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا» قد تخرج المعذبين في النار عن المتقين و هذا هو الحق، و بقاء الظالمين يشمل بعد المشية الى الخلود و إلى الأبد، فلا تعني‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 369

«ثم» إلّا اللمحة الى المشية، ثم الباقون هم الظالمون على دركاتهم! و يا ويلنا و نحن كلنا واردوها و هذا يقين، و من هذا الذي يخرج منها و ليس إلّا شكا بعد يقين، اللهم الّا «الَّذِينَ اتَّقَوْا» و لا تنقض اليقين بالشك بل انقضه بيقين مثله، و كما

يروى عن الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): «فقد علمت اني وارد النار و لا أدري كيف الصدور بعد الورود» «1».

و لقد أثرت هذه الآية في أصحاب الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) أثرا بالغا يدهشهم ف «إذا التقوا يقول الرجل لصاحبه هل أتاك انك وارد؟ فيقول: نعم! فيقول: هل أتاك انك خارج؟ فيقول: لا فيقول: ففيم الضحك؟ «2» اجل و ان يقين ورود النار لا يقطعه إلا يقين التقوى المنجية عن النار، و قد بينها الله في كتابه المبين، و نحن كلنا- إلا المعصومين- سوف نردها، و هل ننجوا منها؟ الله اعلم! إذ لا ندري هل تختم عاقبة أمرنا بالتقوى فنموت أتقياء، أم دون ذلك، فعلينا إذا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 4: 282- اخرج ابو نعيم في الحلية عن عروة بن الزبير قال: لما أراد ابن رواحة الخروج الى ارض مؤتة من الشام أتاه المسلمون يودعونه فبكى فقال: اما و الله ما بي حب الدنيا و لا صبابة لكم و لكني سمعت رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) قرء هذه الآية ... فقد علمت ...»

و فيه اخرج ابن المبارك و احمد في الزاهد و ابن عساكر عن بكر بن عبد اللّه المزني قال: لما نزلت هذه الآية ذهب عبد اللّه بن رواحة الى بيته فبكى فجاءت المرأة فبكت و جاءت الخادمة فبكت و جاء اهل البيت فجعلوا يبكون فلما انقطعت عبرتهم قال: يا أهلاه! ما الذي ابكاكم؟ قالوا: لا ندري و لكن رأيناك بكيت فبكينا قال: انه أنزلت على رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) آية ينبئني فيها ربي تبارك و تعالى اني وارد النار و لم ينبئني اني صادر عنها فذاك الذي ابكاني.

(2) الدر المنثور 4: 282- اخرج ابن أبي شيبة عن الحسن قال: كان اصحاب رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) إذا التقوا ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 370

الجهاد الدائب في التقوى مستعيذين باللّه من كلّ شيطان رجيم! و لا تناحر آية الورود آية الإبعاد: «إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى‏ أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ» (21: 101) بل و تناظرها، حيث الإبعاد ليس إلّا بعد الورود أو القرب، و آية الورود تبعدهم عنها بعد الورود، ف «ثم ننجي» تعني ما تعنيه‏ «أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ»- «لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها وَ هُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خالِدُونَ. لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَ تَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هذا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ» (103):

تتلقاهم الملائكة الى الجنة حين ينجّون و يبعدون عن النار، دون ان يسمعوا حسيسها، و دون ان يحزنهم الجحيم، بل و قد يفرحون بما رأوا سجن المتمردين رحمة على رحمة، و كما هي على أهل النار عذاب فوق العذاب! فالنار إذا للمتقين خامدة «1» مهما كانت لأهلها محرقة اللّهم إلّا حينا كلمحة، و هنالك جثو حول جهنم للظالمين و جثو آخر فيها لهم و اين جثّو من جثو:

إن الذين هم اوّل المقذوفين في الجحيم يردون تصلية للجحيم، من أئمة الضلالة و من كل شيعة هم أشد على الرحمن عتيا، و طليعة الصادرين من كل الواردين هم الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و أئمة الهدى و سائر النبيين من المقربين و طائفة من اصحاب اليمين، و بينهما متوسطون من الصادرين و الباقين:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

تفسير الفخر الرازي ج 2 ص 244 عن جابر بن عبد اللّه‏ انه سأل رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فقال: إذا دخل اهل الجنة الجنة فقال بعضهم لبعض أ ليس وعدنا ربنا بان نرد النار فيقال لهم: قد وردتموها و هي خامدة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 371

و ترى لماذا غير الظالمين يردونها حتى ينجّوا منها؟ إن ورودهم فيها لهم حظوة رحمة حيث يرون سجن الظالمين مبتهجين انهم لم يردوها معذبين فانها لهم برد و سلام و للظالمين حرق و إيلام!:

و قد يتحدث المسيح (عليه السلام) فيما ينقله برنابا الحواري عن هذا الورود العام:

أجاب يسوع: يتحتم على كل احد أيا كان أن يذهب الى الجحيم (8) بيد أن ما لا مشاحة فيه أن الأطهار و أنبياء اللّه إنما يذهبون الى هناك ليشاهدوا لا ليكابدوا عقابا أما الأبرار فإنهم لا يكابدون إلّا الخوف (10) و ماذا أقول لكم؟ أفيدكم أنه حتى رسول اللّه يذهب إلى هناك ليشاهد عدل اللّه (11) فترتعد ثمة الجحيم لحضوره (12) و بما أنه ذو جسد بشري يرفع العقاب عن كل ذي جسد بشري من المقضي عليهم بالعقاب فيمكث بلا مكابدة عقاب مدة إقامة رسول اللّه لمشاهدة الجحيم (13) و لكنه لا يقيم هناك إلّا طرفة عين (14) و انما يفعل اللّه هذا ليعرف كل مخلوق انه نال نفعا من رسول اللّه (15) و متى ذهب إلى هناك ولولت الشياطين و حاولت الاختباء تحت الجمر المتقيد قائلا بعضهم لبعض: اهربوا فأن عدوّنا محمّد قد أتى (إنجيل برنابا 126: 7- 15):

ثم في الآيات 17- 21- تصريحات أن ما من مات على دين محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فمصيره إلى الجنة و ان كابد العقوبة للأعمال السيئة و ترك الصالحات فانه بالمال ينتقل الى الجنة بدعاء محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و إن عذب في نار البرزخ و القيامة كما يستحق:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 372

[سورة مريم (19): الآيات 73 الى 80]

وَ إِذا تُتْلى‏ عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً وَ أَحْسَنُ نَدِيًّا (73) وَ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثاثاً وَ رِءْياً (74) قُلْ مَنْ كانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذابَ وَ إِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكاناً وَ أَضْعَفُ جُنْداً (75) وَ يَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً وَ الْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَ خَيْرٌ مَرَدًّا (76) أَ فَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآياتِنا وَ قالَ لَأُوتَيَنَّ مالاً وَ وَلَداً (77)

أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً (78) كَلاَّ سَنَكْتُبُ ما يَقُولُ وَ نَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذابِ مَدًّا (79) وَ نَرِثُهُ ما يَقُولُ وَ يَأْتِينا فَرْداً (80)

وَ إِذا تُتْلى‏ عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً وَ أَحْسَنُ نَدِيًّا (73)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 373

هرطقة نكراء و طنطنة خواء في قولة هراء من الذين كفروا للذين آمنوا في حوار دائبة بتراء تضللهم او تقلل من ايمانهم، و لكنما المؤمن حق الايمان لا يتزعزع بهذه الزلازل، فالمؤمن كالجبل الراسخ لا تحركه العواصف و لا تزيله القواصف! «وَ إِذا تُتْلى‏ عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ» لا يتفهمونها و هم يسمعون، مبتهجين و متبجحين بالقيم المادية الفانية قائلين: «أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ» منا الكافرين و منكم المؤمنين‏ «خَيْرٌ مَقاماً»: قياما في هذه الحياة بوسائلها المتوفرة لدى الناشطين، و قواما فيها، و مكانا لكل قيام و قوام، فمن هو خير في مثلث «قياما» «ثم» «وَ أَحْسَنُ نَدِيًّا»: ناديا لتنادى الشورى‏ «فَلْيَدْعُ نادِيَهُ» في مصالح الحياة! و ناديا لكل أنس و الإتيان بمختلف الشهوات‏ «تَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ» (29: 26)؟

إنهم يرونهم في نوادي فخمة و مجامع مترفة بكل ترف و في كل طرف، و الى جنبهم تلك النوادي المتواضعة و المنتديات الفقيرة، دون أبّهة و لا زينة و كبرياء فيتقولون لهم: «أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً وَ أَحْسَنُ نَدِيًّا» و إذا الايمان باللّه يعجز عن إصلاح الحياة الحاضرة فهو عن إصلاح المستقبلة- لو كانت- أعجز! و من هؤلاء سادة من قريش، قادة الكفر- كالنضر بن الحارث و عمرو ابن هشام و الوليد بن المغيرة و أبي جهل و أبي لهب و إخوانهم المترفين و جاه سادة الايمان، كبلال و عمار و خباب و اضرابهم من المؤمنين المعدمين ف «أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ ..»؟ ذلك! رغم انها حكمة اللّه في صراط الحق ان تظل العقيدة الصادقة مجردة من الجواذب المادية زينة و طلاء و إغرائا، ليقبل عليها من يريدها خالصة لحقها دون زخارفها، و يدبر عنها من يبتغي زينة الحياة الدنيا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 374

هنا يأتي جوابا واقعيا غابرا عن‏ «أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ» لمحة الى مصارع الغابرين:

وَ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثاثاً وَ رِءْياً (74):

إن القرون الهالكة المالكة هي اكثر مما يملكون و «أَحْسَنُ أَثاثاً» الظاهرة، بأحسن منهم مظهرا «و رئيا» إنها ليست قلة منسية، فعاد «وَ ثَمُودَ الَّذِينَ جابُوا الصَّخْرَ بِالْوادِ وَ فِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتادِ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذابٍ» هؤلاء و اضرابهم هم أحسن منهم أثاثا و وسائل العيشة و رئيا: منظرا في أنفسهم و أثاثهم و بيوتهم و ما يملكون، فقد هلكوا بما ملكوا فأي الفريقين خير مقاما و أحسن نديا؟! قُلْ مَنْ كانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذابَ وَ إِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكاناً وَ أَضْعَفُ جُنْداً (75):

«مَنْ كانَ فِي الضَّلالَةِ» غارقا تائها و مضى على ضلالته ردح من الزمن فهو لا يهتدي، أ ترى ماذا يفعل به الرحمن؟! أحملا على الهدى و هو مصر على الردى؟ ام لا يمده في هوى او ردى و كفى به- لو أمكن- استمرارا في الردى! او «فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا» جزاء وفاقا إملاء: «وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ» (7: 183) «وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ» (3: 178) «فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا» الإملال الامهال عمرا و أسبابا، من بنين و اموال‏ «أَ يَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَ بَنِينَ نُسارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْراتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ» (23: 55) مدا لهم في أسباب العذاب ثم مدا في العذاب‏ «كَلَّا سَنَكْتُبُ ما يَقُولُ وَ نَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذابِ مَدًّا» (19: 79)!:

«فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذابَ» قبل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 375

الساعة كتقدمه‏ «وَ إِمَّا السَّاعَةَ» التي هي بداية العذاب الأصيل و هنا او هناك «فسيعلمون» عين اليقين‏ «مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكاناً وَ أَضْعَفُ جُنْداً» و جاه ما كانوا يقولون للذين آمنوا «أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً وَ أَحْسَنُ نَدِيًّا» حيث يرون أنفسهم شرا مكانا رغم ما كانوا يزعمونهم‏ «خَيْرٌ مَقاماً» و كانوا في زعمهم أحسن نديا: نادي الأعوان الجنود و نادي الشهوات، فيرونهم «أضعف جندا! فلا تنفعهم جنود النوادي أيا كانوا بل يضرونهم كما كانوا يضلونهم:

فقد زادوا ضلالا على ضلال في الدنيا ثم هم يوم القيامة من المرذولين، و اما الذين اهتدوا:؟

وَ يَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً وَ الْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَ خَيْرٌ مَرَدًّا (76):

كما هناك مدّ للذين كفروا، كذلك هنا مد للذين آمنوا و اين مد من مدّ: «كُلًّا نُمِدُّ هؤُلاءِ وَ هَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَ ما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً» (17: 20):

فمد الهدى يتبنى هدى قبلها كمدّ الردى‏ «وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَ آتاهُمْ تَقْواهُمْ» (47: 17) و الخير في هذا البين ليس الذي يزعمه الذين كفروا من أثاث و رئي يفنى، بل‏ «وَ الْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَ خَيْرٌ مَرَدًّا» «الْمالُ وَ الْبَنُونَ زِينَةُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ الْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَ خَيْرٌ أَمَلًا» (12: 46) «1»:

الأقوال و الأعمال كلها باقية بما يستنسخها اللّه‏ «إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» و لكنما الباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا» يثوب‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع تفسير الآية في الكهف فلا نعيده هنا الا ما أشرنا اليه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 376

و يرجع الى الإنسان حالا و استقبالا، حيث الثواب هو رجوع الشي‏ء إلى حالته المقدرة المقصودة «وَ خَيْرٌ مَرَدًّا» مكان ردها و زمانه في الجنة يوم القيامة و ما قبلها.

و اما الطالحات الزائلات بشهواتها و لهواتها، الباقيات بخطراتها التي هي لزام فاعليها، إنها شر عند ربك عقابا و شر مردّا، فمن هو إذا خير مقاما و أحسن نديا و أثاثا و رئيا و خير مكانا و أقوى جندا؟ أهم أصحاب الباقيات الصالحات، ام الزائلات الباقيات الطالحات؟! أَ فَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآياتِنا وَ قالَ لَأُوتَيَنَّ مالًا وَ وَلَداً (77) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً (78) كَلَّا سَنَكْتُبُ ما يَقُولُ وَ نَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذابِ مَدًّا (79) وَ نَرِثُهُ ما يَقُولُ وَ يَأْتِينا فَرْداً (80).

«أ فرأيت» استفهام عجاب و استنكار في‏ «الَّذِي كَفَرَ بِآياتِنا» الدالة على توحيد الربوبية و معادها و الرسالة الإلهية بينهما، كفرا بمثلث الآيات آفاقية و أنفسية.

فرغم أنه‏ «كَفَرَ بِآياتِنا» كلها دون إبقاء، يتميع بما يخيل اليه انه يتمتع‏ «وَ قالَ لَأُوتَيَنَّ مالًا وَ وَلَداً» هنا ام في الحياة الأخرى، و انا رابح في الاولى الواقعة، و في الأخرى لو انها واقعة «وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلى‏ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً» (18: 36).

طنطنة حمقاء، و همهمة جوفاء، ويكأن و فرا من المال و الولد هو جزاء الكفر بآيات ربنا! «أَطَّلَعَ الْغَيْبَ» فيما هنا ام هنا «ام اتخذ» هنا لما هنا و هناك‏ «عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً» فلا غيب له مطلع، و لا عهد عند الرحمن فإنهما أو واحدهما لزامهما صلة عريقة مع الرحمن، و قد «كَفَرَ بِآياتِنا» فما قولته الجوفاء إلّا طنطنة خواء و هرطقة هراء و اللّه منها براء:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 377

و انها قولة تكرر من حماقى الطغيان، كأنهم يملكون الكون بمكوّنه، فهم يحاسبون بديل ان يحاسبوا، فكما هم أولاء هنا غارقون فيما يشتهون، كذلك هم في الأخرى- لو كانت- فيما اشتهت أنفسهم خالدون:

و هل ان‏ «الَّذِي‏ .. وَ قالَ» شخص كافر غابر ليخصه التعجيب التأنيب؟ علّه نعم حيث العبارة العامة «الذين .. يقولون»! او علّه لا مهما كان موردا لنزول الآية حيث المورد لا يخصص، ف «لا تكونن ممن يقول في شي‏ء انه في شي‏ء واحد».

و يظهر من «كفر» حادث الكفر بعد الايمان، ام مزيده دون ايمان، فيعم التعرق في الشرك كالذي خاطب خباب بن الأرثّ حين طالبه دينا كان له عليه فأجاب بما أجاب: «موعد ما بيني و بينك الجنة فو الله لأوتين فيها خيرا مما أوتيت في الدنيا» «1» كما يعم ضعيف الايمان الذي كفر حين خيّل اليه ان الكفر يجلب مالا و ولدا! «كلا»! ليس كما يهرف بما لا يعرف «سنكتب» عليه «ما يقول» قولة نكراء و هي وبالة عليه‏ «وَ نَمُدُّ لَهُ» هناك‏ «مِنَ الْعَذابِ مَدًّا» بدلا عن اي مال و ولدا! «وَ نَرِثُهُ ما يَقُولُ» لو اوتي هنا او هناك مالا و ولدا «إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَ مَنْ عَلَيْها وَ إِلَيْنا يُرْجَعُونَ» (19: 40) «وَ يَأْتِينا فَرْداً» دون مال و لا ولد فمم يكون له- إذا- مال و ولد؟!:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). رواه فيمن رواه القمي عن أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) و مثله في معناه في الدر المنثور عن خباب بن الأرت قال كنت رجلا قينا و كان لي على العاص بن وائل دين فأتيته أتقاضاه فقال: لا و اللّه لا أقضيك حتى تكفر بمحمد فقلت: لا و اللّه لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث، قال فإني إذا مت ثم بعثت جئتني ولي ثم مال و ولد فأعطيك فأنزل اللّه الآية.

أقول تخصيص نزول الآية بموردها هذا بعيد، إلا ان يكون من مصاديقها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 378

[سورة مريم (19): الآيات 81 الى 98]

وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (81) كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَ يَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (82) أَ لَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (83) فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّما نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (84) يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْداً (85)

وَ نَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلى‏ جَهَنَّمَ وِرْداً (86) لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً (87) وَ قالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً (88) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا (89) تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَ تَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا (90)

أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً (91) وَ ما يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً (92) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً (93) لَقَدْ أَحْصاهُمْ وَ عَدَّهُمْ عَدًّا (94) وَ كُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَرْداً (95)

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا (96) فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَ تُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا (97) وَ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً (98)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 379

وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (81) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَ يَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (82):

و اذلّاه لمن يتخذ من دون اللّه آلهة ليكونوا لهم عزا، تحطيما لكرم الإنسانية، و تعزيرا للذليل و تقديما له على من خلقه اللّه في أحسن تقويم، كيف يردّ نفسه بتخيّل العز أسفل سافلين.

أ ترى العز في ألوهة الأصنام و الأوثان و الجبت؟ و هي لا تسمع و لا تبصر و لا تغني عن أنفسها شيئا فضلا عن عابديها! ام في ألوهة الطواغيت؟ و قد استكبروا عليهم و حطّوا من كرامة إنسانيتهم حيث استخفوهم و سقّطوهم عن كرامتهم! أم في ألوهة الأولياء من الملائكة و النبيين؟ و هم يرون عزّهم و إياهم في عباده اللّه، و ليسوا هم ليغنوا عنهم من اللّه شيئا إذ «لا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى‏ وَ هُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ»! ام ليعتزوا بهم عند اللّه، «وَ يَقُولُونَ هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ‏ ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى‏»؟ و في ذلك‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 380

مسّ من كرامة اللّه ان يتخذوا سلطانا من دون اللّه ما آتاهم به اللّه، و أن يعبدوا من دون اللّه إزراء بساحة الربوبية، و كيف يصلح المبعد مقربا، ام كيف يطلع البغيض عزيزا! «وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ: لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَ هُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ» (36: 75).

فأين ذلك العز الأعز من الوهة اللّه وحده و عبوديته؟ و هكذا يكون دور من يستند الى غير القرآن و يستعين به تاركا لكتاب اللّه، معتزا بسواه لتعزيز دين اللّه بألقاب براقة مطنطنة، و كلمات عملاقة! هي عن كثير من الحق فاضية خاوية! «كلا» لا عز هنا و هناك ام هنالك، «و هم» الآلهة «سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ»: «فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ وَ قالَ شُرَكاؤُهُمْ ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ::» (10:) 28) «إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ وَ لَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجابُوا لَكُمْ وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ» (35: 14). كما و هم أولاء «سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ» «ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا وَ اللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ» (6: 23):

و هذا من الطف الجمع بين ضميري الجمع، سيكفرون بعبادتهم حيث يعم الكفرين واقعا لا نكير له! ثم «و يكونون» كل «عليهم» على كلّ «ضدا» حيث زيّل اللّه بينهم فظهر الحق عن الباطل و غلب هنالك المبطلون! أَ لَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (83):

إنهم تهزهم تحريكا بشدة و إزعاج هزا، و تحرضهم على الشر حرضا، و لو لم يكن الكافر هزا في نفسه بزا لم يسطع الشياطين ان تهزهم هزا.

و لا يعني الإرسال هنا بعثا إليهم ليضلوهم أكثر مما هم، بل عدم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 381

المنعة عن هزهم، و هو يمنعهم عن هز المؤمنين، و في «على» هنا دون «إلي» لمحة حيث تعني الاستعلاء، فيذرهم اللّه في خوضهم يلعبون و في غيهم يترددون جزاء بما كانوا يعملون‏ «فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ».

فهو- إذا- إرسال «على» و ليس إرسالا «الى» و ليس إلّا جزاء وفاقا حيث كذبوا المرسلين الصالحين إليهم، فأبدلهم اللّه بإرسال الشياطين عليهم تؤزهم أزا.

فليس‏ «يَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا» فقط في الحياة الاخرى، بل و في الاولى إذ تؤزهم أزا و هم يعبدونهم‏ «لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا»! و في «يكونون» هنا و جاه «سيكفرون» لمحة لضدهم في الآخرة و الاولى، مهما اختص كفرهم- إلّا الصالحين- بعبادتهم في الأخرى.

فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّما نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (84):

«فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ» بفنائهم و دمارهم إذ لا يستقلون و يغلبون أمامنا، فلا نمهلهم إلّا عليهم حيث‏ «نَعُدُّ لَهُمْ» سيئاتهم البئيسة و أنفاسهم التعيسة «عدا» كما قدّرنا لهم فالمعدود لهم عدا هو

«كل شي‏ء حتى النفس» «1»

بل‏

«لكنه عدد الأنفاس» «2»

بما تحمل فيها كل نفس ظالمة من كوارث انحاس! «وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ» (3: 178).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور اخرج عبد بن حميد عن أبي جعفر محمد بن علي في الآية: ..

(2)

الكافي باسناده عن عبد الأعلى مولى آل سام قال‏ قلت لابي عبد اللّه (عليه السلام) قول اللّه عز و جل: «إِنَّما نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا» قال (عليه السلام) ما هو عندك؟ قلت: عد الأيام، قال الآباء و الأمهات يحصون ذلك و لكنه عدد الأنفاس.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 382

ليس أمد بقاء الإنسان بتعميره إلّا بلاء حسنا بتعميره ام سيئا بتدميره: «إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» (18: 7).

و ليس قصر المدة ام مدّها إلّا كما قدر لكل نفس في صالحاتها و طالحاتها «وَ لا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ» «فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ» «وَ لَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ» (10: 11):

يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْداً (85) وَ نَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلى‏ جَهَنَّمَ وِرْداً (86) لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً (87):

إن بين الحشر الوفد و السوق الورد بونا شاسعا كما بين المتقين و المجرمين، فالوفد هم القوم الركب الوافدون لزيارة او استنجاز حاجة و قد

«يحشرون على النجائب» «1»

و الورد هم العطاش المتحرون عن تروية لهم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في محاسن البرقي باسناده عن حماد بن عثمان و غيره عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في الآية قال: يحشرون على النجائب.

و

في تفسير القمي باسناده عن عبد اللّه بن شريك العامري عنه (عليه السلام) قال: سأل علي (عليه السلام) رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) عن تفسير هذه الآية قال (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): يا علي! الوفد لا يكون إلا ركبانا أولئك رجال اتقوا اللّه عز و جل فأحبهم و اختصهم و رضي اعمالهم فسماهم اللّه المتقين ..

و روى في حديث آخر تفصيل خروجهم من قبورهم و ركوبهم من نوق الجنة و وفودهم الى الجنة و دخولهم فيها و تنعمهم بما رزقوا من نعمها.

و

في الدر المنثور عن ابن مردويه عن علي (عليه السلام) عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في الآية قال (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): اما و اللّه ما يحشرون على اقدامهم و لا يساقون سوقا و لكنهم يؤتون بنوق من الجنة لم تنظر الخلائق الى مثلها رحالها الذهب و ارمتها الزبرجد فيقعدون عليها حتى يقرعوا باب الجنة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 383

فلا يردون إلّا جهنم ليشربوا من حميمها، هذا لطغواه و ذلك لتقواه حيث اتقى يوم الدنيا عن ورد الجحيم، و هؤلاء طغوا و بغوا فلهم- إذا- ورد الجحيم:

«لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ» ان يشفعوا او يشفع لهم لا أولاء و لا هؤلاء «إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً» و عامته عهد العبودية «أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ، وَ أَنِ اعْبُدُونِي هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ» (26: 61) و ذلك تعم الشافعين و المشفع لهم، ثم و خاصته عهد الشفاعة كشافعين‏ «وَ لا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ» (43: 86):

فلا شفاعة هناك بين العبّاد و المعبودين من دون اللّه، إذ لا عهد لهم اتخذوه عند الرحمن، و قد زال عزهم المخيّل إليهم هناك، كما لم يكونوا لهم عزا هنا «وَ خَسِرَ هُنالِكَ الْمُبْطِلُونَ» «خَسِرَ الدُّنْيا وَ الْآخِرَةَ ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ»! وَ قالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً (88) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا (89).

و اتخاذ ولد للرحمان أيا كان حقيقة او تشريفا، إنه إذ: منكر فضيح فظيع «شيئا» واقعا و لن يكون! ام قولا زورا فلا يهون.

تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَ تَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا (90) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً (91) وَ ما يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً (92):

لو لا أن اللّه يمهل هؤلاء الحماقى الأغباش، لكان تفطّر السماوات و انشقاق الأرض و خرور الجبال هدا: في هدم واقع ساقط- واقعا، إذ هي‏ «كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْواهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً» (18: 50) فإنهم‏ «لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَ زُوراً» «أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً» فانه الخالق‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 384

لكل شي‏ء برحمة رحمانية: فكيف يتخذ ولدا؟ أ بولادة؟ و هو خالق و ليس والدا، ام بتشريف و لا تشريف أعلى من العبودية، و البنوة التشريفية تزييف لساحة الرحمن‏ «وَ ما يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً» إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً (93) لَقَدْ أَحْصاهُمْ وَ عَدَّهُمْ عَدًّا (94).

كلّهم يأتونه عبدا ليوم الدنيا و يوم الدين، طوعا أتوه ام كرها حيث العبودية ذواتهم و صفاتهم و أفعالهم، و مهما هم آتوه هنا بأموال و بنين و سائر زخرفات الحياة زينة لها و ابتلاء فيها، و لكنهم:

وَ كُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَرْداً (95):

«فردا» عن كلما لديهم يوم الدنيا إلّا ما قدمت لهم أنفسهم او عليهم، فهم إذا فرد يومئذ عما كانوا يظنون، و شفع بما لم يكونوا يحتسبون، فويل لهم من فردهم و ويل لهم من شفعهم، إلّا فردا عبدا، و شفعا بعبودية!.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا (96):

إن الإيمان و عمل الصالحات هما في ميزان اللّه محوران اصيلان للودّ الحب، جعلا له قدرهما طول الزمان و عرض المكان، مهما كان ليوم الرجعة و البرزخ و اليوم الآخر عرضه العريض كل حسبه، و لكنما الدنيا ايضا لها نصيب مهما غشيته أية غاشية، فانها تبرز في مواردها حجة للايمان‏ «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»:

و في «سيجعل» الرامية الى مستقبل قريب تلميح مليح بمثلث الأيام، مهما شمل مستقبل الايمان و عمل الصالحات منذ بزوغها و اين مستقبل من مستقبل، و اين ودّ من ودّ؟:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 385

و قد تظافرت اسباب النزول عن الفريقين في قول الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) أنها نزلت في علي (عليه السلام) «1» و هو أعلى منزل لهذه النازلة الفاضلة كتأويل بأعلى المصاديق و أعلى منه الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فانه وده فوق ودّه، فهذا- إذا- تأويل مصداق مختلف فيه في قمة الود، يذكره الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) كأنه فقط ذلك الود و ترفيعا لمنزلته و تثبيتا لمحتده، و هذا لا ينافي في عموم الآية ل «الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ» ككل كما هو منطوقها و قد نطق به الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) «2»:

فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَ تُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا (97) وَ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً (98).

«يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ» لا فقط «بلغتك، فمن العربية ما هي صعب التفهم و من غيرها سهلة، و لكن القرآن العربي اليسر في نفسه بلسان محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) بيانا له و تبيانا، فيه مثلث بارع‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

القمي باسناده عن أبي بصير عن الصادق (عليه السلام) قلت قوله عز و جل‏ «سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا» قال: ولاية امير المؤمنين هي الودّ الذي ذكره اللّه،

و

في الدر المنثور اخرج ابن مردويه و الديلمي عن البراء قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) لعلي (عليه السلام) قل: اللهم اجعل لي عندك عهدا و اجعل لي عندك ودا و اجعل لي في صدور المؤمنين مودة فانزل اللّه الآية ...

(2)

الدر المنثور اخرج الحكيم الترمذي و ابن مردوية عن علي (عليه السلام) قال: سألت رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) عن قوله‏ «سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا» ما هو؟ قال: المحبة في قلوب المؤمنين و الملائكة المقربين، يا علي إن اللّه أعطى المؤمن ثلاثا: المتعة و المحبة و الحلاوة و المهابة في صدور الصالحين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏18، ص: 386

من التيسر، و هذه سنة دائبة للرسل ان يرسلوا بلسان قومهم، لا فقط بلغتهم: «وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ» (14: 4) «فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» (4: 58) فالتبيين بالقرآن و التبشير و الإنذار و التذكار، كل ذلك على ضوء مثلث التيسير تأخذ مسيرها في العالمين كأوضح ما يمكن بيانا للقرآن العظيم، الذي «فيه تبيان كل شي‏ء» حاويا كافة المعارف الممكن التعرف إليها وحيا الى البشير النذير، تبشيرا للمتقين و إنذارا لقوم لدّ لا يؤثر فيهم التبشير «وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ».

«يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ» بعد ان كان عسيرا في ام الكتاب: «إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ» (43: 4) تيسيرا للمحكم بتفصيل، و تيسير ثان تفصيله باللغة العربية، و ثالث تفسيره ببيان الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) تبينا للقرآن بنفسه إذ يفسر بعضه بعضا، و تبيينا ثانيا بسنته.

«وَ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ» جماعات في قرون مضت قرن بعض و تلوه‏ «هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ» أثرا «أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً» صوتا، فلا صيت لهم و لا صوت، و انما موت دون فوت.